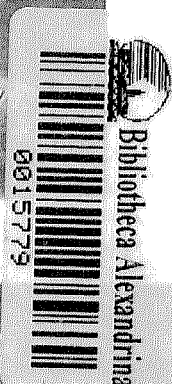




د. سمیر احمد معلوف

سيرة الفقه بين الحقيقة والمجاز



دراسة

حيوية اللغة بين الحقيقة والمجاز

د. سمير أحمد معلوف

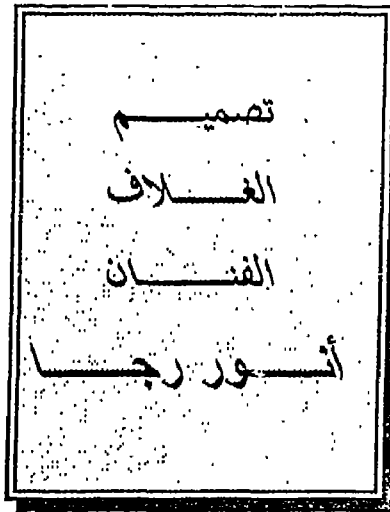
حيوية اللغة بين

الحقيقة والمجاز

(دراسة في المجاز الأسلوبى واللغوى)

منشورات اتحاد الكتاب العرب

١٩٩٦



حقوق الطبع والترجمة والاقتباس
محفوظة لاتحاد الكتاب العرب

مقدمة

لكل لغة خصائص تميزها ، وسمات الفرائقها عن غيرها ، وتمنحها القدرة على الحياة والاستمرار ، وتمنع غائلة الانحناء والذوبان في اللغات الأخرى ، وتعمّر اللغات وتطول حياتها بقدر ما تملك من خصائص وسمات: مفردة .

ولقد كانت اللغة العربية واحدة من اللغات الإنسانية الحية ، حافظت على خصائصها وميزاتها على ما أصاب الناطقين بها من تقلبات الزمن ، وما اعتري مجتمعهم من تغير ، وما وفد إلى أذهانهم من علوم وفنون ومؤثرات .

واستطاعت هذه اللغة أن تلبي حاجات الإنسان العربي في صحرائه حيث نشأت ، فسُميت بها المسميات ، وصارت رموزاً للمعاني ، وأداة للتفاهم ، واستوعبت الشعر العربي ، وهو ديوان العرب ومجلى حياتهم ، ومستودع أفكارهم ، والمعبر عن أحاسيسهم ، والبيان عن عاداتهم وتقاليدهم . وازدهر بها فن القول العربي ، وصل إلى مرتبة عالية من الاتقان والجودة لما جعله موضع اعتزازهم وفخرهم .

ولما نزلت إلى الأرض رسالة السماء ، وبدأت الدعوة الإسلامية ، كانت العربية أداة الرسالة بها نزل القرآن الكريم ، فانتقلت من لهجات مفرقة إلى صيغة كلامية ودلالية موحدة ، وأصبحت لسان الدين والحياة .

وتحوّل اعتزاز القوم بلغتهم إلى عمل يمارسونه ليسينوا حقيقتها ،
ويظهروا عظمتها ، فبدأت دراستها ، وقد أكتملت بين يدي الباحث أسباب
الدرس والتعقيد ، فالدين الإسلامي يدعو إليه ، وطبيعة المجتمع الجديد
أصبحت مهياة له .

وقد أبانت هذه الدراسات منذ بدأت عن فكر واحد يوجّه الأذهان
إليه ، ويقود المناهج نحوه . إنّه المنهج التحليلي الذي كان مرّده في بداية
النشأة إلى سعي الناس إلى فهم النص القرآني الكريم ، فأصبح هذا المنهج على
مرّ العصور ممّا يميّز الدراسة اللغوية العربية ، وقد أغناه الباحثون جيلاً بعد
جيل ، فتهيّأت له أسباب القوة ، وتوضحت معاييرها ، وكان الطريقة العلمية
لاستنباط القواعد من النصوص .

ويطالعك هذا المنهج في كل جانب من جوانب الدراسات العربية ،
فهو منهج اللغويين ، والمفسّرين ، والبلاغيين ، لذلك كانت دراسة الفكر
اللغوي العربي في حقيقة الأمر اتجاهاً إلى دراسة هذا المنهج السدي بعدة قساعدة
البحث اللغوي العربي

ومن أهم ميزات هذا المنهج أنّه ينتصر للنصّ ، ويسأخذ به موضوعاً
للبحث ، فيحلّله ويفهم خفاياه ، ويدرس وظائف مفرداته ، ودلالاتها ،
ومشكلاتها المعنوية في السياق اللغوي الذي وضعت فيه .

وقد كشف الدارسون جانباً من أهم جوانب اللغة العربية ، وهو أنّها
لغة تتسم بالحياة ، وأنّها قادرة على أن تعبّر بدقة عن الواقع الذي يحيط
بالإنسان ، كما أنّها لغة الفكر الذي يدرك الواقع ويركّب جزئياته ، فإذا بها
بما قلّك من إمكانيات في تحوّل الدلالات ، ومقدرة على أن تشفّ ألفاظها
عن المعاني لغة الحياة ، ولا يمكن للغة ما أن تكون كذلك إن لم تتصف بالقدرة
على التعبير عن الفكر الإنساني المتشعّب والغامض ، وعن تجربة الإنسان مع
الواقع .

ولما كانت مشكلة (الحقيقة والجزاز) واحدة من أعقد المشكلات اللغوية ، ومن أصعبها فهماً فقد تشعبت فيها الأقاويل ، وكثرت حولها الدراسات ، وما زلنا إلى يومنا لمجد من يشغل بها وقته ، وهو يحاول أن يجمع أطرافها ، ويلمّ شعنتها .

وقد استطاع الدارسون القدامى أن يضعوا لهذه المشكلة قواعدها ، وعياً منهم أنها صلب اللغة ، ومدار الكلام بين الناس ، فبالجزاز يهتزون عن كل ما هو جميل وغامض في آن معاً ، وبه ينقلون مشاعرهم ، ويصورون طبيعة علاقتهم بالواقع ، ولا نعدو الصواب إن نحن قررنا أن الجزاز صورة للفكر الإنساني ولعلاقته بالواقع حوله .

ونبين أهمية ثنائية الحقيقة والجزاز من تفريغ الكتب التي احتوت دراسات حولها ، فقد كانت جميع الدراسات اللغوية وما يتصل بها بسبب نهج فيها ، وتؤكد وجودها بوجه أو آخر . وإذا ما أدركنا العلاقة بين المنهج التحليل والدراسات اللغوية اقتنعنا أكثر أن جميع هذه الدراسات كانت دراسات أسلوبية تبين طرائق المتكلم في كلامه مستعملاً اللغة وقواعدها ، وسبل صناع النص فيما يصنعه من نصوص اعتماداً على أساليب اللغة وطرائقها .

وقد اقتضت أساليب المنهج التحليلي بكل صوره ، البحث عن المعنى الأصلي وراء الصيغة الكلامية ، فبات بذلك أساليب الكلام وصور العدول عن الظاهر إلى ما هو خلاف مقتضى الظاهر ، وتحول الدلالات في التركيب والمفردة داخل النص .

وكان هذا مبتدأ البحث الجزازي اللغوي عند العرب ، وقد أعملوا فيه مناهج متعددة تؤول كلها إلى المنهج الأم ، وهو التحليل ، فكان لديهم التفسير والتأويل منهجين محكمين حللوا بهما النص القرآني الكريم والنصوص الشعرية والنثرية الأخرى .

وقد حاولت في هذه الدراسة أن أثبتن ملامح المنهج التحليلي وتفرعاته ، وأن أظهر قيمة دراسة الأسلوب على أنه من تجليات الكلام

الإنساني ، ومن صنع الفرد ، على حين تعدد اللغة جزءاً من المنظومة الاجتماعية العامة .

واخذت لهذا الأمر طرائق مختلفة ، أهمها أنني اعتمدت منهج التحليل نفسه ، فاتجهت في دراستي إلى تحليل النصوص القديمة ، واستنباط أفكارها ، وبناء التصورات ، مما يوحي به النص أو يدل عليه ، من غير أن أغفل تماماً الاتجاه التاريخي في النظر إلى الظاهرة اللغوية أو الفكرة المدروسة ، ذلك أن هذا الاتجاه يسهم في تبيان كثير من الظواهر ويساعد على فهم تطورها .

و كانت أعمامي أبحاث عديدة درست الجاز ، وقد ألفت منها كثيراً ، ولم أغفل اختلاف أهدافي عن أهدافها ، وتباين طرائقي عنها ، لكنها أمدتني بكثير من الأفكار التي أثرت البحث ، وأضاءت كثيراً من جوانبه وسهلت الطريق إليه .

و كان أهم هذه الدراسات كتاب الدكتور عبد الحكيم راضي (نظرية اللغة في النقد العربي) و كتاب الدكتور محمد بدري عبد الجليل (الجاز وأثره في الدرس اللغوي) ، غير أنه تبين لي بعد قراءتهما أنهما ينتهجان مسيلاً غير الذي أسلكه ، فقد أقام الدكتور عبد الحكيم راضي دراسته على قاعدة أن اللغة فيها مستويان من الكلام : المستوى العادي والمستوى الفني ، وكانت دراسته تدور حول الفكرة لتدعيمها وتؤسس قواعدها في الدراسات العربية ، بيد أنه جعل مدار عمله النظرة الغربية المعاصرة التي تذهب إلى أن الجاز انحرف عن المستوى العادي في الأسلوب واللغة ، ولا ريب أن الباحث قد أحكم دراسته وخرج بنتائج جيدة منها . أمّا الكتاب الثاني ، وهو (الجاز وأثره في الدرس اللغوي) فكان دراسة غزيرة المصادر إلى حد أننا يمكن أن نقول : إن الباحث قد أرقى بحثه بها ، فصاع بين ما نقله منها ، ولم يعد يظهر إلا في طريقة تنسيق النقول منها ، وقد تساندت دراسته إلى فكرة أن الجاز في اللغة يقوم على قواعد وقوانين لابد للفهم من درسيها ووضعها في مكانها من

التفكير الإنساني عامة والعربي خاصة ، لكنه فرّع على البحث ، ودرس كثيراً من إشكالات المجاز الجزئية ، ومن الانحراف في تطبيقه على النصوص .

ولا ريب أن هناك دراسات أخرى أفادتني ومهدت أسلمي السبيل ، مثل رسالة الماجستير التي قدّمها جمال قبّاني إلى قسم اللغة العربية بعنوان (المجاز والنقل) ، بإشراف الاستاذ الدكتور مسعود بوبو ، وكتاب التفكير البلاغي عند العرب لحمادي صمود ، وغيرها من الدراسات التي أشرت إليها في ثبّت المصادر والمراجع .

لقد أقمّت دراستي على منهج مغاير ، لأنني أردت بحث (حيوية اللغة) ، وأعني بذلك ما تتصف به اللغة العربية من صفات (الحياة) ، وتعني حياتها إحساس دارسيها بأن اللفظ داخل النص يعيش بشخصيته الخاصة ، فتظهر دلالاته فيه ، وكان هذا مدار عمل الدارسين العرب القدامى . إنهم كانوا يبحثون داخل النصوص عن مظاهر حياة الألفاظ ، كما تعني حياة اللغة صلاحها للتطور والتجدد ومواكبة التغير في الفكر والحضارة .

ولما كان النصّ أو الكلام أساس البحث اللغوي العربي فقد اتجهت إلى دراسة ما قرّره علماء العربية ومفكروها من قواعد للأسلوب العربي ، وما استنتجوه من مفاهيم تبين طرائق العرب في صياغة كلامها ، وصنع أساليبها . ولما كانت مسألة الحقيقة والمجاز تقع في صلب الدراسات الاسلوية العربية فقد وجهت دراستي إلى هذه الثنائية وجعلتها قاعدة أستند إليها في دراستي للأسلوب العربي كما تجلّى في كتب المتقدمين .

وقد كانت المهمة شاقة عسيرة ، لان دراسة الأسلوب العربي ، والحقيقة والمجاز ، ومناهج البحث اللغوي العربي يصعب جمعها في بحث واحد ، لأنهما أشتات مبعثرة ، أخذ منها النحاة بطرف ، وكذلك فعل اللغويون والمفسرون والبلاغيون والفلاسفة وعلماء أصول الفقه وغيرهم من

الدارسين والمفكرين العرب ، فتشعبت المصادر وتوزعت ، وقد أسعفتني في الحفاظ على وحدة الموضوع وضوح الهدف ، فكنت أختار من هذه الدراسات ما يعينني على السير قدماً إلى ما أريد ، وإن كان العثور على المراد يطول زمنه أحياناً ، ولم أكن أكتفي بالإشارة إلى ما قاله القدماء في بعض المسائل ، بل كنت أضيف إليه آراء المعاصرون ، يقيناً مني أن إضاءة مثل هذه المسائل بآرائهم تبين مرادها ، وتضعها في سياقها من الفكر الإنساني ، وتضيف إليه وتحل بعض معضلاته ، فتحصلت في بذلك صورة للبحث على النحو الآتي :

١ - الفصل الأول : درست فيه كلمة (اللغة) من حيث نشأتها وتطورها ، ودلالاتها وحدودها ، وعرفت القاريء جهود علماء العربية في صياغة مصطلح دالّ على موضوع بحثهم ، ومن ثمّ درست علاقة اللغة بالكلام وتمييزها عنه ، وبيّنت آراء العلماء العرب في هذه المشكلة التي أصبحت واحدة من أهم مشكلات علم اللغة الحديث ، وكان مرادني من ذلك تبيان وجهة النظر العربية في هذه المسألة ، وطرائق العرب في بحثهم ، وتصوّرهم لها وفق خصوصية اللغة العربية بوصفها لغة الدين والحياة .

٢ - الفصل الثاني : جعلت هذا الفصل خالصاً لدراسة مشكلة (الحقيقة اللغوية) ، وبحثت فيه وجهة النظر العربية القائمة على تحليل التركيب والمفردات في مسألة الحقيقة اللغوية ، وعلاقة اللغة بالواقع ، وصلتها بالفكر ، وبيّنت تعريفات القوم لمسألة الحقيقة ، وتصوّرهم لقضية تعرية النصّ من المجاز والبحث عن الأصل والمعنى المرتكز في النفس ، على أنه الحقيقة التي ابتداء منها الكلام .

٣ - الفصل الثالث : كان هذا الفصل واسطة العقدة ، جمع إليه ما تقدم عليه وما تأخر ، فوصل البحث في اللغة ودلالاتها وتفرعاتها والحقيقة اللغوية بأبحاث الجاز ، فدرست فيه مظاهر حيوية اللغة مما يظهر حياتها من حيث

بنيتها الداخلية كما تجلّت في الاشتقاق والتضمن والتحوّل الدلالي والمصطلحات وغيرها ، وأردت أن أكشف عن خاصيّة اللغة العربية ، وهي أنها لغة حيّة بفضل طبيعتها الخاصّة وقدرتها على مواكبة الفكر الإنساني وتطوّره ، مما يهيء للبحث في المجاز .

ـ الفصل الرابع :

بيّنت في هذا الفصل قواعد فهم النصّ أو الكلام من خلال التفسير والتأويل ، وطرائق الباحثين في تحليل النصوص ، وهي الطرائق التي أوصلتهم إلى معرفة قواعد الأسلوب العربي ، ومشكلات التحوّل الدلالي في التركيب والمفردات داخل النص ، ثم جعلت ذلك كلّهُ متساقطاً دراسة أبي عبيدة في كتابة (مجاز القرآن)

وقد اتخذته مثلاً للتحليل النصّي باتجاه أسلوبه مجازي ، لأنه أول مصنّف يحمل اسم المجاز على أنه صورة الأسلوب العربي ، لذلك أقيمت لهذا الفصل (المجاز الأسلوب) ، ودرست فيه أهم قواعد هذا المجاز كما تصوّرها أبو عبيدة .

ـ الفصل الخامس :

درست فيه كيفية تحوّل الدرس المجازي من المجاز الأسلوب إلى المجاز اللغوي ، وطبيعة الانتقال من دراسة النصّ إلى دراسة المفردة ، والاستغناء عن منهج التحليل بمنهج التقعيد والحدود ، فبيّنت طبيعة دراسة المجاز اللغوي داخل النصّ عند أصحاب منهج التحليل ، وأظهرت أنهم عرفوه ، وأبانوا مظاهره دون أن يفردوه بالبحث ، ثم درست أهم أعلام الدراسات الأسلوبية والبلاغية العرب ، من بلاغين ولغويين ومفسّرين وفق تتابع تاريخي ، فدرست أفكار الجاحظ في المجاز اللغوي ، وكذلك آراء ابن قتيبة وابن جنّي وابن فارس ، وختمت الفصل بوضع صورة لقواعد المجاز كما تجلّت لدى

البلاغيين، وجعلت عبد القاهر الجرجاني مدار الموضوع ، لأنه الواضع الأول للقواعد النهائية للمجاز اللغوي .

تلك صورة البحث ، وفيها يتجلى ناظمه ، وتتضح قواعده ، وقد أقمت ذلك كله على أساس أن دارستنا للمجاز لا تصح بغير النظر إليه على أنه صورة للفكر العربي ، وأنه جزء من طبيعة هذا الفكر ، سواء من حيث إبداعه أم من حيث دراسته ، فلاحظت في البحث وحدة الفكر العربي وتماسكه ومحاولات علماء كل جيل إثراءه .

وبعد ، فلابد لي أن أشكر الأصدقاء الذين كانوا نعم المعين لي وأنا أجز هذا البحث ، وأخص منهم بالذكر الأستاذ الدكتور مسعود بوبو والأخ الدكتور عبد الإله نبهان والأخوين مظهر الحجي ومحمد فرحان الطرابلسي ، فإنهم جميعاً لم يدحزوا وسعاً في تقديم يد المساعدة والعون .

والحمد لله أولاً وآخراً . أسأله تعالى المغفرة عبد الزليل والتوفيق إلى مايرضيه .

الدكتور

سمير أحمد معلوف

الفصل الأول

اللغة

١ - دلالة اللغة وحدها :

تتبدل دلالة بعض مفردات اللغة ، وتتغير من عصر إلى آخر ، ويتم ذلك بتأثير عوامل متباينة ، فقد تنتقل دلالة المفردة من العام إلى الخاص ، وقد يكون الانتقال بطريقة مغايرة ، فتتحول الدلالة من الخاص إلى العام . وفي مفردات اللغة أمثلة كثيرة على هذا التبدل والاختلاف^(١)

وكلمة « اللغة » من هذه المفردات التي تبدلت دلالتها ، وكان ذلك بسبب الحاجة إلى المصطلح العلمي الذي يدل على بعض الظواهر ذات الصلة باللسان العربي ، ويلاحظ أن تغير دلالة كلمة « اللغة » لم يتم في فترة زمنية قصيرة ، وإنما جرى عبر زمن مديد .

وللبحث في هذا التغير الدلالي فائدة جلّى ، لأنه يكشف بوضوح طبيعة البحث اللغوي منذ نشأته ، ويبيّن بجلاء العلاقة بين مصطلحات متعددة قد تستعمل بمعنى واحد كاللغة والكلام ، وتبيان هذه الفروق يلحظ الطريق لدراسة الفرق بين قوانين اللغة وتصرف الناطقين بها بما يزيد هذه اللغة حياة ويملؤها تجددًا .

ولقد ذهب بعض الباحثين المعاصرون إلى أن كلمة « اللغة » لم

تكن مستعملة في القديم بالمعنى الذي نعرفه اليوم ، حيث قال :
« ويظهر ان العرب القدماء في العصور الجاهلية وصدر الإسلام لم
يكونوا يعبرون عما نسميه نحن « باللغة » إلا بكلمة « اللسان » ،
تلك الكلمة المشتركة اللفظ والمعنى في معظم اللغات السامية
شقيقات اللغة العربية » « ٢ » .

والحقيقة أن القرآن الكريم لم ترد فيه مادة « ل. غ. و » . بمعنى
« اللغة » ، وإنما استعمل في مكانها كلمة « اللسان » . أما « لغو »
فقد وردت فيه بمعان أخرى ، وكذلك جاءت في الحديث النبوي
الشريف ، عدا حديث شريف شرح الخليل كلمة « لغا » التي
وردت فيه بـ « تكلم » ^(٣) .

ونلجأ إلى معجم الخليل بن أحمد الفراهيدي « ١٧٥ هـ »
نقترى ما فيه باحثين عن الأصول الأولى لمادة « ل. غ. و » فهو أقدم
معجم عربي منظم ، وصانعه مؤسس علم العربية الحقيقي ، وعلى
يديه تتلمذ علم العربية سيويه ، فأقوال الخليل ستكون الأصل الذي
يبني عليه من بعد

أورد الخليل في « العين » معاني متعددة لمادة « ل. غ. و »
لكنها معان لا تفتأ تتصل بالكلام ، وكأن مادة « لغو » تبع له
تخصصه ، وتدل على نوع من أنواعه .

وهذا الاتصال بين « لغو » و « الكلام » سيواجهنا أيضاً في
المعاجم المتأخرة ، كاللسان لابن منظور « ٧١١ هـ » ، لأن هذه
المصنفات اعتمدت أصولها على ما جاء به الخليل أو من أقام عمله
على جهد الخليل وآرائه ومذاهبه ^(٤) .

جاء في معجم الخليل في تفسير مادة « ل. غ. و » ما يأتي
مرتباً وفق وروده في المعجم ^(٥) : « اللّغة واللّغات واللّغون :
اختلاف الكلام في معنى واحد » ^(٦) .

- لغا يلغو لغواً يعني : اختلاط الكلام في الباطل . وقول الله عز وجل «وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراماً» ^(٧) . أي بالباطل ^(٨) .
- وقوله تعالى : «والغو فيه» ^(٩) ، يعني رفع الصوت بالكلام ليغلطوا المسلمين ^(١٠) .
- وفي الحديث : « من قال في الجمعة والإمام يخطب : صه فقد لغا » ، أي : تكلم ^(١١) .
- ألغيت هذه الكلمة ، أي : رأيها باطلاً ، وفضلاً في الكلام وحشواً ، وكذلك ما يلغى من الحساب ^(١٢) .
- وفي الحديث : «إياكم وملغاة أول الليل» . يريد به «اللغو» ^(١٣) .
- و «لاغية» في قوله تعالى ﴿ولا تسمع فيها لاغية﴾ ^(١٤) كلمة قبيحة ^(١٥) .
- إن في نصّ الخليل أمرين يحسن الحديث فيهما الوصول إلى تعرف دلالة «اللغة» .
- أحدهما : أنَّ «اللغو» ، وما يشتق منه من «لغا ويلغو وملغاة ولاغية» قد ورد بمعنيين ، أولهما خاص والآخر عام ، فهو بمعنى «الباطل» أو «رفع الصوت بالكلام ليغلطوا المسلمين» ، وهي كلها صفات للكلام غير مستحبة .
- وذكر الخليل معنى آخر عاماً لهذه المادة دون أن يخصه بأمر ما ، فقد فسّر «لغا» الذي ورد في الحديث الشريف بأنه «تكلم» ، ولم يضيف إلى الكلمة ما يخصها .
- وذهب الكسائي إلى أن «لغا في القول يلغى» ، وبعضهم يقول : يلغو ، ولغى يلغى ، لغة ، ولغا يلغو لغواً : تكلم ^(١٦)

ويتضح الخلاف في معنى «لغا» الذي يردّ إلى الخاص والعام في تفسير الحديث النبوي الشريف الذي أورده الخليل . فقد جاء في اللسان أن «لغا» معناها «تكلم» ، وأضاف : «وقال ابن شميل : فقد لغا ، أي فقد خاب» ^(١٧) . ويزيد إلى ذلك حديثاً نبوياً آخر فيقول : «وفي الحديث : مَنْ مَسَّ الْحَصَا فَقَدْ لَغَا» ^(١٨) .

ثم يفسّر «لغا» بقوله : «أي تكلم ، وقيل : عدل عن الصواب ، وقيل خاب» ^(١٩) . ولكنه يعود فيرجع المعنى الأول فيقول : «والأصل الأول» ^(٢٠) . ويظهر هذا الترجيح في تفسيره كلمة «اللغو» ، فهو ينص على أن «اللغو» «النطق» ^(٢١) .

فمادة «اللغو» في أصلها ذات صلة بالكلام ، فهي أمّا أن تدل على صفة من صفاته فتخصّصه ، وإما أن تدل عن الكلام نفسه ، وهذا سيسمح لها بالتبدل لتحمل عند أصحاب «اللغة» والأصول معاني أكثر عموماً ممّا هي عليه .

الثاني : إن الخليل فسّر «اللغة» بأنها «اختلاف الكلام في معنى واحد» ، وقد نقل ابن منظور عن التهذيب للأزهري ما يبيّن هذا الاختلاف . قال : «التهذيب : لغا فلان عن الصواب وعن الطريق إذا مال عنه ، قاله ابن الأعرابي ، قال : واللغة أخذت من هذا ، لأن هؤلاء تكلموا بكلام مالوا فيه عن لغة هؤلاء الآخرين» ^(٢٢) وكلا الكلامين «كلام الخليل والأزهري» عام لا يدل على المقصود منه تخصيصاً ، لكن وضعهما في سياق تفكير الخليل واللغويين العرب قد يخصّص دلالتهما ، فالخليل والأزهري وابن الأعرابي لا يبحثون في هذا الموضوع في اللغات الانسانية ، لأن هذا ليس وكدهم ، ولكنهم يتحدثون عما هو أضيّق من ذلك ، فهم حملة لغة ، ودارسون لهذه اللغة ^(٢٣) وهي العربية . وقد توجه اهتمام هؤلاء اللغويين إلى هذه اللغة دون غيرها ، فهم يرون أنه

عندما يختلف أبناء اللغة الواحدة أو يميلون عن كلام غيرهم فإن اختلافهم أو ميلهم ليس عن لغة قوم آخرين ، بل هو طريقة نطق أو صياغة يتخذونها ضمن اللغة التي يتكلم بها قومهم ، وهذا ما يمكن أن نسميه «اللّهجة» ثم إن الخليل نفسه فسر «اللّهجة» باللغة في معجم العين حيث قال : «ويقال : فصيح اللّهجة ، واللّهجة ، وهي لغته التي جُبل عليها فاعتادها ، ونشأ عليها»^(٢٤) . والمقارنة بين تفسيره «اللغة» و «اللّهجة» تبين أن مقصده من «اللغة» أضيق مما يمكن أن يفهمه قارئ مُحَدِّث لم يصنع ماقاله الخليل في مرحلته الزمنية . وسوف تبتدئ العلاقة بين «اللغة» و «اللّهجة» بالانفصال في العصور التي تلت مرحلة الخليل ، وسيصبح لكل من اللفظين معناه الذي يحدده السياق الذي يوضع فيه ، فإنّ مستعمل كلمة (اللغة) ، في ذهنه مفهومها. سيفصل بين هذين المفهومين من خلال سياق كلامه .

لقد كان عمل اللغويين العرب يقوم على مراحل متتابعة ، فقد بدؤوا بجمع اللغة من أفواه الناطقين بها وتسجيلها ، ثم اتجه هؤلاء اللغويون ، ومن أخذ عنهم إلى التنظيم والتبويب ، وهي أولى خطوات الدراسة العلمية المنهجية ، ولما اكتمل موضوع البحث أعملوا فيه الدرس^(٢٥) .

يحتاج الدارس في مرحلة البحث إلى المصطلحات ، ويتبدئ بتخليص المعاني بعضها من بعض ويستعمل بعض المفردات في دلالتها الأولى التي تصور لها ناطقوا اللغة ، لكنه يحتاج من بعد إلى استعمال هذه المفردات بدلالات أوسع^(٢٦) .

وهذا في نظرنا - ما كان من أمر «اللغة» ، وهي كلمة دلت على «اللّهجة» عند الخليل ، ثم لاحظ الدارسون أنها تصلح لأن تكون مصطلحاً يمكن استعماله للدلالة على الخصائص الصوتية

والاعرابية وغيرها من تلك التي تقوم عليها العربية بلهجاتها المختلفة. ويبين هذا الأمر النظر في معنى «اللهجة» وسماتها كما فهمها الدارسون المتقدمون مما يسوغ نقل دلالتها إلى «اللغة العربية» .

عرف المعاصرون اللهجة بقولهم : «واللهجة في الاصطلاح العلمي الحديث: هي مجموعة الصفات اللغوية التي تنتمي إلى بيئة خاصة ، ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد البيئة» ^(٢٧) ويتفق هذا التعريف مع مقالته الخليل ، فهو يرى في خصائص اللهجة اختلافاً في الكلام بين قبيلة وأخرى أو بين حي وآخر ، وهذا - لا ريب - نتيجة لاختلاف بيئة هذه القبيلة عن تلك ، فقد تميزت لهجة هذيل بانتماء خصائصها إلى الأرومة الحجازية التي خرجت منها هذه القبيلة ، غير أننا نلاحظ فروقاً عديدة تفرقها عن هذه اللهجة ، مما يجعل لهجة هذيل تتفرد ببعض الظواهر اللهجية ، وربما كان هذا عائداً إلى تفرق وتباين مساكن القبائل الحجازية مما جعل ألسنتها تتغير تبعاً لتغير البيئة والحياة ^(٢٩) .

فإذا كان هذا شأن لهجة هذيل - وهي جزء من الأرومة الحجازية - مع لهجة الحجاز ، فما بالك باللهجة الحجاز وتقيم ؟ إنهما ستحملان فروقاً لهجية أوسع ^(٣٠) ، بها تميز احدهما عن الأخرى .

بيد أن هذا التمييز لن يبعدهما معاً عن «اللغة» المشتركة ، وهي «العربية» التي تؤلف خصائصها ما اتفقت عليه اللهجات العربية مجتمعة ، وافتراق اللهجات في خصائصها اللغوية لا يمنع أن ترجع كلها - فيما اختلفت فيه - إلى المعاني الواحدة التي تريد التعبير عنها بأساليبها ، وهذا ما عرّف عنه الخليل في قوله : «اللغة : اختلاف الكلام والمعنى واجد» .

وقد استعمل سيويه كلمة «اللغة» في معنى «اللهجة» في مواضع متعددة من كتابه ، من ذلك ما ذكره في باب : «هذا مأجري مجرى ليس في بعض المواضع بلغة أهل الحجاز ثم يصير إلى أصله»^(٣١) . «ومثل ذلك قوله عز وجل ﴿ما هذا بشراً﴾»^(٣٢) في لغة أهل الحجاز ، وبنو تميم يرفعونها إلا مَنْ درى كيف هي في المصحف»^(٣٣) .

إن المقارنة بين التركيبين الحجازي والتميمي تكشف نظرة التحليل وسيويه إلى اختلاف الكلام مع الإبقاء على معنى واحد ، فالحجازيون يعملون «ما» ، «فيشبهونها بليس إذ كان معناها كمعناها»^(٣٤) أمّا بنو تميم «فيجرونها مجرى أمّا وهل أي لا يعلمونها في شيء وهو القياس ، لأنه ليس بفعل وليس «ما» كليس ، ولا يكون فيها اضممار»^(٣٥) . ولكن «ما» في كلا التركيبين تبقي نافية سواء شبهت بالحرف أم شبهت بالفعل «فإن دخلت على الجملة الإسمية أعملها الحجازيون والتهاميون والنجديون»^(٣٥) ولم يُعملها التميميون ، وبقي أثر هذه اللهجة في القراءات القرآنية ، فقرأت الآية الكريمة ﴿ماهن أمهاتهم﴾^(٣٦) برفع «أمهاتهم» على التميمية^(٣٧) . وجمع سيوية كثيراً من الاختلافات اللهجية ، منها ما كان على مستوى الإعراب كما مرّ في الآية الكريمة ﴿ما هذا بشراً﴾ ، ومنها ما هو على المستوى الصرفي ، كما في مسألة «قيل ، وبيع» . جاء في الكتاب «وبعض العرب يقول : خيف ، وبيع وقيل ، فَيُشَمُّ إرادة أن يبين أنها «فعل». وبعض من يضم يقول : بُوع وقول وخوف وهوب ، يتبع الباء ما قبلها كما قال : مُوقن»^(٣٨) .

ومن هذه الاختلافات ما كان على المستوى الصوتي . من

ذلك ماجاء في باب «هذا باب اختلاف العرب في تحريك الآخر ، لأنه لا يستقيم ان يُسَكَّن هو والأول ، من غير أهل الحجاز»^(٣٩) .

ومن هذا الباب قوله : «أعلم أنَّ منهم من يحرك الآخر كتحرريك ما قبله ، فإن كان مفتوحاً فتحوه ، وإن كان مضموماً ضموه ، وإن كان مكسوراً كسروه ، وذلك قولك : ردّ وعضّ وفرّ يافتى ..»^(٤٠) وهذه المستويات اللغوية قد تتأثّر باللهجة واحدة من لهجات العرب ، فتصبح لغة مصغرة وتتضح المسألة إذا ما بحثنا في لهجة من اللهجات العربية ، ولتكن لهجة «هذيل» ، فنحن واجدون فيها هذه المستويات اللغوية كلّها مما يسوغ جعلها لهجة لها ما يميزها بين اللهجات العربية .

ونجد لدى الهذليين على المستوى النحوي استعمالهم «متى» حرف جر بمعنى «من» و «في» «يقولون : «أخرجها متى كمة» أي من كمة ... واختلف في قول بعضهم : «وضعت متى كمي» ، فقال ابن سيده بمعنى في ، وقال غيره بمعنى وسط»^(٤١) .

أما على المستوى الصرفي ، فقد أبدلوا بعض الأحرف من بعض ، وأشار سيبويه إلى هذه المسألة بقوله : «ولكن ناساً كثيراً يُحرون الواو إذا كانت مكسورة مجرى المضمومة ، فيهمزون الواو المكسورة إذا كانت أولاً ، كرهوا الكسرة فيها ... فمن ذلك إسادة وإعاء»^(٤٢) . وقد ذكر ابن دريد أنَّ هذه اللهجة هذلية^(٤٣) .

وأما على المستوى الصوتي فقد نصَّ مَنْ تعرّض في بحثه لدراسة لهجة هذيل على أنها تمتاز بظاهرة لهجية صوتية هي ظاهرة «الفحفة» ، وتعلّق بقلب الحاء عيناً^(٤٤) .

يضاف إلى هذه المستويات المستوى الدلالي ، وهو أهم

المستويات اللغوية التي تمتاز بها هذه اللهجة ، لأن كثيراً من الكلمات الهذلية دخلت القرآن الكريم ، قال السيوطي : «وقال أبو بكر الواسطي في كتابه الإرشاد في القراءات العشر : في القرآن من اللغات خمسون لغة ، لغة قريش وهذيل وكنانة وخثعم والخروج...»^(٤٥) .

ومن الألفاظ الهذلية في القرآن الكريم :

السورة	الآية	الكلمة الهذلية	معناها
البقرة	٩٠ «ماشروا»	«اشروا»	باعوا ^(٤٦)
آل عمران	^(٢٢٧) «وان عزموا الطلاق»	«عزموا»	حققوا ^(٤٧)
هود	٦٩ «بعجل حنيد»	«حينئذ»	مايشوى ^(٤٨)

إنَّ هذه الظواهر اللهجية على اختلافها تبقى ظواهر جزئية ، وقد أدرك علماء اللغة المتقدمون أنها تنتمي إلى أرومة واحدة أكبر منها ، فعُدَّوها اختلافاً في الكلام مرَّده إلى معنى واحد مقصود ، وإن فاضلوا أحياناً بينها تبعاً للقواعد التي تهيأت لهم ، فعُدَّوا قريشاً أفصح العرب ، لأنهم كانوا إذا جاءتهم العرب «تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلاتقهم التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب»^(٤٩) .

لكنهم - مع ذلك - لم ينصرفوا عن الاحتجاج بلهجة ما لأنَّ غيرها أحقَّ منها ، وهذا ماذهب إليه ابن جني في الخصائص في باب «اختلاف اللغات وكلها حجة» ، حيث قال وهو يتحدث عن اللغتين الحجازية والتميمية - : « ليس لك أن تردَّ إحدى اللغتين

بصاحبيتها ، لأنها ليست أحق بذلك من، وسيلتها . لكن غاية مالك في ذلك أن تتخير إحداهما ، فتقويها على أختها ، وتعتقد أن أقوى القياسين أقبل لها ، وأشد أنساً بها»^(٥١) .

وراح البحث يتسع - فصار الحديث عن اللغة لا يتعلق باللهجة القبلية الضيقة ، وإنما يتصل بما يُسميه علماء اللغة «العربية» . فانضوت اللهجات تحت جناحها ، وصارت اللهجات إحدى مكوناتها ، وكان المعيار الذي قاسوا إليه ما يتعلق بها هو معيار الاتساع في الرواية وقوة القياس^(٥٢) .

ويقوي اعتقادنا بأن مصطلح العربية طارئ ، ولم يكن معروفاً قبل تدوين اللغة ودراستها بحراً عن أبي عمرو بن العلاء ، وقد بين فيه طبيعة كلمة «العربية» ، وعلاقتها باللهجات الجزئية .

فقد «قال ابن نوفل : سمعت أبي يقول لأبي عمرو بن العلاء: أخبرني عما وضعت مما سميت عربية ! أيدخل فيه كلام العرب كله؟ فقال : لا . فقلت : كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب ، وهم حجة؟ فقال: أحمل على الأكثر ، وأسمي ما خالفني لغات»^(٥٣) .

ولما تحولت «العربية» إلى موضوع بحث بين أيدي الدارسين بقي مصطلح «العربية» دالاً على القواعد العامة التي يصدر عنها متكلموها ، وإن تفاوتوا في كلامهم واختلفوا فإنهم لا يجحدون عن أسسها التي تنظمها ، وهذا كتاب سيبويه شاهد على ذلك ، وهو الكتاب الذي يعد ثمرة جهود الخليل وسيبويه معاً ، وكان حصيلة جهود كثير من علماء العربية الآخرين^(٥٤) .

فرّق سيبويه في كتابه بين «العربية» و«الكلام» ، وأبواب كتابه الأولى تبحث في القواعد العامة التي تتألف منها اللغة العربية ، وهي التي لا بد أن تنتهي للمتكلم بها، وتبحث هذه الأبواب في أسس

اللغة الأصلية ، وهي «الاسم ، والفعل ، والحرف» ، وقد بحثها في باب «هذا باب علم ما الكلم من العربية»^(٥٤) .

أما الباب الثاني «هذا باب مجاري أواخر الكلم من العربية»^(٥٥) ، فبحث في قاعدة كبرى من قواعد العربية ، وهي الإعراب والبناء^(٥٦) ، والإفراد والثنية والجمع^(٥٧) .

وتميز بعض الأفعال المضارعة بعلامات إعراب خاصة^(٥٨) ، والمقارنة بين الكلام من حيث الخفة والثقل^(٥٩) ، وتمكن بعض الكلمات في النفس أكثر من غيرها ، وأيها الأول حتى يحق لها التمكن أكثر^(٦٠) . ثم ذكر بعد ذلك قاعدة أخرى في باب «هذا باب المسند والمسند إليه»^(٦١) . وهما عمدتا الكلام ، وذكرهما ، والبحث فيهما دراسة لقاعدة تتصل بأصل التركيب اللغوي ، أما بقية أبواب الكتاب فتبع لهذه التوطئة ، لأنها حديث عن طريقة تصرف العرب في كلامها تبعاً للقواعد العامة التي تتألف منها اللغة ، تلك القواعد التي تبتدئ بالكلمة المفردة ، ثم إعرابها داخل التركيب أي البحث عن قواعد وظيفتها في التركيب .

واستطاع سيبويه بهذه الطريقة الفصل بين مبادئ اللغة العامة وقواعدها الرئيسية وبين كلام الناطقين بها مما له معايير وقواعده . وكأنني بسيبويه والخليل كانا واعيين أن وضع القواعد لابد فيه من البدء بأسس اللغة ، ثم البحث عن طرائق تصرف الناطقين بها وفق هذه المعايير لضبط القواعد الكلية لكلامهم ، ولهذا لاحظ سيبويه دائماً الفرق بين لهجة وأخرى ، لأن اللهجات تتصل بالكلام لا باللغة ومعاييرها .

أما المسألة الثانية في هذا الموضوع فهي حدُّ اللغة :
وضع ابن جنِّي « - ٣٩٢ هـ » للغة حداً صار عمدة بعده

تناقله كتب اللغة ^(٦٢) ، وكتب الاصطلاحات ^(٦٣) وقد حدّها بقوله : (أمّا حدّها : فإنّها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم) ^(٦٤) .

ويبدو أن ابن جنّي أدرك - وهو يضع تعريفاً للغة - أن وضع مثل هذا الحدّ ينطوي على صعوبة بالغة ، لأنّه يبقى قاصراً عن جمع مايتعلّق باللغة من قضايا ، ولهذا أضاف إلى هذا التعريف إضافات أخرى متشعبة توضّح بعض مزاياها ^(٦٥) . قال : « وأما اختلافها فلما سذكّره في باب القول عليها أمواضعة هي أم إلهام ؟ وأما تصنيفها ومعرفة حروفها ، فإنّها فُعْلة من لغوت أي تكلمت ، وأصلها لغوة ككرة ، وقُلة ، وثبة ... » ^(٦٦) . ثم يأتي الفقيه الشافعي الكيا الهراسي ليستمد من نظرة ابن جنّي إلى اللغة على أنّها أصوات إنسانية ، ومن إشارات ابن سينا إليها ^(٦٧) .

وجعل ذلك مدار بحثه ، وطور الهراسي فكرة ابن جنّي ، فلم يقع في مشكلة الدلالة التي أضافها ابن جنّي إلى الأصوات اللغوية ، وهي المشكلة التي وقع فيها أيضاً «أندريه مارتينييه» عندما أضاف إلى تعريف اللغة «الوحدات الدالة» ^(٦٨) .

قال الهراسي : «وهذا الكلام إنما هو حرف وصوت ، فإن تركّه سدى غفلاً امتدّ وطال ، وإنّ قطعَه تقطع ، فقطعوه ، وجزّؤوه على حركات أعضاء الانسان التي يخرج منها الصوت ، وهو من أقصى الرئة إلى منتهى الفم ، فوجدوه تسعة وعشرين حرفاً لا تزيد على ذلك ، ثم قسموها على الحلق والصدر والشفة واللثة ، ثم رأوا أن الكفاية لاتقع بهذه الحروف التي هي تسعة وعشرون حرفاً ، ولايجعل له المقصود بإفرادها فركبوا منها الكلام ثنائياً وثلاثياً ورباعياً وخماسياً ، هذا هو الأصل في التركيب» ^(٦٩) .

إنّ هذين التعريفين للغة ، وهما تعريف ابن جنّي والهراسي أقرب التعريفات إلى طبيعتها ، وألصق بما فهمه اللغويون منها ، بيد أنّ لعلماء أصول الفقه تعريفات للغة تتفق وطبيعة بحثهم في دلالة الألفاظ ، ويحسن الوقوف عليها لتكتمل صورة البحث .

حدّ ابن حرم الأندلسي اللغة بقوله : «اللغة : ألفاظ يعبر بها عن المسميات وعن المعاني المراد إفهامها» ^(٧٠) . وتقع مشكلة فهم التعريف في كلمة «ألفاظ» ، لأنها ذات دلالة غير محددة وقد عرفها ابن حزم نفسه بقوله : «اللفظ : هو كل ما حرك به اللسان» ^(٧١) ، وهذا يعني أنه لا عيرة بدلالته أو عدمها ^(٧٢) ، وقد تعني كلمة «اللفظ» الحرف الواحد أو أكثر ، مهماً أو مستعملاً ، وهذا المعنى يقصده النحويون أيضاً ، وقد يدل عندهم على ما يجري عليه أحكام النحو كالعطف والإبدال وكذا الضمائر التي يجب استئثارها ^(٧٣) .

لكنّ للأصوليين فهماً لطبيعة اللفظ أكثر دقة من غيرهم ، فهم يقسمونه إلى أقسام ، ويرون أنه «إنّ دلّ جزؤه على جزء المعنى فمركّب ، وإلا فمفرد - والمفرد أمّا أن لا يستقل بمعناه ، وهو الحرف ، أو يستقل ، وهو فعل ، وإن دلّ بهيئة على أحد الأزمنة الثلاثة ، وإلا فاسم ...» ^(٧٤) .

وهذه الأقسام ليست أصلاً في دلالة اللفظ ، بل هي اتساع منهم ^(٧٥) ، فالألفاظ التي ذكرها ابن حزم خصصها بأنها التي تعبر عن المسميات ، أو عن المعاني المراد إفهامها ، وما يدلّ على المسمى أو المعنى هو اللفظ المفرد المركّب ، وهذا ما أشار إليه الإمام عبد القاهر الجرجاني حيث يقول : «ولوفرَضنا أن تنخلع من هذه

الألفاظ التي هي لغات دلالتها لما كان شيء منها أحق بالتقديم من شيء» (٧٦).

ويحدّ ابن الحاجب «ت ٦٤٦ هـ» اللغة بما يشبه حدّ ابن حزم فيقول: «اللغة كل لفظ وضع لمعنى» (٧٧)، واستعمل في هذا التعريف كلمة «كل»، وهي كلمة تفيد العموم، «وليس في كلام العرب كلمة أعمّ منها ولا فرق بين أن تقع مبتدأ بها أو تابعة» (٧٨). و«إذا دخلت على نكرة فإنها تفيد عموم أفرادها.. ولا دلالة لها إلا على شمول كل فرد» (أي جزء من جزئيات النكرة) فيكون الحكم ثابتاً لكل جزء» (٧٩).

فالمقصود من التعريف الألفاظ الموضوعية للمعاني جميعها، وهي ألفاظ اللغة التي تدل على المسميات أو على المعاني، ويوضح ذلك ابن الحاجب نفسه حين يعرف الكلمة بقوله: «الكلمة لفظ وضع لمعنى مفرداً» (٨٠)، فحذف من تعريف الكلمة لفظ «كل» وخصص المعنى بأنه «مفرد» لكي يتحرّز من المركب والمشتك.

وإذا كانت هذه طبيعة اللغة كما تصورها اللغويون والبلاغيون وعلماء أصول الفقه فإنها فرّعت إلى أقسام تحكيمية لتسهيل دراستها، وليتم الاختصاص في بحثها، فاتجه النحويون إلى دراسة المفردات في داخل التركيب، وبحث البلاغيون دلالة الألفاظ مفردة ومركبة وشاركهم في ذلك علماء الأصول وكان الهدف دراسة اللغة ومعرفة أسرارها، والبحث في طرائق العرب في استعمالها.

٢ - اللغة والكلام (٨١) :

مرت كلمة «اللغة» بتبدلات دلالية، فاتسع مدلولها،

وصارت تدل على «العربية» ، ثم انتقلت من هذا التخصيص إلى العموم - كما لاحظنا - فعرفها لغويونا بما يتفق واللغات الانسانية - كما تصوّروها - من خلال لغتهم أو اللغات التي عرفها بعضهم كابن جنّي وأبي علي الفارسي^(٨٢) وغيرهما^(٨٤) .

فأصبحت «اللغة» - من وجهة نظر عربية - دالة على : الأصوات الإنسانية المقطعة التي يختلف الأقوام في عددها ، وفي طريقة النطق بها ، وتركيب هذه الأصوات يؤدي إلى المفردات بأبنيتها المختلفة ، وتحمل هذه المفردات دلالات تدل على معانٍ لتحقيق غرض التفاهم . ومثل العربية مثل بقية اللغات ، فهي تملك قواعد تركيبية خاصة ، كما تملك بنية لغوية تميزها .

واللغة تبعاً لهذه النظرة ليست عملاً فردياً ، لأن منشأها اجتماعي ، عبر بها الإنسان عن نفسه داخل المجتمع ، فهو كائن مضطر إلى الاجتماع «وذلك أن الإنسان لما لم يكن مكتفياً بنفسه في معاشه ومقيمات معاشه لم يكن له يدٌ من أن يسترشد المعاونة من غيره . ولهذا اتخذ الناس المدن ليجتمعوا ويتعاونوا»^(٨٥) .

ولما كان الاجتماع في حاجة إلى أداة اتصال ، فإن اللغة كانت الأداة الاجتماعية للتواصل بين الناس ، بها يتفاهمون ويقضون حاجاتهم ، غير أن اللغة لا يصبح تكونها في حالة الإنسان الوحشية البدائية ، فحاجته إلى اللغة بدأت بعد تكوّن المجتمع الإنساني ، واشتغال الإنسان بالحرف ، فكانت حاجته إلى اللغة نتيجة تعدد الحاجات ، فلم تعد الإشارة إلى الأشياء كافية فإن كانت غائبة «فلا بدّ له من أن يدل على محلّ حاجاته وعلى مقصوده وغرضه ، فوضعوا الكلام دلالة»^(٨٦) .

وهذه اللغة التي تمتلك قواعد تركيبها الخاصة . ودلالات

مفراداتها المميزة تحتاج إلى مَنْ يستعملها في التواصل مع الآخرين ، وليس هذا المستعمل إلا الإنسان نفسه الذي تعد اللغة إحدى مميزاته الرئيسية^(٨٧) ، والذي يفكر أيضاً بوساطتها ، لأن الفكر واللغة لا ينفصلان^(٨٨) .

ويتطلب استعمال اللغة النطق بمفراداتها في سياق تركيبى ذلك أنه لإفادة من الألفاظ دون التركيب فهي لاتفيد «حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف ، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب^(٨٩) . كما أشار الإمام عبد القاهر الجرجاني « - ٤٧٢ هـ » .

وهذا النوع من التركيب الذي يعمد به إلى وجه دون وجه هو الصيغة التي يتأتى بها الكلام ، وهو عمل عقلي يقوم به الإنسان الذي يريد التعبير عن ذاته باللغة ، «ولن يتصور في الألفاظ وجوب تقديم وتأخير ، وتخصيص في ترتيب وتنزيل ، وعلى ذلك وضعت المراتب والمنازل في الجمل المركبة وأقسام الكلام المدونة^(٩٠) . وصياغة التركيب اللغوي تقوم على أسس وقواعد لكي يصح بها التفاهم «ومختصر الأمر أنه لا يكون كلام من جزء واحد ، وأنه لابد من مسند ومسند إليه»^(٩١) .

وعني ذلك أن الكلام يقوم على معايير لغوية لابد من وجودها في كل كلام ، وهذا ما كان موضوع مفتتح كلام سيبويه في كتابه^(٩٢) - كما أشرنا .

وذهب الإمام الجرجاني أيضاً إلى أن تركيب الكلام «يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ، وأنه نظير الصياغة والتعبير والتفويف والنقش ، وكل ما يقصد به التصوير . « وهذا النوع من الكلام هو الصياغة الفنية للتركيب اللغوي ، وليس صياغة عادية ، ولا يؤدي معرفة أوضاع ألفاظ اللغة وقواعد تركيبها بأن يعرف

ناطق اللغة ، تعلق الألفاظ بعضها ببعض، وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبته ، فهذا يعد أدخل في قواعد التركيب اللغوي الذي لامندوحة عنه عند النطق بالكلام^(٩٣)، وإنما يُؤدّي بتصرف المتكلم في التركيب بالتقديم والتأخير ، والحذف ، والاتساع في دلالة اللفظة ضمن التركيب ، وهذا كله من فعل المتكلم ضمن قواعد اللغة وطبيعة ألفاظها .^١

ولذلك وصف سيويه الكلام بصفات مختلفة ، قال : «هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة»^(٩٤) . «فمنه مستقيم حسن ، ومحال ، ومستقيم كذب ، ومستقيم قبيح ، وما هو محال كذب»^(٩٥) ، وأعطى أمثلة لهذه الصفات لاتتعلق بالألفاظ من حيث هي أوضاع اللغة ، وإنما تتعلق بها في داخل التركيب والسياق ومنها قوله : «فأما المستقيم الحسن فقولك : أتيتك أمس ، وسأيتك غداً . وأما المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره فتقول : أتيتك غداً ، وسأيتك أمس ...»^(٩٦) .

ويتكرر لفظ «الأصل» في كتب سيويه ، والأصل في هذا البحث مرده إلى قواعده اللغة التركيبية الأصلية التي تعرض لها أعراض بفعل المتكلم ، وهذا ما أشار إليه حيث قال : «هذا باب ما يكون في اللفظ من الأعراض»^(٩٧) .

وفيه بحث في الحذف ، وقال فيه «اعلم أنهم مما يحذفون الكلم وإن كان أصله في الكلام غير ذلك»^(٩٨) رقسم الحذف إلى :

– الحذف والتعويض ، والاستغناء بالشيء عن الشيء الذي أصله في كلامهم أن يستعمل حتى يصير ساقطاً»^(٩٨) .

ويذهب في أمثله هذا الباب إلى مايعتري اللفظة المفردة من تبدل ، وهي ظواهر تتعلق ببنية الكلمة ، وقد تصوّر لها أصلاً مجرداً

توصل إليه من استعمالهم الكلمة في صورتها الحقيقية ومن ذلك «لم يكُ ولا أدري»^(٩٩) ، لأنَّ صورتها الحقيقية هي (لم يكن ولا أدري). لكن تصرفت المتكلم أحوال الكلمة إلى صورتها المختزلة هذه .
وتحدّث كذلك عن الاستغناء بكلمة عن أخرى للتعبير عن معنى ، فاستغنوا ب «ترك» عن «ودع» مع أنهم يستعملون مضارع الفعل «يدع» دون ماضيه ، والفعل الماضي موجود في اللغة لكن المتكلم - على ماقرره سيبويه - أثر الاستغناء عنه باستعمال فعل آخر في معناه^(١٠٠).

وتابع الحديث عن هذا التصرف الذي يلجأ إليه المتكلم ، وهو يستعمل اللغة - فأتى بأمثلة على التعويض الذي يقوم به عند حذفه جزءاً من الكلمة ومنها «زنادة وزناديق ، فرازنة ، وفرازين، حذفوا الباء وعوضوا الهاء...»^(١٠١) .

فإذا كانت هذه التصرفات الكلامية قد لحقت المفردة ، فإن تصرفات أخرى قد تلحق التركيب . وتبين صورة التصرف في الكلام بالمقارنة بين أصل التركيب والصيغة التي تم التصرف بها ، وهذا ماقام به سيبويه أيضاً ، فوضع في مقدمات أبوابه الصيغة الأصلية للتركيب ، ومن ثم راح يبحث في التصرف الذي يعتري هذه الصيغة ، والتبدل الذي يجريه المتكلم في وظائف مفرداتها أو مكانها في التركيب ، ولنأخذ مثلاً على ذلك باب «هذا باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعول»^(١٠٢) ، ويتدئ فيه بذكر المثال الآتي «ضربَ عبدُ الله زيداً»^(١٠٣) ، ويسدد وظيفة المفردات، وعلاقتها بعضها ببعض فيقول : «فبعدُ الله ارتفع ههنا كما ارتفع في ذهب ، وشغلت ضرب به كما شغلت به ذهب ، وانتصب زيد لأنه مفعول تعدي إليه فعل الفاعل»^(١٠٤) ، وهذه الصيغة هي الأصلية في التركيب العربي (الفعلية) ويعني ذلك أن

ترتيب الجملة الفعلية أن يأتي الفعل أولاً ثم يليه الفاعل ثم المفعول به ، إذا كانت الجملة الفعلية فعلها متعلّق إلى المفعول ، وإذا كان الفعل لازماً ، فيقتصر على الفعل والفاعل ^(١٠٥) .

وللمتكلم تصرف في هذه الصيغة ، فقد يقدم ويؤخر فيها «فإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول ، وذلك قولك : «ضربَ زيداً عبداً الله» ، لأنك إنما أردت به مؤخراً ما أردت به مقدماً ، ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه وإن كان مؤخراً في اللفظ» ^(١٠٦) .

لكن هذا التقديم ليس الأصل في الجملة ، وإنما الأصل ترتيب الجملة بالبدء بالفعل ثم الفاعل ثم المفعول «فمن ثمّ كان حدّ اللفظ، أن يكون فيه مقدماً» ^(١٠٧) . وعندما يتم التصرف بالكلام لا يكون هذا التصرف دون طائل معنوي ، بل هو لغرض معنوي ، لأن كلام المتكلم تعبير عن معنى في نفسه وملاحظة أحوال تقديمهم المفعول تحمل على القول : «كأنهم إنما يقدّمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أغنى ، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم» ^(١٠٨) .

وقد أغري تصرف المتكلم في التركيب تقديماً وتأخيراً ، وحذفاً ، وإظهاراً ، وإضمّاراً أولئك النحويين الذين أعقبوا سيبويه كالأنخفش «سعيد بن مسعدة» «- ٢١٥ هـ» ، والمبرد «- ٢٨٥ هـ» وابن السراج «- ٣١٦ هـ» ، والرمانى «- ٣٨٤ هـ» والفارقي «سعيد بن سعيد» «- ٣٩١ هـ» ، فارتكبوا ما لم يخطر ببال متكلم عربي قط ، وتوسعوا في مسائل التمرين التي بدأها من تقدّمهم من النحاة كسبويه والخليل ، واشتدّ نشاطهم لها ، حتى صار قارئها يظنّ - على غير خطأ - أنهم يتدعون لغة جديدة غير التي أسس لها سيبويه في كتابه .

والحقيقة أنَّ الأَخفش كان رأس فِئة من النحاة «المعلمين» الذين احتاجوا في عملهم التطبيقي إلى البحث عن ظواهر كلامية هي أدخل في الشذوذ الكلامي طورا ، وفي الضرورات الشعرية طورا آخر وذلك أن تطبيق القواعد الكلية التي أسَّس لها الخلل وسيبويه معا في حاجة إلى تدريب طالب العلم على ما كان قاعدة عامة لدى سيبويه ، ونعني بهذا موضع الكلمة في الجملة ، وطرائق تبدل موضعها ، ووظيفتها فيها ، وتأثيرها أو تأثرها بغيرها من مفردات التركيب .

وكان كتاباه المشهوران في كتب النحو ، واللذان فقدتا - وهما «المسائل الصغير ، والمسائل الكبير» ^(١٠٩) - على ما يظهر - مبنيَّين على هذه المسائل التطبيقية ، وحاجة المشتغل بها أمس إلى اللغات الضعيفة ، والقبیحة . فهي التي تسعفه في رصد التبدلات التي تحدثها الجملة العربية والتي يقوم بها المتكلم وفق القواعد العامة للغة التي ينطقها . من ذلك - على سبيل التمثيل - تنوين الصفة المتصلة بالألف واللام بعد حذف الهاء المتصلة بها كمسألة «أعجني ضرب الضاربه زيد عبد الله» ، وقد ذكرها الأَخفش ، وهو مذهب ضعيف ^(١١٠) ، ونصَّ على قبحه ابن السراج ^(١١١) .

ومنه أيضاً أجازته في كتابه «المسائل الصغير» ، وهو تقديم خبر «ليس» عليها ، كما في قولك «قائماً ليس زيد» ، وهذا من ردي المذاهب ^(١١٢) .

وقد تأثر المبرد « - ٢١٥ هـ » بهذه الطريقة في النظر إلى تصرف المتكلم في التركيب ، فأخذ كثيراً من آراء الأَخفش ، وطرائقه في صياغة المسائل التعليمية المقتعلة ، وهو ماشار إليه الفارقي بقوله : «وقد رأيت ابا العباس يرتكب مذهب أبي الحسن كثيراً ، هذا كله مع التسليم أنه رأى هذا مذهباً فاعتمده

مركباً...»^(١١٣) ، فقدّم في كتابه المقتضب^(١١٤) عدداً من المسائل النحوية التعليمية التي رمى بها إلى تدريب الطلاب ، وهي - على صيغتها التدريسية - تبقى جزءاً من تصرف المتكلم باللغة ، وطرائق تركيبها ، وإن كان ذلك التصرف مفتعلاً قد لا ينطق به متكلم ، إلا أنه يظل أحد الوجوه المحتملة للكلام ، وفي هذا إبعاد في فهم مسألة التصرف الكلامي ، والذي أغرى المبرد وغيره به ، قدرة اللغة على احتواء مثل هذه التصرفات الواسعة.

وجرى ابن السراج على نهج المبرد ، وأضاف إلى كتابه «الأصول» تصرفات تركيبية كثيرة وألحقها بالقواعد الكلية - كما فعل المبرد - لتكون تطبيقاً على الكليات^(١١٥) ، ومن ثم يأتي الفارقي تلميذ الرمانى النحوي الذي يتصل عن طريق شيخه بهذه السلسلة التي تصل إلى الأخفش فيتوسع في التفريع ، ويجعله موضوع كتاب منفصل يشرح فيه احتمالات الجملة العربية ، ومدى ما يستطيعه المتكلم فيها من التفريع على الأصول التي يقدمها لكل مسألة من المسائل التي يفسرها وهي المسائل التي ابتدعها المبرد ، وانتقلت إلى يدي الفارقي ، ليظهر براعة منقطعة النظير في اشتقاق الصيغ من القواعد الكلية^(١١٦) .

وتحول الكلام العربي على أيدي هؤلاء النحاة إلى عمل شكلي فيه من الرياضة العقلية أكثر مما فيه من الواقع اللغوي ، وأنبت الاتصال بين الكلام والمعنى المقصود الذي قامت اللغة عليه فتحول النحو إلى قواعد جافة ، ومسائل مفرعة ، ولم يعد لهذا النحو علاقة بالإنسان ، عقله وروحه وبيانه ، بل صار ذلك كله إلى رسوم لادلالة لها ، وعلاقات لفظية لاروح فيها . والفرق الشاسع بين نهج الخليل وسيبويه ونهج الفارقي مثلاً ، أن هذين العَلَمين

وجها عملهما لصياغة الأسس الكلية التي يصدر عنها كلام العربي الذي ينطق به في حياته اليومية أو الذي يعبر به عن مشاعره ومكنونات نفسه ، وهو الكلام الذي ورد في القرآن الكريم ، وفي الحديث النبوي الشريف ، كما ورد في الشعر العربي قبلهما وكان سيوييه - في تعليقاته - لكلام العرب يذهب إلى ردّ بعض الكلام إلى بعض من خلال المقصود ، والمعنى المطلوب ، فكأنني بقياسه ، وما أتى به من الأشباه والنظائر ، وما علل به لبعض كلام العرب محاولة منه لصرف قول الخليل في اللغة من أنها «اختلاف الكلام في معنى واحد»^(١١٧) إلى تصرف العربي بالكلام للتعبير عن معنى في نفس المتكلم قد يستعمل فيه المتكلم مفردات غير التي يستعملها غيره ، أو يركب الكلام بطريقة غير التي يصطنعها سواه لكنهما يصدران في ذلك عن المعنى ، وهو مدار الكلام ومبتغاه .

ولنأخذ على ذلك مثلاً من كتاب سيوييه لتتضح الفروق ، ويظهر النهج الذي أخذ به صاحب الكتاب مما يميزه عن غيره من النحاة الذين أعقبوه ، قال في باب «هذا باب ما يحتمل الشعر» : «وجعلوا ما لا يجري في الكلام إلا ظرفاً بمنزلة غيره من الأسماء ، وذلك قول المرار بن سلامة المجلي :

ولا ينطق الفحشاء من كان منهم

إذا جلسوا منا ولا من سواننا

وقال الأعشى :

وما قصدت من أهلها لسوانكا

وقال خِطَامُ المَجَاشِعي :

وصاليات ككَمَا يُؤْتَفَن

فعلوا ذلك لأنّ معنى سواء معنى غير ، ومعنى الكاف معنى مثل ، وليس شيء ، يضطرون إليه إلا وهم يحاولون به وجهها»^(١١٨).

فالبحت عن وجوه الكلام وتبدلاته حاصل في كلام الشعراء، ومحاولاتهم التعبير قد تحملهم على الضرورة ، لكن الضرورة التي حملوا عليها ترد إلى المعنى ليظل الكلام - بذلك - مرتبطاً بما صدر عنه ، وتصبح طريقة التعبير خاصة بالمتكلم الذي يريد إيصال المعنى إلى الآخرين بوسيلته المفردة .^(١١٩)

وتتضح الصلة بين الكلام والمعنى في ابجاث النحاة واللغويين والبلاغيين الذين اهتموا بالظواهر التركيبية - كما لاحظها الخليل وسيبويه - دون أن تجعل القواعد المعضّاة التي راح يمتح منها الطلاب على أيدي النحويين المعلمين أصلاً على حين تحولت الدلالة في التركيب إلى مسألة ثانوية .

وهذا مافهمه النحاة الذين وصلوا بين النحو والنص القرآني الكريم على نحو خاص ، ومن هؤلاء مكّي بن أبي طالب القيسي « - ٤٣٧ هـ » . قال في كتابه مشكل إعراب القرآن حيث إعراب الآية الكريمة ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾^(١٢٠) «والهاء في قوله: ﴿أنزل فيه القرآن﴾ تعود على الشهر على معنيين:

أحدهما : أن يكون المعنى الذي أنزل القرآن إلى سماء الدنيا جملةً فيه ، فتكون «فيه» ظرفاً لنزول القرآن .

والثاني : أن يكون المعنى الذي أنزل القرآن بغرضه ، كما تقول : قد أنزل الله قرآناً في عائشة - رضي الله عنها - فلا تكون «فيه» ظرفاً لنزول القرآن ، إنما يكون معدّى إليه الفعل بحرف»^(١٢١).

وهذا ما فهمه ابن فارس « - ٣٩٥ هـ » عندما جعل للكلام مراتب في وضوحه وأشكاله ، وأتى بأمثلة على واضحه ، ومشكله ، وعلل لأسباب المشكل منه من حيث غرابه اللفظ ، أو إيماء قائله الخ (١٢٢)

وقد مثلت مشكلة «الكلام» موضوع بحث لدى أصحاب المذاهب الإسلامية ، وكانوا منطلقين في ذلك من مسألة تتعلق بصفات الله عز وجل ، وقد أثارها قوله تعالى : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (١٢٣) ، فافترق في تفسيرها أصحاب المذاهب من سنة ومعتزلة ، وكان مؤدى اختلافهم بحثاً في مسألة الكلام وتعريفه ، وطبيعته .

وقد ذهب الجوهري في الصحاح إلى ان «الكلام» اسم جنس يقع على القليل والكثير والكلم لا يكون أقل من ثلاث كلمات ، لأنه جمع كلمة (١٢٤) ، ووقع الكلام على القليل والكثير كان أيضاً محل نزاع لأنه يؤدي إلى تصور طبيعة الكلام نفسه ، ولذلك تباينت تعريفات القوم للكلام فذهب أهل الكلام إلى أنه : ما يضاد السكوت سواء كان مركباً أو لا ، مفيداً فائدة تامة ، أو لا (١٢٥) . ووسع بعضهم هذا المعنى ، وفرقوا بين الكلام في اللغة ، وبين دلالة في الاستعمال ، فهو في اللغة يطلق على الدوال الأربع (١٢٦) ، أما في الاستعمال فيطلق على ما يفهم من حال الشيء مجازاً أو على التكليم وعلى التكليم كذلك (١٢٧) .

ويطلق الكلام أيضاً على ما في النفس من المعاني التي يعبر عنها (١٢٨) ، فقليل : «إنه حديث النفس أو نطق النفس ، أو مدلول أمارات وضعت للتفاهم» (١٢٨) . ويطلق على اللفظ المركب أفاد أم لا (١٢٩) مجازاً فهو مجاز في النفساني ، وقيل حقيقة فيه ، مجاز في

تلك الجمل وقيل حقيقة فيه ، مجاز في تلك الجمل وقيل حقيقة فيهما ، ويطلق على الخطاب وعلى جنس مايتكلم به من كلمة ولو كانت على حرف واحد كواو العطف أو أكثر من كلمة مهمة أو لا (١٣٠).

والحقيقة ان ما ذكرناه يلخص مذاهب القوم في النظر إلى الكلام ، فيذهب الغزالي إلى أن الكلام «معنى قائم بالنفس على حقيقة وخاصة يتميز بها عما عنده» (١٣١) . وهو مذهب أبي منصور الماتريدي الذي يرى «أن الكلام هو المعنى القائم بذات المتكلم لا يتفاوت بين الشاهد والغائب» (١٣٢) .

ويخالف هذا الرأي مذهب المعتزلة الذين يحدون الكلام بأنه «ما انتظم من الحروف المسموعة المتميزة» (١٣٣) . ويعني ذلك أن الكلام لدى الأشاعرة من أهل السنة حقيقة في النفساني مجاز في الجمل أما المعتزلة فيرون عكس ذلك ، فهو عندهم حقيقة في الجمل مجاز في النفسي (١٣٤) .

أما الأشعري نفسه فأخذ بالأمرين ، وله في المسألة تفسيران يذهب في أحد تفسيريه إلى أن الكلام حقيقة في النفساني ، ويذهب في الآخر إلى أنه مشترك بينه وبين اللفظي (١٣٥) .

وعبر الغزالي عن تردده في ذلك بقوله «وأما العبارات فهل تسمى كلاماً مجازاً أو حقيقة ؟ تردد فيه شيخنا أبو الحسن ، وهو متلقى من اللغة» (١٣٦) .

ويوضح الأصوليون الآخذون بتفسيريه للكلام ذلك بأن الكلام مفهوم ينافي الخرس والسكوت ، وينصون على أنه حالة نفسية ، أما المحسوس من الألفاظ المنطوقة ، فيسمى كلاماً على المجاز ، فهو تسمية للدال باسم المدلول . ويستدلون على ذلك بأن واحداً منا

بملاً الألواح والصحف من أحاديث نفسه من غير تلفظ بكلمة^(١٣٧).

ويشترطون في الكلام النفسي أن يكون مع قصد الخطاب ، وهذا ما يميزه عن العلم^(١٣٨) ، لأنه لا يكون فيه قصد الخطاب ، ولو كان مقصوداً فيه الخطاب لكان كلاماً . وذهب المعتزلة إلى أن الكلام النفسي هو العلم دون قصد الخطاب^(١٣٩) . وعلى مذهب أهل السنة من علماء الكلام ، فإن من تكلم بكلام فمعناه قائم بنفسه وموجود فيها وجوداً أصلياً ، وسموه كلاماً نفسياً ، وحكموا بمغايرته للعلم^(١٤٠) .

ويفسّر عبد القاهر الجرجاني « - ٤٧٢ هـ » هذه المسألة الكلامية بطريقته الحجاجية العقلية ، فيقرر بادئ بدء أن «العلم بالإثبات والنفي وسائر معاني الكلام في غرائز النفوس»^(١٤١) ، ويوضح هذه الفكرة بأن أمثلة الأفعال ليس المقصود بها دلالتها على المعاني في أنفسها «بل لتعلم واقعة من المتكلم وكائنه في نفسه»^(١٤٢) ، ذلك أن هذه الأفعال ، وهي من أوضاع اللغة لا يقصد منها «العلم» بمعانيها ، دون أن يكون القصد منها الخطاب ، وهو شأن اللغة دائماً ، بل يجب أن تكون معلومة للأمريين هما وجودها في نفس المتكلم ، ووقوعها منه ، وواضع اللغة ربط في الأصل بين هذين الأمرين ، فارتبط ما وقع من كلامه بالمعنى القائم في نفسه «فواضع اللغة لما قال «ضرب» كأنه قال : إبه موضوع للضرب»^(١٤٣) .

وهذا الأمر يتم أيضاً في الإثبات ، فإنه تعبير عما في النفس من المعنى ، فلا إثبات قائم في النفس ، وقد وقع في الكلام ليبدل على

هذا المعنى ، وعلى هذا يفهم كلام الجرجاني «حتى إذا أردت إثبات «الضرب» لشيء ضممته إلى اسم ذلك الشيء ، فعلم بذلك أن إثبات الضرب له واقعاً منك وكائناً في نفسك محصول قولنا في ضرب إنه خير ، وإنه موضوع ليعرف به» ^(١٤٤) ، ذلك أنه لا يكفي هنا «العلم» والحصول في النفس فحسب ، بل يجب أن يكون الإثبات واقعاً من المتكلم أيضاً وموجوداً في نفسه ، فيجتمع بهذا المعنى الموجود في النفس وجوداً أصيلاً مع قصد الخطاب ، وهذا لا ينفي أن يكون الإثبات الذي لا يقع إلا متعلقاً بشيئين معنى مستقلاً بنفسه معلوماً ، أي قائماً في النفس دون أن يقصد به الخطاب ، ويفسر هذا الأمر بأن «حاجة الشيء في وجوده إلى شيء آخر لا يمنع أن يكون شيئاً مستقلاً بنفسه معلوماً ، وليس ههنا شيء أكثر من أن هذا يقتضي ذاك» ^(١٤٥) ، فالعلم يقتضي المعلوم ، والمعنى القائم في النفس يقتضي وقوعه في الكلام ليُعلم ^(١٤٦) وهنا يجدر الحديث عن شيء آخر يفهم عن كلام الجرجاني ، وهو الفرق بين الكلام والتكلم ، فما يجري في النفس من ربط بين الفعل ومعناه كان بقصد أن يستعمل في التكلم الذي يقوم به المتكلم ويوقعه في كلامه ، وهذا ما كان من أمر الفعل «ضرب» الذي جرى وضعه في النفس أولاً بقصد الدلالة على «الضرب» .

وكذلك الإثبات يكون بدءاً في النفس مستقراً فيها ، ولذلك نجد في كلام الجرجاني إشارة إلى المعنى القائم في النفس بقصد الخطاب وإلى التكلم الذي هو الخطاب ، وهو «استخراج اللفظ من العدم إلى الوجود ، ويعدى بالباء وبفسه» ^(١٤٧) . وقد اختلف أصحاب اللغة فيما بينهم وأصحاب أصول الفقه أيضاً في حدود الكلام ، وفي دلالة هذا المفهوم على الجزء البسيط ، وهو الصوت ،

أو على الكلمة المركبة من الأصوات ، أو على الجملة التي يقع فيها الإسناد . وقد ذهب بعضهم إلى «أنّ الكلام في الحقيقة مفهوم يناهي الخرس والسكوت» ^(١٤٨) ، وهذا يعني أنه «يطلق على المفيد وعلى غير المفيد ، والجملة الشرطية بمجموع الشرط والجراء ، كلام من حيث الإفادة كما في كلمة «الانحلاص» والكلام المعقب بالاستثناء» ^(١٤٩) .

غير أن أبا حنيفة « - ١٥٠ هـ » ذهب إلى أنّ «اسم الكلام لا يتناول إلا الجملة» ^(١٥٠) ، وهذا مغاير لما ذهب إليه زفر من أن الكلام «يتناول الكلمة الواحدة» ^(١٥١) . وقد أخذ اللغويون والنحاة برأي أبي حنيفة ، وجعله ابن جنّي « - ٣٩٢ هـ » مدار كلامه في مفهومه فقال «أمّا الكلام فكل لفظ مستقل بنفسه ، مفيد لمعناه . وهو الذي يسميه النحويون الجمل ، نحو زيد أعوك ، وقام محمد ، وضرب سعيد ، وفي الدار أبوك ، وصه ، ومه ، ورويد ، وحاء وعاء في الأصوات ، وحس ، ولبّ ، وأفّ وأوّه فكل لفظ استقل بنفسه ، وجنيت منه ثمرة معناه فهو كلام» ^(١٥٢) .

ويجعل الكلام خاصاً بالقول عاماً ، فيفرق بينهما بحسب القول بأنه : «كل لفظ مذل به اللسان تاماً كان أو ناقصاً» ^(١٥٣) ، ثم يقسم القول إلى أقسام «فالتام هو المفيد ، أعني الجملة وما كان في معناها من نحو : صه ، وإيه ، والناقص ما كان بضد ذلك ، نحو : زيد ، ومحمد ، وإنّ ، وكان أخوك ، إذا كانت الزمانية لا الحداثيّة» ^(١٥٤) ، ثم يستنبط من هذا كله قاعدة تقول : «فكلّ كلام قول ، وليس كل قول كلاماً» ^(١٥٥) . ويستدل على الفرق بين القول والكلام بإجماع الناس على أن يقولوا : «القرآن كلام الله ولا يقال : القرآن قول الله ، وذلك أن هذا موضع ضيق

متحجر ، لا يمكن تحريفه ، ولا يسوغ تبديل شيء من حروفه ، فعبير
لذلك عنه بالكلام الذي لا يكون إلا أصواتاً تامة مفيدة ، وعُدل به
عن القول الذي قد يكون أصواتاً غير مفيدة ، وآراء معتقدة»^(١٥٦).

ويستشهد على هذا أيضاً بسيبويه حيث يقول : « واعلم أن
«قلت» وقعت في كلام العرب على أن يحكى بها ، وإنما تحكى
بعد القول ما كان كلاماً لا قولاً »^(١٥٧) ، فيرى أن سيبويه فرق
بين الكلام والقول^(١٥٨) . وأول كلام سيبويه على أنه «أخرج
الكلام هنا مخرج ما استقر في النفوس ، وزالت عنه عوارض،
الشكوك»^(١٥٩)، أمّا تمثيل سيبويه للكلام بالجميل التامة فيعلم منه
«أن الكلام عنده ما كان من الألفاظ قائماً برأسه ، مستقلاً بمعناه ،
وأن القول بخلاف ذلك »^(١٦٠) .

ومذهب أبي حنيفة وابن جني في الكلام كان مذهب ابن
مالك أيضاً من النحويين فقد عرف الكلام بقوله : «الكلام
ماتضمن من الكلم إسناداً مفيداً مقصوداً لذاته »^(١٦١) . وهذا
ماذهب إليه أيضاً عبد القاهر الجرجاني من البلاغيين حيث يقول
«وختصر كل الأمر أنه لا يكون كلام من جزء واحد وأنه لا بد من
مسند ومسند إليه »^(١٦٢) .

وتبين صورة الكلام كما عرضناها - أنها الصيغة التركيبية
للغة ، فاللغة التي تحدث عنها الخليل ، وعرفها من بعد لاستقوه
لا يمكن أن تتجلى بصورتها الحقيقية ، وتصبح أداة للخطاب إلا إذا
استطاع الإنسان أن يرصف مفرداتها بالكلام ، فيعبر بها عن نفسه،
وعما اختزنه من مشاعر وأحاسيس ، وعما يريد من الآخرين
ليحقق التفاهم معهم ، فإذا كانت اللغة أصواتاً اضطر الإنسان إلى
استعمالها حين دعت الحاجة الاجتماعية إلى ذلك ، فإن الكلام كان
نقلاً لهذه اللغة إلى الاستعمال :

ولما كانت المشاعر بين الناس متغايرة فإنّ الكلام سوف يكون متغائراً ، ولذلك وُجدت الحاجة إلى أفانين القول من تقديم وتأخير ، وحذف ، وإضمار ، وتضمن ، وغير ذلك مما لاحظته نحاة العرب والمشتغلون باللغة .

فكانت أبحاث القوم في الكلام محصّلة لنظرة عميقة إلى اللغة - وقد أدّى بحثهم في طبيعة الكلام على اختلاف مناحيه وأهدافه - إلى أن وصلوه بالنفس ، فكان تعبيراً عما في النفس من أحاديث ، ولذلك مازوه عن اللغة بأن جعلوها ألفاظاً لها طرائقها التركيبية ، وحملوا الكلام على أنه تعبير عن النفس باللغة في تراكيب هي الجمل التي تؤدي معاني مفيدة ، ولما جمعوا بين الكلام والتركيب كانوا على وعي أن الإنسان لا يستطيع التعبير عن نفسه إلا بالتركيب ، ولهذا قامت نظرتهم على أن مجرد معرفة المفردات وفهم معناها لا يتيح للإنسان التكلم باللغة ، فلا بدّ له من مهارة الصوغ على طريقة مخصوصة ليستطيع التعبير ، والتفاهم مع الآخرين ، ونقل مشاعره إليهم ، أو ليستطيع أن يفكر فيما بينه وبين نفسه . إن الكلام كما تجلّى لدى علمائنا لم يكن ينفصل عن اللغة ، بل هو مرحلة لاحقة لتكونها وفهمها ، ومعرفة أسرارها ، ولذلك كان الكلام معيار الخطأ والصواب فيها ، ومجلى جمالها ، وصورة الافتنان بالتعبير بها ، وموضوع دراسة تحولات الفاظها الدلالية .

٣ - نشأة اللغة «مشكلة الوضع والمواضعة»

أصبح الباحث في نشأة اللغة كمن يمشي في أرض زلقة ، فهدر لايأمن الوصول ، وفي مخيلته صوت متأنحري الأصوليين كابن الأنباري والتاج السُّبكي ، وهم يقولون : « ذكرها في الأصول

فضول» (١٦٣) . وكذلك صوت المعاصرين من الغربيين الذين يرون أن دراستها ليست من شأن علم اللغة (١٦٤) ، وقد تابعهم باحثون عرب ، فقرروا أن البحث فيها بعيد عن «علم اللغة» ، وأدخل في البحث الذي لاجدوى منه ، كمن يبحث عن نشأة الكون والوجود (١٦٥) .

يبد أن ذلك يبدو صحيحاً إن نحن أخذنا بهذا البحث لنؤرخ للغة ، أو لندرس نشأتها على أنه ضرب من البحث الطريف الذي يكشف عن مسائل فكرية لها صلة بالإنسان وبعض مراحل تطوره ، أو ليكون رياضة ذهنية بها يتفاضل الدارسون ، ويتبارون في مدى قدرتهم على التأمل والتخيل في أمور تتعلق بموضوع بحثهم ، هذا ولا يغيين عن البال أن لكل لغة شأنها ، ولكل فئة من علماء اللغة طريقتهم في درسها ، لأنهم أقرب إلى الظروف التاريخية التي صنعت دراساتهم ، فهم عنها يصدرن ، وبها يتأثرون وبألوانها يتلون بحثهم ، وهذا ليس من شأن دراسة اللغة وحدها ، بل هو من شأن كل عملية فكرية في كل أمة من الأمم ، تجد فيها مناهج درس ، وطرائق بحث نجمت عن الظروف التي عاشتها الأمة فمهدت بها إلى طبيعة في التفكير وطريقة في الدرس .

ومثل الأمة العربية كمثال الأمم الأخرى في ذلك ، لاتنفصل من الظروف التي أدت إلى صنع طريقتها في التفكير والبحث في لغتها وفي غيرها من شؤون الفكر والحياة . وهذا شأنها مع البحث في نشأة اللغة ، لأنه كان مبتدأ كثير من النظريات اللغوية والبلاغية التي ارتبطت بتفسير القرآن الكريم ، مما أثر في طبيعة الدرس اللغوي على نحو عام ، وأعطاه طابعه الخاص الذي يرجع في جذوره الأولى إلى البحث في أصول اللغة .

وقد أنبثق تعليل نشأة اللغة من وجهتين في التفكير ، إحداهما الوجهة الدينية التي كان فيها تياران أولهما نقلي ، والآخر عقلي . أما الوجهة الأخرى فهي فلسفية تأثر بها بعض علماء الأصول وسوف نتحدث عن كل منهما فيما بعد ، غير أننا لابد من أن نشير بدءاً إلى أن كل واحد من الاتجاهين كانت له آثاره في دارسي اللغة من غير وجه ، وإن كنا نلاحظ تأثير الوجهة الدينية على نحو أعمق من الوجهة الأخرى ، وذلك أن ارتباطها بالقرآن الكريم وبتفسير آياته ، وبالجدل الذي قام حول تفسير بعض الآيات وخاصة آيات الصفات كان ذا أثر واضح في كتب اللغة والتفسير .

أهمية دراسة نشأة اللغة للبحث اللغوي :

ارتبط تفسير نشأة اللغة من الوجهة الدينية بالآية الكريمة ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾^(١٦٦) ، وكان شأنها شأن الآيات الكريمة الأخرى ، تفسر بمنهجين نقلي ، وعقلي ، أما الآخذون بالمنهج النقلي فقد كانوا يتدبرون آي القرآن ، ويشرحون ألفاظه ، ويبينون سبب النزول^(١٦٧) ، وقد يستشهدون بأبيات من الشعر إن اعترضهم لفظ غريب ، أو أسلوب غامض^(١٦٨) ، وهو منهج في التفسير لا يعدو ما كان يفعله الرسول (ص) والصحابة ، فقد كان عليه السلام «يبيّن لأصحابه معاني القرآن كما يبيّن لهم ألفاظه ... وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن ... أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا مافيها من العلم والعمل»^(١٦٩) . ولم يكن الصحابة في حاجة إلى تفسير كثير من الألفاظ . ومن قال عن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة «أنهم كانوا لا يعرفون شيئاً من معاني

هذه الآيات .. وإنما كانوا يقرؤون ألفاظاً لا يفهمون لها معنى كما يقرأ الإنسان كلاماً لا يفهم منه شيئاً فقد كذب على القوم ، والنقول المتواترة عنهم تدل على نقيض هذا ... فإن الناس متفقون على أنهم يعرفون تأويل المحكم ، ومعلوم أنهم لا يعرفون كيفية ما أخبر الله به عن نفسه في الآيات المحكمات ، فدل ذلك على أن عدم العلم بالكيفية لا ينفي العلم بالتأويل الذي هو تفسير الكلام»^(١٧٠)، ويأتي حديث عائشة في هذا السياق ليبيّن ما كان يفسره الرسول الكريم ، فقد جاء في تفسير الطبري: «عن عائشة قالت ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفسر شيئاً من القرآن إلا آيات تعدّ ، علمهن إياه جبريل»^(١٧١) .

نقل عن ابن عباس ، انه فسر الآية «وعلم آدم الأسماء كلها»^(١٧٢) بقوله «هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس : إنسان ودابة وارض وسهل وبحر وجبل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها»^(١٧٣) . وقد أثر هذا التفسير النقلي في بعض علماء الفقه ، الذين يذهبون إلى الأخذ بالنقول ، فتحول لديهم إلى نشدد كبير في النظر إلى الآيات القرآنية عامة ، وآيات الصفات خاصة ، ومن ثم في نظرتهم إلى اللغة وحقيقتها وبمازها . ذلك أن ظاهر القول في التفسير يحمل على القول : إنّ اللغة توقيف من الله تعالى ، ولا يجوز للإنسان أن يتحول عن ظاهر اللفظ إن لم يكن هناك نص يحمله على هذا التحول ، فلم يرتض هؤلاء الفقهاء حمل اللغة على الحقيقة والجاز ورأوا أن «تقسيم اللغة إلى حقيقة وبماز تقسيم مبتدع لم ينطق به السلف ، والخلف فيه على قولين ، وليس النزاع فيه لفظياً بل يقال نفس هذا التقسيم باطل»^(١٧٤) . وكان تخرجهم من هذا التقسيم مبتدأهم في دراسة دلالة المفردة اللغوية عامة ، ومن ثم تخصيصها بالقرآن وكلام الرسول عليه السلام ، فرأوا أنه لا بدّ لمعرفة دلالة المفردة من معرفة حال المتكلم «فإنه أنه إذا عُرف

المتكلم فهم من معنى كلامه ما لا يفهم إذا لم يعرف ، لأنه بذلك يعرف عاداته في خطابه ، واللفظ إنما يدل إذا عُرف لغة المتكلم التي بها يتكلم ، وهي عاداته وعُرفه التي يعتادها في خطابه) ،^(١٧٣) ومن أراد فهم مراد القرآن والرسول من اللفظ فإنَّ عليه أن يعرف طريقة خطاب الله ورسوله (ولهذا ينبغي أن يقصد إذا ذكر لفظ من القرآن والحديث أن يذكر نظائر ذلك اللفظ ، ماذا عنى بها الله ورسوله فيعرف بذلك لغة القرآن والحديث وسنة الله ورسوله التي يخاطب بها عباده، وهي العادة المعروفة من كلامه ، وإذا كان لذلك نظائر في كلام غيره وكانت النظائر كثيرة عرف أن تلك العادة واللغة مشتركة عامة لا يختص بها هوصلى الله عليه وسلم بل هي لغة قومه» وينتفي - بذلك - القياس في اللغة « فإنه قد يجوز للإنسان أن يستعمل هو اللفظ في نظير المعنى الذي استعملوه فيه - ولكن لا يجوز أن يعتمد إلى ألفاظ قد عرف استعمالها في معاني «كذا» فيحيلها إلى غير تلك المعاني ويقول : إنهم أرادوا تلك بالقياس على تلك ، بل هذا تبديل وتحريف»^(١٧٤)

ومن امثلة ذلك كلمة «الخمر» ، ويقول فيها ابن تيميمة صاحب هذا الرأي «وأما الخمر فقد ثبت بالنصوص الكثيرة والنقول الصحيحة أنها كانت اسماً لكل مسكر . لم يُسمَّ النبيذ خمرًا بالقياس»^(١٧٥) ، وقد أخذ بعض أهل الأصول بهذا الرأي ، فحملوا اللفظ على ظاهرة ، وردّوا الأسماء إلى الله تعالى الذي أوقف عباده عليها ، وهو الذي عيّن دلالتها ، أو نقلها عن موضوعها في اللغة ، وإلى ذلك ذهب ابن حزم الظاهري فرأى «أن الاسم إذا تيقنا بدليل نصّ أو إجماع أو طبيعة أنه منقول عن موضوعه في اللغة إلى معنى آخر وجب الوقوف عنده، فإن الله تعالى هو الذي علم آدم الأسماء كلها ، وله تعالى أن يسمي ما شاء بما شاء»^(١٧٦).

وكانت لهذه الآراء أصداءؤها لدى بعض علماء اللغة وعلى رأسهم ابن فارس ، فقد نصّ على توقيفيه اللغة مستدلاً بالآية الكريمة «وعلم آدم الأسماء كلها» ، مستشهداً بتفسير ابن عباس الذي مرّ ذكره^(١٧٧) ، وقرر «أن للغة العرب قياساً ، وأن العرب تشق بعض الكلام من بعض ، وأن اسم الجن مشتق من الاجتنان ، وأن الجيم والنون تدلان أبداً على الستر ، تقول العرب للدرع : جُنة ..»^(١٧٨) .

ولكن ذلك - من وجهة نظره - مقصور على العرب الذين يُحتج بلغتهم دون سواهم من اللاحقين فأضاف : «وعلى هذا سائر كلام العرب ، عِلِم ذلك مَنْ عِلِم وجهله من جهل .. وليس لنا اليوم أن نخترع ولا أن نقول غير ما قالوه ، ولا أن نفيس قياساً لم يقيسوه ، لأن في ذلك فساد اللغة ، وبطلان حقائقها»^(١٧٩) . ذلك أن اللغة ليست من صنع الإنسان وتواضعه ، فلما منع القياس على لغة العرب فإن « هذا أيضاً مبني على ما تقدم من قولنا بالتوقيف ، فإن الذي وقفنا على أن الاجتنان الستر ، هو الذي وقفنا على أن الجن منه»^(١٨٠) . فهو مُقرّ بالقياس ، لكنه لا يراه صحيحاً إلا في لغة الأقدمين .

وقد أتاح المجتمع الإسلامي - وهو يتوسع ليستوعب أمماً غير العرب - للتفسير أن يأخذ نهجاً آخر غير النهج النقلي ، بما كان من اتصاله بثقافات عديدة غير العربية ، فتغيرت «موجهات الحياة عند العرب ، فخرجوا من باديتهم التي اعتمدت حياتهم فيها على أسس واضحة لاتقضي تفكيراً فلسفياً واتصلوا بعناصر متنوعة الثقافة ، مختلفة المشارب والطباع أثرت فيها وتأثرت بها ، ومع اتساع محاولات الفهم بدأت تغلب على النص الديني وتفسيره المنقول

النزعات العقلية التي لم تكن في جملتها إلا نتيجة لهذا التفاعل»^(١٨١)، وقد عبّر ابن خلدون عن هذه النقلة من المنقول إلى المعقول في التفسير بقوله : «وتداول ذلك التابعون من بعدهم ونقل ذلك عنهم، ولم يزل متناقلاً بين الصدر الأول والسلف حتى صارت المعارف علوماً»^(١٨٢) ، وأدّى إعمال العقل في النصوص المنقولة ، واتساع المنهج الفكري إلى حرية التحليل والاستنباط^(١٨٣) ، وهي حرية قد تؤدي إلى التخفف من المسؤولية المنوطة بالنص ، كما أنها قد تمنح الرأي جرأة قد تصل إلى حد التطاول على النصوص وإهدار دلالتها ، إلا أنها تتيح للتأويل مجالاً تتسع معه دلالة النص وتنوع ، بعد أن كان التفسير يتناول ماحول النصّ دون تعمق أو اتساع^(١٨٤).

ونبين ذلك من المقارنة بين تفسيرين عقليين للآية الكريمة «وعلم آدم الأسماء كلها» ، فقد فسّر الزمخشري «- ٥٣٨ هـ» الأسماء كلها بقوله «كلها : أي أسماء المسميات ، فحذف المضاف إليه لكونه معلوماً مدلولاً عليه بذكر الأسماء ، لأن الاسم لا بدّ له من مسمّى ، وعوض منه اللام كقوله «واشتعل الرأس» ، فإن قلت : هلا زعمت أنه حذف المضاف وأقيم مضاف إليه مقامه ، وأن الأصل وعلم آدم مسميات الأسماء ؟ قلت : لأن التعليم وجب تعليقه بالأسماء لا بالمسميات لقوله : «أنبئوني بأسماء هؤلاء»^(١٨٥) . وليست هذه الصورة الجدالية التي عرض بها الزمخشري تفسير الآية إلا واحدة من الصور الجدالية التي سادت في فترة ظهور التفسير العقلي وما تلاها ، وهي فترة لاستطيع تحديدها على وجه الدقة ، فنحن لاستطيع «أن نحدد بداية التدخل العقلي في تفسير النص الديني بعد أن ظل النقل سائداً طوال القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، فبين المنهجين تداول نشأ عن استعانة أحدهما بالآخر في

أغلب الأحيان»^(١٨٦) . لقد كان موضع الخلاف في تفسير هذه الآية بين الزمخشري ذي الاتجاه الاعتزالي العقلي ، وبين معارضييه ، أن الزمخشري فسّر «الأسماء كلها» بأسماء المسميات «وهو يفر من اعتقاد أن الاسم هو المسمى»^(١٨٧) ، ولذلك ذهب البيضاوي «- ٦٥٨ هـ» إلى أن المعنى «ألممه معرفة ذوات الأشياء وخواصها وأسمائها وأصول العلوم وقوانين الصناعات»^(١٨٨) . فالتعليم لم يقع على الأسماء وحدها لأنه لا كبير غرض فيه «بل الغرض المهم تعلية لذوات المسميات وإطلاعه على حقائقها .. وعلى تسميتها أيضا»^(١٨٩) .

وحقيقة الخلاف في دلالة هذه الألفاظ ترجع إلى الخلاف في نشأة اللغة ، فالمعتزلة على أن آدم لم يكن خلواً من لغة تواضع عليها قبل أن يعلمه الله الأسماء ، فقد كان «لابد من لغة يتواضع عليها المخاطب أولاً ليصح أن يفهم عن الله سبحانه ما يخاطبه به ، فاللغة الأولى لابد فيها من مواضعة ، وما بعدها من اللغات يجوز كونها توقيفا ، ولذلك قلنا : إن آدم عليه السلام ، لابد من أن يكون واضع الملائكة لغة أو عرف مواضعاتهم ، ثم علمه ، جلّ وعزّ الأسماء»^(١٩٠) . وقد سمح هذا الاتجاه العقلي في التفسير بحرية النظر إلى اللغة ، لأنها وسيلة إنسانية للتفاهم لاصيغة إلهية فهي موضوع متحرك غير متحجر ، وأصبح الإنسان الذي تواضع على اللغة متمكناً من صياغتها بأسلوبه مبدلاً دلالات مفرداتها . تبعاً لما يقتضيه التعبير من عام إلى خاص ، ومن خاص إلى عام ومن حقيقة إلى مجاز ، إلى حذف وإضمار إلى غير ذلك من طرائق التعبير ، نجد ذلك في كلام العرب وفي شعرهم وفي القرآن الكريم وفي الحديث النبوي الشريف ، وأثر هذا الاتجاه العقلي في دارسي اللغة ، فقد أتاح لهم حرية تفسير مفرداتها ، والنظر في دلالات ألفاظها برؤية جديدة^(١٩١) رفضها القائلون بالتوقيف في اللغة ، وهي نظرة ترى

أن أكثر اللغة مجاز ، فلما كثر فيها المجاز ألحق بالحقيقة ، وكان هذا مذهب ابن جني « - ٣٩٢ هـ » ، وهو معتزلي المنزع ، فهو يرى «أن أكثر اللغة مع تأمله مجاز لاحقيقة . وذلك عامة الأفعال ، نحو قام زيد ، وقعد عمرو ، وانطلق بشر ، وجاء الصيف ، وانهزم الشتاء . ألا ترى أن الفعل يفاد منه معنى الجنسية ، فقولك : قام زيد ، معناه : كان منه القيام أي هذا الجنس من الفعل» (١٩٢) ، وحمل أفعال الله تعالى على المجاز «نحو خلق الله السماء والأرض وما كان مثله ، ألا ترى أنه - عز اسمه - لم يكن منه بذلك خلق أفعالنا ، ولو كان حقيقة لا مجازاً لكان خالقاً للكفر والعدوان وغيرهما من أفعالنا عز وجل» (١٩٣) .

والأمر البين أن هذا الاتجاه العقلي لالنجده عند من تأثروا بالفلسفة والمنطق وحدهم، وإنما نجده أيضاً عند من كان يحكم العقل في النظر إلى النصوص وفي استنباط أحكامها كالشافعي « ٢٠٤ هـ » . ويقف الشافعي موقفاً فرداً بين النازعين إلى البحث عن نشأة اللغة الأولى وبين المعرضين عن هذا البحث ، لكنه ذهب في عمله مذهباً عقلياً واضحاً كان له أثر كبير في بعض دارسى اللغة ، فهو لا ينظر إلى نشأة اللغة ، لكنه ينظر إلى لغة القرآن ويعلل لطريقة صيغته بقوله: «فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها ، على ما تعرف من معانيها ، وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها ، وأن فطرته أن يخاطب بالشيء منه عاماً ظاهراً يراد به العام الظاهر ، ويستغنى بأول هذا منه عن آخره . وعاماً ظاهراً يراد به العام ويدخله الخاص ، فنستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه ... وظاهر يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره ... » (١٩٤) .

لقد فطر (١٩٥) الله العرب على طريقة في الكلام ، وأهم سماتها الاتساع ، وتبديل الدلالة ومن ذلك نقل الكلام عن ظاهره إلى دلالة أخرى ، على أن يرتبط ذلك كله بالسياق الذي يحدد

المقصود من الكلام . فبين الشافعي بذلك طبيعة دلالة المفردة . وقد جعلت هذه النظرة العقلية الواعية اللغة حية متحركة ، مثلها كممثل الانسان الحي المتحرك وفق القوانين الكونية العامة التي خلقها الله واحترعها وابتدئها ، وهي التي فطر الإنسان عليها .

وأشار الامام الشافعي في قوله إلى أن الله تعالى أقدر الإنسان على طريقة في الصياغة اللغوية لها سننها ، ولإنسان أن يتحرك وفق هذه السنن ، فيعبر باللغة عما شاء مستعملاً في ذلك الألفاظ التي تبدل دلالاتها في السياق الذي يعين الدلالة التي قصدها المتكلم ، واستطاعت هذه النظرة إلى اللغة أن تبرز بين ماهو من فعل القادر تعالى ، وبين ماهو من فعل الانسان .

فقد علم الله الانسان قواعد الاتساع وتبديل الدلالة ، وقام الإنسان بذلك ، فطبق بكلامه ماهداه الله إليه من هذه القواعد . وهذا يتيح للإنسان التصرف في دلالات اللغة وطرائق صياغتها وفق القواعد التي فطره الله عليها .

واقفني ابن فارس وهو العالم اللغوي ، هذا الأثر - على ما يبدو - في كتابه «الصاحبي» فجعله قائماً على البحث في الأساليب العربية ، وطرائق متكلميها في التعبير ، وخصائص عملهم في تبديل الدلالة من العام إلى الخاص ، ومن استعمال العام في معنى الخاص ، أو الخاص في معنى العام أو التعبير بالحقيقة والمجاز ، وذلك ، إن الإنسان «لو أنه لم يعلم توسع العرب في مخاطباتها لعي بكثير من علم محكم الكتاب والسنة ، ألا تسمع قول الله جل ثناؤه ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ إلى آخر الآية ؟ فيفسر هذه الآية في نظمها لا يكون بمعرفة غريب اللغة والوحشي من الكلام ، وإنما معرفته بغير ذلك » (١٩٦) .

وإن نظرة عجلى إلى ما أشار إليه الشافعي ، وما ذكره ابن فارس تبين لنا العلاقة بين طبيعة تفكيرهما ، وإن كان ابن فارس لغوياً حمل نشأة اللغة على التوقيف ، ووقف من ذلك موقفاً حازماً . ويظهر ما قدمناه أثر دراسة نشأة اللغة على طبيعة التفكير اللغوي عند علماء العرب أصوليين ولغويين ، وإنَّ غرضَ البصر عن هذا النحو من الدراسة لا يعود بالفائدة على الباحث في اللغة العربية ذلك أن بحثه يبقى ناقصاً فهو يدرس النتائج دون البحث في الأسباب والعلل التي أوصلت إليها .



هوامش الفصل الأول :

- (١) - من أمثلة التحول من الخاص إلى العام قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَطْعَمِ الْكَاذِبِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ ، الأحزاب الآية «١» الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد الناس جميعاً ، الصاحبي : ٣٤٥ . ومن أمثلة التحول من العام إلى الخاص قوله تعالى : ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الاعراف «١٤٣» لم يرد كل المؤمنين ، الصاحبي : ٣٤٥ .
- (٢) - في اللهجات العربية ، د. إبراهيم أنيس ، ص : ١٧ ، وانظر كتاب « توطئه لدراسة علم اللغة » ، قسم : التعاريف ، للدكتور : التهامي الراجحي الهاشمي ، ص : ١١ .
- (٣) = معجم العين للخليل : ٤ / ٤٤٩ ملحق ج ٨ وتحكى مراجعة كتاب « توطئه لدراسة علم اللغة - التعاريف » للدكتور التهامي الراجحي الهاشمي ، ص ١٩-١١٠ ففيه تفصيلات وأمثلة مفيدة
- (٤) - انظر مقدمة معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١/ ٣ - ٤ ، ومقدمة اللسان

لابن منظور ٧/١ .

- (٥) - العين ٤٤٩/٤ ملحق «ج ٨»
- (٦) - حذ ابن منظور اللغة في اللسان وفسرها بالجمع بين ما قاله الجوهري في الصحاح : «لسن» ٢١٩٥/٦ ، وما قاله ابن جني في الخصائص : ٣٣/١ ، فقال «واللغة: اللسن، وحذها أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم .» اللسان: ٢٥١/١٥ - ٢٥٢ ، ويعد عمله مرحلة متأخرة من مراحل تصور مدلول كلمة «اللغة» .
- (٧) - سورة الفرقان ، الآية ٧٢ .
- (٨) - الصحاح : «لغا» ٦ / ٢٤٨٣ . وفي التهذيب : اللغو واللغا واللغوي ما كان من الكلام غير معقود عليه . انظر اللسان ، ٢٥٠/١٥ . وفي تاج العروس : واللغو : الباطل ، عن الإمام البخاري ، وبه لسن الآية وإذا مروا بالغو .» ، التاج ١٠ / ٣٢٩ «لغو» .
- وقال ابن منظور : لغا ، اللغو واللغا : السقط ، وما لا يعتد به من كلام وغيره ، ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع . اللسان : ٢٥٠/١٥ .
- وقال الأصمعي : ذلك الشيء لك لغو ولغا ولغوي ، وهو الشيء الذي لا يعتد به اللسان ١٥ / ٢٥٠ .
- (٩) - سورة « فصلت » الآية ٢٦
- (١٠) - كانت قريش يوصي بذلك بعضهم بعضاً . الكشف ٣ / ٤٥٢ واللسان ٢٥١/١٥ .
- (١١) - في صحيح البخاري ، « كتاب الجمعة » : وإذا قبال لصاحبه : أنصت فقد لغا ، صحيح البخاري بشرح الكرماني ٨ / ٤٢ ، واللسان ١٥ / ٢٥١ .
- (١٢) - انظر قول الكسائي في مادة «لغا» في اللسان : ٢٥١/١٥ .
- (١٣) - الصحاح «لغا» ٦ / ٢٤٨٣ . والتاج «لغو» ١٠ / ٣٢٩ . والنهاية في غريب الحديث والأثر : ٤ / ٢٥٧ .
- (١٤) - سورة الغاشية ، الآية ١١ .
- (١٥) - كلمة لإغية : فاحشة ، وقيل كلمة قبيحة أو فاحشة ، وقيل قنادة في تفسير الآية : أي باطلاً ومائتاً ، وقال مجاهد : شتياً . اللسان ١٥ / ٢٥١

- (١٦) - اللسان : ٢٥١١١٥
- (١٧) - اللسان : ٢٥١١١٥
- (١٨) - من مس الحضا فقد لغا : أي تكلم ، وقيل : عدل عن الصواب ، وقيل
نخاب ، والأصل الأول . النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١٤
٢٥٨ ، واللسان ٢٥١١١٥ .
- (١٩) - واللسان ٢٥١١١٥ .
- (٢٠) - واللسان ٢٥١١١٥ .
- (٢١) - واللسان ٢٥٢١١٥ . وظاهر إن ابن منظور قد أخذ هذه المعاني من
شراح الحديث . أنظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ١٤
٢٥٨ .
- (٢٢) - اللسان : ٢٥٢١١٥
- (٢٣) - يقول د. حسن ظاظا : غيل إلى القول بأنها «اللغة» من أصل يوناني هو
كلمة لوجوس LOGOS التي معناها الأصلي «كلمة» و «كلام» وذكر
المختصون من استعمالاتها في اليونانية : الوحي ، والحكم أو الحكمة ، أو
المثال أو القصة ، أو المقالة ، أو القضية المنطقية أو التعريف أو التفكير
الخ وكل هذا كما نرى يحوم حول التعبير اللفظي عن الفكر . لكن متى
دخلت هذه الكلمة إلى اللغة العربية ؟ لاندري «انظر كتابه» «اللسان
والإنسان» ص ١٢٩ - ١٣٠ ط دار المعارف بمصر ١٩٧١ وله ثمة محاولة
لتعليل عروها إلى اليونانية ونحن نقيد هذا هنا لمزيد من الاطلاع والاستئناس
برأي من يعدها - تأصيلاً - من الدخيل .
- (٢٤) - العين : ٣٩١١٣ واللسان ٣٥٩١٢
- (٢٥) - انظر طريقة جمع اللغة وتبويبها وتنظيمها في كتاب د . أنجد الطرابلسي
«نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب» . فصل : «التأليف في اللغة» .
ص : ٨٢١١٢ .
- (٢٦) - انظر رأي «بالي» في هذه المسألة في «دراسات في فلسفة اللغة العربية» ...
صبيحي الصايغ ص : ٣١٥ .

- (٢٧) - في اللهجات العربية ٥. ابراهيم أنيس . ص: ١٦
- (٢٨) - شعر المهديين ص : ٢٩٧ .
- (٢٩) - المزهري للسيوطي ٢٧٦١٢ . ودراسات في فقه اللغة . د. صبحي الصالح
«لمحة تقيم وخصائصها» ص: ٨٢ - ١٠٥ .
- (٣٠) - الكتاب ٥٧١١
- (٣١) - سورة يوسف الآية : ٣١ .
- (٣٢) - الكتاب ٥٩١١ . وانظر الصاحبي : ٢٩ .
- (٣٣) - الكتاب ٥٧١١
- (٣٤) - الكتاب ٥٧١١
- (٣٥) - مغني اللبيب : ٣٣٥١١ .
- (٣٦) - سورة المجادلة الآية : ٤ .
- (٣٧) - قرأ به عاصم في رواية المفضل عنه ، معاني القرآن للقراء ٤٢١٢ - ٤٤
والبحر المحيط ٢٣٢١٨ ومغني اللبيب : ٣٣٥١١ .
- (٣٨) - الكتاب : ٣٤٢١٤ ، والمقتضب للمبرد ١٠٦١١
- (٣٩) - الكتاب ٥٣٢١٣ .
- (٤٠) - شرح أشعار المهديين للسكري ٥٢١١ ، ومغني اللبيب : ٣٧٢١١ .
- (٤١) - الكتاب : ٢٣١١٤ ، وانظر شرح شافية ابن الحاجب للأسرأباضي ١٣
٧٨ - ٧٩
- (٤٢) - جهرة اللغة ١٦١١٢ ، ٣٦٧ .
- (٤٣) - المزهري ٢٢٢١١
- (٤٤) - الالتقان للسيوطي ١٣٦١١
- (٤٥) - اللغات في القرآن لابن حسون ص : ١٧ ، والالتقان ١٣٥١١ .
- (٤٦) - اللغات في القرآن ص : ١٩ والالتقان ١٣٥/١ .
- (٤٧) - اللغات في القرآن ص : ٣٠ .
- (٤٨) - الصاحبي لابن فارس ص : ٣١ .

- (٤٩) - الخصائص : ١٠ / ٢ .
- (٥٠) - نفسه .
- (٥١) - طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص : ٣٩ ، والمزهر ١ / ١٨٤ - ١٨٥ . وقد ذكر أحمد أمين في ضحى الاسلام ٢ / ٢٥٩ أن هذا الخبر مروي عن الخليل بن أحمد .
- (٥٢) - مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ص : ١٠٦
- (٥٣) - الفهرست لابن النديم ص : ٥٧ ، وفيه «قرأت بخط ثعلب: اجتمع على صناعة كتاب سيبويه اثنان وأربعون انساناً منهم سيبويه» .
- (٥٤) - الكتاب ١٢ / ١
- (٥٥) - نفسه ١٣ / ١
- (٥٦) - نفسه ١٣ / ١ - ١٧
- (٥٧) - نفسه ١٧ / ١ - ١٨ .
- (٥٨) - نفسه ١٩ / ١ - ٢٠
- (٥٩) - نفسه ٢٠ / ١ - ٢١
- (٦٠) - نفسه ٢٢ / ١ - ٢٣ .
- (٦١) - نفسه ٢٣ / ١
- (٦٢) - اللسان ١٥ / ٢٥١ - ٢٥٢
- (٦٣) - المكيات ٤ / ١٧
- (٦٤) - الخصائص ١ / ٣٣ قال «أندريه مارتينييه» في كتابه : مبادئ اللسانيات العامة ص : ١٠ «وتعبير اللغة يشير في المادة إلى قدرة البشر على التفاهم بمساعدة دلائل صوتية» .
- (٦٥) - توطئة لدراسة علم اللغة - التعريف ص : ٣٤ .
- (٦٦) - الخصائص : ١ / ٣٣ .
- (٦٧) - الشفاء - المقولات ص : ٢ .
- (٦٨) - مبادئ اللسانيات العامة ص : ٢٤
- (٦٩) - المزهر ١ / ٣٦ - ٣٧ .

- (٧٠) - الاحكام لابن حزم ١ / ٥٢
- (٧١) - نفسه ١ / ٥٢ ، وشرح الرضي على الكافية ١ / ٣
- (٧٢) - الكليات ٣ / ١١٩ وشرح الرضي على الكافية ١ / ٣
- (٧٣) - الكليات ٤ / ١٦٧ .
- (٧٤) - منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي ص : ٥٦ ، وإرشاد الفحول ص : ١٧
- (٧٥) - دلالة الألفاظ عند الأصوليين ص : ١٧
- (٧٦) - دلائل الإعجاز ص : ٥٠ .
- (٧٧) - نقلاً عن كتاب توطئة لدراسة علم اللغة - التعاريف ص : ٣٥ .
- (٧٨) - إرشاد الفحول ص : ١١٨
- (٧٩) - دلالة الألفاظ عند الأصوليين ص : ١٢٧
- (٨٠) - شرح الرضي على الكافية ١ / ٢
- (٨١) - مِيز سوسير بين اللغة والكلام ، وجعل ذلك مدخلاً إلى تعريف اللغة ورأى أن اللغة نتاج اجتماعي للملكة الكلام ، ومجموعة من المواصفات التي يتبناها الكيان الاجتماعي ليتمكن الأفراد من ممارسة هذه الملكة ، ويفهم من كلامه أن اللغة في منشئها اجتماعية على حين لمجد الكلام متعدد الجوانب والعناصر ، وهو يخص الجانبين الفرد والمجتمع . انظر : دروس في الألسنية فرديناند دي سوسير . ترجمة صالح الفرماضي ورقيقه ص : ٢٩ ، وفصول في علم اللغة العام ، وهي ترجمة أخرى للكتاب نفسه قام بها د. أحمد نعيم الكراعي ص : ٣١ ، وتنحو كثير من تعريفات اللغة نحو ربطها بالعلاقات الاجتماعية ، وجعلها أداة للتعبير عن الأفكار . انظر :
- (THE NEW ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA VOLUME ٢٢ . P٥٦٦)
- (٨٢) - مقدمة الخصائص لابن جني : ١ / ١٨ .
- (٨٣) - كاخوارزمي صاحب «مفاتيح العلوم» «ت على الأرجح ٣٨٧هـ» انظر مقدمة الناشر : G. VAN VO TEN ، والسيرافي - اللسان : «زرجن» ،

وأبي حيان الأندلسي «بغية الوعاة : ١٢٢»، والبارك بن المبارك بن سعيد
النحوي أبو بكر الدهان «ت ٤٣٩ هـ» - انظر البلغة : ١٩٨ .

- (٨٤) - الكيا المراسي « - ٥٠٤ هـ » نقلاً عن المزهري للسيوطي : ١ / ٣٦ .
- (٨٥) - المزهري : ١ / ٣٦
- (٨٦) - أسرار البلاغة ص : ١
- (٨٧) - مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية ص : ١١٩
- (٨٨) - أسرار البلاغة ص : ٢ .
- (٨٩) - نفسه ، ص ٣ .
- (٩٠) - المدخل في دلائل الإعجاز - الدلائل - ص : ٧ .
- (٩١) - الكتاب ١ / ٢٣ .
- (٩٢) - الدلائل ، ص : ٥٠ .
- (٩٣) - الدلائل / ٥٥ - ٥٦ ..
- (٩٤) - الكتاب ١ / ٢٥ .
- (٩٥) - الكتاب ١ / ٢٥ .
- (٩٦) - الكتاب ١ / ٢٤ .
- (٩٧) - الكتاب ١ / ٢٤ .
- (٩٨) - الكتاب ١ / ٢٤ .
- (٩٩) - - الكتاب ١ / ٢٥ .
- (١٠٠) - نفسه .

(١٠١) - جل الأستاذ سعيد الأفغاني في كتابه «في أصول النحو» على استقراء
النحاة الناقص وتوابعهم التي لا تشمل اللغة كلها ، وأحكامهم السريعة ،
وأنتى بمثال هو ما قرأوه في الفعل «ودع» قولهم إن العرب قيد استغفرت عليه
بترك ، انظر : ص ٢٣ ، وما أتى به لا ينقض كلام النحاة .

(١٠٢) - الكتاب ١ / ٢٥

(١٠٣) - نفسه ١ / ٢٤

- (١٠٤) - نفسه
- (١٠٥) - نفسه .
- (١٠٦) - مغني اللبيب ٢ / ٤٠ ، ٢ / ٤٢٢ .
- (١٠٧) - الكتاب ١ / ٣٤ .
- (١٠٨) - نفسه .
- (١٠٩) - نفسه .
- (١١٠) - الفهرست : ٥٨ ، وتاريخ بروكلمان ٢ / ١٥٢ .
- (١١١) - تفسير المسائل المشكلة للفارقي ، الورقة : ٤ .
- (١١٢) الأصول لابن السراج ٢ / ٢٨١ - ٢٨٢
- (١١٣) - تفسير المسائل المشكلة للفارقي ، الورقة : ٩ - وفي ابن يعيش ٧ / ١١٤ أن رأي السراجي جواز تقديم خبر ليس عليها .
- (١١٤) تفسير المسائل المشكلة ، الورقة : ١٣
- (١١٥) - المقتضب : ١ / ١٣ - ٢١ .
- (١١٦) - انظر على سبيل التمثيل - كتاب الأصول لأبن السراج ص : ١ / ١٦٩ - ١٧٢ ففي هذه الصفحات يضع أصول المسائل المفرعة ثم يتبعها في الصفحات ١٧٢ - ١٧٦ ماسماه «مسائل من هذا الباب» .
- (١١٧) تفسير المسائل المشكلة في أول كتاب المقتضب للمبرد لسعيد بن سعيد الفارقي ، انظر الأوراق ٢ - ٦ . فهي تحتوي المسألة الأولى ، وأصولها .
- (١١٨) - العين للخليل ٤ / ٤٤٩ .
- (١١٩) - - الكتاب ١ / ٣١ - ٣٢
- (١٢٠) - تدرس اللسانيات المعاصرة اللغة من خلال إدراج الأشياء «بحر ، طاولة» والأفكار التي نعبر عنها والأصوات التي تكمن مخارجها في فمنا وتبيانها «شكل المحتوى» كما تدرس تتابع الأصوات وأشكال اللغة «شكل الحاي» . وتحاول دراسة هذين الشكلين معاً ، وتنص على وجود علاقة شكلية بين التعبير اللغوي ومعانيه - الألسنية - علم اللغة الحديث - مبادئها وأعلامها د . ميشال زكريا ص : ١٨٨ .

- (١٢١) - البقرة / الآية : ١٨٥
- (١٢٢) - مشكل اعراب القرآن ١ / ٨٦ - ٨٧
- (١٢٣) - الصاجي ص : ٦٩ - ٧٣
- (١٢٤) - سورة النساء / الآية : ١٦٤
- (١٢٥) - الصحاح : ٢٠٣٣/٥
- (١٢٦) - الكليات : ٤ / ١٠٢ .
- (١٢٧) - الدوال الأربع : مصطلح أصولي يغنون به : عبارة النص وإشارته ، ودلالته، والتضاه. انظر: علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف ، ص : ١٢٣
- (١٢٨) - التاج ٩ / ٤٨ - ٤٩ ، والكليات ٤ / ٩٩ . وهناك فرق بين الكلام والتكليم ، فالتكليم تعليق الكلام بالمخاطب ، فهو أخص من الكلام ، وذلك أنه ليس كل كلام خطاباً للآخرين ، أنظر الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري ص : ٢٧ ، وسوف يأتي من بعد شرح لهذه المسألة .
- (١٢٩) - الكليات ٤ / ٩٩
- (١٣٠) - المنحول للغزالي ص : ١٠١
- (١٣١) - الكليات ٤ / ٩٩
- (١٣٢) - التاج ٩ / ٤٨ - ٤٩ ، والكليات ٤ / ٩٩
- (١٣٣) - المنحول ص : ٩٨ .
- (١٣٤) - الكليات ٤ / ١٠٣ .
- (١٣٥) - المعتمد ص : ٩ ، وتاج العروس ٩ / ٤٩ .
- (١٣٦) - الكليات ٤ / ٩٩
- (١٣٧) - المنحول ٩٨
- (١٣٨) - الكليات ٤ / ٩٩ .
- (١٣٩) - الكليات ٤ / ١٠٠ .
- (١٤٠) - حدة الأصوليون العلم بحدود كثيرة منها : «العلم ما يعلم به » ، ومنها «العلم صفة يتأني للموصوف بها إتقان الفعل وإحكامه » ، ومنها «تبيين المعلوم على ماهو به ، أو إدراك المعلوم » . وقال المعتزلة هو «اعتقاد الشيء

- على ماهو به . انظر المنحول للغزالي ، ص ٣٦ - ٣٩ .
- (١٤١) - المنحول ص ٣٩ .
- (١٤٢) - الكليات ٤ / ١٠٠ .
- (١٤٣) - فصول ملحقة بدلائل الإعجاز ، ص ٥٦١ .
- (١٤٤) - نفسه .
- (١٤٥) - نفسه .
- (١٤٦) - نفسه .
- (١٤٧) - نفسه .
- (١٤٨) - نفسه ص : ٥٦١ - ٥٦٢ .
- (١٤٩) - الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري ص ٢٧ ، والكليات للكفري
٤ / ١٠٠
- (١٥٠) - الكليات : ٤ / ١٠٠
- (١٥١) - نفسه ٤ / ١٠١ .
- (١٥٢) - نفسه ٤ / ١٠٢ .
- (١٥٣) - نفسه ، وزفر : هو الامام زفر بن الهذيل « ١١٠ - ١٥٨ هـ »
صاحب أبي حنيفة . طبقات الحفاظ للسيوطي ٧٣ .
- (١٥٤) - الخصائص ١ / ١٧ . وانظر القاموس المحيطة « الكلام » ٤ / ١٧٤ .
- (١٥٥) - نفسه .
- (١٥٦) - نفسه .
- (١٥٧) - نفسه .
- (١٥٨) - نفسه . ص : ١٨
- (١٥٩) - الكتاب ١ / ١٢٢
- (١٦٠) - الخصائص ١ / ١٨ - ١٩
- (١٦١) - نفسه . ص : ١٩
- (١٦٢) - نفسه .
- (١٦٣) - التسهيل ابن مالك ص : ٣ ، والكليات ٤ / ١٠١

- (١٦٤) - دلائل الإعجاز ص : ٧
- (١٦٥) - الزهر ١ / ٢٦ .
- (١٦٦) - في علم اللغة العام د. عبد الصبور شاهين ص : ٨١ ، والمدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي د. رمضان عبد التواب ص : ١٠٩
- (١٦٧) - فقه اللغة وخصائص العربية . د. محمد المبارك ص : ١٨٦
- (١٦٨) - البقرة - ٣٣
- (١٦٩) - يُعدُّ تفسير الطبري أوضح مثال على هذا النوع من التفسير .
- (١٧٠) - انظر مسائل نافع بن الأزرق ، وإجابات ابن عباس عليها في الانتقان للسيوطي ١ / ١٢١
- (١٧١) - مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص : ٥ نقلاً عن ظاهرة التأويل وصلتها باللغة ص : ٢٩ .
- (١٧٢) - تفسير المنار ٣ / ١٩٥ .
- (١٧٣) - تفسير الطبري ١ / ٢٩ .
- (١٧٤) - البقرة الآية ٣١ .
- (١٧٥) - تفسير الطبري ١ / ٧٠ .
- (١٧٦) - كتاب الإيمان لابن تيمية ص : ٤٥ - ٤٦ .
- (١٧٧) - نفسه ص : ٤٦ .
- (١٧٨) - نفسه
- (١٧٩) - نفسه .
- (١٨٠) - نفسه
- (١٨١) - الإحكام ١ / ٥٣١ .
- (١٨٢) - الصاحبي ص : ٦ .
- (١٨٣) - نفسه ص ٥٧
- (١٨٤) - نفسه
- (١٨٥) - نفسه
- (١٨٦) - ظاهرة التأويل وصلتها باللغة ص : ٣٣ .
- (١٨٧) - مقدمة ابن خلدون ص : ٤٣٩ .
- (١٨٨) - ظاهرة التأويل وصلتها باللغة ص : ٣٣

- (١٨٩) - نفسه ص : ٣٤
 (١٩٠) - الكشف للرخنشري ١ / ٢٧٢
 (١٩١) - ظاهرة التأويل وصلتها باللغة ص ٣٤
 (١٩٢) - الانصاف فيما تضمنه الكشف من الاعتزال للاسكندري : الكشف
 ١ / ٢٧٢ .
 (١٩٣) - انوار التنزيل واسرار التأويل ١ / ٢٣ .
 (١٩٤) - الانصاف فيما تضمنه الكشف من الاعتزال - الكشف ١ / ٢٧٢ .
 (١٩٥) - المغني للقاضي عبد الجبار ٥ / ١٦٦
 (١٩٦) - المغني للقاضي عبد الجبار ٥ / ١٧٢ - ١٧٣ .
 (١٩٧) - الحصائص : ٢ / ٤٤٧ - ٤٤٨ .
 (١٩٨) - الرسالة للشافعي ص : ٥١ - ٥٢ .
 (١٩٩) - لطر من الفطرة ، وهي الحالة والخلقة التي اخزوعها الله وابتدأها في
 الانسان ، فهي نوع من الجبله والطبع ، اللسان : ٥ / ٥٨ .
 (٢٠٠) - الصاحبي : ٤ ، والآية المذكورة من سورة الانعام . ٥٢

الفصل الثاني

الحقيقة اللغوية

يُعدّ البحث في الحقيقة اللغوية محصلة لما مرّ من بحث في اللغة، مفهومها ، وتصرف المتكلم بها، ونشأتها ، ذلك أن اللغة - وهي مجموعة الألفاظ التي تهدي إليها مجتمع انساني ما - تحمل في داخلها دلالات على المعاني ، فاللغة لم تكن مطلوبة لذاتها ، وهي الأصوات المركبة ، فالغاية منها دلالتها على المسميات ليتم التواصل بين الناس الذين وضعوا اللغة ، وأخذوا بها أداة للتفاهم .

والحقيقة أنّ الألفاظ المجردة عن التركيب لا تؤدي مهمة التواصل والتفاهم ، فكان لابدّ لها من تركيب يجمعها ، وهو الأمر الذي يقوم به المتكلم ، فهو مستعمل اللغة ، وصانع تراكيبيها ، فيستعمل الألفاظ في بعض الأحيان وفق الدلالات المتواضع عليها في الأصل ، وقد يستعملها بدلالات جديدة تخرجها عن معانيها الأصلية إلى معانٍ أخرى ، ذلك أن المتكلم يحتاج ، وهو يعبر عن المعاني إلى ألفاظ عديدة ، لأن هذه المعاني المعبر عنها متجددة أبداً، متغيرة بتغير الأحوال والظروف ، والمقامات التي يوجد فيها المتكلم، وقد حاول البلاغيون تفسير هذه الظاهرة فرأوا ، (أن حكم المعاني بخلاف حكم الألفاظ ، لأن المعاني مبسطة إلى غير غاية ، وممتدة إلى غير نهاية ، وأسماء المعاني مقصورة معدودة ، ومحصلة محدودة)^(١) .

ولاحظ علماء اللغة والبلاغة أن المتكلم - وهو يتصرف في

دلالة المفردة - : لا بد أن يصدر عن أصل لهذه الدلالة يخرج عليه ،
ويأتي بالمعاني الجديدة استناداً إليه ، فتحدثوا عن أصل اللغة
ومشكلة العلاقة بين الاسم والمسمى .

ولما كان المتكلم قادراً على نقل الدلالات وحدث قواعد
تضبط استعماله للغة ، وهي القواعد التي ضببت التركيب اللغوي ،
وحدثت من حرية المتكلم في الخروج على معاني المفردة الأصلية ،
وقد تعاور اللغويون والنحويون رصد القوانين العامة التي يصحّ بها
تغيير الدلالة ، وحملوا التركيب على المفردة ، فجعلوا له قواعد
أصلية يتم بها ضبطه ومعرفة الأساس الذي يستند إليه ، ومن ثم
يعرف بالقياس إليه أي طارئ يغير المعنى أو يبدله ، فبحثوا عن
الأصل في التركيب .

وإن البحث عن دلالة المفردة ، أو دلالة الجملة لا يتهيأ
للإنسان إلا إذا عاد إلى هذه الأصول وعرفها ، وفهم دلالات
المفردات بالقياس إليها ، فكانت قاعدة الأصل أساسية لمعرفة
دلالات الألفاظ أو دلالات التراكيب .

وأهم ما واجه المشتغلين بالكلام وعلوم اللغة ، وعلوم أصول
الفقه والبلاغة معرفة السياقات المختلفة التي توضع فيها المفردة في
الكلام اليومي العادي ، أو في الكلام الأدبي لرصد دلالة المفردات ،
وتبديها كما نطق بها العرب الذين لمحتج بلغتهم ، وإن العودة إلى
كتب النحو واللغة والبلاغة والأصول تبين كيف استطاع هؤلاء
العلماء دأبين تحديد دلالات المفردات ووظائفها التركيبية فهم لم
يعتدوا - منذ نشأة بحثهم اللغوي - بالمفردات معزولة عن سياقها
التركيبي ، وما فتئت قولة عبد القاهر الجرجاني
« - ٧٢ هـ » تلخص أفكارهم حول الموضوع حيث يعلن أن
« الألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً ينحصر من التأليف ، ويعمد بها
إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب »^(٢) .

ولذلك نستطيع أن نبحت في دلالة المفردة وفق الطريقة التي ارتضاها هؤلاء العلماء ، فندرسها ضمن التركيب ، فلا نعزلها عن سياقها ، فهي تتضح به وتعرف وهي مؤلفة مع الألفاظ الأخرى في نسيج محكم . غير أن هذا لا يعني الاقتصار على دراسة التركيب وحده ، وإنما نسعى إلى أمرين هما دراسة دلالة المفردات التي تؤلف التركيب ، فتتوصل بها جملة ينطق بها المتكلم ، ودراسة دلالات المفردات على أنها ألفاظ تحمل معاني لها أصولها ، ولها طرائق نقلها ، فنتهدى إلى معرفة ذلك بدراسة وجهي الدلالة في المفردات والتركيب.

ولما كانت القاعدة العامة لمعرفة دلالة التركيب ، أو المفردة هي ما سمي الأصل - كما أشرنا - وجد باعث لمعرفة هذا الأصل الذي عنه صدروا في دراسة الدلالة ، وعندما تنهيا لنا معرفته نتبين الطريقة التي بها نظروا إلى الحقيقة اللغوية ، ومن ثم تبدل الدلالات.

فكرة الأصل في اللغة :

ترددت كلمة الأصل في كلام علمائنا القدامى ، ولكن معناها لا يخلو « من الإبهام ، وذلك أنهم إنما كانوا يصيدون ليها عن صورة لهذا المفهوم في أذهانهم دون أن يتطرقوا إليه بحدّ »^(٣).

ولا يمنع ذلك من البحث عن مفهوم الأصل ، ومن تبين تصور له ، كما يظهر في كتب اللغويين والنحويين ، وهو على تشعبه « فإنه يكاد يكون المعنى الأول الذي تؤول إليه كل صورة وهو الحكم الذي يستحقه الشيء ، بذاته ... وهو - بهذا الاعتبار - يشبه أن يكون فكرة مجردة أو صورة ذهنية تمثل هي وما يتفرع عنها في تطبيقاتها المشخصة »^(٤).

وقد جاءت فكرة الأصل من الملاحظة الدائبة لمفردات اللغة وتراكيبها فهم (حين رأوا أن الكلمة الواحدة تتغير صورها بحسب تصريفها وإسنادها إلى الضمائر وتثنيها وجمعها وتصغيرها ... إلخ اقترحوا لها أصلاً يخضع للتغيير والتأثير بحسب قواعد معينة ، وحين رأوا أن الجملة لا تبدو دائماً "على نمط تركيبي واحد اقترحوا لها أصلاً "نمطياً" تخرج عنه بالزيادة والحذف والإضمار والاستتار إلخ وسموا أصل الحرف وأصل الكلمة وأصل الجملة باسم جامع هو «أصل الوضع»^(٥).

وإذا كان أصل الوضع يدلّ على بنية المفردة ، أو بنية التركيب لدى المشتغلين بالدراسات النحوية فإنه يدل على أصل المعنى ، ودلالة المفردة على مسماها أو دلالة التركيب على المعنى الأول لدى المشتغلين باللغة والمعاني ، فالخليل بن أحمد الفراهيدي (-١٧٠ هـ) وهو الذي وضع قواعد دراسة دلالة المفردات في معجمه العين ، وقواعد دراسة التركيب - كما أظهرها سيبويه في كتابه «كأنما لمح ببصيرته أن مختلف ظواهر اللغة تنتظمها خطوط خفية ، وهذه الخطوط الكبرى التي تتشعب عنها الخطوط التي دونها هي التي جعلتها أصولاً ، وجعل الباقي فروعاً»^(٦) ، فعبارة (أصل الوضع) تدل على البنية كما تعني الدلالة . ويحدد مفهومها سياق استعمالها.

مفهوم الأصل :

كان تصور علمائنا للأصل يحملهم على النظر في الكلام جودته وورداًته ، فالكلام الذي يتألف من مجموعة من الألفاظ قصده الإفهام ، غير أنه يتفاوت جودة وورداًته وفق معايير التركيب التي أخذ بها المشتغلون باللغة ، وهم النحويون واللغويون

والأصوليون ، وهي معايير استنبطوها من كلام العرب ، وعمل سيبويه (- ١٨٠ هـ) على جمعها في كتابه ، ومن ثم انتقلت إلى لاحقيه فشرحوها وفرعوا عليها .

ولما كان الإفهام فكرة عامة يمكن أن تتحصل بوسائل مختلفة جعلوه في اللغة يتساند إلى معايير التركيب الصحيحة ، لأن إفهام المتكلم المخاطب مقصودة قد يتمُّ بالإشارة أو بالألفاظ المعدولة عن جهتها ، ولكنه يتم لدى المشتغل بعلوم اللغة بوسائل تعبيرية صحيحة تقاس على كلام العرب الذي ثبتت صحته . ويفسر الجاحظ « - ٢٥٥ هـ » وهو رأس البلاغيين هذا الأصل الذي ينبغي على المتكلم أن يتقراه ، وهو يصوغ كلامه ، فيذهب إلى أن قيمة الكلام في بلاغته ، ولاتنهاً صفة البلاغة للمتكلم دون مراعاته معايير التركيب العربي السليمة ، فيقول : « فمن زعم أنَّ البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب ، والإغلاق والإبانة والملحون والمعرب ، كله سواء ، وكله بياناً ، وكيف يكون ذلك كله بياناً ؟ ، ولولا طول مخالطة السامع العجم وسماعه للفاسد من الكلام لما عرفه . ونحن لم نفهم عنه إلا للنقص الذي فينا ، وإنما عنى العتابي إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء »^(٧) .

فالكلام الذي يتحقق به الإفهام على نحو صحيح مركب وفق قواعد التركيب العربية ، ومنسق مع ما جرده دراسو اللغة من أصول تحب مراعاتها في هذا الكلام ، لأن الأصل هو « القانون » والقاعدة المناسبة المنطبقة على الجزئيات »^(٨) ، وتشير عبارة الجاحظ « إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء » إلى معانٍ كثيرة ، فهي تجمع في ألفاظها القليلة الطرائق التي استند إليها

العرب الفصحاء في تعيين مدلولات ألفاظهم ، وصياغة تراكيبيهم . فتذهب العبارة بنا إلى معان واسعة لتشمل القواعد التركيبية التي عني بها النحويون ، والقواعد اللغوية التي درسها اللغويون والقواعد الدلالية التي اهتم بها اللغويون والبلاغيون والأصوليون .

وقد جمع سيبويه « - ١٨٠ هـ » أنواع الكلام ، وجعلها في أقسام لكل قسم منها صفاته التركيبية اللفظية التي تجري مع القاعدة النحوية أو تخالفها ، وصفاته المعنوية التي تعني التفكير الصحيح أو تدلّ على المغالطة ، فقال في باب « هذا باب الاستقامة من الكلام والاحالة »^(٩) ، « فمعه مستقيم حسن ، ومحال ، ومستقيم كذب ، ومستقيم قبيح ، وما هو محال كذب »^(١٠) ، فالمستقيم الحسن ما كان معناه ولفظه صحيحين ، وهو جارٍ بذلك على قواعد التركيب ، وقواعد التفكير « فأما المستقيم الحسن فقولك : أتيتك أمس ، وسأتيك غداً »^(١١) ، أما « المحال » ، فكلام ينضوي على خطأ فكري واضح ، « وأما المحال فإن تنقض أول كلامك بآخره ، فتقول : أتيتك غداً ، وسأتيك أمس »^(١٢) وقد يتسق الكلام مع القاعدة التركيبية لكنه لا يستند إلى صحة المعنى « وأما المستقيم الكذب فقولك : حملت الجبل ، وشربت ماء البحر والحوى »^(١٣) ، ويشد بعض الكلام عن القواعد المجردة ، فيقبح لذلك « وأما المستقيم القبيح فإن تضع اللفظ في غير موضعه ، نحو قولك : قد زيداً رأيت ، وكى زيداً يأتيتك ، وأشبه ذلك »^(١٤) . ويصوغ المتكلم أحياناً جملة فيها إحالة تركيبية ، ونحطاً معنوي ، فيفسد الكلام من جهتين « وأما المحال الكذب فإن تقول : سوف أشرب ماء البحر أمس »^(١٥) .

ويدلّ كلام سيبويه على أن الأصل في تركيب الجملة أن يكون الكلام متسقاً مع القاعدة النحوية ، وهي قواعد مجردة من

كلام الفصحاء ، صحيحاً من حيث المعنى ، فإن اختل واحد من هذه العناصر المكونة للأصل ضعفت قيمة الكلام بقدر الخروج على هذين الأمرين ، وهما صحة التركيب ، وصحة المعنى .

وأقام سيبويه (- ١٨٠ هـ) قواعده على النظرة إلى الكلام ، فرفض بعضه ، لأنه لا يتسق والقاعدة المقررة ، ولا يتفق والمعنى المقصود من ذلك ما ذكره في باب « هذا باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعولين »^(١٦) ، فقد ذكر المثال الصحيح المتفق مع القاعدة ، والمعنى ، وأوضح ذلك بالقياس إلى كلام عطاع فقال : « وأما ظننت ذاك فإنما جاز السكوت عليه ، لأنك قد تقول : ظننت ، فتقتصر ، كما تقول : ذهبت ، ثم تعمله في الظن كما تعمل ذهبت في الذهاب . فذاك ههنا هو الظن ، كأنك قلت : ظننت ذاك الظن . وكذلك نلت وحسبت . ويدلك على أنه الظن أنك لو قلت : نلت زيدا وأرى زيدا لم يحز »^(١٧) وبين - بذلك - دلالة اسم الإشارة على « الظن » ، وهو المصدر ، وأبانها بقياسها على تركيب غير صحيح جعل فيه اسم الذات بدلاً من اسم الإشارة .

وحمل قواعد الكلام على المعنى المقصود فوجه إعراب بعض المفردات ، وعمله بما يتفق ومعنى الكلام ، فحمل الألفاظ على المعاني التي تقصد منها من ذلك ما أورده في باب « هذا باب منه يضمرون فيه الفعل لقبح الكلام إذا حمل آخره على أوله »^(١٨) ، فقال : « وذلك قولك : مالك وزيدا ، وماشأنك وعمرا ، فإنما حذ الكلام ههنا : ما شأنك وشأن عمرو . فإن حملت الكلام على الكاف المضمر فهو قبيح ، وأن حملته على الشأن لم يحز ، لأن الشأن ليس يلتبس بعبد الله ، وإنما يلتبس به الرجل المضمر في الشأن . فلما كان ذلك قبيحاً حملوه على الفعل ، فقالوا : ماشأنك

وزيداً ، أي : ما شأنك وتناولك زيداً » (١٩) . وكان معياره في النظر إلى هذه التراكيب صحة الكلام واستقامته ، وصحة المعنى المقصود منه ، وهما أصل التركيب الذي يجب على المتكلم أن يراعيه في أثناء صوغه للكلام .

غير أن المتكلم يستطيع التصرف بهذا التركيب على ألا يخرج على القواعد المقررة التي يبينها كلام العرب ، فيضيف إلى ما تقدم قوله : « فإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول ، وذلك قولك : ضرب زيداً عبد الله » (٢٠) .

وهذا التصرف من المتكلم ليس حكماً لازماً ، فهو تصرف المريد ، لأن أراداة اللفظ تبين الدلالة على حقيقتها . فيعمل سيبويه هذا التصرف بقوله : « لأنك إنما أردت به مؤخراً ما أردت به مقدماً ، ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه ، وأن كان مؤخراً في اللفظ » (٢١) .

والمتكلم الذي يقوم بهذا العمل يجب أن يكون على بينة من الأصل الذي صدر عنه ، وهو الأصل المثالي الموجود في ذهن سيبويه ، فيرد إليه كلام اللفظ ويعين مقدار خروجه عليه ، بالقياس إليه وبمعرفته بمواضع الكلم فيه ، فتظهر حدود التصرف والتبديل ، يقول : « فمن ثم كان حد اللفظ أن يكون فيه مقدماً ، وهو عربي جيد كثير » (٢٢) .

ولما كانت الصيغة الكلامية غير مقصودة لذاتها ، وإنما هي ألفاظ مركبة لتدل على المعاني تحتها (٢٣) . ذهب سيبويه إلى معرفة دلالة هذا التقديم الذي قام به المتكلم ووضع أصلاً له يصدر عنه الكلام وقال : « كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم ، وهم ببيانه أعنى ، وإن كانا جميعاً يهتمانهم ويعنيانهم » (٢٤) .

وقد يحتاج الأمر لمعرفة أصل الكلام إلى تصور الحال والمقام الذي قيل فيه الكلام ، وهو أمر قد لا يجده «في القديم» إلا عند داسي الأسلوب العربي ، لقد فطن هؤلاء الدارسون «إلى أن اللغة ظاهرة اجتماعية ، وإنها شديدة الارتباط بثقافة الشعب الذي يتكلمها ، وإن هذه الثقافة في جملتها يمكن تحليلها بواسطة حصر أنواع المواقف الاجتماعية المختلفة التي يسمون كل منها «مقاماً» .

كان من رأي البلاغيين إن «لكل مقام مقالاً» لأن صورة المقال SPEECH EVENT تختلف في نظر البلاغيين بحسب المقام .^(٢٥) CONTENT OF SITUATION

وظف سيبويه في كتابه يوفق بين التركيب ومعناه. فعقد لذلك باباً أسماه «هذا باب وقوع الأسماء ظروفًا وتصحيح اللفظ على المعنى»^(٢٦) ، فقد ذكر فيه معنى «متى» فقال : «وأما متى ، فإنما تريد بها أن يوقت لك وقتاً ولا تريد بها عدداً ، فإنما الجواب فيه : اليوم أو يوم كذا ، أو شهر كذا ...»^(٢٧) ، ويقيس «كم» على «متى» فيقول : «وجميع ما ذكرت لك مما يكون على متى ، يكون مُحَرَّيٌّ على كم ظرفاً وغير ظرف»^(٢٨) . ويقارن بين «كم» و«متى» ، فيجعل الفرق بينهما فرقاً في المعنى ، وهذا الفرق في الدلالة يتصور في تركيب الجملة ، فيقول : «وبعض ما يكون في كم لا يكون في متى ، نحو الليل والنهار والدر ، لأن كم هو الأول فجعل الآخر تبعاً له . ولا يكون الدهر والليل والنهار إلا على العدة ، جواباً لكم»^(٢٩) .

وشرح السيرافي كلام سيبويه مبيناً العلاقة بين صياغة الجملة ومعناها فقال : «يعني أن الدهر والليل والنهار قد تكون جواباً لكم لما فيه من التكثير ، ولا يكون جواباً لمتى لأنه لا دلالة فيه على وقت

بعينه . وقوله : لأن كم الأول ، يعني لأنه دلالة على المقدار في الزمان وغيره » (٣٠) .

وأبان عبد القاهر الجرجاني «٤٧٢ هـ» اتصال اللفظ بالمعنى، وفهم عمل النحاة المتقدمين على أنه سعي إلى الكشف عن المعنى الموجود في نفس المتكلم بصيغة تركيبية صحيحة ، فجعل الأصالة لهذا المعنى ، فأعاد إلى النحو الذي تحول إلى علاقات لفظية صورية عند التأخرين طبيعته الدلالية، وحوله إلى أداة لاتنفصل عن ذات المتكلم الذي يشكل الصورة اللفظية وفق المعنى القائم في نفسه، ففرق بين تركيب الحروف ، وتركيب الكلام «وذلك أن «نظم الحروف» هو تواليها في النطق ، وليس نظمها بمقتضى عن معنى (٣١) ، ولا الناظم لها بمقتضى في ذلك رسماً من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه . فلو أن واضع اللغة كان قد قال «ربض» مكان «ضرب» ، لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد . وأما «نظم الكلام» فليس الأمر فيه كذلك ، لأنك تقتضي في نظمها آثار المعاني ، وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس » (٣٢) ، وليس النظم ضمّاً للكلمات وتأليفاً لها كيف جاء واتفق ، ولكنه تأليف فيه الذوق والفن والمعرفة «فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ، وليس هو «النظم» الذي معناه ضمّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق . ولذلك كان عندهم نظيراً للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشى والتجبير وما أشبه ذلك» (٣٣) .

ويتوخى النظم أمرين على المتكلم أن يراعيهما ، وهو يصوغ كلامه :

* أولهما : أن يراعي دلالات الألفاظ ، لأن صانع الخطاب

لا يلفظ الكلام بمعزل عن دلالاته ، وإلا تحول إلى ماتصنعه المخلوقات الأخرى حين تصدر أصواتها ، فكلام الإنسان له معايير تركيبية هي الصورة التي يوضع فيها .

* وثانيهما : الصورة التركيبية التي على المتكلم مراعاتها ، فحين يعرف المتكلم دلالة الألفاظ فإنّ عليه أن يرتبها ، لأن دلالة اللفظ وحدها غير كافية لصنع الكلام «ولوفرضنا أن تنخلع من هذه الألفاظ التي هي لغات ، دلالتها ، لما كان شيء منها أحقّ بالتقديم من شيء ، ولا تصور أن يجب فيها ترتيب ونظم»^(٣٤) .

وإذا كان النظم ترتيب الكلام على مقتضى المعنى القائم في النفس ، وتوحي دلالات الألفاظ فإن له صورة تركيبية لها معايير على المتكلم أن يأخذ بها ، وليست هذه المعايير إلا ما اقتضاه علم النحو «اعلم أن ليس «النظم» إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه «علم النحو» ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيج عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك ، فلا تخل بشيء منها»^(٣٥) . وتوصلوا إلى مجموعة من القواعد الكلية توجه المتكلم إلى طريقة الصياغة الصحيحة مع مراعاة المعنى ، فوضعت للتركيب أصول عامة تشير إلى ما كان في أذهانهم من أصول تركيبية مجردة وأصول معنوية تراعي حين صياغة الجملة ، من ذلك حديثهم عن المبتدأ والخبر وأن الخبر هو المبتدأ في المعنى ، وينزل منزلة الوصف ، ففارقنا بين الوصف والمبتدأ وقالوا : «فلما كان الخبر هو المبتدأ في المعنى ، أو منزلا منزلته تنزل منزلة الوصف ، لأن الوصف هو الموصوف»^(٣٦) . ومن هذه القواعد الأصولية العامة :

- لا اعتبار بالتقديم إذا كان في تقدير التأخير^(٣٧) .

- جاز أن يكون «قريبك» و «مخادمك» متحملاً للضمير ،
لأنه يشابه الفعل لفظاً ، ويتضمنه معنى ، وهو الأصل في تحمل
الضمائر^(٣٨) .

- الضمير متى تقدم تقديراً لالفظاً أو تقدم لفظاً لاتقديراً فإنه
يجوز^(٣٩) .

- الحذف في كلامهم للدلالة الحال وكثرة الاستعمال أكثر
من أن يحصى^(٤٠) .

- الأضمار قبل الذكر لا يجوز في كلامهم^(٤١) .

- قد يستغنون ببعض الألفاظ عن بعض إذا كان في الملفوظ
دلالة على المحذوف لعلم المخاطب^(٤٢) .

* مفهوم الحقيقة اللغوية:

إن تمييز علماء العربية بين الصورة اللفظية ، وبين المعنى يحملنا
على النظر فيما أرادوه من مصطلح المعنى ، وقد بين أبو هلال
العسكري « - ٣٨٢ هـ » ما فهموه من كلمة المعنى ، وتحدث عن
علاقته بالحقيقة ، وهي المشكلة التي بفهمها تتضح لنا صورة الحقيقة
اللغوية ، لأن مدار عمل النحاة واللغويين والمفسرين وغيرهم كان
محاولة إرجاع الصور التركيبية إلى المعنى الذي عدوه أصلاً لكل
كلمة أو تركيب ، ويفهم هذا من خلال ما حدّ به العسكري المعنى
حيث ذكر «أن المعنى هو القصد الذي يقع به القول على وجه
دون وجه ، وقد يكون معنى الكلام في اللغة ما تعلق به
القصد»^(٤٣) ، فهو ما يريده المتكلم من كلامه ، وما يرمي إليه من
خطابه ، وتفاوت الصياغة ، وتغير نظم الكلام من تقديم وتأخير ،
وحذف وإضمار ، وغير ذلك من وسائل التعبير يقصد بها الدلالة

على معنى دون آخر ، لذلك جعل العسكري المعنى القصد الذي يقع به القول على وجه دون وجه ، كما أرجع معنى الكلام إلى نية المتكلم في خطابه ، فربط بين صيغة الخطاب والمعنى .

أما الحقيقة فهي «ما وضع من القول موضعه منها .. يقال عينته أعنيه معنى»^(٤٤) ، وعنى بذلك أن الحقيقة معنى يدل عليه الكلام ، فقد يقصده المتكلم أو لا يقصده ، وحين يقصده المتكلم فكلامه على الحقيقة ، أو أنه قد تجاوزها إلى دلالات أخرى أرادها ، ولذلك فهي واحدة من المعاني التي قد يرمي إليها المتكلم أو لا يفعل ، وحين يرمي إليها فإنه يكون قد وضع القول موضعه في أصل اللغة فهي «ما وضع من القول موضعه في أصل اللغة حسنا كان أو قبيحا»^(٤٥) ، ويظهر أن فهمهم للحقيقة على هذا النحو كان قد استقر في القرن الهجري الرابع ، لأن ابن جنّي «- ٣٩٢هـ» يحدّثنا بما هو مماثل لحدّ العسكري فيقول : « الحقيقة : ما أقرّ في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة»^(٤٦) ، ويوضح بهذا الحد ماغض من عبارة العسكري في قوله : « ما وضع من القول موضعه » ، فيصرّخ بفكرة «الاستعمال» ، وقد كانت من الأمور التي نَبّه عليها اللاحقون في بحثهم عن دلالة الألفاظ^(٤٧) .

وما طفق تعريف الحقيقة على هذه الصورة مستند جميع من عرفوها بعد هذه الفترة الزمنية ، لأنهم جعلوا الحقيقة المعنى الأصلي أو الأولي الذي تستند إليه صور الكلام في تغييرها وتبدلها ، أو الذي ترجع إليه دلالة الكلمة المفردة مهما اختلفت مواضعها في التركيب ، لأن معرفة أصل معنى الجملة أو الكلمة يمكن سامعها من معرفة المقصود منهما حين يكون في ذهنه المعنى الأصلي الذي يرجعان إليه ، فيفهم مقصد المتكلم قياساً إلى هذا المعنى ، وفرّق الجرجاني

« - ٤٧٢ هـ » في حدّ الحقيقة بين المفرد والجملة ، فحدّها في المفرد بأنّها « كل كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضح - وإن شئت قلت : في مواضع - وقوعاً لا يستند فيه إلى غيره فهي حقيقة »^(٤٨) ، وجعل هذا الحدّ من خصائص الكلمات الدالة في أية لغة من اللغات ، لأن الحكم على اللفظة أنّها حقيقة أو مجاز يجري في جميع اللغات ، وفي جميع الألفاظ الدالة في هذه اللغات سواء أكانت سابقة في الوضع أو محدثة مولده « لأن وصف اللفظة بأنّها حقيقة أو مجاز حكمٌ فيها من حيث إنّ لها دلالة على الجملة لا من حيث هي عربية أو فارسية أو سابقة في الوضع أو محدثة مولدة ، فمن حقّ الحدّ أن يكون بحيث يجري في جميع الألفاظ الدالة »^(٤٩) . ويمثّل تعريف الجرجاني للحقيقة في المفرد ما ذكره أبو الحسين البصري وأبو عبد الله البصري^(٥٠) وابن الأثير^(٥١) .

واعترض ابن حمزة العلوي على هذه التعريفات ، لأنها لا تجمع أجزاء الحقيقة كلّها ، فردّ على أبي الحسين البصري تعريفه الحقيقة ، وناقشه بالتفصيل ، وأظهر ما فيه من تناقض ، وتظهر في مناقشته بعض ملامح المقصود من الحقيقة في نظره ، لأنّه يرى فيها الدلالة على المعاني الفعلية والوضعية ، وجميع الحقائق اللغوية والعرفية والشرعية والاصطلاحية^(٥٢) ، وهذا مفهوم عامّ للحقيقة أرادّه صاحب (الطراز) وقصد إليه من مناقشته لتعريفات الحقيقة^(٥٣) ، ويظهر في اعتراضه على تعريف أبي عبد الله البصري جانب آخر من فهمه للحقيقة ، فيرى أن تعريف الحقيقة بأنّها (اللفظ الذي يفيد ما وضع له)^(٥٤) فاسد لأمرين : « أمّا أولاً فلأنّه يدخل في حدّ الحقيقة ما ليس منه ، فإذا استعملنا لفظ الدابة في الذبابة والدودة فقد أفاد ما وضع له في أصل اللغة ، مع أنّه بالنسبة إلى الوضع

العربي مجاز ، فقد دخل المجاز العربي فيما جعله حداً لمطلق الحقيقة ،
فلهذا كان باطلاً .

وأما ثانياً فلأن هذا يبطل الأعلام المرتجلة ، فإنها أفادت ما
وضعت له مع أنها غير حقائق فيما دلت عليه من معانيها فبطل ما
أورده»^(٥٥) .

وتدل هذه الاعتراضات التي أثبتتها صاحب الطراز على تأثره
بمفهوم الحقيقة كما تصورهما المعتزلة ، فقد ذهبوا إلى أن الحقيقة
الشرعية «كالصلاة والزكاة والحج» ثابتة مطلقاً ، وتبين هذا من
قول البيضاوي «-٦٨٥ هـ» : «الحقيقة اللغوية موجودة ، وكذا
العرفية العامة كالدابة ونحوها ، والخاصة كالقلب والنقض والجمع
والفرق . واختلف في الشرعية " كالصلاة والزكاة والحج " فمنع
القاضي^(٥٦) «-٤٠٣ هـ» ، وأثبت المعتزلة مطلقاً ، والحق أنها
بجازات لغوية اشتهرت لاموضوعات مبتدأ ، وإلا لم تكن عربية ،
فلا يكون القرآن عربياً ، وهو باطل ، لقوله تعالى : ﴿ وكذلك
أنزلناه قرآناً عربياً ﴾^(٥٧) ، ونحوه»^(٥٨) .

وأضاف المتأخرون من أصوليين^(٥٩) وبلاغيين إلى تعريف
الحقيقة تقييدات متعددة ، وقد أرادوا منها تحديد مفهوم الحقيقة
لكي لا يلتبس بدلالات الألفاظ الأخرى ، فعرفها السكاكي
(-٦٢٦ هـ) بأنها الكلمة المستعملة فيما هي موضوعة له من غير
تأويل في الوضع^(٦٠) ، وعلل استعماله للقيود من غير تأويل في
الوضع بأنه ذكره « ليحترز به عن الاستعارة ، ففي الاستعارة تعد
الكلمة مشتملة فيما هي موضوعة له على أصح القولين ولانسميها
حقيقة بل نسميها مجازاً لغوياً لبناء دعوى المستعار موضوعاً
للمستعار له على ضرب من التأويل»^(٦١) .

وراح السكاكي بعد ذكره لهذا التعريف يسرد تعريفات للحقيقة ، ويثبتها بتعليلات مفصلة تبين مبدأ صياغة لها ^(٦٢) ، وتظهر التعريفات التي أوردتها ترده في صياغة تعريف جامع مانع لها ، وعدم استقرار الفكرة في ذهنه ، وهذا ما أوحى للقزويني « - ٧٣٩ - » الذي لخص المفتاح بالرد على تعريف السكاكي للحقيقة ، وقد استند في رده إلى مجموعة من القضايا :

- أولها : الوضع « لأن لفظ الوضع ، وما يشتق منه ، إذا أطلق لا يفهم منه الوضع بتأويل ، وإنما يفهم منه الوضع بالتحقيق .. فلا حاجة إلى تقييد الوضع في تفسير الحقيقة بعدم التأويل » ^(٦٣) .

- الثاني : ضرورة تقييد الوضع باصطلاح التخاطب لأنه « إذا كان لابد منه في تعريف المجاز ، ليدخل فيه نحو لفظ « الصلاة » - إذا استعملها المخاطب بعرف الشرع في الدعاء مجازاً - فلا بد منه في تعريف الحقيقة أيضاً ، ليخرج نحو هذا اللفظ منه كما سبق وقد أهمله في تعريفها » ^(٦٤) .

- الثالث : التأويل والوضع ، فلا يقال « قوله في تعريفها من غير تأويل في الوضع » أغنى عن هذا القيد ، فإن استعمال اللفظ فيما وضع له في غير اصطلاح التخاطب إنما يكون بتأويل في وضعه ، لأن التأويل في الوضع يكون في الاستعارة على أحد القولين دون سائر أقسام المجاز ، ولذلك قال : « وإنما ذكرت هذا القيد ليحترز به عن الاستعارة » ^(٦٥) . واستبدل بتعريف السكاكي تعريفه الخاص للحقيقة ، الذي يعد نهاية المطاف في تعريفاتها ، لأن من جاء بعد القزويني كان عالة عليه في عمله ، فشرحوا تلخيصه ، وبنوا على كلامه . وارتضى القزويني الحد الآتي : « الحقيقة : الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح التخاطب » ^(٦٦) ، وكلام القزويني

تعريف للحقيقة في المفرد دون المركب ، ويعني ذلك أن البلاغيين المتأخرين بعد عبد القاهر الجرجاني لم يعولوا في أبحاثهم على الحقيقة في المركب ، وقصورها على المفرد ، وقد نصّ على هذه الفكرة السعد التفتازاني ، حيث قال في شرحه لتعريف القزويني : « فإن قلت كان الواجب أن يقول : اللفظ المستعمل ليتناول المفرد والمركب قلت : لو سلم إطلاق الحقيقة على المجموع المركب فنقول : لما كان تعريف الحقيقة غير مقصود في هذا الفن لم يتعرض إلا لما هو الأصل ، أعني الحقيقة في المفرد »^(٦٧) ، فجعل الحقيقة في المفرد أصلاً يبنى عليه فرع هو وجودها في المركب ، ولم ينف وجودها فيه ، ويعدّ هذا اقتراباً من طريقة عبد القاهر الجرجاني «٤٧٢» في النظر إليها ، فقد حدّها في المفرد - كما مرّ بنا - ثم بيّن وجهها في التركيب ، ومدار ذلك على دلالة الجملة ، « فكل جملة وضعتها علي أن الحكم المفساد بها علي ما هو عليه في العقل وواقع موقعه فهي حقيقة ، ولن تكون كذلك حتي تعري من التأول »^(٦٨) ، ومثال ذلك : « خلق الله تعالى الخلق ، وأنشأ العالم ، وأوجد كل موجود سواه »^(٦٨) .

ويظهر هذا الحد أن الحقيقة في الجملة مردها إلى دلالتها ، فإن كانت الدلالة فيها على ما يوجهه العقل فهي كذلك ، وإلا فإنها تعني تبدل الدلالة في الجملة إلى غير الحقيقة ، وتكشف الأمثلة أن العقل ، وهو يحكم على الجملة ، لا يعدو أن يكون المبادئ العامة عن الحياة والكون والخلق تلك التي وفرت في النفس ، فردت المصنوع إلى صناعه ، والفعل إلى فاعله الحقيقي ، فالحقيقة هي استعمال الجملة العربية بركنيها المسند والمسند اليه مع ملاحظة العلاقة المعنوية بينهما بحيث يكون المسند من فعل المسند اليه حقيقة لاتأولاً ، ويظهر ذلك أن الجاز لدى الجرجاني على خلاف الحقيقة

فهو «كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضوعه في العقل لضرب من التأول»^(٦٩)، ويبين المثال مقصده من الحقيقة والجهاز الواقعين في الجملة، فمثال الجاهز فيها «فعل الربيع»^(٧٠)، ويعني إسناد الفعل إلى غير فاعله الحقيقي، فقد أثبت «الفعل» للربيع، «وذلك خارج عن موضعه من العقل، لأن إثبات الفعل لغير القاد لا يصح في قضايا العقول، إلا أن ذلك على سبيل التأول وعلى العرف الجاري بين الناس أن يجعلوا الشيء إذا كان سبباً أو كالسبب في وجود الفعل من فاعله كأنه فاعل»^(٧١). وقد أعاد - على هذه الصورة - الجملة التي وقعت على الحقيقة إلى أصلها البسيط، وهو العاري عن التأول، ويعني العودة إلى صورة التعبير الأول الذي صاغه الإنسان حين جمع المفردات التي عبرت عن مدلولات حسية واقعية، وجعلها في صياغة تركيبية لا يشوبها التأويل، وكأنه في ذلك يعبر عن المعنى الأصلي الذي تنطوي عليه النفس قبل أن يتدخل العقل فينقل الدلالات، ويغير في الحكم بتعبير صيغة الإسناد الأصلية، ولهذا جعل اللفظة الدالة على الحقيقة قسمة بين الناس جميعاً لا تختلف فيها الأقوام والأجناس^(٧٢).

وكانت نظرهم إلى المعنى على أنه الأصل الذي يعبر عنه، مما حملهم على النظر في دلالة الألفاظ، ولا يقصدون باللفظ في هذا الموضع الكلمات المفردة، ولكنهم يجمعونها مع التراكيب، فهم يتحدثون عن دلالة الألفاظ مفردة، ومركبة، ولا عبرة لديهم بالكلمة المعزولة عن سياقها، لأن معناها لا يتحصل دون أن تجعل في تركيب يبين دلالتها على معنى دون آخر، فليس الغرض منها دلالتها على المسميات «بل الحق أن الغرض الأصلي من وضع المفردات لمسمياتها أن يضم بعضها إلى بعض ليحصل منها الفوائد المركبة»^(٧٣) وميزوا لذلك بين اللفظ المفرد واللفظ المركب، فحدّوا الألفاظ المفردة بأنها «هي التي لا تتدل أجزاؤها على شيء،

واستنقص فريق من أهل النظر هذا الرسم ، وأوجب أنه يجب أن يزداد فيه أنها التي لاتدل أجزاؤها على شيء من معنى الكل ، إذ قدتدل أجزاء الألفاظ المفردة على معان ، لكنها لاتكون أجزاء معاني الجملة »^(٧٤) .

ليس كل ما ينطق به الإنسان من الألفاظ يجعل دلالة ، فقد يلفظ بعضها دون دلالة على الإطلاق ، فهي مجموعة من الأصوات المؤلفة غير الدالة ، وقد يكون لبعضها أثر في النفس ، لكن لا يستند إلى معادل موضوعي موجود في الخارج ، فإنَّ اللفظ «قد يكون دالاً وقد يكون غير دالٍ كما اعترفوا به ، وذلك على وجهين : أحدهما: أن يكون مؤلفاً من حروف ثم لا يرد بذلك دلالة على أثر في النفس كقول القائل : «ستقتين» . الثاني : أن يرد بذلك دلالة على أثر في النفس لكن ذلك الأثر لا يستند إلى خارج كقولنا : «العنقاء» »^(٧٥) .

ولا يخرج اللفظ غير الدال عن كونه لفظاً ، وكذلك اللفظ الدال ، ولكنه دالٌ بغير التواطؤ ، فكلاهما يسمى لفظ مثل الدال ، ذلك أننا قد نستعمل ألفاظاً غير دالة بالتواطؤ «فإنه قد يُسمع من الناس ألفاظاً فتدل على معان على غير سبيل التواطؤ كمن يقول : أخ ، فيدل على الوجع ويقول : «أخ أخ» عند السعال ، فيدل على أذى الصدر ، فليس ذلك على سبيل التواطؤ المحض حتى يكون الناس قد توافقوا على استعمال ذلك عن السعال مستعملين إياه لفهم أذى الصدر . وهذه وإن كانت أصواتاً - فهي أيضاً ألفاظ، لأنها مركبات من حروف يركبها الإنسان»^(٧٦) .

إنَّ دلالة اللفظ على المعنى أمر في غاية الأهمية للدراسة الحقيقة ، وهي المعاني الأولى البسيطة المرتكزة في النفس ، وكانوا

يسحثون دائماً عن هذه المعاني التي قد يتم تجاوزها وتبديل دلالات الألفاظ التي يجب أن تكون في أصلها دالة عليها ، « لقد كانت الدلالات الأصلية صوت البساطة الأولى ، وصوت القديم الذي لايعروه فساد »^(٧٧) ، ولذلك جعلوها مبتدأهم .

ونظروا إلى الدلالة نظرة شمولية ، فلم يقيدوها أحياناً باللفظ وحده ، وإنما جعلوها عامّة .

ونظروا إلى الدلالة نظرة شمولية ، فلم يقيدوها أحياناً باللفظ وحده ، وإنما جعلوها عامّة ، وقيدوا ما يتعلق منها باللفظ بمصطلح « الدلالة اللفظية » ، فحدّثوا الدلالة بأنها « كون الشيء بحيث يلزم من العلم به العلمُ بشيء آخر ، والأول : الدالّ ، والثاني : المدلول »^(٧٨) .

ويشتمل التعريف على عدة مفاهيم يصح البحث فيها معرفة المقصود منه ، فقد نظر علماؤنا إلى « الدالّ » ، وعرفوه بأنه «الذي يلزم من العلم به العلمُ بوجود المدلول »^(٧٩) ، ورأوا أنه «أسبق إدراكاً وتصوراً وعلماً به »^(٨٠) .

ومن المفاهيم التي أشار اليها التعريف « المدلول » ، وهو الشيء الذي يدل عليه اللفظ الموضوع بإزائه « (٨١) » ، وهو تابع في إدراكه للدال ومتربّب عليه^(٨٢) .

وميزوا بين « المدلول » و « المعنى » و « المسمى » ، فاطلقوا « المعنى » ليدل على المقصود ، ولكن لا يطلق على الصور الذهنية من حيث هي بل من حيث إنها تقصد باللفظ^(٨٣) ، لذلك عرّف بأنه « ما يفهم من اللفظ »^(٨٤) ، أمّا « المسمى » ، فهو « ما وضع له الاسم » ، وهو « أعيم من المعنى في الاستعمال لتناوله الأفراد »^(٨٥) .

وأما «الشيء» هنا فهو « مطلق الأمر ، فهو يشمل العقول
والمحسوس ، وما كان من عالم الغيب المطلق ، وما كان من عالم
الشهود »^(٨٦) .

ويعني اللزوم هنا « عدم الانفكاك لا امتناعه ، بمعنى أنه إذا ما
تحقق العلم بالدالّ ترتب عليه العلم بالمدلول في الجملة ، وهذا
الترتب أعم من أن يكون على سبيل الفور أو بعد التأمل في القرائن
والملازمات ، وأعم من أن يكون بحاجة إلى وسائل انتقالية ، أولاً ،
فكل ترتب إدراك شيء على إدراك شيء آخر يدخل في حـد
اللزوم »^(٨٧) .

وأما العلم فيراد به « مطلق الإدراك والتصور والخطور في
البال على أي حال ، لا خصوص الجزم واليقين والتفصيل المقابل
للظن »^(٨٨) .

وتوسع البلاغيون في مفهوم « الدلالة » مستندين إلى ماتعنيه
الكلمة في اللغة ، وإلى ما لاحظته بعض اللغويين من أهمية دلالة
«الحال » في التعبير عن المعنى ، فقد روى اللغويون أن «دلّ» يحمل
معنى «التسديد » ، فنقول : « دلّه على الشيء يدلّه دلاً ودلالة
فاندلّ ، سدّد اليه »^(٨٩) ، وذكر ابن الأعرابي أن « دلّ يدلّ : إذا
هدى »^(٩٠) .

وكان الجاحظ «٢٥٥هـ» من أهم علماء البلاغة الذين بحثوا
في مسألة «الدلالة » ، لعله من أوائلهم ، ولم يقتصر في بحثه فيها
على المعنى اللغوي ، ولكنه استند اليه ليفهمها على نحو واسع ،
فيجعلها صورة للبيان الذي أسس له ، وكان مدار عمله ،
فأوضحها بقوله : « الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو
البيان »^(٩١) .

ولا عيرة لديه هنا بالدلالة اللفظية وحدها ، فليست مقصودة عند الجاحظ لذاتها ، لأن البيان وهو الدلالة اسم جامع لكل ما يظهر المعنى ويبين عما استتر في الضمير ، ففسر معنى البيان بأنه «اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته ، ويهجم على محصولة كائنا ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان الدليل ، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضع»^(٩٢) .

وتتنوع الدلالة ، وتنظم في أصناف ، واحد منها الدلالة اللفظية ، وقد جعلها الجاحظ في خمسة أشياء فقال : « وجمع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد ، أولها : اللفظ ، ثم الإشارة ، ثم العقد^(٩٣) ، ثم الخط ، ثم الحال التي تسمى نصيبه ، والنصبة : هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ، ولا تقتصر عن تلك الدلالات ، ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبيتها ، وحلية مخالفة لحلية أختها ، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة ، ثم عن حقائقها في التفسير ، وعن أجناسها وأقذارها ، وعن خاصها وعامها ...»^(٩٤) .
فالدلالة في عرف الجاحظ تشير « إلى العلامة التي بدونها لا يكون لحاجات الفكر المستترة وجود ظاهر محسوس ، فالدلالة بالنسبة للمعنى ، هي إذن الإشارة الظاهرة التي بواسطتها يمكن تعيينه وتجسيده»^(٩٥) .

ونظر الأصوليين والبلاغيون إلى الدلالة من وجهة أخرى هي معرفة الارتباط بين الدال والمدلول فجعلوها أقساما ، هي : دلالة لفظية ، وغير لفظية ، وكل منهما وضعية وعقلية وطبيعية « ولا

يعتدّ الأصوليون والبلاغيون بكل من الدلالة غير اللفظية بأقسامها الثلاثة ولا بالدلالة اللفظية الطبيعية والعقلية بل القصد إلى الدلالة اللفظية الوضعية»^(٩٦).

والدلالة اللفظية الوضعية هي « دلالة الالفاظ الموضوعية على مدلولاتها »^(٩٧). ولا يتهيأ لنا معرفة الارتباط بين الدال والمدلول ضمنها إلا بمعرفة «الوضع» ، فهي « التي يكون طريق العلم بالارتباط بين «الدال اللفظي» ، ومدلوله هو العلم بالوضع »^(٩٨). وحدها الأصوليين بأنها « كون اللفظ إذا أرسل عُلم منه المعنى للعلم بوضع ذلك اللفظ لذلك المعنى »^(٩٨). ويفهم من التعبير «أرسل» الوارد في الحد أن اللفظ يدل على معناه إذا لفظ سواء أراد المتكلم به ذلك المعنى أم لم يُرد^(٩٩) « فإننا قاطعون بأننا إذا سمعنا اللفظ وكنا عالمين بالوضع نتعقل معناه ، سواء كان أراده الالفاظ أو لا ، ولانعني بالدلالة سوى هذا ، فالقول بكون الدلالة موقوفة على الإرادة باطل لاسيما في التضمن والالتزام »^(١٠٠) ويعني هذا أنّ اللغة نظام اجتماعي موجود في أذهان الناس المتكلمين بها ، وأن اللفظ يدل على معناه الوضعي حين إطلاقه ، ولا عبرة في أن يكون المطلق أراد المعنى أو لم يرد ،

لأن الحكم على اللفظ بعد إطلاقه ليس من حق المتكلم ، وإنما مرده إلى نظام لغوي عام يُحكم على اللفظ به ، وليس السامعون في حاجة إلى إشارة المتكلم إلى المعنى المقصود من لفظه ، لأن المعنى متوضع في أذهاننا لعلنا بالوضع . ومدار الأمر في ذلك على الإفهام « فاللفظ إن أطلق وأريد به معنى ، وفهم منه ذلك المعنى فهو دالّ عليه »^(١٠١).

ولهذا الأمر ربط الجاحظ «٢٥٥» بين البيان الذي جعله مفسراً للدلالة وبين الفهم والإفهام فقال : « لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام ، فبأي شيء

بلغت الإلهام وأوضحت المعنى فذلك هو البهان في ذلك
الموضع»^(١٠٢).

ويزيد مسألة الدلالة وضوحاً معرفتنا بالوضع ، لان الدلالة
اللفظية مرتبطة بمعرفة المتكلم والسامع وضع الألفاظ ، ولكلمة
«الوضع» معنيان : لغوي واصطلاحي ، أما معناها اللغوي فإن مادة
«وض ع» تعني - كما ورد في معاجم اللغة - « التحيز » أي جعل
الشيء في مكان أو حيز^(١٠٣) ، وهذا ما يمكن فهمه من معانيها
المتعددة التي أوردتها اللغويون . وأما معناها الاصطلاحي فهو « كون
الشيء مشاراً اليه بالإشارة الحسية ، وتخصيص اللفظ بالمعنى »^(١٠٤) ،
فالعبرة في ذلك معرفة المسميات معرفة حسية ، وإطلاق الألفاظ
لتوضع بإزاء المعاني لتكون دالة عليها ، مما يجعل اللفظ مرتبطاً
بالمعنى الحسي ، ويكون ذلك بتدخل الوضع الذي يشير إلى
المسمى ، ويطلق اللفظ ، مما يجعل الألفاظ دلالة على المعاني ، لهذا
حدّ بعضهم الوضع بأنه « جعل الشيء دليلاً على المعنى ، وهو من
صفات الواضع »^(١٠٥) ، ولما كانت الغاية من الوضع الإلهام ، فإن
جعل اللفظ دليلاً على المعنى ومشاركة المتكلم والسامع بمعنى
الوضع الأصلي يؤدي إلى فهم السامع مقصود المتكلم ، فتكون الغاية
من الوضع « جعل اللفظ دليل المعنى ، فيفهمه منه العارف لوضعه
له »^(١٠٦).

وليس التكلم بمعزل عن دلالة الألفاظ ، لأنه يقصد به إلى
معنى من المعاني القائمة في نفسه ، والسامع - وفق الطريقة المنضبطة
التي أسس لها علماء البلاغة والأصول - قادر على فهم المعنى بدلالة
الألفاظ الوضعية ، فاللافت يريد إلى المعنى باستعمال الألفاظ على
أن تكون جارية على قانون الوضع لا على خلافه حتى يتحقق
الفهم والإلهام ، فدلالة الألفاظ « لما كانت وضعية متعلقة بإرادة
اللافت إرادة جارية على قانون الوضع ، فاللفظ إن أطلق وأريد به

معنى ، وفهم منه ذلك المعنى فهو دالّ عليه ، وإلا فلا » (١٠٧) .
وتنبه الجاحظ ، وهو رائد من رواد البحث الدلالي لما لحال
المتكلم ولصورته من أهمية في معرفة السامع دلالة اللفظ ، فقد تنقل
تعبيرات الوجه ، وطريقة النطق إلى المخاطب شيئاً كثيراً من مقاصد
المتكلم ، ومن المعاني التي انطوت عليها نفسه ، لأن تعبيراته لإشارات
تدل على ما يحسّ به ، وهو يحمل الألفاظ دلالتها ، وينقل بها
المعاني الكامنة ، وفي ذلك يقول : « والصوت هو آلة اللفظ
والجوهر الذي يقوم به التقطيع ، وبه يوجد التأليف . ولن تكون
حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منشوراً إلا بظهور
الصوت ، ولا تكون الحروف كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف . وحسن
الإشارة باليد والرأس من تمام البيان باللسان ، مع الذي يكون مع
الإشارة من الدلّ والشكل (١٠٨) والتقتل والتشني ، واستدعاء
الشهوة ، وغير ذلك من الأمور » (١٠٩) .

والى مثل هذا يذهب ابن جني « ٣٩٢ هـ » فيربط الدلالة
بحال المتكلم ، وبما يظهر عليه من التعبير عن المعنى ، وبما يلمح على
قسمات وجهه مما يدل على مقصوده ، فالسامع الرائي يفسر
الألفاظ وفق ما يراه من تعبير مرافق لنطقها « وذلك أنك تحس من
التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله : طويل أو
نحو ذلك . وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملت به ، وذلك أن
تكون في مدح إنسان والثناء عليه ، فتقول : كان والله رجلاً فترى -
في قوة اللفظ بـ (الله) هذه الكلمة ، وتتمكن من تمطيط اللام وإطالة
الصوت بها وعليها أي رجلاً فاضلاً أو شجاعاً أو كريماً أو نحو
ذلك ، وكذلك تقول : سألناه فوجدناه إنساناً ! وتتمكن الصوت
بإنسان وتفخمه ، فتستغني بذلك عن وصفة بقولك : إنساناً سمحاً
أو جواداً أو نحو ذلك . وكذلك إن ذمته ووصفته بالضيق قلت :

سألناه وكان إنساناً ! وتزوي وجهك وتقطبه . فيعني ذلك عن قولك : إنساناً لثيماً أو لجزاً أو مُجَّلاً أو نحو ذلك»^(١١) . فالتكلم قادر على تبيان مقصوده بقسمات وجهه المعبرة ، أو بتنظيم الأصوات ، وتمكينها مما يحمل السامع على تفهم دلالات الألفاظ ، فيعلم ما قصد به المتكلم أصل الوضع ، وما بدّل دلالاته إلى معاني أخرى .

فالدلالة لاتنفك عن الوضع ، فهي مستندة اليه ، وهو الأصل الذي يرتد اليه الكلام ، وهو المعنى الأول القائم في النفس ، والمعبر عنه باللفظ الدال عليه ، أو بالخال التي عليها المتكلم ، فتضافر أنواع الدلالات كلها التي أشار اليها الجاحظ ، وبخاصة دلالة اللفظ الوضعية ، ودلالة الإشارة ودلالة الخال أو النصبة لتحمل إلى السامع المعنى المقصود من الكلام . فارتباط الدلالة بالمعنى وثيق ، بل هما أمران لاينفصلان ، لأن المعنى يبقى كامناً في النفس حتى تأتي الدلالة فتظهره باللفظ أو بغيره ، والدلالة ذاتها تحيل إلى المعنى القائم في النفس ، فكانت للفظ دلالة على المعنى ، ولايصح الإفهام دونها . ولما كانت الدلالة اللفظية متبدلة متغيره صحّ أن يكون لها في ذهن المتكلم والسامع أصل ترجع اليه ، وتقاس عليه ، فكانت فكرة الأصل مَرْدُّ التغير إلى الثبات ، ومرجع السامع ، ومقياسه الذي اليه يستند ليفهم معنى الكلام وتغير دلالاته وأوضاعه ، فالمعنى القارّ في النفس والمعبر عنه باللفظ الذي يدلّ عليه هو الأصل ، وهو الحقيقة البسيطة الأولى التي يرتد اليها الكلام ، وكان بحشهم في ذلك مستنداً إلى هذه الفكرة فاتجهوا إلى دلالة الألفاظ الوضعية وجعلوها مبتدأ للكلام على دلالة الألفاظ وردوا اليها دلالة اللفظ الذي يرسله المتكلم ليفهمه السامع ، ولم يلتفتوا إلى إرادة الالفاظ ، لأن المقصود من الكلام هو الإفهام ، ولا يتحقق ذلك

دون معرفة المتكلم والسامع لأصل وضع الألفاظ ودلالاتها على مسمياتها الحقيقية الموجودة في الخارج ، أو في التصورات القائمة في ذهن ، وحدّوا الحقيقة وفقاً لهذا المفهوم ، فجعلوها قائمة في دلالة اللفظ على أصل وضعه دون أن يعرفوها تبدل أو تأويل ، فهي المعنى الأصل الذي يتكون في ذهن الإنسان ويمر عنه بالألفاظ الدالة عليه ، ولهذا الأمر قدموا الحقيقة على الجواز ، لأن الحقيقة أصل ، والجواز فرع عليه ^(١١١) ، وربطوا بين الحقيقة وأصل الوضع فقالوا : «لما جعل الوضع قيداً في الحقيقة احتاج لتعريفه فقال: إنه تعيين اللفظ للدلالة على معنى ، وهذا حسن ، وقوله بنفسه يخرج تعيين اللفظ للدلالة على معنى بقرينة فهو الجواز ، فذلك التعيين لا يسمى وضعاً» ^(١١٢) .

الحقيقة اللغوية والعلاقة بين الدال والمدلول :

وبحثوا - وهم في موضوع المعنى والدلالة والأصل - في طرائق انتقال الخارج إلى ذهن الإنسان ، وتكوّن المفاهيم في نفسه ، وعلاقة اللفظ بمسماه ، فمازوا بين الوجود الخارجي والمعنى المتحصل في ذهن .

ذهب أبو اسحاق الشيرازي إلى أن الألفاظ موضوعة بذات الماهيات الخارجية ، فربط بين اللفظ ومدلوله من خلال وعي الإنسان ، وألغى التصورات القائمة في ذهن عن الخارج ، والتي تعبر عنها الألفاظ ، ويعني ذلك عدم انفكاك الدال عن المدلول ، ولذلك رأى الرازي « - ٦٠١ هـ » «أنه لا دلالة للخبر على أعيان الموجودات» ^(١) . فقولك : «خرج زيد لادلالة له على خروج زيد ، بل حكمك بذلك . إذ لو دلّ على خروج زيد لكانت هذه الألفاظ متى وجدت وجد خروج زيد ، لاستحالة انفكاك الدليل عن

المدلول. لو كانت كذلك لكنت لا تسمع الرجل يثبت أو ينفي إلا
تيقنت ثبوت مثبتته ، أو انتفاء منفيته . بل لو أثبتته واحد ونفاه آخر
لزم اجتماعهما جميعاً»^(٢).

وذهب آخرون إلى أن دلالة اللفظ مرتبطة بالتصورات القائمة
في الذهن عن الخارج ، فرأوا أن المعاني «هي الصور الحاصلة في
الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان»^(٣) ، وفسروا الدلالة وفقاً
لهذا المفهوم ، وهو ما أشار إليه ابن سينا بقوله : «ومعنى دلالة
اللفظ أن يكون إذا ارتسم في الخيال مسموع اسم ارتسم في النفس
معنى ، فتعرف النفس أن هذا المسموع لهذا المفهوم ، فكلما أوره
الحسّ على النفس التفتت إلى معناه»^(٤) ، فالألفاظ مثيرات نفسية
تحرّض الذهن على اظهار المفاهيم والتصورات الكامنة فيه ، والتي
هي تصورات عن الخارج ، فليست الألفاظ مرتبطة بالخارج ، بل
هي أصوات تثير الذهن ، وتنبّه الوعي ليعيد تصور الخارج ،
ويتذكر المفاهيم التي حصلها من وعيه لما حوله.

فالألفاظ وفق هذا المفهوم تقف بيننا وبين الأشياء المدركة
المختزنة في الذهن على صورة مفاهيم ، وقد عبّر «برجسون» عن
ذلك فقال : «والحق أننا لا نرى الأشياء ذاتها ، بل نحن إنما نكتفي بـ
معظم الاحيان بقراءة تلك البطاقات الملصقة عليها .. وقد جاءت
اللغة فعملت على تزايد شدة هذا الميل المتولد عن الحاجة ، وبالتالي
فقد أصبحت الأشياء مجرد "مدرجات كلية" تشير إلى بعض
الاجناس»^(٥).

ويتصل الإنسان بالخارج ويعقله من خلال وعيه له وإدراكه ،
ومن خلال تصوراته عنه ، فليست الصور المختزنة في الذهن هي
الأشياء الخارجية نفسها ، وإنما هي تصوراتنا عنها «فكل شيء له
وجود خارج الذهن فإنه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن
تطابق لما أدرك منه»^(٦).

ويمكن أن نفهم ذلك بأن اللفظ «يثير في ذهن السامع صورة الشيء الذهنية لا الشيء نفسه ، ويكون الانتقال إلى الأشياء الحسية عن طريق هذه الصور الذهنية أو المفاهيم أو المعاني القائمة في أذهان الناس والمتكونة نتيجة تجاربهم . إن هذه المعاني هي الجسر الموصل بين عالم الأسماء «اللغة» وعالم الأشياء ، وما أكثر ما تحلّ المعاني التي اصطنعها الإنسان وجردها عن الأشياء محلّ الأشياء الحقيقية نفسها»^(٧).

ولما كان الأمر كذلك ، فإنّ الناس يتفاوتون في إدراكهم للخارج ، وتختلف بحسب اختلاف هذا الإدراك تصوراتهم عنه ، لأن عملية الإدراك لا تعني معرفة البيئة الخارجية والداخلية فقط ، فهو «يشتمل على عمليتين تحدثان في آن واحد : عملية التلقي ، وعملية التأويل ، أمّا العملية الأولى فتكون بواسطة الحواس ، أي أعضاء الإحساس ، أمّا العملية الثانية فهي فعل عقلي»^(٨). فإن اتفق الناس على الإدراك الحسي ، فإنهم قد لا يفعلون في الإدراك العقلي ، ويرتبط الإدراك كذلك بمدى وضوح المدرك ، وهنا يختلف الناس في تصورهم له ، بل يتغير إدراك الفرد الواحد للشيء بتغير درجة وضوحه في الذهن ، ونستعمل للدلالة على تصوراتنا لهذا الشيء المدرك ألفاظاً تتعدد بتعدد درجة وضوحه ، وقد تنبه الفخر الرازي «- ٦٠٦ هـ» لهذه المسألة ورأى أن اللفظ «يتغير بحسب تغير الصورة في الذهن ، فإنّ من رأى شبحاً من بعيد وظنه حجراً أطلق عليه لفظ الحجر ، فإذا دنا منه وظنه شجراً أطلق عليه لفظ شجر ، فإذا دنا وظنه فرساً أطلق عليه اسم الفرس ، فإذا تحقق أنه إنسان أطلق عليه لفظ الإنسان ، فبان بهذا أنّ إطلاق اللفظ دائر مع المعاني الذهنية دون الخارجية»^(٩).

وتقف اللغة بين الأشياء الخارجية والمعاني الذهنية التي يتصورها الإنسان في نفسه ، فهي التي تعبر عن إدراكنا وتنقل بواسطة ألفاظها ماتمصل في النفس من صور ذهنية «فإذا عبر عن تلك الصور الذهنية الحاصلة عن الإدراك أقام اللفظ المعبر به هيئة تلك الصورة الذهنية في أفهام السامعين وأذهانهم»^(١٠) ، ويتحول المعنى بهذه العملية من الذهن ليحل في الألفاظ فيصير له «وجود آخر من جهة دلالة الألفاظ»^(١١) . فاللغة كما يقول «هيدجر» . «هي أداة الإنسان لتحقيق العلانية وإظهار المستخفي ، أو هي تجلّي الوجود البشري في العالم الخارجي»^(١٢) .

ولافرق في دلالة الألفاظ المنطوقة أو المكتوبة على هذه التصورات الذهنية أو المعاني ، فقد جعل الخط ليكون علامات على الألفاظ الدالة «فإذا احتيج إلى وضع رسوم من الخط تدل على الألفاظ مَنْ لم يتهياً له سمعها من المتلفظ بها صارت رسوم الخط تقيم في الأفهام هيئات الألفاظ فتقوم بها في الأذهان صور المعاني ، فيكون لها أيضاً وجود دلالة الخط على الألفاظ الدالة عليها»^(١٣) ، ويتحول الكلام إلى نص مكتوب يتفق ونظرة المعاصرين إلى النص^(١٤) .

وليس المعنى تصوراً للحقائق الخارجية المحسوسة دائماً ، وهي الحقائق التي يدركها الإنسان بحواسّه فإذا هي صورة ذهنية للماهيات الخارجية الحسية ، فقد تكون الحقيقة الخارجية متمثلة في انذهن دون أن يكون لها معادل محسوس في الخارج ، فهي حقيقة ثابتة في النفس يتصورها الإنسان ، لكن تصوره يبقى قاصراً عنها ، فلا يدركها إدراكاً كاملاً ، لذلك يظل تصوره في مبعده عنها ، ولما يعبر عنها باللفظ ، فإن اللفظ يحمل المعنى النفسي ، فتبقى دلالة على الحقيقة غير قابلة للأخذ أو النقص ، فكما التصور الذهني بعيد

عن الحقيقة الخارجية كذلك اللفظ بعيد عن المعنى ، وكلاهما تعبير
عن حقيقة خارجية ثابتة في النفس ، وموجودة في الخارج ، وقد
عبر عن ذلك السيرافي تعبيراً دقيقاً حين سأل أبو حيان التوحيدي
عن قوله تعالى : ﴿قائماً بالقسط﴾^(١٥) : بم انتصب «قائماً» ؟
«قال: بالحال ، قلت : لمن الحال ؟ قال الله تعالى ، قلت : فيقال لله
حال ؟ قال : إن الحال في اللفظ لالمن يلفظ بالحال عنه ، ولكن
الترجمة لاتستوفي حقيقة المعنى في النفس إلا بعد أن يصوغ الوهم
هذه الأشياء صياغة تسكن إليها النفس ، وينتفع بها القلب ، ثم
تكون حقائق الألفاظ في مفادها غير معلومة ولا منقوصة باعتقاد ،
وكما أن المعنى على بعد من اللفظ ، كذلك الحقيقة على بعد من
الوهم»^(١٦) .

ويوضح ذلك طبيعة النظر إلى الحقيقة الخارجية وتصورها في
الذهن ، فالحقيقة الخارجية منفصلة عن التصور ، واللفظ المعبر عن
التصور الذهني منفصل عن المعنى ، وإن كانا جميعاً يعبران عن
الحقيقية الخارجية تعبيراً غير مباشر ، فالذهن يتصور ، واللفظ يعبر
عن التصور ، فاللفظ لايعبر بذلك عن الحقيقية الخارجية نفسها ،
وإنما يدل على ما في النفس من تصور لها وإن كانت الأمور الخارجية
مبتدأ ارتسام الصور في النفس ، فإن النفس قادرة بسبب وعي
الإنسان على تصور أمور أخرى في داخلها على نحو ماتصورت
الأمور الخارجية ، ويعني ذلك تولد التصورات في النفس ، وتقلب
المعاني فيها ، وتجدها وفق قدرة الإنسان على التخيل والتصور ،
فليس الإنسان مرتبطاً بالخارج دائماً ، وإنما كينونته الخاصة ،
وجوده الداخلي المتميز ، ووعيه الواسع ، ويعبر عن ذلك ابن سينا
بقوله : «إن الإنسان قد أوتي قوة حسية ترسم فيها صور الأمور
الخارجية ، وتتأدى عنها إلى النفس فتترسم فيها ارتساماً ثانياً ثابتاً ،
وإن غاب عن الحس ، ثم ربما ارتسم بعد ذلك في النفس أمور على

نحو ما أداه الحس ، فإمّا أن تكون هي المرتسمات في الحس ، ولكنها انقلبت عن هيئاتها المحسوسة إلى التجريد أو تكون قد ارتسمت من جنبه أخرى لاحاجة في المنطق إلى بيانها »^(١٧) . وذلك أن الانسان مفكر بطبعه ، فهو قادر على تحقيق وجود للفكرة المجردة في الخارج ، (فالفكرة التي تجول في الذهن بمجرد انتقال إلى شيء يتحقق وجوده ، وبعد أن يوجد الشيء ينتقل إلى أذهان الآخرين بطريق اللغة ، ولهذا كانت الكلمة رمز الخلق والإيجاد »^(١٨) ، وإنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له : كن فيكون »^(١٩) ، ولهذا كان الكلام في سالف الأزمان أداة السحر »^(٢٠) . وتنبه علماء العربية إلى مسألة في غاية التعقيد ، وهي علاقة الاسم بمسمّاه ، أو قدرة اللغة على التعبير في المسميات بما يكشف حقائقها ويميزها ، وإمكانياتها لنقل المعاني التي تصورها الألفاظ ، لأن المعاني كثيرة ، وتجارب الإنسان غير محدودة ، والألفاظ التي تشتمل عليها اللغة محدودة العدد ، فحكموا على المعاني بما لم يحكموا به على الألفاظ ، وهذا ما أشار إليه الجاحظ حين ميز بين حكم المعاني المبسوطة إلى غير غاية وحكم الألفاظ المقصورة المعدودة^(٢١) .

فالألفاظ مهما تناهى عددها غير قادرة على تحمل المعاني كلها ، تلك المتصورة في النفس ، ثم إنها غير قادرة على تحديد جميع صفات المسمى ، وإنما حسبها أن تنقل بعض جوانبه إلى الآخرين فالاسم « لا يدعي تحديداً لطبيعة المسمى إذ لا يراد له » . يجلو لنا حقيقة الشيء . ووظيفة الاسم مقصورة دائماً على تأكيد جانب خاص من الشيء المسمى ، وهذا القصر أو التحديد هو وحده الذي تعتمد عليه قيمة الاسم . وليس من وظيفة الاسم أن يشير على نحو جامع شامل إلى موقف محسوس ، وإنما حسبه أن يفرد مظهراً واحداً يتعلق به »^(٢٢) .

وتتصف ألفاظ اللغة بأنها غير محددة الدلالة على نحو دقيق ،
لأنها تعطي مفاهيم عامة عن الموضوع الخارجي أو الذهني ، ولذلك
رجّح الاصفهاني أن اللفظ «موضوع للأعم من الذهني
والخارجي»^(٢٢) .

فالألفاظ غير قادرة على الإحاطة بالمعاني المعقولة ، لأنها
لا تطابق التجربة المحسوسة مطابقة تامة ، ولا تعبر عما في الذهن
تعبيراً كاملاً ، وهذا ما أشار إليه السيوطي في النحوي «- ٣٦٨هـ»
حيث قال : « فقد بان الآن أن مركب اللفظ لا يجوز مبسوط
العقل، والمعاني معقولة ، ولها اتصال شديد وبساطة تامة ، وليس في
قوة اللفظ من أي لغة كان أن يملك ذلك المبسوط ، ويحيط به
وينصب عليه سورا ، ولا يدع شيئاً من داخله أن يخرج ولا شيئاً من
خارجة أن يدخل »^(٢٣) .

ويتفق هذا الرأي مع رأي «برجسون» في العصر الحديث
الذي يرى أن الألفاظ «عدا الاعلام تدل كلها على أنواع ،
والكلمة ، وهي لا تسجل من الشيء إلا وظيفته الأكثر اشتراكاً
ووجهه المبتدل تندس بينه وبيننا »^(٢٤) .

وارتبطت دلالة اللفظ على الخارج أو على التصورات الذهنية
وهي المعاني القائمة في النفس بعلاقة الانسان مع الطبيعة ، ولا نعني
بهذا الانسان الفرد ، وإنما هو الانسان الكائن الاجتماعي الذي
لا ينفك عن مجتمعه كما لا ينفصل عن الطبيعة «فالتبيعة والمجتمع
لديه ليسا فحسب مرتبطين بروابط وثقى ، وإنما يكونان
كلّاً متجانساً لاتتمايز أجزاء ، ولا يوجد بين العالمين خط فاصل ،
فالتبيعة نفسها ليست إلا مجتمعا عظيماً »^(٢٥) .

ونعزل هذه الفكرة بأن العرب كانوا يطلقون على الاماكن
أسماء أعلام يخصصونها بها كما يخصصون الإنسان ، وإلى شيء من هذا

أشار سيوييه بقوله : «والأماكن إلى الأناس ونحوهم أقرب ، ألا ترى أنهم يخصصونها بأسماء كزيد وعمرو ، وفي قولهم : مكة وعمان ونحوهما ، ويكون فيها خلق لا تكون لكل مكان ولا فيه ، كالجبيل والوادي والبحر ، والدهر ليس كذلك . والأماكن لها جثة ، وإنما الدهر مضى الليل والنهار ، فهو إلى الفعل أقرب » (٢٦) .

لقد كانت هذه الصلة مع الطبيعة حافزا للإنسان الذي أمتلك اللغة ، وهي القوة الاجتماعية أن يحس بأنه يمتلك قوة طبيعية بل قوة فوق الطبيعية ، فمارس السحر لاعتقاده أنه يمتلك بقوة الكلمة السيطرة على الأشياء . «ويحس الإنسان البدائي أنه محاط بكل أنواع الأخطار المريئة وغير المريئة ، وهو لا يرجو أن يتغلب على تلك الأخطار بوسائل مادية ، والعالم لديه ليس شيئا ميتا أو أخرس بل هو يسمع ويفهم ، فإذا استطاع أن يستنجد قوى الطبيعة بطريق صحيحة لم تحجز عنه عونها . لاشيء يقاوم الكلمة السحرية» (٢٧) .

وارتبطت الكلمة بالسحر ف «أن الشخص الذي يعتقد بأن هناك علاقة لا يمكن أن تنفصم بين الرمز وبين الشيء الذي يمثله ، يتخذ موقفا سحريا ، وأكثر ما يشاهد ذلك لدى الشعوب البدائية . ومن مظاهره الاعتقاد بأن التأثير على الاسم «الرمز» سيؤدي حتما إلى التأثير على المسمى» (٢٨) .

وأدرك الانسان من بعد عدم قدرة الكلمة السحرية فصار «يرى العلاقة بين اللغة والحقيقة في ضوء مختلف ، ذهببت الوظيفة السحرية للكلمة ، وحلت محلها الوظيفة السيمانتية ... وهذا لا يعني أنها أصبحت بغير معنى أو بغير قوة ، إنها ليست صوتا هوائيا مرسلًا FLUTURVOICE وإنما المظهر الحاسم لها هو مظهرها المنطقي المادي ، هي ماديا عاجزة ولكنها ارتفعت منطبقيا إلى درجة أعلى بل أعلى درجة ، لأن الكلمة LOGOS قد أصبحت مبدأ العالم والمبدأ الأول في المعرفة الانسانية » (٢٩) .

واتجهت الفلسفة اللغوية الإغريقية المثالية إلى الافتراض «لأن لاتعليل الحقيقة المعرفة إلا بالتطابق التام بين العارف والحقيقة المعروفة... فقال بارمنيدس : إننا لانستطيع أن نفصل بين الوجود والفكر لأنهما شيء واحد... وفهم الفلاسفة الطبيعيون هذا التطابق وفسّروه بمعنى مادي صارم . فقالوا : إننا إذا حللنا طبيعة الإنسان وجدنا فيها مجموعة مرتبطة من العناصر كالتى نجدها في العالم المادي» ^(٣٠) .

ويعني ذلك أننا إذا أردنا تفسير «المعنى» فلا بدّ أن يفسر «من خلال الوجود» «الأيس» لان الوجود أو الجوهر هو المقولة التى تصل بين الحقيقة والواقع وتربطهما ، ولا يمكن للكلمة أن تعني شيئاً إن لم يكن بين الاثنين تطابق ولو جزئياً على الأقل . ولا بدّ من أن تكون العلاقة بين الرمز والمرموز إليه علاقة طبيعية .. وبدون هذه العلاقة الطبيعية لاتستطيع الكلمة في اللغة الانسانية أن تؤدي مهمتها إذ تصبح غير مفهومة» ^(٣١) . ويعني ذلك أن اللغة قصديّة لا اعتباطيّة، فالقصديّة ترى أن اللغة بغضها أو كلها يمكن أن تفسّر تسوّغ بالنظام الطبيعي للأشياء أو الأفكار ، وأطلق على هذا التيار اسم التيار «الكراتيلي» ^(٣٢) نسبة إلى «قراطيلس» الذى كان يدافع عن وجود علاقة طبيعية بين الأسماء والأشياء ، وصاغ هذا التيار قولاً شهيراً ، هو : «من تعرّف الأسماء تعرّف الأشياء» ^(٣٣) .

وقد لاحظ أفلاطون ما في هذا الرأي من سخف ، وانتهى إلى أن النظرية القائمة على أن اللغة محاكاة صوتية سخرية وهزل ^(٣٤) .

وقد تأثر العرب بهذه الآراء تأثراً واضحاً ، وتجلّى ذلك في أمرين :

أحدهما : ما فسّر به أصل اللغات من أنها محاكاة

لأصوات الطبيعية ، وأنها من الأصوات المسموعة كدوي الرياح وحنين الرعد وخرير الماء .. ونحو ذلك ، وقد تقبل ابن جني هذا المذهب ، وعبر عن رضاه به ^(٣٥).

والثاني : العلاقة الطبيعية بين الأصوات والدلالة ، أو بينها وبين المسميات ، ونسب هذا القول إلى عباد بن سليمان الصيمري ، واحتج لقوله «بأنه لولا الدلالة الذاتية لكان وضع لفظ من بين الألفاظ بإزاء معنى من بين المعاني ترجيحاً بلا مرجح» ^(٣٦).

واحتفل ابن جني بهذا الرأي احتفالاً ، لكنه لم يفرق فيه ، وحمله حسه اللغوي على أن ذكر من هذه المسائل أمثلة معدودة لم يخرج بها عن العلمية والموضوعية ، فرأى أن واضع اللغة (لما أراد صوغها وترتيب أحوالها هجم بفكره على جميعها ، ورأى بعين تصويره وجوه جملها وتفصيلها ، وعلم أنه لا بد من رفض ما شنع منها ...» ^(٣٧). فاللغة كل متكامل يشد بنيانه الأجزاء ، والمتكلم متصرف بهذا البنيان يحسنه ويطوعه ، لأنه يريد أن يستعمله أ : يومية للحياة ، وقد تختار من الأصوات اللغوية المركبة ما كان أجمع لديه في الوصول إلى هذه الغاية ، فكانت أمامه اختيارات واسعة من الألفاظ التي تعرض إلى ذهنه فنظر في اللفظ «فميز رديشه وزائفه ، فنفاه البتة ، كما نفوا عنهم تركيب ما قبح تأليفه ، ثم ضرب بيده ما أطف ^(٣٨) له من عرض جيدة ، فتناوله للحاجة إليه ، وترك البعض ، لأنه لم يرد استيعاب جميع ما بين يديه» ^(٣٩).

ولم ينظر ابن جني إلى أن تقليد أصوات الطبيعة شيء لازب ، فعبر عن عدم قصدية اللغة على نحو عام وجعل الدالّ رمزا اعتباطي ، فرأى أن الإنسان «وهو يرى أنه لو أخذ ما ترك ، مكان أخذ ما أخذ ، لاغنى عن صاحبه ، ولأدى في الحاجة إلى تأديته ، ألا ترى أنهم لو استعملوا : لجمع مكان «نجمع» ، لقام مقامه ، وأغنى

مغناه؟»^(٤٠). لكن الملاحظة الدقيقة للغة ولدلالة ألفاظها تحمل ابن جني على النظر في الفروق الدلالية التي تشتمل عليها الكلمات المؤلفة من أحرف متصابقة ، فالإنسان الذي يتخير الألفاظ للدلالة على معانيه . وقد استطاع أن يمتلك ناصية اللغة ، وأن يعبر عن أغراضه بها ، قادر على تأليف الأصوات المتصابقة للمعنى ، ولذلك فإن ابن جني كان لا يدفع أن تكون للمتكلمين أغراض في اختيار الأصوات للدلالة على المعاني^(٤١) «فإن كثيراً من هذه اللغة وجدته مضاهياً في أحراس حروفه أصوات الأفعال التي عبر عنها ، ألا تراهم قالوا : قضم في اليابس ، وخضم في الرطب ؟ وذلك لقوة القاف وضعف الخاء ، فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى ، والصوت الأضعف للفعل الأضعف»^(٤٢).

غير أن الناظر في أمثله يدرك عمق نظريته ، وأنه لم يرد أن يجعل جميع الألفاظ دالة على معانيها دلالة طبيعية ، وإنما كان يفرق في أكثرها بين المعاني ، ويحاول أن يوحد بينها في أصول مشتركة ، بينها بينونة دقيقة يلحظها المتكلم والسامع ، من ذلك ما أورده في باب «باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني»^(٤٣) حيث قال : «ومنه العسف والأسف ، والعين أخت الهمزة كما أن الأسف يعسف النفس وينال منها ، والهمزة أقوى من العين ، كما أن أسف النفس أغلظ من التردد بالعسف»^(٤٤).

وقادته ملاحظته اللغوية المرفهة إلى إدراك استعمال المتكلم للأصوات اللغوية في التعبير عن بعض المعاني ، وهي التي ترتبط بالأصوات الخارجية على نحو خاص ، فميز استعمالهم الأصوات المقطعة لحكاية بعض أصوات الحيوان ، كما ميز استعمالهم بعض الأصوات اللغوية دون غيرها حكاية لأصواتها فقال : «وقالوا :

صرصر البازي ، فقطّعه ، لما هناك من تقطيع صوته ، وسمّوا
الغراب غاق حكاية لصوته ، والبَطَّ بَطًّا ، حكاية لأصواتها»^(٤٥) .

وميّز بين المعاني الحسية بدلالة الأصوات مثل «قط الشيء»
إذا قطعه عرضاً «وقدّه» إذا قطعه طولاً ، ولذلك أن منقطع الطء
أقصر مدة من منقطع الدال «^(٤٦) .

وفرّق بين المعاني الحسية والمعاني النفسية من خلال أصوات
الكلمات من ذلك : «الخدأ - بالهمزة - في ضعف النفس ، والخدأ
- غير مهموز - في استرخاء الأذن ... ومعلوم أن الواو لا تبلغ قوة
الهمزة ، فجعلوا الواو لضعفها - للعيب في الأذن ، والهمزة -
لقوتها - للعيب في النفس . من حيث كان عيب النفس أفحش من
عيب الأذن «^(٤٧) .

فأنت ترى إلى ابن جنّي ، وهو يصطنع هذا المقال ، وكأنّه
لا ينظر إلى قصديّة اللغة على نحو مانصّ عليه الفلاسفة ، وإنما جعل
معيّار العلاقة بين النفس والخارج معياراً عقلياً لغوياً بحثاً ، فجعل
المتكلم منفصلاً عن الواقع متصلاً به في آن واحد ، يفسره لغوياً ،
وينقله إلى الآخرين في محاولة لفهم ارتباط الألفاظ بالحقيقة
الخارجية ، ولا يدّعي ابن جنّي أنه قد وصل في محاولته إلى جوهر
الحقيقة فيستدرك بعد هذا كله بقوله : «نعم ، وقد يمكن أن تكون
أسباب التسمية تخفي علينا لبعدهما في الزمان عنا ، ألا ترى إلى
قول سيّويه : «أو لعل الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر»
يعني أن الأول شاهد الحال ، فعرف السبب الذي له ومن أجله
ما وقعت عليه التسمية ، والآخر - لبعده عن الحال - لم يعرف
السبب للتسمية»^(٤٨) .

ونظرة ابن جنّي لاتعدو أن تكون متابعة لما قرره علماء اللغة

قبله ، ومنهم ابن قتيبة « - ٢٧٦ هـ » ، فقد قرر أنهم «قد يفرقون بين المعنيين المتقاربين بتغيير حرف في الكلمة حتى يكون تقارب ما بين اللفظين كتقارب ما بين المعنيين .. كقولهم لما أرفض على الثوب من البول إذ كان مثل رؤوس الإبر : «نضح» ورش الماء عليه يجرى من الغسل ، فإن زاد على ذلك قليلاً قيل له : «نضج» ولم يجرى فيه إلا الغسل»^(٤٩) ، ومن أمثلته ما أشار إليه ابن جنّي «- ٣٩٢ هـ» فقد حكى تمييزهم بين «القضم» و«الحضم» ، فقال : «والأكل بأطراف الأسنان» «قضم» و«بالفم» «نحضم»^(٥٠) وكان فضل ابن جنّي في هذا البحث أنه عدد الأمثلة ، واتجه إلى تعليلها وفق منهجه العام القائم على التعليل والاحتفال به .

وقد ردّ البلاغيون واللغويون مذهب عباد بن سليمان ، وأظهروا فسادهم من وجهة بلاغية ولغوية «فساد هذا القول أنه يفضي إلى عدم نقله إلى المجاز وإلى عدم وضع اللفظ للشيء وضده»^(٥١) . وردّ مذهب ابن جنّي لعدم الفائدة من التشاغل به ، ولأنه عناء لاطائل تحته ، فأورد ابن السيد البطلوسي آراء ابن جنّي في بعض الأصوات مثل شدة القاف ورنخاة الحاء ، ورأى أن ذلك قياس غير مطرد ، وأن عمل ابن جنّي عناء لافائدة منه^(٥٢)

الحقيقة اللغوية في الألفاظ :

فهم علماء العربية أن اللفظ حين يطلق على المسمى يدل دلالات متعددة ، وليست الدلالة اللفظية الوضعية نوعاً واحداً ، فقد يتضمن اللفظ دلالة غير ظاهرة . لأن الإنسان يتدخل في هذه الدلالات ، فهو يستعمل عقله في فهم معنى اللفظ إن كان سامعاً ، وفي تحميلة معاني معينة إن كان متكلماً ، فحاولوا أن يصوغوا نظرية

في دلالة الألفاظ لاتغفل أهمية الإنسان وعقله في تحديد المقصود من الألفاظ ، وفسروا في هذه النظرية مشكلة معنوية كبيرة هي مشكلة «معنى المعنى» .

وقسموا دلالة الألفاظ الوضعية «باعتبار» العلاقة الوضعية بين الدالّ والمدلول أقساماً متعددة .

أولها : دلالة اللفظ على تمام ماوضع له ^(٥٣) ، فيتطابق ما تحدده خصائص اللفظ «مفرداً أو مركباً» وملابساته وكيفياته ، وما يدركه السامع ويفهمه من اللفظ المرسل مع ماوضع له ذلك اللفظ ^(٥٤) . وتسمى دلالة المطابقة ^(٥٥) ، وسماها الفخر الرازي « - ٦٠٦ هـ » الدلالة الوضعية ، وبينها بقوله : «فالوضعية كدلالات الألفاظ على المعاني التي هي موضوعة بإزائها كدلالة الحجر والجدار والسماء والأرض على مسمياتها ، ولا شك في كونها وضعية ، وإلا لاتسع اختلاف دلالتها باختلاف الأوضاع» ^(٥٦) . وهي الدلالة التي ترجع إلى نشأة اللغة في تصورهم ، «لأن الواضع إنما وضع اللفظ للدلالة على تمام الموضوع له فهي الدالة المنسوبة إلى الواضع» ^(٥٧) . وتفيد الدلالة عادة بالإستعمال ، فاللفظ الموضوع لا يحمل معنى الحقيقة أو الجواز أي لا يحمل معنى الدلالة الأصلية أو التغير الدلالي قبل الإستعمال «ومقتضى هذا الاحتراز أن يكون اللفظ قبل الإستعمال وبعد الوضع يسمى كلمة، ويشهد له قولهم : «الكلمة لفظ وضع لمعنى مفرد ، فيه احتمال» ^(٥٨) . وتتضمن هذه الدلالة الألفاظ مفردة - كما مرّ - كما تتضمن الكلام ، وهو الجمل ، فقد تدل الجملة على تمام ماوضعت له «كدلالة قولنا : «قام زيد» على الإنخبار بثبوت حدث القيام من الذات المسماة «زيد»» ^(٥٩) . وهذه الدلالة اللفظية مطابقة للواقع مطابقة تامة ، ولاكمال أو نقصان في دلالتها «فيستحيل تطرق الكمال والنقصان إليها ، فإنّ السامع للفظ أمّا أن

يكون عالماً بكونه موضوعاً لمسمّاه ، أو لا يكون . فإن كان عالماً به عرف مفهومه بتمامه ، وإن لم يكن عالماً به لم يعرف منه شيئاً أصلاً»^(٦٠) . ويحتم هذا الأمر النظر في المعاني والألفاظ الدالة عليها ، وإن كان يجب لكل معنى لفظ يقابله ويوضع بإزائه ، ويعني ذلك كثرة الألفاظ بحيث لا يمكن أن تنهاى لعدم تنهاى المعاني ، ولذلك قال الرازي : «لا يجب أن يكون لكل معنى لفظ ، لأن المعاني التي يمكن أن تعقل لا تنهاى ، والألفاظ متناهية ، لأنها مركبة من الحروف ، والحروف متناهية ، والمركب من المتناهي متناه ، والمتناهي لا يضبط ما لا يتناهى ، وإلا لزم تناهى المدلولات»^(٦١) . ولذلك قسمت المعاني ، فجعلت لبعضها ألفاظ دالة عليها ، لأنها كثيرة الدوران في الذهن ، أو لأن الحاجة تشتد إليها فقالوا : «فالمعاني منها ما تكثر الحاجة إليه ، فلا يخلو من الألفاظ ، لأن الداعي إلى وضع الألفاظ لها حاصل والمانع زائل ، فيجب الوضع ، والتي تندر الحاجة إليها يجوز أن يكون لها ألفاظ وألا يكون»^(٦٢) .

وتعاد إلى الدلالة الوضعية أو دلالة المطابقة كل صورة لفظية ، لأننا حين نريد معرفة أصل الكلام ، فإننا نستطيع ذلك بإرجاعه إلى الدلالة المطابقية ، فهي الحقيقة الأولى التي يصدر عنها المتكلم العارف لأوضاع اللغة ، ولأنها دلالة ثابتة تهيأت في أذهان الناس في مجتمع لغوي ما بفعل العادات اللغوية التي ألفوها ، ونلجأ لمعرفة ذلك إلى ما يسميه المحدثون «محور الإبدال»^(٦٣) . بمعنى أن نستبدل بكل مفردة مأثور منها ، ونلاحظ التبدل المعنوي الذي حصل في الصيغة اللغوية على أن تكون المرادفات دالة على المفهومات نفسها ، فإن بقيت الدلالة نفسها دون زيادة أو نقصان وصلت إلى المعنى المقصود من الكلام مثال ذلك : «إذا أردت تشبيه زيد بالأسد في

الشجاعة ، فإن أفدت هذا المعنى بالدلالة الوضعية ، وقلت : زيد يشبه الأسد في الشجاعة ، فقد أفدت مقصودك بألفاظ دالة عليه دلالة وضعية . وهذه الافادة تمنع من تطرق الزيادة والنقصان إليها ، لأنك إن نقصت من هذه الألفاظ شيئاً فقد نقصت من المعنى للاحالة ، وإن زدت فيها فقد زدت في المعنى للاحالة ، وإن أقمت مقام كل كلمة مايرادفها امتنع أن تزداد تلك الافادة قوة بسبب ذلك ، لأن السامع لها إن عرف كونها موضوعة بإزاء مفهومات الألفاظ الأول كان فهمه منها كفههم من تلك الألفاظ الأول ، وإن لم يعرف ذلك لم يفهم منها ذلك المعنى»^(٦٤) ، ويمكن الاستدلال على أن الدلالة الوضعية أو المطابقة أصلٌ تتمثل فيه الدلالة الحقيقية على المعاني بدقة شديدة لا يتطرق إليها الإيجاز والاختصار والتطويل والإطناب والحذف أنها تستعمل في العلوم العقلية «لعدم احتمالها للزيادة والنقصان الموقعين في الغلط والشبهة»^(٦٥) ، فهي تدل - إن كانت الألفاظ مفردة - على ثمام ما وضعت له ، وإن كانت الألفاظ مركبة على مطابقة تامة للحدث الموجود في الخارج .

والحقيقة إن إعادة الصياغة اللغوية والأدبية منها خاصة تحتاج إلى مزيد من التأمل والأيضاح ، لأن استبدال المفردات ، وإعادة الصيغ أمران يرجعان إلى شخصين مختلفين ، أو إلى الشخص الواحد الذي يقوم بصنع الصياغتين لمعنى ما من المعاني ، وتكون هذه الإعادة في موقفين متباينين ومتباعدين ، ولذلك كان لا بد من التباين في المعاني بين الصيغتين ، «وذلك أن ليس كلامنا فيما يفهم من لفظتين مفردتين نحو «قعد» و «جلس» ، ولكن فيما فهم من مجموع كلام ومجموع كلام آخر ، نحو أن ننظر في قوله تعالى «ولكم في القصص حياة»^(٦٦) ، وقول الناس «قتل البعض إحياء للجميع» ، فإنه وإن كان قد جرت عادة الناس بأن يقولوا في مثل

هذا : «إنهما عبارتان معبرهما واجد» ، فليس هذا القول يمكن
الآخذ بظاهره ، أو يقع لعاقل شك أن ليس المفهوم من أحد
الكلاميين المفهوم من الآخر ^(٦٧) ، لإعادة الصياغة تعني إعادة
تصور المعنى ، لأن ذلك يتم بألفاظ أخرى لها دلالتها المبينة للدلالة
ألفاظ الصياغة الأولى «لأنه لاسبيل إلى أن تجيء إلى معنى بيت من
الشعر أو فصل من النثر ، فتؤديه بعينه وعلى خاصيته وصنعتة بعبارة
أخرى ، حتى يكون المفهوم من هذه هو المفهوم من تلك لا يخالفه
في صيغة ولاوجه ولا أمر من الأمور ، ولا يغرنك قول الناس : قد
أتى بالمعنى بعينه ، وأخذ معنى كلامه ساداه على وجهه ، فانه
تسامح منهم ، والمراد أنه أدى الغرض ، فما أن يؤدي المعنى بعينه ،
على الوجه الذي يكون عليه في كلام الأول .. ففي غاية الاحالة»
^(٦٨)

ولم ينبح علماءنا - وهم صدد البحث في معنى الألفاظ
الأصلي - العقل جانباً فأبرزوا عمله في تحديد الدلالة اللفظية
الوضعية ، وجعلوا النوع الثاني منها : دلالة التضمن ، والنوع
الثالث : دلالة الالتزام ، وهما فرعان للدلالة اللفظية الوضعية ^(٦٩) .

غير أن الرازي انفرد عنهم ولم يعتد بهذه القسمة ، فسمى
دلالة التضمن والالتزام دلالة عقلية ، أما المطابقة فسامها لفظية .
وشرح ذلك بقوله : «وأما العقلية فإما على ما يكون داخلاً في
مفهوم اللفظ كدلالة «البيت» على «السقف» الذي هو جزء
مفهوم البيت ، ولا شك في كونها عقلية لامتناع وضع اللفظ بإزاء
حقيقة مركبة ، ولا يكون متناولاً لأجزائها ، وإما على ما يكون
خارجاً عنه كدلالة «السقف» على «الحائط» فإنه لما امتنع انفكاك
«السقف» عن «الحائط» عادة كان اللفظ المفيد لحقيقة السقف
مفيداً للحائط بواسطة دلالاته على الأول ، فتكون هذه الدلالة

عقلية»^(٧٠) وربط بين مفهوم الدلالة العقلية . كما أوضحه - وبين ماسماه عبد القاهر الجرجاني « - ٤٧٢ هـ » «معنى المعنى» ، فقال: « وعبر الشيخ عما قلنا بأن قال : هاهنا عبارة مختصرة ، وهي أن نقول : المعنى ، ومعنى المعنى ، فتعني بالمعنى : المفهوم من ظاهر اللفظ ، وهو الذي يفهم منه بغير واسطة ، وبمعنى المعنى : أن يفهم من اللفظ معنى ، ثم يفيد ذلك المعنى معنى آخر»^(٧١) .

وتقوم فكرتا التضمن والالتزام ، وهما فرعا للدلالة العقلية على فكرتي الإدراك والتداعي ، لأنهما عمليتان عقليتان ترتبطان بالوضع ، لكنهما محاولة من الإنسان لاستشفاف أبعاد معنوية أخرى للفظ غير التي دلّ عليها بالوضع ومتصلة بأسباب عديدة بنشأة اللغة الأولى حيث وضعت الألفاظ دلالة على مسميات بأعيانها ، لأن مستعمل اللغة يشتمل ذهنه على معان كثيرة يمكن أن يحملها للفظ الواحد بسبب كثرة المعاني وقلة الألفاظ وعدم دقتها في الدلالة على ما في الذهن ، وذاك أن «معنى دلالة اللفظ هو أن يكون اللفظ اسماً لذلك المعنى على سبيل القصد الأول ، فإن كان هناك معنى آخر يقارن به ذلك المعنى مقارنة من خارج يشعر الذهن به مع شعوره بذلك المعنى الأول فليس اللفظ دالاً عليه بالقصد الأول ، وربما كان ذلك المعنى محمولاً على ما يحمل عليه معنى اللفظ كمعنى الجسم مع معنى الحساس ، وربما لم يكن محمولاً كمعنى المحرك مع المتحرك»^(٧٢) .

ونفهم التضمن على أنه دلالة عقلية يدل على جزء ما وضع له اللفظ كدلالة الإنسان على الحيوان^(٧٣) فهو قسم من الدلالة اللفظية «يكون ما تحدده الخصائص والملايسات والكيفيات ، وما يدركه السامع ويفهمه من اللفظ المرسل لازماً داخلياً لما وضع له ذلك اللفظ»^(٧٤) .

فعندما يرسل اللفظ يفهم السامع ما يدل عليه دلالة عامة ثم ينتقل ذهنه إلى دلالات جزئية يتضمنها اللفظ نفسه ، ويوحى بها إلى السامع ، بحكم الارتباط الذهني بين الصورة الذهنية التي أثارها اللفظ وبين مدلولات عديدة ، فكلمة «الإنسان» تفيد معنى معيناً هو ذلك المخلوق المعروف ، ولكنّ الذهن بسبب تراكم التجربة والمعرفة والثقافة يربط الإنسان بمفاهيم عديدة أخرى منها «الحيوان» ، فدلالة الحيوان جزء تتضمنها الدلالة العامة لكلمة الإنسان ، لكن هذا التداعي الذي أثارته كلمة الإنسان في الذهن لا يخرج عن حدود دلالة اللفظ نفسها ، فالذهن لم يقحم عليها دلالة من الخارج ، أي من خارج دلالتها نفسها ، وعملية الربط بين مفهوم اللفظ الكلي ، ومفهومه الجزئي عملية نفسية ناقشها أرسطو قديماً في مقاله عن التذكر «حيث قدم ملاحظة أساسية تقول: أن شيئاً ما يذكرك بآخر، وتتساءل : إذا كانت "أ" تذكرك بـ "ب" فما هي الصلة بين "أ" و "ب" ؟

ولقد أجاب على هذا السؤال بأن الصلة تكون أحياناً صلة تشابه وأحياناً أخرى صلة تضاد وأحياناً ثلاثة صلة اقتران » (٧٥) . وطور «جون لوك» هذا المفهوم وأوضحه فرأى «أن كلّ الأفكار البسيطة مشتقة من الخبرة وغالباً من الخبرة الحسية الصادرة جزئياً عن العالم الخارجي وكذلك عن عملياتنا العقلية ذاتها، ونحن قادرون على أن نوفق بين الأفكار البسيطة التي تشكل العناصر ونؤلف منها أفكاراً مركبة لاحدّ لنوعها» ^(٧٦) ، ومعيّار صحة الفكرة العودة إلى أصلها، فعلم منه أنها فكرة مسوغة أو هي على غير هذا الوجه ^(٧٧) .

فالمثير اللفظي يُحرّض الذهن على اكتشاف جزئياته ، ويختلف الربط بين الكلمات بعضها مع بعض ، وبين جزئيات الدّوال

اللفظية «بحسب الأعمار من جهة ، وبحسب المهنة والوسط الذي يعيش فيه الإنسان من جهة أخرى»^(٧٨) ، وتدل على ذلك تجربة «يونيغ» ، حيث رأى أن المثيرات اللفظية اختلفت ارتباطاتها بين الأم وابنتها ، من ذلك :^(٧٩)

<u>الكلمة المنبهة</u>	<u>الأم</u>	<u>البنت</u>
بحيرة	كثير من الماء	كبيرة
سن	تعض	أوجاع
قلم	طويل	أسود
حب	طفل	أبي وأمي

فاللفظة التي نبهت الذهن أثارت فيه مفاهيم جزئية تنضوي تحت : المفهوم العام الذي تدلّ عليه ، لأن الذهن ليس شيئاً جامداً ، وإنما هو تجمع واسع للخبرات المحصلة ، فأدرك علمائنا أن الدالّ اللفظي يثير في الذهن لوازم جزئية عديدة نتبينها ، لأنها محمولة على ما يحمل عليه معنى اللفظ كمعنى الجسم مع الحساس ، وربما لم يكن محمولاً كمعنى المحرك مع المتحرك^(٨٠) ، فدلالة اللفظ على المعنى لا تعني «أن يكون إذا دلّ اللفظ لم يكن بدّ من وجود ذلك المعنى ، فإنك تعلم أن لفظ المتحرك إذا دلّ لم يكن بدّ من أن يكون هناك «محرك» ، ولفظة «السقف» إذا دلت لم يكن بدّ من أن يكون هناك أساس ، ومع ذلك لانقول : أن لفظه المتحرك مفهومها ودلالاتها المحرك ، ولفظة السقف مفهومها ودلالاتها الأساس ، وذلك أن معنى دلالة اللفظ هو أن يكون اسماً لذلك المعنى على سبيل ، القصد الأول»^(٨١) .

وظفّقوا وفق هذه التصورات يبحثون عن الجذور الأولى للكلمات ، وهي الأصول المعنوية الأصلية والتي عبرت عنها الألفاظ اللغوية ، لأن الألفاظ عبّرت عن المعاني الذهنية المتصورة ، وارتبطت أية صورة لفظية بالدلالة المطابقة في أذهانهم ، فكان البحث عن المعنى وراء دلالة الألفاظ يشمل البحث في الصوت اللغوي الدالّ والتشكل الصوتي ، وفي دلالة المفردة ، وفي صيغة المفردة الصرفية ، وفي معناها المعجمي ، وفي علاقاتها السياقية ضمن التركيب « وهكذا يصبح المعنى مشقّقاً ، ويستقل كل فرع من فروع الدراسات اللغوية بقسط من هذا المعنى يوضحه ، ويبيّن عنه ، ويعين على كشفه بقطع النظر عما إذا كان هذا القسط مما يتصور فهمه مستقلاً عن الهيكل العام للمعنى المركب أم لا »^(٨٢).

وقد مرّ بنا سابقاً بحث عباد بن سليمان وابن جنّي في القيمة التعبيرية للحرف ، ولكن الذي ملك علي ابن جنّي جناحه سوى ذلك ما يطلق عليه «الاشتقاق الكبير» ، فقد أولع به ، وتحدث عنه بأسهاب في كتابه الخصائص «وللولوع بالاشتقاق الكبير ارتباط وثيق بمذهب المؤمنين بدلالة الحرف السحرية وقيّمته التعبيرية الموحية، عند أولئك الذين مالوا إلى الاقتناع بوجود التناسب بين اللفظ ومدلوله ، في حالتي البساطة والتركيب ، حتى رأوا إثبات القيمة التعبيرية للصوت البسيط ، وهو حرف واحد كإثبات هذه القيمة نفسها للصوت المركب كيفما كانت صورة تركيبه»^(٨٣) ومن أمثلته ما ذكر ابن جنّي في معنى «ق و ل» حيث قال «فأقول : أن معنى «ق و ل» أين وجدت ، وكيف وقعت ، ومن تقدم حروفها على بعض ، وتأخره عنه ، أنما هو للخفوف والحركة، وجهات تراكيبيها الست مستعملة كلها ..»^(٨٤) ، وذكر الأصول التي تفرع عن «ق و ل» وهي : [«ق و ل» «ق ل و» «و ل ق» «ل ق و» «ل و ق» «و ق ل»] وحاول بلطف الصنعة

تأويل معانيها ليردها إلى الأصل المعنوي الذي ابتداءً بذكره .
والحقيقة أن تأويله يدل على قدرته على التفريق بين المعاني أو
تشقيقها ، ولكنه يظل عملاً عقلياً لا يتصل بواقع اللغة ، فهو تمرين
عقلي ، وعمل صرفي دقيق يحتاجه عالم الصرف ولذلك قال عنه ابن
جنّي وقد أسماه «الاشتقاق الأكبر» : «هذا موضع لم يسمّه أحد
من أصحابنا غير أن أبا علي - رحمه الله - كان يستعين به ، ويخلد
إليه ، مع إعواز الاشتقاق الأصغر ، لكنه مع ذلك لم يسمّه ، وإنما
كان يعتاده عند الضرورة ، ويستروح إليه ، ويتعلل به » ^(٨٥) .

ومن تأويلاته التي تدل على لطف الصنعة قوله : «الأصل
الأول : «ق و ل » وهو القول ، وذلك أن الفم واللسان يخفان به ،
ويعلقان ويمذلان به ^(٨٦) وهو ضد السكوت الذي هو داعية إلى
السكون ، ألا ترى أن الابتداء لما كان أخذاً في القول ، لم يكن
الحرف المبدوء به إلا متحركاً ، ولما كان الانتهاء أخذاً في السكوت
لم يكن الحرف الموقوف عليه إلا ساكناً » ^(٨٧) .

أمّا الاشتقاق الأصغر ، وهو ما نعينه بكلمة الاشتقاق حيث
نطلقها فإنه «أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى ومادة أصلية
وهيئة تركيب لها ، ليدلّ بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة
لأجلها اختلفاً حروفاً أو هيئة تركيب كضارب من ضرب ، وحاً
من حذّر » ^(٨٨) ، فاشتقاق كلمة من أخرى جعلتهم يعتقدون أن
هناك أصلاً للكلمات المشتقة وهو المادة أو الجذر الذي يتسم بأنه
يدلّ على أصل المعنى ، ومنه فرّعت الكلمات «فألفاظ اللغة العربية
تتجمع في مجموعات ، كل مجموعة منها تشترك مفرداتها في حروف
ثلاثة ، وتشترك في معنى عام ثم تنفرد كل كلمة في المجموعة وتتميز
عن قريباتها في النسب بصيغتها أو مبنائها ، وتختلف في معنى خاص
بها ناشيء عن صيغتها أو عنها وعن غيرها من الملابس التي

أكتسبها حياة خاصة» ^(٨٩) ، وهذه القضية البنائية في اللغة العربية خاصة لاعامة بمعنى أن العربية تمتاز بها من اللغات الأخرى «ويمكننا أن نقول : إن الألفاظ العربية تتجمع في قبائل وأسر معروفة الأنساب وتحمل هذه الألفاظ دوماً دليل معناها وأصلها وميسم نسبها ، وذلك في الحروف الثلاثة الأصلية التي تدور مع ما يتولد عنها ويشتهق منها من ألفاظ ، وتختلف مفردات هذه المجموعات أو أسر الألفاظ كثرة وقلة كالقبائل ، منها المنجب والعقيم والمكثر والمقل» ^(٩٠) .

أما طريق معرفة الاشتقاق للوصول إلى أصل الصيغة الدالة على معنى الأصل فهي «تقليب تصارييف الكلمة حتى يرجع منها إلى صيغة هي أصل الصيغ دلالة اطراد أو حروفاً غالباً ، كضرب ، فإنه دالٌّ على مطلق الضرب فقط ، أما ضارب ومضروب ويضرب وأضرب فكلها أكثر دلالة وأكثر حروفاً ، وضرب الماضي مساو حروفاً وأكثر دلالة وكلها مشتركة في "ض ر ب" وفي هيئة تركيبها» ^(٩١) .

وفرّقوا للدليلك بين الاسم والفعل والحرف وفق أصول المفردات المعنوية الدالة على وضعها ، فحدّد السيراني الاسم فقال : «كلمة دلت على معنى في نفسها من غير اقتران بزمان محصّل» ^(٩٢) ، وميّزوا بينه وبين الفعل الذي يدلّ على شيئين الحدث والزمان ، والحرف الذي يدلّ على معنى في غيره ^(٩٣) ، فالاسم «له دلالة على الحقيقة دون زمانها ، فإذا قلت زيد منطلق لم يفد إلا إسناد الإنطلاق إلى زيد . أما الفعل فله دلالة على الحقيقة وزمانها ، فإذا قلت : انطلق زيد أفاد ثبوت الانطلاق في زمان معين لزيد» ^(٩٤) .

وبيّنوا الأصل في دلالة الاسماء ، فقد يخطر إلى البال أن بعضها

له دالتان مثل اسماء الاستفهام : أين وكيف ومن ، فلا يتهيأ لنا حدّها بأنها دالة على معنى في نفسها ، وقد عللت دالتها على الاستفهام بأنها دلالة من خارج «وذاك أنّ «مَنْ» يدل على معنى الاسمية بمجردها واستفادة الاستفهام إنّما هو من خارج من تقدير همزة الاستفهام معها ، فكأنك إذا قلت : مَنْ عندك ؟ أصله أمن عندك ؟ فهما في الحقيقة كلمتان : الهمزة إذ كانت حرف معنى ، ومَنْ الدالة على المسمى ، لكنه لما كانت «مَنْ» لاتستعمل إلا مع الاستفهام استغني عن همزة الاستفهام للزومها إياها ، وصار «مَنْ» نائبة عنها ، ولذلك بنيت ، فدالتها على الاسمية دلالة لفظية ودالتها على الاستفهام من خارج»^(٩٥).

وجمعوا بين الاسم والمصدر ، وميّزوا بينهما وبين الفعل «لأن الأحداث تدلّ على أزمنة مبهمّة إذ لا يكون حدث إلا في زمان ، ودلالة الفعل على زمان معلوم أمّا ماض وإما غير ماض»^(٩٦). وجعلوا حدّهم قائماً على مراعاة أوضاع اللغة لا ما يفهم من طريق الاشتقاق^(٩٧) ، واعتدوا بالدلالة اللفظية أي الدلالة الوضعية في فهم حدود المفردات ، فنبهوا لذلك ، وهم بصدد الحديث عن المصادر فقال ابن يعيش : «لأننا نريد بالدلالة الدلالة اللفظية والمصادر لاتدل على الزمن من جملة اللفظ ، وإنما الزمان من لوازمها وضروراتها ، وهذه الدلالة لا اعتداد بها»^(٩٨) ، ذلك أن الحدود كما قلنا تراعي أوضاع اللغة لا ما يفهم من طريق الاشتقاق.

وثارت بينهم نقاشات طريفة حول مفهوم التضمن ، فقد اعترض بعضهم على قضية ادراك الدهن «الكل» أولاً ، ومن ثم إدراكه الجزئيات المرتبطة به ، فرأوا أن الدهن ينتقل من الجزئيات إلى الكلّيات ، وبعضهم ذهب إلى خلاف ذلك ، وحصيلة نقاشهم

في هذه المسألة قولهم : «فإن قيل : ينبغي أن يكون الأمر بالعكس ، لأن فهم الجزء سابق على فهم الكل ، فالمفهوم من الإنسان أولاً هو الجسم ثم الحيوان ثم الإنسان ، قلنا : الأمر كذلك ، لكن القوم صرحوا بأن التضمن تابع للمطابقة ، لأن المعنى التضمني إنما ينتقل إليه الذهن من الموضوع له فكأنهم بنوا ذلك على أن التضمن هو فهم الجزء وملاحظته بعد فهم الكل ، وكثيراً ما يفهم الكل من غير التفات إلى الأجزاء»^(٩٩) ، ونسب قوم الفكرة إلى ابن سينا^(١٠٠) ، غير أننا نجد لها موضحة مفصلة لدى عبد القاهر الجرجاني ، فقد تحدث عنها في تضاعيف بحثه عن تشبيه «الجملة» و «تشبيه التفصيل» ، فرأى «أن الجملة أسبق إلى النفوس من التفصيل ، وأنتك تجد الرؤية نفسها لاتصل بالبديهة إلى التفصيل ، ولكنك ترى بالنظر الأول ، والوصف على الجملة ، ثم ترى التفصيل عند إعادة النظر .. كذلك : تجد الجمل أبداً هي التي تسبق إلى الأوهام ، وتقع في الخاطر أولاً ، وتجد التفاصيل مغمورة فيما بينها ، وتراها لا تحضر إلا بعد إعمال الرؤية واستعانة بالتذكير»^(١٠١) .

وترتبط هذه المسألة بفهم معاصر لعلم النفس عبّر عنه «فولت» في حديثه عن مهمة العلم النفسي ، فقال : «إن الخبرة تأتي على شكل مركبات لاعلى شكل عناصر مفردة ، وإن كل خبرة وكل فكرة وكل انفعال وكل «إرادة عمل» هي مركب ، ولذلك فإن علم النفس هو أولاً تحليل هذه العمليات المركبة إلى عناصرها ثم التعرف على كيفية ترابط هذه العناصر وقوانين هذا الترابط»^(١٠٢) . وكذلك فإن الألفاظ المسموعة تأتي على صورة «كَلِمَة» يفعلها الإنسان ، ويربطها في ذهنه وفق خبراته بجزئياتها التي تتضمنها .

ولا تخرج دلالة الالتزام عن هذه المفاهيم المرتبطة بالتداعي والادراك لدى علمائنا ، وإن كانت أكثر ارتباطاً بفكرة التداعي ، فالالتزام « يكون ما تحدده الخصائص والملابسات والكيفيات ، وما يدركه السامع ، ويفهمه من اللفظ المرسل لازماً خارجاً عما وضع له ذلك اللفظ يتداعى إلى الوعي بمجرد سماع ذلك اللفظ مكتفياً بمساقاته وقرائنه الحالية واللفظية التي تختلف في اقتدارها على إثارة هذه الدلالة»^(١٠٣) ، فهي دلالة اللفظ على خارج عما وضع له كدلالة الإنسان على الضاحك^(١٠٤) ، وهي دلالة عقلية ، أيضاً اشترطوا لها ما يسمى «اللزوم الذهني» ، وفيه لا ينفك ما وضع له اللفظ أي «الصورة الذهنية للشيء» والخارج عنه ، فيتداعى إلى الذهن المعنى الخارجي حين يتصور الإنسان ما وضع له اللفظ في ذهنه ، وإما أن يكون هذا التداعي على الفور أو بعد التأمل في القرائن ، واشترطوا «اللزوم الذهني» لكي لا يتداعى إلى ذهني السامع ارتباطات كثيرة ، فتكون نسبة الخارج إلى الموضوع له كنسبة سائر الخارجييات إليه ، فتصبح دلالة اللفظ على هذا الخارج المقصود دون غيره ترجيحاً دون ربح .

وتدل دلالة الالتزام على أن سامع اللفظ يتعقل أولاً المعنى المطابق ، ويفهم اللفظ في سياقه اللغوي ، ومن ثم يربطه بمعنى من خارج معناه المطابق ، وقد يكون التلازم بين هذين المعنيين المطابقين واللازم عقلياً ، وقد يكون مما يشبه اعتقاد المخاطب بسبب عرف عام أو خاص اطرده حتى أضحي استحضار أحدهما مستلزماً للآخر ، بل لو اعتقد المخاطب التلازم كان ذلك كافياً في اللزوم الذهني^(١٠٥) ، فالفرق بين الدلالة التضمنية ، والدلالة الالتزامية هو أن التضمنية انتقال من دلالة اللفظ الكلية إلى دلالة الجزئية الداخلية ، وأما الالتزامية فانتقال من الدلالة الوضعية إلى لازم لها

خارج عنها ، وكتاهما دلالة عقلية ، وانتقال من معنى إلى معنى المعنى ، وتصورا أن الدلالة المطابقة هي التي تنقل التصورات الذهنية على حقيقتها ، وأن الدلالة العقلية هي من فعل الخبرات الإنسانية التي قد تنظر إلى الشيء من وجهات عديدة ، فيرى فيه كل إنسان مالا يراه الآخرون ، لأن طريقة النظر إلى الشيء تتفاوت على نحو واسع بين إنسان وآخر وفق خبرة كل منهما ، وطريقة النظر إلى الشيء .

والحقيقة أن هذه النظرة إلى دلالات الألفاظ قد فسرت علاقة الإنسان بالحقيقة الخارجية ، وطريقة تصوره لما حوله في البيئة ، وأوضحت عمل العقل البشري ، وهو ينظر إلى الأشياء من حوله ، فيرسمها صوراً مجردة في الذهن قد يتداخل بعضها مع بعضها الآخر بسبب اقتران المفاهيم والتصورات من الشيء الواحد ، أو بسبب تعدد وجهات النظر إلى هذا الشيء ، لاختلاف طبائع البشر وثقافتهم وتصوراتهم ، ولذلك لم يجعلوا الحقيقة شيئاً ثابتاً له دلالة لفظية لاتشوبها شائبة ، بل نظروا إليها وفق طبيعة العقل وتناوله الأشياء ، فانتقلوا من التصور الذهني للخارج الذي جعلوه مفهوماً عقلياً ، وأصلاً معنوياً مرتبطاً باللفظ المعبر عنه دون انفكاك ، وجعلوا تصور الإنسان الخارج عن هذا المفهوم الأولي خروجاً باللفظ إلى معان أخرى دلّ عليها اللفظ نفسه ، وارتبط معه في ذهن المتصور الذي يعبر عن تصوره بالألفاظ ، وفي ذهن السامع الذي يثيره اللفظ فيتصور ما أراده المتكلم بسبب وجود تجربة حياتية ولغوية واحدة تجمع بينهما .

وجعلوا الدلالة الوضعية أصلاً للدلالة العقلية ، لأن اللغة قد وضعت لتدل أسماءها على المسميات التي يتصورها ذهن الإنسان ، وحين تدل القرائن والأحوال على اقتران الدلالة الوضعية بلازم

داخلي وخارجي على أن يتم ذلك في ذهن الإنسان ، فإنَّ الأصل والحقيقة الأولى التي وضعت لها الألفاظ قد تبدلت وخرجت عن معناها إلى دلالات أخرى ، ولذلك جعل الرازي الدلالة العقلية أو مايسمى معنى المعنى أصلاً للمجاز والكناية والتمثيل^(١٠٦) ، لأن المتكلم يستطيع بها أن يعطني السامع ظلال المعنى ، وأن يوحى إليه بالمراد من خلالها . فتصور المعنى قائم على دلالة اللفظ على المعنى الأصلي الذي كانت عليه اللغة في نشأتها البسيطة الأولى ، أمّا دلالاته على غير ذلك فإنها مرتبطة بفهم السامع للكلام فهما عقلياً يجمع بين المعنى الأصلي وظلاله التي تتكون في الذهن نتيجة التجربة والثقافة وطريقة النظر إلى الأشياء .

ولما وقّرت في نفوسهم مسألة الدلالات اللفظية الوضعية بأنواعها فإنهم وجّهوا أبحاثهم إلى الألفاظ المفردة وفق مفاهيمه من دلالاتها ، ورأوا أنها تؤدي معنى الأصل بالاشتقاق فذهبوا إلى أن الاسم قد جعل تنويعاً ودلالة على المعنى ، لأن المعنى تحت الاسم^(١٠٧) ، ولم يمنع الخلاف بين الكوفيين والبصريين تقرير هذه الفكرة ، فكلتا الجماعتين كانت تضع في حسابها الوصول إلى معنى الأصل بطريق الاشتقاق ، وإن كانت مختلفتين في هذا المعنى ، مما أدى إلى الاختلاف في اشتقاق المفردة .

ومن أمثلة اختلافهم في معنى الأصل السدي وجّه تهاينهم في اشتقاق المفردات الخلاف في أصل اشتقاق الاسم ، فقد ذهب الكوفيون «إلى أن الاسم مشتق من الوسم وهو العلامة»^(١٠٨) ، واحتجوا لقولهم بأن قالوا : «إنما قلنا إنه مشتق من الوسم ، لأن الوسم في اللغة هو العلامة ، والاسم وسم على المسمى ، وعلامة له يعرف به ، ألا ترى أنك إذا قلت : زيد أو عمرو دلّ على المسمى ، فصار كالوسم عليه ؟ فلهذا قلنا : إنه مشتق من الوسم ،

ولذلك قال أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب : الاسم سمة توضع على الشيء يعرف بها ^(١٠٩) .

وذهب البصريون إلى أنه «مشتق من السموّ ، وهو العلوّ» ^(١١٠) ، واحتجوا لما ذهبوا إليه بأن قالوا : «إنما قلنا إنه مشتق من السموّ ، لأن السمو في اللغة هو العلوّ ، يقال : سما يسمو سموّاً إذا علا ، ومنه سُميت السماء سماء لعلوها ، والاسم يعلو المسمى ، ويدل على ما تحته من المعنى ، ولذلك قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد : الاسم مادلّ على مُسمّى تحته» ^(١١١) فاتفق الفريقان على أمر واحد هو أن الاسم دالّ على معنى واختلفا في علاقة الاسم بمسماهما وجه الاشتقاق وجهتين متباينتين.

وكانوا إذا بحثوا في أصل المفردة أعادوها إلى الأصل الأول ، كما تصوره ، وهو الأصل المعجمي الذي يدلّ على دلالة الألفاظ على المعاني الأول قبل أن تتغير دلالاتها في تراكيب مستحدّة ، فكانوا يعودون بدلالة اللفظة إلى دلالتها اللفظية الوضعية ، على أن تصور الأصل المعنوي الأول للألفاظ ليس يسيراً دائماً ، فنحن قد نحاول بالاشتقاق وغيره معزفة هذا الأصل ، لكننا يجب أن نكون على بينة من أن بعض المشتقات أسبق من بعض في الوجود ، فتغيب عنا المادة الأصلية التي استعملت أول مرة لطول العهد بها «إلا أننا نرجح دائماً أن الحسيّ أسبق في الوجود من الأمر المعنوي المجرد ، وهذا يجعلنا ننصر للرأي القائل بأن أصل المشتقات هي الأسماء لا الأفعال» ^(١١٢) . ولذلك فإنّ أسماء الأعيان تعدّ أسبق في الوجود من أسماء المعاني ، لأن الأولى تدلّ على المحسوس الذي يواجهه الإنسان منذ بداية وعيه ، أمّا أسماء المعاني ، فهي مرحلة تالية من إدراك الواقع حين تنتقل المحسوسات إلى النفس تصورات ذهنية عن الخارج وتبتدئ بالتفاعل بينها ، وقد عبّر ابن جني عن ذلك بقوله : «فإن

قلت : وَلَمْ قَلَّتْ الأعلام في المعاني ، وكثرت في الأعيان نحو زيد ، وجعفر ، وجميع ما علق عليه علم ، وهو شخص ؟ قيل : لأن الأعيان أظهر للحاسة ، وأبدى إلى المشاهدة ، فكانت أشبه بالعلمية مما لا يرى ، ولا يُشاهد حسّاً ، وإنما يُعلم تأملاً واستللاً ، وليست كمعلوم الضرورة للمشاهدة»^(١١٣) ، فالكلام الإنساني ينتقل من مرحلة حسية نسبياً إلى مرحلة أكثر تجريداً ، والأسماء الأولى لدينا أسماء محسوسة تقرن نفسها بفهم حقائق أو أفعال خاصة^(١١٤) .

ويدل على رسوخ هذه الفكرة في أذهانهم أمثلتهم التي أوردوها في أصول الألفاظ من ذلك ما ذكره ابن فارس «٣٩٥هـ» في قوله : «ويقولون : بينها مسافة ، وأصله من «السوف» وهو الشَّم»^(١١٥) .

وكذلك قوله : «كان الأصمعي يقول : أصل «الورد» إتيان الماء. ثم صار إتيان كل شيء وردّاً ، والقرب : طلب الماء ثم يقال ذلك لكل طلب ، فيقال : هو يقرب كذا أي يطلبه ، ولا تقرب كذا»^(١١٦) ، وفسّر هذه الأصول بقوله : «وهذا الذي ذكرنا عن الأصمعي ، وسائر ما تركنا ذكره لشهرته فهو راجع إلى الأبواب الأول»^(١١٧) .

وتنبهوا إلى خفاء الأصل في بعض الأحيان لارتباطه بمناسبة معينة أو أصل لم نعهد وجوده لأن المسمّى حضر الحال التي أدت إلى التسمية ، ولم يتسنّ لنا ذلك «ألا ترى إلى قولهم للإنسان إذا رفع صوته : قد رفع عقيرته ، فلو ذهبت تشتق هذا ، بأن تجمع بين معنى الصوت ، وبين معنى «ع ق ر» لبعد عنك وتعسفيت ، وأصله أن رجلاً قطعت إحدى رجله ، فرفعها ووضعها على الأخرى ، ثم صرخ بأن رفع صوته ، فقال الناس : رفع عقيرته»^(١١٨) .

ومشكلة الأصل في العربية ماثلة دائماً ، لأن للعربية أصولاً تجمعها مع لغات أخرى كالعبرية ، والحبشية والسريانية وغيرها ، وإن معرفة أصل المفردة المعنوي الأول لا تفتأ ترتبط بالصيغ اللفظية التي نجدها فيما سمي اللغات السامية ، ويدخل هذا البحث في علم اللغة المقارن الذي أفاد في إيضاح جوانب كثيرة حول المفردات العربية وتاريخها ، مثال ذلك كلمة «ثغر» في العربية نوضحها بما يقابلها في الآرامية والعبرية ، فالثاء في العربية تقابل التاء في الآرامية ، والشين في العبرية ، وعلى هذا فالمادة العربية (ث غ ر) تقابل العبرية (ش ع ر) والآرامية (ت ع ر) وتعني هذه المادة السامية «الباب» أو «الفتحة» أو «الشق»^(١١٩) ، وتعني «الثغر» في الاستعمال العربي القديم معاني منها «الثغر والثغرة : كل فرجة في جبل أو بطن واد أو طريق مسلوك .. والثغر : ما يلي دار الحرب ، والثغر : موضع المخافة من فروج البلدان»^(١٢٠).

وكذلك كلمة «أهل» التي تقابل كلمة «أوهيل» في العبرية ، ولكن العبرية تعني «الخيمة» ، وكأن المعنى العبري هو الأقدم فأطلقت في العربية على الخيمة ثم على مَنْ بها^(١٢١) ، ويبدو أن كلمة «أهل» من المعجم السامي القديم ، فنحن لانقول هنا باستعارتها من لغة سامية لأخرى^(١٢٢).

وهذا الاتجاه في المقارنة بين اللغات السامية قد يفصح عن نتائج مهمة في أصول المفردات المشتركة بين هذه اللغات ، وقد يعفينا من كثير من التمحل في معرفة الأصول المطابقة التي نرجع إليها مفرداتنا .

لقد استطاع علماءنا أن يتصوروا وعي الإنسان للواقع ، وتمثله في أذهانهم بطريقة لافتة للنظر ، ودرسوا الألفاظ وفق معايير

دقيقة فأسسوا لعلم الدلالة على نحو موضوعي وعلمي ، ولم يكتفوا بذلك بل لاحظوا المفردة في التركيب ، وبحثوا عن أصول المعنى من خلال تجريده من الصيغة اللفظية المنحززة ، وقد اهتم بهذا العمل علماء النحو بوجه خاص .

الحقيقة اللغوية في التركيب :

راح سيويه «-١٨٠هـ» في «كتابه» يبحث عن الأصول التي صدر عنها المتكلم في خطابه ، وكان في بحثه ذاك يلحظ الطريق أمام الدراسين بعده ليستشرفوا طرائق العرب في صياغة كلامها ، فهو يتصور في ذهنه الأصول المجردة التي ينبغي على المتكلم أن يقيس كلامه عليها ، وهي الأصول التي استقاها من استقرائه مع الخليل لكلام العرب.

فكانت الأمثلة التي يأتي بها للدلالة على القاعدة التي جردها موحية بالصياغة المثالية التي عليها الكلام ، من ذلك ما ذكره في باب «هذا باب المسند والمسند إليه»^(١٢٣) ، ففيه يأتي بالقاعدة المجردة ، ومن ثم يأتي بالأمثلة التي تدل على أنه قصد بها التمثيل للقاعدة ، ولكنها أمثلة من الكلام اليومي العادي لا يختلف في دلالتها متكلم مع آخر ، فيقول : «هذا باب المسند والمسند إليه وهما ما لا ينبغي واحد منهما عن الآخر ، ولا يجد المتكلم منه بدءاً . فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه ، وهو قولك عبد الله أخوك ، وهذا أخوك ، ومثل ذلك : يذهب عبد الله ، فلا بد للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأول بدء من الآخر في الابتداء»^(١٢٤).

وكان يقدم في مفتتح كلامه على المسألة النحوية أمثلة تبينها ، هي في معظمها مصوغة صياغة مثالية تدل على المعاني دلالة مباشرة

دون كبس ، وكأنها صياغة مقصودة ، فهي تعطي القارئ الأصول الحقيقية للكلام ، تلك التي يمكن للمتكلم بعد ذلك أن يخرج عليها فيقدم ويؤخر ، ويحذف ، ويستغني ، ويخرج بالكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، من ذلك قوله في باب «هذا باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعول»^(١٢٥) ، حيث يقدم الأمثلة ، ثم يتبعها بالقاعدة التي يستخلصها منها فيقول : «وذلك قولك : ضرب عبد الله زيدا ، فعبد الله ارتفع ههنا كما ارتفع في ذهب ، وشغلت ضرب به كما شغلت به ذهب ، وانتصب زيد لأنه مفعول تعدى إليه فعل الفاعل»^(١٢٦) .

وذكر سيبويه في باب «هذا باب بدل المعرفة من النكرة والمعرفة من المعرفة وقطع المعرفة من المعرفة مبتدأة»^(١٢٧) بعض الأمثلة من الكلام ، وأوضحها بأن تصور من أجل ذلك موقفاً كلامياً ، في الخطاب والجدال ، ذلك أن دراسة الجملة العربية - وفق نظرته - لا تنتهي لنا من غير أن تتمثل الموقف الذي قيلت فيه ، ولا بد لتقريب معنى الكلام من أن نتصوره حياً على ألسنة الناطقين ، فهو ألفاظ صاغها المتكلم ، ومعرفة دلالاتها تحمل على وضعها ثانية على لسان المتكلم في موقف كلامي ، يقول : «أمّا بدل المعرفة من النكرة فقولك : مررت برجل عبد الله كأنه قيل له : بمن مررت ؟ أو ظن أنه يقال له ذاك ، فأبدل مكانه ما هو أعرف منه . ومثل ذلك قوله عز وجل ذكره ﴿وإنك تهدي إلى صراط مستقيم صراط الله﴾^(١٢٧) . وأن شئت قلت : مررت برجل عبد الله ، كأنه قيل لك : من هو ؟ أو ظننت ذلك»^(١٢٨) .

وراعى النحويون المقام ، وتصور الموقف ، وهم يعرضون لتحليل الجملة ، فكانت لديهم أوجه عديدة ، كل وجه فيها تابع للمقصود من الكلام ، وهو مدار العمل ، فكانوا يؤولون علاقات

الألفاظ في التركيب وفقاً للمعنى الذي يمكن ان يتحصل من هذه العلاقات ، وكل ذلك نوع من التصور للمعنى الأول الذي صدر عنه الكلام ، أو هو تصور للأصل الذي راعاه المتكلم ، وهو ينطق العبارة ، فهذا المقصود وراء تبدل الصيغة النحوية ، ووراء تغير علاقات الألفاظ . مثال ذلك ما أورده المبرد في التركيب اللغوي «مُرّه يحفرُها ، ومُرّة يحفرُها» فقد وجّه الرفع في العبارة ثلاثة أوجه ، وجعل الجزم على وجه واحد ، وفضّله وجعله أجود من الرفع ، لأنه يتسق مع القاعدة فهو «على الجواب كأنه إن أمرته حفرها» . وأوجه الرفع في العبارة تبين سعيه إلى تصور حال المتكلم ، ومقصده من الكلام ، فيقول : «وأما الرفع فأحد وجوهه : أن يكون "يحفرها" على قولك : فإنه ممن يحفرها ، كما كان لاتدن من الأسد يأكلك ، ويكون على الحال ، كأنه قال : مرة في حال حفره ، فلو كان اسماً لكان مر حافراً لها ، ويكون على شيء هو قليل في الكلام ، وذلك أن تريد : مره أن يحفرها ، فتحذف "أن" وترفع الفعل ، لأن عامله لا يضم»^(١٢٩) .

فأتبع المبرد الإعراب للمعنى ، لأنه الأصل الذي يصدر عنه الكلام ، وتصور ذهنه الأوجه التي أقام عليها الجملة موقفاً تعبيرياً ، ساعد على فهم السياق اللغوي ، وانتزعه من مواقف الحياة التي تحمل على الخطاب والكلام ، فجعل لكل مقصود من العبارة وجهها من أوجه الإعراب .

وقد كانت المواقف الحياتية أو «المقام» أحد الأمور التي عقد عليها العرب فهمهم للكلام ، ومعرفتهم بالأصل الذي أراده المتكلم ، وهو المعنى الأول الذي صدر عنه ، فقد قال علي بن الحسين بن علي رحمه الله ، كما نقل عنه الجاحظ : «لو كان الناس يعرفون جملة الحال في فضل الاستبانة ، وجملة الحال في

صواب التبيين ، لأعربوا عن كل ما تخلص في صدورهم ، ولوجدوا من برد اليقين ما ينيهم عن المنازعة إلى كل حال سوى حالهم...»^(١٣٠).

وحملهم بحثهم عن الأصل إلى تبين ما تصرف به المتكلم في الجملة ، فقد كان العربي حبيراً بمواضع الكلم ، يسعى إلى نقل الأفكار بأقل الألفاظ ، ويعتمد في ذلك على سامعه ، فهو عارف باللغة مثله ، متفهم لطرائق تركيبها ، وما يمكن أن يعرض للتركيب في أثناء الكلام ، ودارس كلام العرب يحمل نفسه على تمثيل المقصود منه ، وطرائق المتكلم في اختصار التركيب ، وما ينويه في نفسه ، ويبحث عن الأصل الذي في النفس ، والذي أراد المتكلم في أثناء صياغته للعبارة ، من ذلك ما أورده سيويه في باب «هذا باب ما يكون من الأسماء صفة مفرداً ، وليس بفاعل ولا صفة تشبه الفاعل كالحسن وأشباهه»^(١٣١)، فذكر قول الشاعر ، وهو سحيم بن وثيل :

مررت على وادي السباع ولا أرى كروادي السباع حين يظلم وادياً
أقل به ركباً أتوة تية وأخوف ، إلا ما وفي الله ، سارياً

ثم قال : «وإنما أراد : أقل به الركب تية»^(١٣٢) منهم به ، ولكنه حذف ذلك استخفافاً ، كما تقول : «أنت أفضل» ، ولا تقول : من أحد ، وكما تقول : «الله أكبر» ، ومعناه الله أكبر من كل شيء ، وكما تقول : «لامال» ، ولا تقول : لك ، وما يشبهه ، ومثل هذا كثير»^(١٣٣).

وحمل هذا الفهم على أن المحذوف «إذا دلت الدلالة عليه كان في حكم الملفوظ به إلا أن يعترض هناك من صناعة اللفظ ما يمنع منه»^(١٣٤). وهي قاعدة عامة ، وأصل من أصول التركيب ،

أراد له ابن جنّي أن يشمل كثيراً مما يأتي في الكلام من حذف يقوم به المتكلم ، ولكن «المقام» أو الحال تدل على نيته ، ومقصده منه ، فالعبرة في الأصل والمعنى الأول الذي في نفس المتكلم «من ذلك أن ترى رجلاً قد سدّد سهماً نحو الغرض ثم أرسله ، فتسمع صوتاً فتقول : القِرطاسَ والله ، أي أصاب القِرطاسَ . و«أصاب» الآن في حكم الملفوظ به البتة ، وإن لم يوجد في اللفظ ، غير أن دلالة الحال عليه نابت مناب اللفظ به»^(١٣٥) .

وأورد ابن جنّي أمثلة عديدة تبين أن الحال تدل على المقصود من الكلام ، وأن الحذف في نية الإظهار ، لأن «المقام» يجعل السامع فاهماً لِمَا قصد من الكلام ، وهذا أمر متروك أحيانا للعرف ، فاللغة ليست عملاً فردياً ، وإنما هي أداة اجتماعية ، فإن تعارف القوم على صيغة تركيبية ما ، فإنهم يستطيعون بعقولهم أن يدركوا الأصل التركيبي الذي في ذهن المتكلم ، فيعيدوا الجملة إليه ، ويفهموها كما أرادها ناطقها ، من ذلك قول الشاعر :

رسم دارٍ وقفتُ في ظلِّه · كدتُ أقضي الغداة من جلِّه

أي رُبَّ رسم دار ، وكان رؤية إذا قيل له : كيف أصبحت يقول : خير عافاك الله ، أي بخير ، بحذف الباء لدلالة الحال عليها ، يجري العادة والعرف بها»^(١٣٦) .

وتوسع النحاة في تقدير أصل الكلام ، وهم بصدد الحديث عن المحذوف ، فحاولوا تقدير أصل الجملة بما يتسق والمعنى الذي قصده المتكلم ، فكانوا يقدرون هذا الأصل وفقاً لما يتصورونه من مقصد المتكلم من كلامه ، وردّوا كثيراً من المحذوف إلى ماسمي «الاستخفاف» أو «كثرة الاستعمال» ، وعنوا بذلك أن المتكلمين قد تواضعوا على حذف جزء من الكلام ، وهم يقصدونه ،

واشتهرت عبارة المبرد : العرب «تُحذف إذ كان فيما أبقوا دليل على ما ألقوا»^(١٣٧). وصارت أصلاً ينظر إليه في أثناء تقدير الأصل ، وقد أورد سيبويه في باب «هذا باب الظروف المبهمة غير المتمكنة»^(١٣٨) ما يدل على هذه التقديرات المعنوية للمحذوفات ، وبغيته منها إعادة الجملة إلى أصلها ، وهو أصل يتصوره النحوي في ذهن المتكلم كما يدل عليه سياق الكلام ، وطريقة صوغ الجملة ، فقال : «وأما قولهم : ابدأ به أول ، وابدأ بها أول ، فإنما تريد أيضاً أول من كذا ، ولكن الحذف جائز جيد ، كما نقول : أنت أفضل ، وأنت تريد : من غيرك . إلا أن الحذف لزم صفة عام لكثرة استعمالهم إياه حتى استغنوا عنه ، ومثل هذا في الكلام كثير . والحذف يستعمل في قولهم : ابدأ به أول ، أكثر ، وقد يجوز أن يظهره ، إلا أنهم إذا أظهره لم يكن إلا الفتح».

وجمعوا أحياناً بين «المقام» و «كثرة الاستعمال» لتعليل المحذوفات ، فقدروا المحذوف وفقاً لتقدير المعنى ، وأوضحوا ذلك بذكر مناسبة الكلام ليكون السامع متصوراً للمقام الذي قيل فيه ، فإن أراد قال به وفي ذهنه الحالة التي يقال فيها ، فقد ذكر سيبويه في باب «هذا باب ما ينتصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره في غير الأمر والنهي»^(١٣٩) ما يدل على الحذف لكثرة الاستعمال فقال : «ومن ذلك قول العرب : من أنت زيداً ، فزعم يونس أنه على قوله : من أنت تذكر زيداً ، ولكنه كثير في كلامهم واستعمل واستغنوا عن إظهاره ، فإنه قد علم أن زيداً ليس خيراً ولا مبتدأ ، ولا مبنياً على مبتدأ ، فلا بد من أن يكون على الفعل ، كأنه قال : من أنت ، معرّفاً ذا الاسم ، ولم يحمل زيداً على من ولا أنت ، ولا يكون من أنت زيداً إلا جواباً ، كأنه لما قال : أنا زيد ، قال : فمن أنت ذاكر زيداً»^(١٤٠).

وأضاف ابن يعيش إلى تفسير يونس ما سماه الأصل معبراً عن «المقام» الذي قيل فيه الكلام ، فقال : « وأصله أن رجلاً غير معروف بفضل تسمى يزيد وكان زيد مشهوراً بالفضل والشجاعة ، فلما تسمى الرجل المجهول باسم ذي الفضل دُفع عن ذلك فقيل له : مَنْ أنت زيدا على جهة الإنكار ، كأنه قال : من أنت تذكر زيدا ، أو ذاكرة زيدا لكنه لا يظهر ذلك الناصب : لأنه كثر في كلامهم ، حتى صار مثلاً » (١٤١).

ويتجلى ربطهم بين قضيتي الحال أو «المقام» ، وكثرة الاستعمال في تعليل الحذف ، وتقدير أصل المعنى فيما ذهب إليه الكوفيون ، في تفسيرهم بيت العباس بن مرداس السلمي :

أبا خراشة أما أنت ذا نفر فإن قومي لم تأكلهم الضنح

فذهبوا إلى أن التقدير فيه «أن كنت ذا نفر ، فحذف الفعل ، وزاد "ما" على "أن" عوضاً عن الفعل ، والذي يدلّ على أنها عوض عن الفعل أنه لا يجوز ذكر الفعل معها ، وكذلك قولهم «إمّا لا فاعل هذا» تقديره : إن لم تفعل ما يلزمك فافعل هذا ، لأن الأصل في هذا أن الرجل تلزمه أشياء فيطالب بها ، فيمتنع منها ، فيُقنع منه ببعضها ، فيقال له : «أما لا فاعل هذا» أي : إن لم تفعل ما يلزمك فافعل هذا» (١٤٢) ، وعللوا هذا الحذف بقاعدة أصولية تراعي الحال «المقام» ، وكثرة الاستعمال ، وتقول : «والحذف في كلامهم لدلالة الحال وكثرة الاستعمال أكثر من أن يحصى» (١٤٣).

ومما يوستوجب النظر - ونحن ندرس أهمية المقام في تقدير الأصل - عناية مفسري القرآن الكريم بأسباب النزول ، فأفردوا لها

كتباً منها تصنيف علي بن المديني «-٢٣٤هـ» شيخ البخاري ،
وعددوا أهمية المعرفة بأسباب النزول ، وقالوا عن هذا العلم «أخطأ
من زعم أنه لا طائل تحته ، لجريانه مجرى التاريخ ، وليس
كذلك»^(١٤٤) ، وذكروا أن له فوائد^(١٤٥) . :

- منها وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم .

- ومنها تخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص

السبب .

وهما فائدتان تختصان بالمشروع .

- ومنها الوقوف على المعنى ، قال الشيخ أبو الفتح القشيري :

بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز ،
وهو أمر تحصل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا .

- ومنها أنه قد يكون اللفظ عاماً ، ويقوم الدليل على

التخصيص ، فإن محل السبب لا يجوز اخراجه بالاجتهاد والاجماع .

وهما فائدتان يأخذ بهما المفسر ، ودارس المعنى ، والدلالة :

وعندما يؤدّ المفسر تفسير آية فإنه يبدأ بذكر سبب النزول ،

ونص على ذلك الزركشي «- ٧٩٤هـ» ، فقال : «واعلم أنه

جرت عادة المفسرين أن يبدأوا بذكر سبب النزول ، ووقع البحث ،

أيما أولى البداءة به : بتقدم السبب على المسبب ، أو بالمناسبة ،

لأنها المصححة لنظم الكلام ، وهي سابقة على النزول»^(١٤٦) .

ومن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ

الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾^(١٤٧) . :

فقد ذكروا أن اليهود قالت لكفار قريش : (سلوا محمداً ، عن

الروح فإن أجابكم فليس بنبي ، وإن لم يجيبكم فهو نبي ، فلما نجد في

كتبنا ذلك ، فأمره الله بالعدول عن ذلك ليكون علماً له ودلالة على صدقه ، وتكديماً لليهود والرادين عليه ، وهذا جواب أبي علي بن عبد الوهاب الجبائي^(١٤٨) ، فوضعت الآية في مقامها ، وعرف من كان يسأل عن الروح وسبب سؤاله ، ولم تفسر الروح في القرآن الكريم.

وكانو وهم بصدد البحث عن أصل الجملة يعيدون تركيبها، فيبحثون عن التقديم والتأخير فيها ، فيرجعون الكلمات إلى مواضعها الأصلية التي ارتسمت في أذهانهم ، وهم يقررون أن الجملة مسند ومسند إليه ، من ذلك حملهم بعض الشعر على التقديم والتأخير ليتخلصوا من عيب الإقواء فيه ، فأرجعوه إلى أصل الجملة، ومن أمثلته ما جاء في شعر القديم :

تغيرت البلاد ومن عليها ووجه الأرض مغيرٌ قبيحٌ
تغير كل ذي ریح وطعم وقل بشاشة الوجه المليح

« وأكثر الناس ينشد هذين البيتين برفع الأول^(١٤٩) ، وجر الثاني على ظاهر اللفظ ، ويحملة على الإقواء - وهو جائز - إلا أبا سعيد^(١٥٠) ، فإنه أنشدهما بالرفع معاً ، على أن يكون نصب «بشاشة» على التمييز ، ورفع «الوجه» بـ «قل» ، ونوى التقديم والتأخير ، وحذف التنوين لالتقاء الساكنين ، كأنه أراد : «وقل بشاشة الوجه المليح» ، أي «وقل الوجه المليح بشاشة»^(١٥١) .

ومن ذلك قول الشاعر :

قبالي سألنا سأل سعيد يتو كما قد أخلصه القيودا

فتوجيه إعرابه «إنه على التقديم والتأخير ، فـ «سعيد»

فاعل، وفعله قال و «سالما» أمر من «سالم يسالم مسالمة»، وقد
الحقة نون التوكيد الخفيفة، و «القيود» نصب في «تأمل»،
وترتيب الكلام: «قال لي سعيد: سالن، تأمل القيود قد أثقلت
يتوكأ» أي «متوكأ»، فعلى هذا تصحيحه (١٥٢).

ويدل على اتخاذهم للكلام أصلاً تركيبياً يحكمون به على
ما في الجملة من تقديم وتأخير، وأصلاً معنوياً يصور في أذهانهم
طريقة التركيب والتبدل فيه ما ذكره الزجاجي «- ٣٤٠ هـ» في
كتاباه الجمل، فقد ذكر في باب «باب ما يجوز تقديمه من المضممر
على الظاهر، وما لا يجوز» (١٥٣)، الحكم الذي يقوم عليه ترتيب
الجملة التي فيها المضممر، فقال: «أعلم أن حكم المضممر أن يجيء
بعد ظاهر يتقدمه يعود إليه، لأنه مبهم، ولا يعقل على من يعود
عليه حتى يتقدمه اسم ظاهر يعود عليه، هذا أصله كقولك: «زيد
ظهرته، وعمرو مررت به، ونحوه» (١٥٤). ثم أورد الحالات التي
يتقدم فيها المضممر في كلام العرب على الظاهر، وذكر لذلك
وجهين، وجاء في حديثه عن الوجه الثاني قوله: «والوجه
الثاني»: وهو الذي قصدناه في هذا الباب، مضممر تقدم لفظاً،
وهو مؤخر في المعنى، وقد علم أن موضعه متأخر، فجاز لذلك
تقديمه، وذلك إن كل مضممر اتصل باسم منصوب أو مخفوض،
فإنه يجوز تقديمه وتأخيرهم على المظهر، لأن البنية أن يكون مؤخرًا.
فإن اتصل باسم مرفوع لم يجوز تقديمه على الظاهر، لأنه لا ينوي به
التأخير» (١٥٥).

ووضعوا للتركيب احتمالات إعرابية، وفق نهاويلهم لدلالة
بعض الألفاظ فيه، فتغير لديهم الأصل المعنوي بتغير الإعراب،
وتغير دلالة المفردات، ونصبوا على هذه الأصول المعنوية المتبدلة التي
جردها من الكلام، وفق تبدل الإعراب، وتغير دلالة التركيب،
من ذلك ما ذكره أبو علي الفارسي «- ٣٧٧ هـ» في باب «باب

مما يكون الحرف فيه على لفظ واحد يحتمل غير معنسى « (١٥٦) من كتابه (إيضاح الشعر) فقد وجه نيت النابغة الدبياني :

لأنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت إن المتأى عنك واسع
توجيهين إعرابين ، وكان كل واحد منهما يؤدي إلى أصل
معنوي يختلف عن الآخر ، وفق تغير دلالة اللفظ «إن» ، فوضع
احتمالاً «أن تكون إن نافية» ، ثم وضع معادلاً معنوياً للصيغة
الكلامية ، وفق هذا الاحتمال ، فقال : «كأنه قال : ما خلت أن
المتأى عنك واسع» ، لأنك كالليل المدركي أينما كنت» (١٥٧) .
وجوز من بعد أن تكون «إن» التي للجزاء ، ومن ثم أرجع
الصيغة إلى أصل معنوي آخر فقال : «كأنه قال : إن خلت إن
المتأى عنك واسع أدركتني ولم أفئك ، كما يدركني الليل» ،
ورجح الوجه الأول (١٥٨) .

وكانوا في بعض الأحيان يقدمون أصل المعنى قبل توجيه
الاعراب ، وجاء ذلك على نحو خاص في كتب المتأخرين التطبيقية
التعليمية ، وهم - بذلك - يصدرن في إعرابهم عن أصل معنوي
واضح في ذهن المعرب ، فيعيدون تركيب الصورة اللفظية إلى أصلها
لكي يدرك المقصود منها ، قبل معرفة علاقات الألفاظ فيها ، من
ذلك ما أورده ابن الحاجب « - ٤٦٤ هـ » في كتابه «الأماني
النحوية» ، وهو يعرض لإعراب قول الشاعر :

لَقِمْتُ لِلطَّيْفِ مِرْقَاعاً وَأَرْقَنِي لَقِمْتُ : أَهْيَ سَرَّتْ أَمِ عَاقَنِي حُلْمُ

ففسر البيت ، وأعادته إلى صورته المعنوية التي صدر الشاعر
عنها فقال : « يريد إنني قمت من أجل الطيف قائماً منتبهاً مذعوراً
للقاءه ، وأرقني لما لم يحصل اجتماع محقق ، ثم أرتبت لعدم
الاجتماع . هل كانت على التحقيق أم كان ذلك في المنام؟ » (١٥٩) .

ووضع لهذا المعنى تصوراً آخر هو «قمت وأنا في النوم إجلالاً

في حال كوني مدعوراً لاستعظامها ، وأرقي ذلك لما التبعت ، فلم أجد شيئاً محققاً ، ثم من فرط صباهه شك أهي في التحقيق سرت أم كان ذلك حلماً على عاداتهم في مبالغاتهم» ^(١٦٠) ، وواضح أنه في كلا الأصلين المعنويين يريد أن يصل إلى اعراب كلمة «مرتاعاً» فجعل مدار المعنى على تصوير الحال ليقول : «ومرتاعاً : نصب على الحال» ^(١٦١) .

وتتضح صورة بحثهم في الحقيقة، وهي أصل المعنى في نظرتهم إلى الصياغة الفنية ، فقد ارجعوا هذه الصيغة إلى أصل معنوي بسيط، يقوم على نشر يراعي قواعد التركيب ، ويبين علاقات الألفاظ ، ويعيد تركيب الصورة إلى مستوى بسيط من الكلام لاتصوير فيه ، وكأنهم يرجعون في ذلك إلى ما يمكن أن يكون صانع الصورة قد فكر فيه حين صياغتها ، فجمع في ذهنه تصورات متعددة عن الواقع الخارجي ، وأعاد تركيبها في صياغة فنية جديدة، تعدّ تعبيراً عن هذه التصورات على نحو غير مباشر ، يحمل سامعه على التأمل والتفكر ، وإعمال العقل ليكتشف العلاقات بين الألفاظ في ذهنه ، فيؤدي اكتشافه إلى النشوة التي أحسّ بها الشاعر حين اكتشف بنفسه هذه العلاقات ، والانسان يحس ، وهو يقرأ الشعر ، إن القصيدة قد لامست مشاعره ، واستطاعت الصورة الفنية فيها أن تثير في نفسه انفعالات كثيرة قصد إليها الشاعر ، وقد فسّرت كلمة «الكاترسيس» التي تحدث عنها أرسطو في كتابه ^(١٦٢) وهو بصدد حديثه عن «المأساة» في كتابه الشعر على أنها تعني «التطهير» ، ورأى برناي إن التطهير « يدلّ على تأثير متعلّة بالصحة في النفس مماثل أثر الدواء في الجسم ، وهو يقدم الفكر: هكذا : المأساة تثير انفعاليّ الخوف والشفقة ، وعن طريق فعل الإثارة نفسه تتيح للشخص راحة لاذّة » ^(١٦٣) .

وكان الامام عبد القاهر الجرجاني على ذكر من الطبيعة النفسية للصورة في ذهن المتلقي ، فالصورة تأتي لتعيد صياغة المعنى الذي يدور في ذهن المتكلم ويلقيه إلى السامع ، وقد تأتي في أعقاب المعاني البسيطة العادية ، أو تأتي حاملة للمعنى بذاتها ، فهي صورة منفصلة عن المعنى ، لأنها صياغة لفظية يؤدي بها معنى من المعاني يتمثل في حقيقة التصور الموجود في ذهن الانسان ، ولذلك فهي معرض للمعنى ، وحلة جميلة يتلبسها ، وهذا ما يجعل منها حالة خاصة تصدر عن أصل معنوي يعد حقيقة ثابتة لا تتغير ، ويصور الجرجاني ذلك في قوله : «واعلم إن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باعتصارها معرضة ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ، كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها » (١٦٤).

فالمعنى الجرد كلام قد لا يثبت في النفس ، لأنه يحمل صورة ذهنية بسيطة واضحة أو مبهمة ، ووضوحها أو إبهامها أمران يحددهما الكلام نفسه ، لأن المتكلم قد يأتي بمعنى لا يخالط النفس ، ولا يقنع الخاطر ، وقد يأتي معنى متعارف عليه موجود في الواقع ، متصور في الذهن ، وتعمل الصورة الفنية على إعادة صياغة هذا المعنى على نحو يسمح للذهن المتلقي بقبوله ، ومن ذلك قول البحري :

دان على أيدي الغفاة وشاسع عن كل ند في الندى وضريب
كالبدر أفرط في العلو وضوءه للعصبة السارين جلد فريب

فالنفس لا تنس إلى ما جاء به الشاعر في البيت الأول من

المعاني ، لأنها غريبة الوقع ، وبعيدة المتناول ، فتعيد الصورة تركيب المعنى تركيباً جديداً يظهر ملامحه ، ويزيل الريب عنه ، ويبيّن غموضه ، فيطلب الجرجاني من قارئ البيتين أن يتفكر في المعنى قبل تمثيله ، وفيه بعد التمثيل ليجد الأثر واضحاً في نفسه فيقول : «وفكر في حالك وحال المعنى معك وانت في البيت الأول لم تنته إلى الثاني ، ولم تتدبر نصرته إياه ، وتمثيله له فيما يلي على الانسان عيناه ، ويؤدي إليه ناظره ، ثم قسمّهما على الحال وقد وقفت عليه ، وتأملت طرفيه ، فإنك تعلم بُعد ما بين حالتك وشدة تفاوتهما في تمكن المعنى لديك وتخبئه إليك» (١٦٥).

وهذه الصورة التي كان الجرجاني حفيّاً بها ، كلفاً بما تحمّاه إلى النفس من تأثير ، مردّها إلى طبيعة تصور المعنى في ذهن المتلقي ، ومحاولته التقرب إلى التصور الذي ارتسم في ذهن صانع الصورة ، فيرجع الجرجاني إلى مشكلة إدراك الواقع الخارجي في نفس الانسان، وإلى طريقة تصوره في الذهن على أنه حقيقة موجودة يتأثر بها الانسان ، فيتصورها في نفسه حقيقة ذهنية هي المعنى ، فإذا بالانسان يألف التمثيل ، لأنه يعود به إلى التجربة الحسية الواقعية التي استمد منها المعاني ، وكان المتكلم مدرك في أعماق نفسه إنه إذا أراد إثبات معنى ما ، وجعله حقيقة لاخيالاً ، فإنّ عليه أن يعيد هذا المعنى إلى أصل تصوره في النفس ، فيقرّبه عن طريق إعادته إلى الواقع الخارجي المحسوس ، وتتهيأ لسامعه فرصة إدراك حقيقة التصور الذهني لهذا الواقع الذي يعد أصل الحقيقة الموجودة في النفس ، لأنها مستمدة منه ، فيعلل الجرجاني لطبيعة تأثير التمثيل بأنه ينقل النفس من الغموض إلى الجلاء ، ومن الإشارة إلى التصريح ، ومن العقل إلى الاحساس ، أي من التصور الذهني إلى

الواقع الذي بعث في الذهن هذا التصور فيقول : «فأما القول في العلة والسبب : لِمَ كان للتمثيل هذا التأثير ؟.... فأول ذلك وأظهره إنَّ أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفيّ إلى جليّ ، وتأتيها بصريح بعد مكثّ، وإن تردّها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم ، وثقتها به في المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الاحساس ، وعما يعلم بالفكر ، إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركز فيها من جهة الطبع وعلى حدّ الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر ... ومعلوم أن العلم الأول أتى النفس أولاً من طريق الحواس والطباع ثم من جهة النظر والروية»^(١٦٦).

وأدرك الجاحظ « - ٢٥٥هـ » إن المعاني تتصور في النفس ، وفي الذهن ، وأن الكلام يعبر عنها ويصوغها لفظاً ، فتخرج المكنونات من النفوس ، وتنقل التصورات إلى الآخرين ، وفي ذلك فهم للعلاقة بين التصور الذهني ، والصياغة اللفظية المعبرة عنه ، فلمولا ذكر المعاني بلفظها ، وصياغتها لما عرف الناس ضمائر بعضهم بعضاً ، ولما أدركوا مكنونات النفوس ، وماتنطوي عليه الضمائر ، فالذكر رابط بين الناس ، يحقق اجتماعهم ، وفي هذا تفسير آخر لفكرة المعنى ، وهي أنه قائم بالنفس ، متصور في الذهن ، وهو تعبير عما في الضمير ، وعن الحاجة ، وعلى ما يريد الإنسان من الحاجات التي لا يقوم بها بنفسه ، ولكنه يحتاج غيره في ذلك ، أما ذكرها فهو تصويرها في اللفظ لتحمل الألفاظ هذه المداني ففرّق بين المعنى واللفظ المعبر عنه ، وجعله وعاء يحتويه وكسوة يلبسها ، ونقل عن بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني قولهم : « المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم ،

والتخلجة في نفوسهم ، والمتصلة بخواطرهم ، والحادثة عن فكرهم ، مستورة خفية ، وبعيدة وحشية ، وموجودة في معنى معدومة ، لا يعرف الانسان ضمير صاحبه ، ولا حاجة أنحيه وخليطه ، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره ، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره ، وإنما ما يحبي تلك المعاني ذكرهم لها وإخبارهم عنها ، واستعمالهم إياها ، وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم » (١٦٧) .

ولما كانت المعاني متسعة اتساع تجربة الانسان ، وكثيرة كثرة جزئيات الواقع حوله ، فإن تصورها في النفس متعدد ، ولا يحد ولا يمحصر ، وإنما الذي يُعَيِّي الانسان هو طريقة تصويرها للآخرين بالألفاظ ، لأنها محدودة ، والمعاني كثيرة ، فالمعنى تصور ذهني ، قائم بالنفس لما يعرض للانسان في حياته ، ويشاهد ويجرب ، والكلام محدود بالألفاظ ، وطبيعة الجمل وقواعدها ، فلا يتأني للانسان التعبير عن هذه المعاني بالألفاظ المحدودة التي يملكها ، وهذا يحمل على الصياغة الفنية التي تحمل دلالات كثيرة ، فتثقل للانسان المتلقي بعض ما في نفس المتكلم من تصورات عن الواقع ، فيقرر الجاحظ «أن حكم المعاني بخلاف حكم الألفاظ ، لأن المعاني مبسطة إلى غير غاية ، وممتدة إلى غير نهاية وأسماء المعاني مقصورة معدودة ، ومحصلة محدودة » (١٦٨) .

ومهمة المتكلم وعي هذه المشكلة ، فعليه أن يختار ألفاظه ويصوغها بحيث يؤمن إيصال المعنى إلى الآخرين على النحو الذي تصوره في نفسه ، وبذلك فليتفاضل الناس ، وليظهر القادر على الصياغة المعبرة التي لها شروطها ، فعلى «قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة ، وحسن الاختصار ، ودقة المدخل ، يكون إظهار المعنى ، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح ، وكانت الإشارة أبين وأنور ، كان أنفع وأنجح ، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو

البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه ، ويدعو إليه ، ويبحث عليه»^(١٦٩). ولا يتم ذلك إلا بالصياغة الجميلة التي تحمل تحتها معنى فتكشف عنه ، وتبين غامضه ، وتثير في النفس شعوراً بالجمال مرده إلى إحساس الإنسان بجمال الصياغة المعبر عن المعنى ، وهو الذي أشار إليه أبو العلاء المعري حين عرّف الشعر ، وهو الصياغة الجمالية للمعنى بقوله : «والشعر كلام موزون مقفى تقبله الغريزة على شرائط ، إن زاد أو نقص أبانه الحسن»^(١٧٠).

وقد نقل لنا الجاحظ (-٢٥٥هـ) تصوره للعلاقة بين اللفظ والمعنى ، فجعل المعنى أصلاً يعبر عنه باللفظ ، فهو بالحقبة القائمة في النفس ، يصوغها المتكلم في صياغة جميلة تقربها إلى الآخرين ، ولا ينقلها كما تصورها بالصياغة البسيطة ، لأن السامع قد يفهم المعنى بهذه الصياغة لكنه لا يعجب به ، ولا يثبت في النفس ، والفرق بين متكلم وآخر لا يكون بتحصيل المعاني ، لأنها موجودة في النفوس كلها ، فلكل إنسان تجربة ، ووعي للواقع ، ولكن تحصيل الفرق يتم بالنظر إلى قدرة الإنسان على التعبير الجميل عن المعاني ، فقال : «وذهب الشيخ إلى استحسان المعنى ، والمعاني مطروحة في الطريق ، يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن ، وتخفيف اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسيج ، وجنس من التصوير»^(١٧١). فماز الجاحظ بكلامه بين المعنى المتصور والصياغة المعبرة عنه ، وفضل الصياغة الفنية التي تحمل تحتها معنى ما ، على الصياغة (البسيطة) التي تؤدي المعنى دون أن تمتاز بالجمال.

وما فتئ النقاد القدامى يرون في المعنى أصلاً يجرد من الصياغة

الفنية ، فأعادوا إليه الصور التي صاغها الشعراء ، وجعلوا الصورة التي هي تعبير فني عن المعنى وتصوير لفظي له طريقة في التعبير فيها تركيب جديد للمعنى ، يوهم السامع بادئ بدء ، ولكنه عندما يعمّن النظر يستطيع أن يستشف وراء الصورة أصلاً معنوياً يرجع إليه، وهو الحقيقة التي صدر عنها المتكلم ، وصاغها الصياغة التي يبرز فيها جمال تصوره للواقع ، وجمال الحقيقة التي ارتسمت في ذهنه ، وتبين ذلك فيما فعله ابن المعتز حين جرّد الصورة في بيتي أبي تمام :

يامنزلًا أعطى الحوادثَ حكمها لا مَطْلَ في عِدَّةٍ ولا تسويفا
ولئن ثوى بك ملقياً بجوانه ضيفُ الخطوب لقد أصابَ مضيفا

فنزع عن المعنى غطاءه ، وكشف حقيقة ما يرمي إليه الشاعر، وأعاد الصورة المجازية إلى أصلها الحقيقي ، فقال : «المعنى أنه أصاب موضعاً يضيف إليه فيه ، أي يميل إليه ، لأن أهله قد فارقوه ، ومضيفٌ مُحالٌ ، لأن البلد لا يضيف ، ولأن الزمان لا يحتاج ، وإنما المعنى أن الزمان مال عليك فأصاب موضع محلٍّ ومنزل»^(١٧٢).

ولانفعل ونحن نبحت في تصور المعنى عن منهج ابن طباطبا في ها الشأن ، فعمله في كتابه «عيار الشعر» صورة من صور تجريد الصيغة الكلامية الفنية ، وإرجاعها إلى أصل معنوي تصدر عنه ، وهو المعنى الذي مكانه النفس ، ففيها يتكون ، ومن بعد يُلبسه المتكلم حلة لفظية تنقله إلى الآخرين ، وهي طريقة أراد لها ابن طباطبا أن تلحظ طريق الشعراء المحدثين ، وأن تهدي من أراد قول الشعر إلى طريقه «فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذي

يريد بناء الشعر عليه فكره نثراً ، وأعدّه له ما يلبسه إتياء من الألفاظ التي تطابقه ، والقوافي التي توافقه ، والوزن الذي يسلس له القول عليه ، فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يروقه أثبتته»^(١٧٣).

فالمعنى داخل النفس تعبير عن أصل تستند إليه صورة القول الشعري ، وهو شيء مجرد يمكن التعبير عنه بوساطة النثر في حنايا النفس ، ويبقى تصور المعنى في قالبه النثري تعبيراً عن الحقيقة الأولى ، والمادة الخام التي تتطلب إعادة تشكيل وصياغة ، لتصبح صياغة فنية جميلة ، أي صياغة شعرية ، فمحض المعنى في النفس نثراً لا يغير فيه ، لأنه يبقى معبراً عن الحقيقة ، وعندما يتحول إلى الشعر يصبح عملاً فنياً تصويرياً ، مستمداً في أصله من الصياغة النثرية ، لكنه يفضلها ، لأن الشاعر حين يصنع هذه الصياغة «يكون كالنساج الحاذق الذي يفرف وشيه بأحسن التفريغ ويسدّه ، وينيره ، ولا يهلهل شيئاً منه فيشينه ، وكالنقاش الرفيق الذي يضع الأصباغ في أحسن تقاسيم نقشه ، ويشبع كل صبغ منها حتى يتضاعف حسنه في العيان ، وكناظم الجواهر الذي يؤلف بين النفيس منها والتمين الرائق ، ولا يشين عقوده بأن يفاوت بين جواهرها في نظمها وتنسيقها»^(١٧٤).

والحقيقة أن عمل ابن طباطبا كان على خلاف عمل النقاد اللغويين الآخرين ، لأنهم بدؤوا بالصيغة اللغوية المنجزة ، وطلبوا لها أصلاً معنوياً صبغ في النفس صياغة نثرية فقدّمه على الصياغة الفنية ، أمّا هو فقد بدأ بالمعنى ليصل إلى الصياغة الفنية ، وقد أبانت طريقته سرّ المنهج الذي اتبعه الآخرون ، لإعادة تركيبه لطريقة العمل توضح الوسيلة التي يكتشف بها المعنى ، والأصل الذي يتصور بصياغة كلامية فنية ما .

ويزداد الأمر وضوحاً حين نضع يدنا على نهجهم في الوصول إلى المعنى النفسي-الذي هو الحقيقة الأولى ، ويبين ذلك تحليلهم التركيب إلى بسائطه ، أو حديثهم عن طريقه صياغته من البسائط إلى الصياغات المركبة الفنية ذات الدلالات الواسعة ، وذلك في أثناء تحليل التركيب ، وإعادة تدويره إلى أصوله ، وقد اتبع هذه الطريقة ابن جني والسكاكي في مفتاح العلوم .

سمى ابن جني هذه الطريقة إصلاح اللفظ ، فذكر في باب «باب في إصلاح اللفظ» : «اعلم أنه لما كانت الألفاظ للمعاني أزمة ، وعليها أدلة ، وإليها موصلة ، وعلى المراد منها محصلة ، عنيت العرب بها وأولتها صدرأ صالحاً من تثقيفها وإصلاحها»^(١٧٦) ، وأورد على ذلك مثلاً ، وحلله ، فقال : «ومن إصلاح اللفظ قولهم : «كأن زيداً عمرو» ، أعلم أن أصل هذا الكلام زيد كعمرو ، ثم أرادوا تأكيد الخبر فزادوا فيه «إن» فقالوا: إن زيداً كعمرو ، ثم إنهم بالغوا في تأكيد التشبيه فقدموا حرفه إلى أول الكلام عناية به ، وإعلاماً أن عقد الكلام عليه ، فلما تقدمت الكاف وهي جارة لم يجر أن تباشر «إن» لأنها ينقطع عنها ما قبلها من العوامل ، فوجب لذلك فتحها ، فقالوا: كأن زيداً عمرو»^(١٧٧) .

وشبهه بهذا العمل ماورده السكاكي في تحليل الآية القرآنية الكريمة : «ربّ إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً»^(١٧٨) ، وقد جعل تحليله في جزأين ، تناول في الأول : «ربّ إني وهن العظم مني» ، وفي الثاني «واشتعل الرأس شيباً» ، وجرى في عمله بجرى ابن جني ، فأقام تحليله على تقدير أصل العبارتين ، وما اعتري هذا الأصل من تغير يتساق مع المعنى الأصلي ويرجع إليه ، وإن

كانت الصيغة قد تبدلت من صيغة عادية إلى صيغة فنية جمالية، فقال: « والكلام في تلك اللطائف مفتقر إلى أخذ أصل معنى الكلام ومرتبته الأولى ، ثم النظر في التفاوت بين ذلك وبين ما عليه نظم القرآن وفي كم درجة يتصل أحد الطرفين بالآخر ، فنقول : لا شبهة إن أصل معنى الكلام مرتبته الأولى ياربّي قد شخت ، فإن الشيخوخة مشتملة على ضعف البدن وشيب الرأس المتعرض لهما ، ثم تركت هذه المرتبة لتوحي مزيداً من التقرير إلى تفصيلها في : ضَعُفَ بدني وشاب رأسي ، ثم تركت هذه المرتبة الثانية لأشتمالها على التصريح إلى مرتبة أبلغ ، وهي الكناية في وهنت عظام بدني ما ستعرف إن الكناية أبلغ من التصريح ، ثم لقصد رابعة أبلغ في التقرير بُنيت الكناية على المبتدأ فحصل : أنا وهنت عظام بدني ، ثم لقصد خامسة أبلغ أدخلت «إن» على المبتدأ ، فحصل : إني وهنت عظام بدني ، ثم لطلب تقرير إن الواهن هي عظام بدنه قصدت مرتبة سادسة ، وهي سلوك طريق الاجمال والتفصيل ، فحصل : إني وهنت العظام من بدني ... ثم لطلب مزيد اختصاص العظام به قصدت مرتبة سابعة ، وهي ترك توسيط البدن ، فحصل : إني وهنت العظام مني ، ثم لطلب شمول الوهن العظام فرداً فرداً ، قصدت مرتبة ثامنة ، وهي ترك جميع العظم إلى الأفراد لصحة حصول وهن المجموع باليعض دون كل فرد فرد ، فحصل ماترى ، وهو الذي في الآية : ﴿إني وهن العظم مني﴾ ، وهكذا تركت الحقيقة في شاب رأسي إلى أبلغ ، وهي الاستعارة ، فسيأتيك أن الاستعارة أبلغ من الحقيقة ، فحصل : اشتعل شيب رأسي ، ثم تركت إلى أبلغ وهي : اشتعل رأسي شيئاً ... ثم ترك : اشتعل رأسي شيئاً لتوحي مزيد التقرير إلى : اشتعل الرأس مني شيئاً ، على نحو : وهن العظم مني ، ثم ترك لفظ مني لقرينة عطف « واشتعل

الرأس « على «وهن العظم مني» لمزية مزيد التقرير ، وهي إيهام
حوالة تأدية مفهومه على العقل دون اللفظ « (١٧٩) .

وصفوة القول إن البحث في الحقيقة اللغوية لدى علمائنا
القدامى والمتأخرين لم يكن بحثاً سطحياً ، يأخذ ظواهر الأمور ،
ويلقي الأحكام على عواهنها ، وإنما كان دراسة متأنية لعلاقة اللفظ
الدال بمدلوله ، وكيفية تصور الواقع في النفس ، ثم طريقة التعبير
عنه باللفظ المفرد أو الجملة المركبة ، ودرسوا وهم يبحثون هـ ،
المسائل الانسان نفسه ، طريقة تفكيره واحساسه بالواقع والوسائل
التي يتهدى بها إلى التعبير عما حوله .

فكانت نظرية المعنى ، وفكرة الدلالة في المفردات والتركيب
الأصل الذي بنوا عليه فكرتهم عن الحقيقة اللغوية التي تصوروها
تمثلاً للواقع الخارجي في الذهن ، ومن ثم هي اللفظ المعبر عنها
تعبيراً يدل على الأصل ، وهو مطابقة الواقع ، أو صورته الذهنية ،
أو مطابقة التركيب للحقائق التي ارتسمت في النفس معاني مصوغة
صياغة نثرية بسيطة بعيدة عن التركيب الفني .



هوامش الفصل الثاني :

- (١) البيان والتبيين - ١/٧٦.
- (٢) أسرار البلاغة ص : ٢
- (٣) القياس د. منى الياس ص : ٣٢ .
- (٤) نفسه
- (٥) الأصول - د. تمام حسان ص : ١٢٣ .
- (٦) القياس ص ٣٥.
- (٧) البيان والتبيين ١ / ١٦٢.
- (٨) الكليات ١ / ١٨٨
- (٩) الكتاب : ١ / ٢٥
- (١٠) نفسه
- (١١) نفسه .
- (١٢) نفسه .
- (١٣) الكتاب ١ / ٢٦
- (١٤) نفسه .
- (١٥) نفسه .
- (١٦) الكتاب ١ / ٣٩
- (١٧) نفسه ١ / ٤٠ .
- (١٨) نفسه ١ / ٣٠٧ .
- (١٩) نفسه .
- (٢٠) نفسه ١ / ٣٤ .
- (٢١) نفسه .

- (٢٢) نفسه .
- (٢٣) انظر عيار الشعر لابن طباطبة ، ص ١١ ، وأسرار البلاغة ، ص : ١٢٠
- والعنى الشعري في التراث النقدي ، د. حسن الطبل ، ص : ٤٤ .
- (٢٤) الكتاب ١ / ٣٤ .
- (٢٥) اللغة العربية معناها ومبناها ، د . تمام حسان ص : ٣٣٧ .
- (٢٦) الكتاب ١ / ٢١٦ .
- (٢٧) نفسه ١ / ٢١٧
- (٢٨) نفسه ١ / ٢١٨ .
- (٢٩) نفسه
- (٣٠) الكتاب ١ / ٢١٨ بعد الحاشية رقم «١» .
- (٣١) أي ليس واجبا بمعنى القضاء .
- (٣٢) دلائل الاعجاز ٤٩ .
- (٣٣) نفسه .
- (٣٤) دلائل الاعجاز ٥٠ .
- (٣٥) نفسه ٨١ .
- (٣٦) الانصاف ١ / ٤٧ .
- (٣٧) نفسه ١ / ٥٠ .
- (٣٨) نفسه ١ / ٥٧ .
- (٣٩) نفسه ١ / ٧٠ .
- (٤٠) نفسه ١ / ٧٦ .
- (٤١) نفسه ١ / ٨٧ .
- (٤٢) الانصاف ١ / ٩٣ .
- (٤٣) الفروق في اللغة ، ص ٧٥ .
- (٤٤) نفسه .
- (٤٥) نفسه ، وانظر المصاحبي لابن فارس ، ٣٢١ .
- (٤٦) الخصائص ٢ / ٤٤٦ .

- (٤٧) مفتاح العلوم للسكاني ، ص ١٥٣ .
 (٤٨) أسرار البلاغة ، ٣٠٣ .
 (٤٩) نفسه .
 (٥٠) الطراز لابن حمزة العلوي ١ / ٤٨ - ٤٩ .
 (٥١) المثل السائر ١ / ٥٨ .
 (٥٢) ارشاد الفحول للشوكاني ٢١ .
 (٥٣) الطراز ١ / ٤٧ .
 (٥٤) نفسه . ١ / ٤٨ .
 (٥٥) نفسه .
 (٥٦) أبو بكر محمد بن الطيب بن المعروف بالباقلاني الفقيه المتكلم الأصولي .
 (٥٧) طه ، الآية ١١٣ .
 (٥٨) كتاب منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي . ص : ٦٢
 (٥٩) مفتاح العلوم ، ص ١٥٢ .
 (٦٠) انظر على سبيل التمثيل ارشاد الفحول للشوكاني ، ص : ٢١ .
 (٦١) مفتاح العلوم ، ص ١٥٢ .
 (٦٢) نفسه ، ص : ١٥٢ - ١٥٣ .
 (٦٣) الايضاح للقزويني ٢ / ٤٤٨ .
 (٦٤) نفسه ٢ / ٤٤٨ .
 (٦٥) الايضاح للقزويني ٢ / ٤٤٨ .
 (٦٦) التلخيص للقزويني ٢٩٢ - ٢٩٣ .
 (٦٧) المطول على التلخيص للسعد ، ص : ٣٢١
 (٦٨) أسرار البلاغة ، ٣٣١ . ونهاية الإيجاز في دراية الاعجاز ، ص ١٧٣ .
 (٦٩) أسرار البلاغة ٣٣٢ .
 (٧٠) نفسه ، ص : ٣٣٢ .
 (٧١) نفسه ، ص : ٣٣٢ ، وانظر الآراء المختلفة في هذه الجملة في فواتح
 الرهوت بشرح مسلم الفوت ١ / ٢٠٨ .

- (٧٢) أسرار البلاغة ، ص : ٣٣٤ - ٣٣٥ .
- (٧٣) نفسه ، ص : ٣٠٣ .
- (٧٤) نهاية الإنجاز في دراية الاعجاز ، ص : ١٤٨ .
- (٧٥) الشفاء - المدخل ١/٢٤ .
- (٧٦) الشفاء - العبارة ص ٩ .
- (٧٧) الشفاء - العبارة ص ٩ .
- (٧٨) اللغة بين البلاغة والأسلوبية ، د. مصطفى ناصف ، ص ٦١ .
- (٧٩) المطول على التلخيص للتفتازاني ، ص ٢٧٥ ، وانظر الكليات للكفوي ٣٢٠/٢ .
- (٨٠) الكليات ٣٢٢/٢ .
- (٨١) دلالة الألفاظ عند الأصوليين ، ص ١٠ .
- (٨٢) الكليات ٢٥٢/٤ .
- (٨٣) الكليات ٣٢٢/٢ .
- (٨٤) الكليات ٢٥١/٤ ، والفروق في اللغة لأبي هلال العسكري ، ص ٢٥ .
- (٨٥) الكليات ٢٥١/٤ .
- (٨٦) - الكليات ٢٥٢/٤ .
- (٨٧) دلالة الألفاظ عند الأصوليين ، ص ١٠ .
- (٨٨) دلالة الألفاظ عند الأصوليين ص ١٠ .
- (٨٩) - نفسه .
- (٩٠) - اللسان : «دلل» ، ٢٤٨/١١ .
- (٩١) - نفسه .
- (٩٢) - البيان والتبيين ٧٥/١ .
- (٩٣) - نفسه ٧٩/١ .
- (٩٤) - العقد : ضرب من الحساب يكون بأصابع اليد ، يقال له حساب اليد .
- (٩٥) - البيان والتبيين ٧٦/١ .
- (٩٦) مفاهيم الجملالية والنقد في أدب الجاحظ ، د. ميشال عاصي ، ص ٤٦ .

- (٩٧) دلالة الألفاظ عند الأصوليين ، ص ١٠ .
- (٩٨) - الكليات ٢/٣٢٤ .
- (٩٩) دلالة الألفاظ عند الأصوليين ، ص ١١ .
- (١٠٠) - نفسه ، ص ١٣ ، ويقول المنطقيون كابن سينا إنها : « كون اللفظ بمحيث إذا أطلق دل » ، تنقيح الفصول ، ص ١١ .
- (١٠١) دلالة الألفاظ عند الأصوليين ، ص ٣٥ .
- (١٠٢) المطول للتفتازاني ، ص ٢٧٧ .
- (١٠٣) - نفسه .
- (١٠٤) - البيان والعيين ١/٧٦ .
- (١٠٥) - القاموس المحيطة ، واللسان : وضع .
- (١٠٦) - الكليات ٥/٣٩١ .
- (١٠٧) الكليات ١/٣١ - ٣٢ ، والإيضاح للقزويني ٣٩٢ .
- (١٠٨) - غاية الوصول ، شرح لب الأصول لابي يحيى زكريا الأنصاري ، ص ٤٢ .
- (١٠٩) - المطول ، ص ٢٧٧ .
- (١١٠) - الشكل : غشج المرأة وغولها وحسن دلها . اللسان « شكل » ، ١١/٣٦ .
- (١١١) - البيان والعيين ١/٧٩ .
- (١١٢) - الخصائص ٢/٣٧٠ - ٣٧١ .
- (١١٣) - عروض الأفراح - شروط القليوبي ٤/٢ .
- (١١٤) - نفسه ٤/١٦ .
- (١١٥) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ١٥٠ .
- (١١٦) - نفسه .
- (١١٧) منهج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني ، ص ١٨ .
- (١١٨) الشفاء لابن سينا = المقولات ، ص ٤ .
- (١١٩) فلسفة الفن في الفكر المعاصر ، د. زكريا إبراهيم ، ص ١٩ .
- (١٢٠) منهج البلغاء وسراج الأدباء ، ص ١٨ .

- (١٢١) فقه اللغة وخصائص العربية ، د. محمد المبارك ، ص ١٦٧.
- (١٢٢) الفكر الاسلامي والفلسفة - مجموعة من المؤلفين بإشراف د. سامي النشار، ص ٥١٣.
- (١٢٣) الزهر ٤٢/١ ، وفي نهاية الإيجار للوازي إشارة إلى هذه الفكرة في ص ١٥٠.
- (١٢٤) منهاج البلغاء ، ص ١٨ - ١٩
- (١٢٥) منهاج البلغاء / ص ١٨ ، وتتفق هذه الأفكار التي أتى بها علماءنا العرب مع مذهب إليه «جون لوك» من الغربيين المعاصرين ، لقد رأى أن «الكلمات هي إشارات اصطلاح عليها ، ولكنها في رأيه ليست إشارات تنوب عن الأشياء بصورة مباشرة ، بل هي تنوب عن الأفكار القائمة مقام الأشياء ، وعلى ذلك للكلمة تنوب عن الفكرة والفكرة تنوب عن الشيء» ، انظر كتاب : محاضرات في علم النفس اللغوي ، د. حنفي بن عيسى ، ص ٣١ - ٣٢ .
- (١٢٦) فلسفة الفن في الفكر المعاصر ، ص ٢٧٢ .
- (١٢٧) منهاج البلغاء ، ص ١٩ .
- (١٢٨) انظر مفهوم النص من خلال نظرة العرب والغربيين مقالنا «إحشاءات لقضية النص» ، مجلة جامعة البحث - العدد التاسع ، ص ١٤٥ - ١٦١ . وكذلك مقاله وولان بارات في مقالته «نظرية النص» ، ترجمة محمد محير البقاعي ، في مجلة العرب والفكر العلمي ، وعلى نحو خاص ص ٩ و ص ٨٩ - ٩١ .
- (١٢٩) سورة آل عمران ١٨ .
- (١٣٠) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ / ٣٠٦ .
- (١٣١) الشفاء - العبارة ١ - ٢ .
- (١٣٢) سورة البقرة ١١٨ .
- (١٣٣) فقه اللغة وخصائص العربية ، ص ١٤ .
- (١٣٤) البيان والبيان ١ / ٦ .

- (١٣٥) مدخل إلى فلسفة الحضارة ، ص ٢٣٧ .
- (١٣٦) ارشاد الفحول للشوكاني ، ص ١١٤ .
- (١٣٧) الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ١/١٢٦ .
- (١٣٨) لغة اللغة وخصائص العربية ، ص ٢٠٤ .
- (١٣٩) مدخل إلى فلسفة الحضارة الانسانية ، ص ٢٠٠ .
- (١٤٠) الكتاب ١/٣٦ - ٣٧ .
- (١٤١) مدخل إلى فلسفة الحضارة الانسانية ، ص ٢٠٠ .
- (١٤٢) محاضرات في علم النفس اللغوي . د. حنفي بن عيسى ، ص ١٨٦ .
- (١٤٣) نفسه ، ص ٢٠١ .
- (١٤٤) نفسه ٢٠١ - ٢٠٢ .
- (١٤٥) نفسه ، ص ٢٠٢ .
- (١٤٦) تحليل الخطاب الشعري ، د. محمد مفتاح ، ص ٦٣ .
- (١٤٧) نفسه .
- (١٤٨) مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .
- (١٤٩) الخصائص ١/٤٦ - ٤٧ .
- (١٥٠) المزهر ١/١٧ .
- (١٥١) الخصائص ١/٦٤ .
- (١٥٢) أطف : دنا وقرب .
- (١٥٣) الخصائص ١/٦٥ .
- (١٥٤) الخصائص ١/٦٥ .
- (١٥٥) نفسه .
- (١٥٦) نفسه .
- (١٥٧) الخصائص ٢/١٤٥ .
- (١٥٨) نفسه ٢/١٤٦ .
- (١٥٩) الخصائص ١/٦٥ .
- (١٦٠) نفسه ١/٦٦ .

- (١٦١) - - الخصائص ٦٦/١ .
- (١٦٢) - نفسه .
- (١٦٣) - تأويل مشكل القرآن ، ص ١٦ .
- (١٦٤) - نفسه
- (١٦٥) - عروس الأفراح - شروح التلخيص ٤ / ١٨ - ١٩ .
- (١٦٦) - عن تحليل الخطاب الشعري ، د. محمد مفتاح | ص ٣٤ .
- (١٦٧) - المطول للسعد ٢٧٦ .
- (١٦٨) - دلالة الألفاظ عند الأصوليين ، ص ٢٥ .
- (١٦٩) - الايضاح للقرظيني ٢ / ٣٢٦ .
- (١٧٠) - نهاية الإيجاز | ص ٨٧ .
- (١٧١) - المطول للسعد ٢٧٦ .
- (١٧٢) - عروس الأفراح ٤ / ٤ .
- (١٧٣) - دلالة الألفاظ عند الأصوليين | ص ٢٥ .
- (١٧٤) - نهاية الإيجاز ، ص ٩٠ .
- (١٧٥) - المزهر ١ / ٤١ .
- (١٧٦) - نفسه .
- (١٧٧) - مدخل إلى اللسانيات ، رونالد إيلوار ، ترجمة د. بدر الدين القاسم ، ص ٦٥ .
- (١٧٨) - نهاية الإيجاز ، ص ٩٠ - ٩١ .
- (١٧٩) - نفسه ، ص ٩١ .
- (١٨٠) - البقرة ١٧٩ .
- (١٨١) - دلائل الإعجاز ، ص ٢١٦ .
- (١٨٢) - نفسه .
- (١٨٣) - الايضاح للقرظيني ٢ / ٣٢٦ .
- (١٨٤) - نهاية الإيجاز ، ص ٨٧ - ٨٨ .
- (١٨٥) - نهاية الإيجاز . ص ٨٨ - ودلائل الإعجاز ، ص ٢٦٣ .

- (١٨٦) - الشفاء - المدخل ٤٢ - ٤٣ .
- (١٨٧) - المطول للسعد ، ٢٧٦ .
- (١٨٨) - دلالة الألفاظ عند الأصوليين ، ص ٢٥ .
- (١٨٩) - مدارس علم النفس ، د. فاخر عاقل ، ص ٥٨ .
- (١٩٠) - نفسه ، ص ٦٠ - ٦١ .
- (١٩١) - نفسه ، ص ٦١ .
- (١٩٢) - محاضرات في علم النفس اللغوي ، ص ١٩٨ .
- (١٩٣) - نفسه .
- (١٩٤) - الشفاء - المدخل ٤٣ .
- (١٩٥) - نفسه .
- (١٩٦) - اللغة بين المعيارية والوضعية ، د. تمام حسان ، ص ١١٨ .
- (١٩٧) - لغة اللغة وخصائص العربية ، د. محمد المبارك ، ص ٢٠٤ .
- (١٩٨) - الخصائص ٥/١ .
- (١٩٩) - نفسه ٢/١٣٣ .
- (٢٠٠) - من قولهم : مدل المريض من باب فرح إذا لم يتقار من الضجر . ويقال أيضاً مدل : قلق .
- (٢٠١) - الخصائص ٥/١ .
- (٢٠٢) - المزهر ١/٣٤٦ .
- (٢٠٣) - لغة اللغة وخصائص العربية ، د. محمد المبارك ، ص ٧٠ .
- (٢٠٤) - نفسه ، ص ٧١ .
- (٢٠٥) - المزهر ١/٣٤٦ - ٣٤٧ .
- (٢٠٦) - شرح المفصل لابن يعيش ١/٢٢ .
- (٢٠٧) - نفسه .
- (٢٠٨) - نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ص ١٥٦ .
- (٢٠٩) - شرح المفصل ١/٢٢ .
- (٢١٠) - شرح المفصل ١/٢٢ .

- (٢١١) - نفسه .
- (٢١٢) - نفسه ٢٣/١ .
- (٢١٣) - المطول للسعد ، ص ٢٨٠ .
- (٢١٤) - نفسه .
- (٢١٥) - أسرار البلاغة ، ص ١٣٧ - ١٣٨ .
- (٢١٦) - مدارس علم النفس ، د. فاخر عاقل ، ص ١٤٥ .
- (٢١٧) - دلالة الألفاظ ضد الأصوليين ، ص ٢٥ - ٢٦ .
- (٢١٨) - المطول للسعد ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .
- (٢١٩) - المطول ، ص ٢٧٨ ، ودلالة الألفاظ عند الأصوليين ، ص ٣٣ .
- (٢٢٠) - نهاية الإيجاز ، ص ٨٨ .
- (٢٢١) - الصاحبي ، ص ١٠٠ .
- (٢٢٢) - الإنصاف ، المسألة «١» - ١ / ٦ . قال الدكتور محمد خير الحلواني - رحمه الله - : والحق أن الكوفيين لا يختلفون عن لحاة البصرة في أن اشتقاق لفظ اسم من «السمو» ، وقد لمح بعضهم بذلك ، وصرح بعضهم الآخر به ، ثم أورد أمثلة مقنعة . الخلاف النحوي ، ص ٢١٦ .
- (٢٢٣) - الانصاف «المسألة ١» - ١ / ٦ .
- (٢٢٤) - الانصاف (المسألة ١) - ٦/١ .
- (٢٢٥) - نفسه .
- (٢٢٦) - دراسات في فقه اللغة العربية ، د. صبحي الصالح ، ص ١٨ .
- (٢٢٧) - الخصائص ٢٠٠/٢ .
- (٢٢٨) - مدخل إلى فلسفة الحضارة ٢٣٨ .
- (٢٢٩) - الصاحبي ١١٣ .
- (٢٣٠) - الصاحبي ١١٢ ، وانظر الكشف ٦٨/١ ، حول دلالة كلمة (السرائط).
- (٢٣١) - نفسه ١١٣ .
- (٢٣٢) - الخصائص ٦٦/١ .

- (٢٣٣) - علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة د. محمود فهمي حجازي ، ص . ٨٨-٨٧ .
- (٢٣٤) - اللسان «ثغر» - ٤ / ١٠٣ .
- (٢٣٥) - يقال أهل الرجل وأهل الدار . اللسان (أهل) ١١ / ٢٨ .
- (٢٣٦) - علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة ، ص ٨٨ .
- (٢٣٧) - الكتاب ١ / ٢٣ .
- (٢٣٨) - نفسه .
- (٢٣٩) - الكتاب ١ / ٣٤ .
- (٢٤٠) - نفسه .
- (٢٤١) - الكتاب ٢ / ١٤ .
- (٢٤٢) - الشورى ، الآية ٥٢ - ٥٣ .
- (٢٤٣) - الكتاب ٢ / ١٤ - ١٥ .
- (٢٤٤) - المقتضب للمبرد ٢ / ٨٤ .
- (٢٤٥) - البيان والتبيين ١ / ٨٤ .
- (٢٤٦) - الكتاب ٢ / ٢٨ .
- (٢٤٧) - التثنية : التلبث ، والتوقف ، تفعللة من «أبي» كحبي .
- (٢٤٨) - الكتاب ٢ / ٣٦ - ٣٣ .
- (٢٤٩) - الخصائص ١ / ٢٨٤ .
- (٢٥٠) - نفسه .
- (٢٥١) - نفسه ١ / ٢٨٥ .
- (٢٥٢) - المقتضب ٣ / ١١٢ .
- (٢٥٣) - الكتاب ٣ / ٢٨٥ .
- (٢٥٤) - الكتاب ٣ / ٢٨٨ .
- (٢٥٥) - الكتاب ٢ / ٢٩٠ .
- (٢٥٦) - الكتاب ١ / ٢٩٢ .
- (٢٥٧) - شرح المفصل ٢ / ٢٨ .

- (٢٥٨) - الانصاف ، المسألة ١٠ - ١ / ٧١ - ٧٢ .
- (٢٥٩) - نفسه ١ / ٧٣ .
- (٢٦٠) - البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ / ٢٢ .
- (٢٦١) - نفسه ١ / ٢٢ - ٢٣ .
- (٢٦٢) - نفسه ١ / ٣٤ .
- (٢٦٣) - الاسراء ٨٥ .
- (٢٦٤) - أمالي المرتضى ١ / ١١ .
- (٢٦٥) - يريد : وقلّ بشاشة الوجه المليح .
- (٢٦٦) - السيرافي «٢٨٤ - ٣٦٨ هـ» ، من أئمة النحو المعروفين .
- (٢٦٧) - الإفصاح في شرح أبيات مشكلة الإعراب لأبي نصر الحسن بن الحسن الفارقي ، ص ٦١ .
- (٢٦٨) - نفسه ص ١٧٢ .
- (٢٦٩) - الجمل في النحو ص ١١٧ .
- (٢٧٠) - نفسه ، ص : ١١٧ .
- (٢٧١) - نفسه ص : ١١٨ .
- (٢٧٢) - شرح الأبيات المشكلة في الإعراب المسمى «إيضاح الشعر» لأبي علي الفارسي ص : ٩٣ .
- (٢٧٣) - نفسه .
- (٢٧٤) - نفسه .
- (٢٧٥) - الأمالي النحوية «أمالي القرآن الكريم لأبن الحاجب» ٢ / ١٥٦ .
- (٢٧٦) - نفسه .
- (٢٧٧) - نفسه .
- (٢٧٨) - فن الشعر لارسططاليس ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ص : ٤٩ ، ونجد فكرة التطهير في كتاب أرسطو ص : ١٨ .
- (٢٧٩) - أسس الابداع الفني ، في الشعر خاصة ، د. مصطفى سوييف ص ٢٤ |
- ١٠٩

- (٢٨٠) - أسرار البلاغة ، ص : ٩٢ - ٩٣ .
(٢٨١) - نفسه ، ص : ٩٨ .
(٢٨٢) - أسرار البلاغة ، ص : ١٠٢ .
(٢٨٣) - البيان والتبيين ١/٧٥ .
(٢٨٤) - نفسه ١ / ٧٦ .
(٢٨٥) - البيان والتبيين ١/٧٥ .
(٢٨٦) - رسالة الغفران للمعري ٢٥١ .
(٢٨٧) - الحيوان ٣ / ١٣١ - ١٣٢ .
(٢٨٨) - البديع لابن المعتز ص : ٢٢ .
(٢٨٩) - عيار الشعر ص : ٥ .
(٢٩٠) - نفسه ص ٥ - ٦ .
(٢٩١) - الخصائص ١ / ٣١٢ .
(٢٩٢) - نفسه ١ / ٣١٧ .
(٢٩٣) - مريم ٤ .
(٢٩٤) - مفتاح العلوم للسكاكي ، ص : ١٢٣ - ١٢٤ .
-

الفصل الثالث

حيوية اللغة ومظاهرها

من مظاهر حيوية اللغة

لا يفتنا الناظرون في اللغة وتاريخها يرجعونها إلى ضرورات المجتمع الإنساني ، وهو الكائن الاجتماعي المفكر ، وذلك ان الإنسان قد شاركته جميع الحيوانات في حيوانيته من الحس والحركة والغذاء والكن وغير ذلك ، وإنما يميّز عنها بالفكر الذي يهتدي به لتحصيل معاشه والتعاون عليه ببناء جنسه والاجتماع المهيم لذلك التعاون ، فهو مفكر في ذلك كله دائماً لا يفتّر عن الفكر فيه طرفة عين ، بل اختلاج الفكر أسرع من لمح البصر وعن هذا الفكر تنشأ العلوم ، وتنشأ الصنائع»^(١) .

والإنسان في تطور دائم لا يني يستمد من الإدراكات الحسية معارف جديدة ، ومن العلوم المتجددة أنظاراً تفيده في حياته ، ولذلك نرى أن « النفس الناطقة للإنسان إنما توجد فيه بالقوة وأن خروجها من القوة إلى الفعل إنما هو بتجدد العلوم والإدراكات عن المحسوسات أولاً ثم ما يكتسب بعدها بالقوة النظرية إلى أن يصير إدراكاً بالفعل وعقلاً محصناً فتكون ذاتاً روحانية ويستكمل حينئذ وجودها»^(٢) .

إن هذا الصورة إنما تنهياً للإنسان الناطق الذي يحقق وعيه المتدرج بوساطة اللغة التي هي أداة التفكير والوعي ، لذلك ربط ابن

خلدون بين النفس الناطقة بالقوة ، وبين الإدراك الحسي وتحدد العلوم ، وعن طريقها يستطيع الإنسان الوصول إلى المجردات .

وهذا الأمر يتطلب تغيراً في اللغة نسميه التطور ، فقد تنتقل الكلمة من معنى إلى آخر أو تضيف إلى معناها معنى آخر جديداً دون أن تترك الأول فتتعدد بذلك المعاني التي يدل عليها . وتستعمل في أيّ واحد منها حسب الأحوال والمقامات ، والغالب أن يحصل هذا التبدل على مرّ الأيام وتقلبات العصور ، ويسمى في هذه الحال تطوراً ، لأنه انتقال بالكلمة من طور إلى طور ^(٣) .

وتتجلى حيوية اللغة في هذا التطور وغيره ، ونستطيع استجلاءها في أمور عديدة كالنقل والاشتقاق والتوليد والتعريب وغير ذلك ، غير أننا نقتصر منها على بعض ظواهرها التي تهتمنا في دراسة فكرة حيوية اللغة ونحن نعرف تشعب هذا النوع من الدرس ، وأهم هذه المظاهر :

الاشتقاق : لكل لغة سمات تميزها وطبيعة خاصة تجعل بينها وبين غيرها من اللغات فروقاً ، فإذا أرادت الانكليزية أن تأتي بكلمات جديدة فإنها تصطنع (اللواحق) وهي التي يسمونها (suffix) .

وقد فسّرنا معجم أو كسفورد حيث نصّ على أنها حرف أو أحرف ، صوت أو أصوات مقطع صوتي ، أو مقاطع تضاف إلى نهاية الكلمة لصنع كلمة أخرى . مثال : إضافة (y) إلى (trust) لصنع (trusty) ، أو تضاف على صورة لاحقة أو حرف من أحرف الزيادة ، مثال ذلك (cn) في (oxien) ^(٤)

أمّا العربية فإن لها طريقته في صنع مفردات جديدة تقوم على الاشتقاق ، وقد صوّر ابن فارس هذه الطبيعة الخاصة للعربية بقوله :

« أجمع أهل اللغة - إلا من شذّ عنهم - أن للغة العرب قياساً ، وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض . وإن اسم الجن مشتق من الاجتنان ، وأن الجليم والنون تدلان أبداً على السّتر ، تقول العرب للدرع : جُنّة ، وأجنّة الليل ، وهذا جنين ، أي هو في باطن أمه مقبور ، على هذا سائر كلام العرب ، علم ذلك من علم وجهله من جهل »^(٥) .

ويعدُّ أقدم كلام في « الاشتقاق » ما ورد في الحديث الصحيح : « يقول الله تبارك وتعالى ، أنا الله ، وأنا الرحمن خلقت الرحم ، وشققت لها من اسمي »^(٦) :

ويعني الاشتقاق : « أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى ومادة أصلية وهيئة تركيب لها ، ليدلّ بالثانية على معنى الأصل ، بزيادة مفيدة ، لأجلها أختلفا حروفاً أو هيئة ، كضارب من ضرب وحذّر من حذر »^(٧) ، وقد حصر في أربعة أنواع :

الاشتقاق الأصغر : وهو المراد حين لفظ الاشتقاق مثل كلمتي « عالم ، ومعلوم » من العلم ، ويتفق هنا المشتق والمشتق منه في الأحرف الأصلية وفي ترتيبها ، وأفراد هذا الاشتقاق عشرة : الفعل الماضي ، والفعل المضارع ، وفعل الأمر ، واسم الفاعل ، واسم المفعول ، والصفة المشبهة باسم الفاعل ، واسم التفضيل ، واسم الزمان ، واسم المكان ، واسم الآلة .^(٨)

وطريق معرفته تغليب تصاريف الكلمة حتى يرجع فيها إلى صيغة هي أصل الصيغ دلالة اطراد أو حروفاً غالبية^(٩) .

الاشتقاق الكبير : وسماه ابن جني « الاشتقاق الأكبر »^(١٠) ، وهو اشتقاق يحفظ فيه المادة دون الهيئة . ويعني ذلك « أن تأخذ أصلاً من الأصول الثلاثية فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحداً ، تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها

عليه ، وإن تباعد شيء من ذلك عنه رُدَّ بلطف الصنعة والتأويل إليه ، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد ^(١١) .
وكان أبو علي الفارسي شيخ بني جنبي يأنس إليه ، ويتعلل به ، ويعتاده عند الضرورة ، غير أن ابن جنبي أغرق فيه ، وحاول أن يرد في أمثلة هيمات التركيب المختلفة إلى معنى أصيل واحد ، وإن كان يرى أن الشذوذ لا بدَّ حاصل في هذا لعمل ، غير أنه دعا إلى أن يرد ذلك الشاذ بالتأويل والملاطفة ^(١٢) .

ومن أمثاله تغليب « ج ب ر » فهي أين وقعت - للقوة والشدة منها « حبرت العظم ، والفقير » إذا قويتها وشدها ، ومنهما ، والجبر : الملك لقوته وتقويته لغيره ، ومنها « رجل بحرب » إذا حرسه الأمور ولجأته فقويت مُنته واشتدت شكيمته ^(١٣) ...

الاشتقاق الأكبر : وهو أن يكون بين الكلمتين تناسب في المعنى والتفصي في الأحرف الثابتة ، وتناسب في مخرج الأحرف المتغيرة ، مثل نهق ، ولحق ، وعنوان ، وعلوان ، لكن تتبعات اللغويين هدت إلى عدم لزوم هذا القيد «تناسب المخارج» ^(١٤) .

وقد جعل ابن جنبي أصل هذا الاشتقاق مالم فيه تقديم وتأخير ، وهو تغليب الإصـول لمحو « ك ل م » ، و « ك م ل » و « م ك ل » ، ولحو ذلك : « لكن من وراء هذا ضربٌ غيره ، وهو أن تتقارب الحروف لتقارب المعاني » ^(١٥) ، فالأصل هو الاشتقاق الكبير ، ويتضمن هذا الأصل اشتقاقاً آخر يقوم على تقارب الجروف لتقارب المعاني .

ويسمى هذا النوع من الاشتقاق على رأي ابن جنبي تصاقب الإلهاظ لتصاقب المعاني ، ومن ذلك تركيب « ج م س » و « ح ب س » . قالوا : جهست الشيء و جهس الشر إذا اشتد .

والتقاؤهما أن الشيعيين إذا حبس أحدهما صاحبه ثمانعاً وتعازلاً ، فكان ذلك كالشرّ يقع بينهما .^(١٦)

وتوسع ابن جنّي في هذا النوع من الاشتقاق ، وأظهر له إعظاماً وأبدي به كلفاً^(١٧) ، فتحول بين يديه إلى تصوّر اللغة يقوم على جمع الأطراف المتباعدة ، فحمل المعاني البعيدة على أصول واحدة لشبه في المعنى أو تصور لهذا الشبه ، من ذلك قوله : « وقالوا : شرب ، كما قالوا : جلف ، لأن شارب الماء مفن له ، كالجلف للشيء »^(١٨) .

ورام من بحثه الوصول إلى أصول معنوية واحدة لمفردات اللغة التي فيها رائحة لمعني واحد . وساقه هذا الهدف إلى أن يجعل العرب - وهم أصحاب اللغة - يتفطنون إلى الأبنية على أنها معايير الكلمات ، فيضارعون بالأصول الثلاثة : الفاء والعين واللام^(١٩) ، فيبدلون أحرف البناء للدلالة على معنى له صلة بالمعنى الأول الذي في أذهانهم ، وكان مدار الأمر لديهم على إبدال صوت من صوت آخر لهما مخرج متقارب ليبدل اللفظ الجديد على معنى متصل بسبب معنى اللفظ الذي أبدلت أحرفه « فقالوا : عصير الشيء ، وقالوا : أرله ، إذا حبسه ، والعصر ضرب من الحبس ، وذلك من « ع ص ر » وهذا من « أرل » والعين أعيت الهمزة ، والصاد أعيت الزاي ، والراء أعيت اللام »^(٢٠) .

الاشتقاق القَبْطِيّ أو «النحت» :

يعد هذا المبحث زيادة في أنواع الاشتقاق ، وأطلقه بعضهم على ما يسمي بالنحت ، بيد أن مراعاة معنى الاشتقاق تنصير جعل النحت نوعاً منه ، وإن فضل المتعسكون بالاصطلاح الفني أفراداه من الاشتقاق^(٢١) .

ولهذا النحت أربعة أنواع :

١- فعلي : ينحت من الجملة دلالة على النطق بها أو حدوث مضمونها ، فأمثلة الحالة الأولى : بابا = قال ، بابي أنت ، جعفل : قال : جعلت فداك ، سبحل = قال : سبحانه الله .. الخ .

ومثال الحالة الثانية : بعثر : بعث وأثار .

٢- وصفي : هو أن تنحت من كلمة واحدة تدل على صفة بمعناها أو بأحد منه ، مثل «ضبطر» للرجل الشديد من «الضبط» و«الضبر» : الاكتناز .

٣- اسمي : ينحت من اسمين جامعاً بين معنييهما ، مثل : جلمود : نحت من «جلد» و«جمد» .

٤ - نسبي : ينحت نسبة إلى علمين : مثل : طبر خزي : نسبة إلى طبرستان وخوارزم ، شلفعني : نسبة إلى الشافعي وأبي حنيفة^(٢٢) .

وسمع عن العرب : عيشمي : نسبة إلى عيد شمس ، عبادري : نسبة إلى عبد الدار ، مرقسي : نسبة إلى امرء القيس^(٢٣) ...

ويعتد ابن فارس امام القائلين بالنحت بين اللغويين العرب المتقدمين ، فلم يكتف بالأمثلة المحفوظة على هذه الظاهرة اللغوية ، وهي أمثلة معدودة قليلة شائعة ، بل ابتدع لنفسه مذهباً في القياس والاشتقاق ، وبنى معجمه «مقاييس اللغة» على هذا المذهب في كل مادة رباعية أو خماسية ، ورأى في معظمها أنها منحوتة ، ورسم للقارئ منهجه في النحت فقال^(٢٣) : «اعلم أن للرباعي والخماسي مذهباً في القياس، يستنبطه النظر الدقيق ، وذلك أن أكثر

ماتراه منه منحوت ، ومعنى النحت : أن تؤخذ كلمتان ، وتنحت
منهما كلمة تكون آخذة منهما جميعاً بحظ^(٢٤) .

وأصل نظرته إلى هذا المنحوت بما ذكره الخليل ، حيث تحدث
عن «حيعل الرجل» ، إذا قال : «حيّ على»^(٢٥) ، فقد ذكر
الخليل أنهم نحتوا التركيب ، «فأخذوا من كلمتين متعاقبتين كلمة ،
واشتقوا فعلاً ، قال :

وتضحك مني شيخة عيشية كأن لم ترى قلبي أسيراً يمانيا

نسبها إلى عبد شمس ، فأخذ العين والباء من «عبد» ، وأخذ
الشين والميم من شمس ، وأسقط الدال والسين ، فبنى من الكلمتين
كلمة ، فهذا من النحت »^(٢٦) .

وتبين من استقراءه الكلمات الرباعية أن هذا مذهب غير
مطّرد فيها جميعاً ، ولذلك وجد أن مقياس الرباعي على ضربين :
«أحدهما : المنحوت الذي ذكرناه ، والضرب الآخر الموضوع
وضعاً لاجمال له في طرق القياس»^(٢٧) .

وأتى بأمثلة على المنحوت ، ومنهما : «البلعوم» : مجرى
الطعام في الحلق ، وقد يحذف فيقال : بلعم ، ويطمئن إلى أن الكلمة
مأخوذة من «بلع» ، وزيد عليها ما زيد لجنس من المبالغة في معناه ،
ومن الكلمات التي وقع فيها النحت «بحتر» ، وهو القصير المجتمع
الخلق ، وقد ذهب إلى أن الكلمة منحوتة من كلمتين : من الباء
والتاء والراء ، وهو من بترته فبتر ، كأنه حرم الطول فبتر خلقه .
أما الكلمة الثانية التي كونت هذا الأصل فهي : الحاء والتاء والراء :
وهو من حترت وأحترت ، وذلك أن لا تفضل على أحد . يقال :
أحتر على نفسه وعياله ، أي : ضيق عليهم ، فقد صار هذا المعنى
في القصير ، لأنه لم يعط ما أعطيه الطويل^(٢٨) .

ويظهر أن ابن فارس قد كان يسير على هدى من اعتقاده في مزيد الثلاثي ، وهو أن السوابق والواسط واللاحق بقايا كلمات قديمة مستعملة تناسب مالمح في الحرف العربي من قيمة تعبيرية ، فكانّ المزيد بحرف في أوله أو وسطه أو آخره إنما نحت من كلمتين اختزلتا على سواء ، أو اختصرت احدهما أكثر من الأخرى ، أو ظلت إحدهما على حالها ، بينما رمز للأخرى بحرف منها يغلب أن يكون أوضح حرف فيها بياناً وتعبيراً^(٢٩) . ومن ذلك كلمة البلعوم التي رأى أن أصلها بلع ، ولاحظ أنه زيد عليه ما زيد للجنس من المبالغة في معناه ، فكان الميم الزائدة هي الحرف التعبيري البارز في الثلاثي الآخر الذي قدره بعض العلماء «طعم» ، وقد اجتزى بها عنه وألصقت ببلع ، مع الواو تارة كما في بلعوم ، ودونها تارة أخرى كما في «بلعم»^(٣٠) .

ومما يثير في النفس حوافز التنبّه ، ويحمل الإنسان على النظر والتأمل تلك الطريقة التي أراد لها مبتدعو فكرة الاشتقاق في العربية أن توصل لألفاظ اللغة ، وأن ترجع المفردات إلى أصول معنوية واحدة .

وأن الناظر في عمل ابن جنّي وابن فارس ومن سبقوهما كالفارسي وابن دريد والخليل سيجد طريقاً لفكرة الاشتقاق لديهم ، ذلك أنهم كانوا يرمون من وراء عملهم إلى حصر مفردات اللغة والمحافظة على قياسيتها ، فلمحوا أن للعربية شأنًا خاصًا ، له معايير مغايرة لما نراه في اللغات الأخرى . وأهمّ هذه المعايير ظاهرة الاشتقاق التي بها تعرف أصول المفردات ، وعن طريقها يسهل الوصول إلى البُعاني ، ولها فضل توليد الألفاظ التي يحتاجها الإنسان في حياته المتحددة ، فاعملوا ذهنهم الثاقب في هذه المسألة ، وردّوا المتفرق ، ولمّوا شعث المبعثر .

وحين نناقش مسألة الاشتقاق لابد أن نقرّ بدواعي وجوده علماً قادراً على إفهامنا اللغة من حيث نشأتها ، وتبدل دلالات مفرداتها ، وتغير هذه الدلالات مما يعين على تصور انتقال الذهن العربي من حالة إلى أخرى وفق اختلاف الظروف الاجتماعية والفكرية والبيئية .

وواضح أن أكثر أنواع الاشتقاق لصوقاً باللغة نفسها هو الاشتقاق الأصغر لأنه نوع من الاشتقاق معروفة أصوله ، محددة طريقته ، سهلة أفانينه وتقليباته ، وهو موجود في كل عبارة من عبارات العربية ، لأن ناطق هذه اللغة غير قادر على التعبير بها من غير أن يعرف شيئاً منه ، وذلك أن المعاني التي يروم الحديث عنها راجعة إليه ، متصلة بأسبابه .

وإن نظرة واحدة إلى بيت شعر عربي تطلعنا على مدى فائدة هذا النوع من الاشتقاق في فهم المعنى ، ومعرفة المقصود . نتبين ذلك من تعليق ابن جني على بيت أبي نواس :

لا متشك من متشك ولا قريب من خور

حيث ذكر أن «متشك من سدر» يصفه بالصحة . و«متشك» متفعل من الشكوى . يقال تشكى يتشكى تشكياً وهو متشك . وشكا يشكو شكواً وشكوى وشكاة وشكاية ، وهو شاك . إلا أنهم قلبوا الوار في شكاية «ياء» على غير قياس ، وقياسه «شكاوة» ، لأن لام الفعل وار في تصريف الكلمة ^(٣١) .

فتصريف الكلمة ، ومعرفة اشتقاقها ساعد على فهم المعنى المقصود من الرجز ، وميّز بين دلالاتي اسمي الفعل «شاك» و«متشك» ، فاسم الفاعل «متشك» متفعل من الشكوى ، وهو مصدره غير أنه صيغ من فعل غير ثلاثي هو الفعل «تشكى» . أمّا

«شاك» فاسم فاعل كذلك من الشكوى غير أنه من الثلاثي «شكا» .

و«تشكى» الذي على وزن «تفعل» يدل على إدخال النفس في «الشكوى» ، «فإذا أراد الرجل أن يُدخل نفسه في أمر حتى يضاف إليه ويكون من أهله ، فإنك تقول تفعل ، وذلك تشجع وتصبر وتحلم وتجلد وتمراً ، وتقديرها تمرّع ، أي صار ذا مروءة»^(٣٢) .

ولما صيغ اسم الفاعل من «تشكى» فإنه لم يدل على «الشكوى» وحدها ، وإنما دلّ على من قام بإدخال نفسه في «الشكوى» ، وأراد أن يتصف بهذه الصفة ، ويكون بذلك قد زاد على من قام بالشكاية الذي دلّ عليه اسم الفاعل «شاك» . وحقيقة الأمر أن معرفة اشتقاق الكلمة زاد من وضوحها ، وأدى لها دلالات لم تكن لتعرف لولا تبين الاشتقاق .

وماستطاعت صيغة «متفعل» المشتقة إظهاره من المعنى يحتاج معه الترجمان إلى لغة أخرى غير العربية إلى جملة لكي يستطيع تبيان المراد منها ، فاختصرت الصيغة المشتقة المعنى وأدته في لفظة واحدة^(٣٣) .

وقد اتسع هذا الباب لديهم فحاولوه في أنواع الكلم كلها ، غير أن بعض الدارسين يرى أن الاشتقاق إنما يلحق الأصول الدالة على الأفعال والأحداث لأن هذه تتغير وتستحيل من طور إلى طور لما بنتائجها من العوارض : فالضرب مثلاً يختلف باختلاف زمن حدوثه وباختلاف الفاعلية والمفعولية إلى غير ذلك من الاعتبارات . أما الأصول الدالة على المواد والأعيان - وهي مايسمونه بالجواهر والأشياء الجامدة - فليست بهذه المثابة ، ولاتلابسها هذه العوارض

فكلمة «أرض» تدلّ على هذا الجسم الكروي الذي نعيش عليه ، ولا يطرأ عليه من العوارض ما يطرأ على الأفعال والأحداث ، فلا يتغير لفظه ، ولا يشتق منه غيره ، اللهم إلا ما سمع عن أهل اللغة أنفسهم ، وما حولوه هم بالسنتهم ^(٣٤) .

إلا أنّ ابن جنّي الذي كان حفيّاً بالقياس والاشتقاق كان يرى أنه بات واسع الأطراف موطأ الأكناف ، فسعى إلى جمع أشتات المعاني وإرجاعها إلى أصولها ، فوجد - على سبيل التمثيل - «أن جميع باب «ن ع م» إنما هو مأخوذ من «نعم» لما فيها من المحبة للشيء ، والسرور به ، فنعمت الرجل ، أي قلت له : «نعم» فنعم بذلك بالآ ، كما قالوا بجلته : أي قلت له «بجل» أي حسبك حيث انتهيت ، فلا غاية من بعدك ، ثم اشتقوا منه الشيخ البجال ، والرجل البجيل ، فنعم ، وبجل كما ترى حرفان ، وقد اشتق منهما أحرف كثيرة» ^(٣٥) .

وكان للقوم خلاف في السابق واللاحق من الأسماء والأفعال والحروف ، ويدخل هذا الخلاف على محاولتهم النظر دائماً إلى نشأة اللغة على أنها مقياس التبدل والتغير ، كما يظهر هذا الأمر سعيهم إلى تأصيل الألفاظ اللغوية .

وقد ذهب الكوفيون إلى أن المصدر مشتق من الفعل وفرع عليه ، نحو «ضرب ضرباً ، وقام قياماً» ، وذهب البصريون إلى أن الفعل مشتق من المصدر وفرع عليه ^(٣٦) .

وهم - وإن اتفقوا على التسمية - اختلفوا في طبيعة اشتقاق الكلمة فقد قال البصريون : سُمّي مصدراً لكونه موضع صدور الفعل ، وقال الكوفيون : هو مَفْعَل بمعنى المصدر نحو قعدت مقعداً حسناً أي قعوداً ، والمصدر بمعنى الفاعل أي صادر عن الفعل كالعدل بمعنى العادل ^(٣٧) .

ولسيبويه رأي يوجه هذه الآراء توجيهاً آخر ، ومدار هذا الرأي على التمكن في النفس الساعية إلى الاستخفاف في الاستعمال ، فينصّ على «أن بعض الكلام أثقل من بعض ، فالأفعال أثقل من الأسماء لأن الأسماء هي الأولى ، وهي أشدّ تمكناً ، فمن ثمّ لم يلحقها تنوين ولحقها الجزم والسكون ، وإنما هي من الأسماء ، ألا ترى أن الفعل لا بدّ له من الاسم^(٣٨) وإلا لم يكن كلاماً ، والاسم قد يستغني عن الفعل ، تقول : الله هنا ، وعبد الله أعونا »^(٣٩) .

ثم ذكر بعد ذلك أولية الكلم في حالاتها المختلفة ، فرأى « أن النكرة أخفّ عليهم من المعرفة ، وهي أشدّ تمكناً ، لأن النكرة أول ، ثم يدخل عليها ما تعرف به . واعلم أن الواحد أشدّ تمكناً من الجميع ، لأن الواحد الأول . . واعلم أن المذكر أخفّ عليهم من المؤنث لأن المذكر أول ، وهو أشدّ تمكناً ، وإنما يخرج التأنيث من التكثير ، وجميع مالا ينصرف إذا أدخلت عليه الألف واللام أو أضيف البحر ، لأنها أسماء أدخل عليها ما يدخل على المنصرف . فجميع ما يترك صرفه مضارع به الفعل ، لأنه إنما فعل ذلك به لأنه ليس له تمكّن غيره ، كما أن الفعل ليس له تمكّن الاسم »^(٤٠) .

ويعني ذلك أن النظر إلى أولية الكلم لا يدلّ على أسبقيتها في الاستعمال بقدر ما يدلّ على أكثرها ثباتاً في النفس ، وقد فسّر ذلك أبو علي الفارسي شيخ ابن جني هذه الفكرة ، فرأى أن هذه اللغة «إنما وقع كل صدر منها في زمان واحد ، وإن كان تقدّم شيء منها على صاحبه فليس بواجب أن يكون المتقدم على الفعل الاسم ، ولا أن يكون المتقدم على الحرف . الفعل ، وإن كانت رتبة الاسم في النفس من حصة القوة والضعف أن يكون قبل الفعل ، والفعل قبل

الحرف ، وإنما يعني القوم بقولهم : إن الاسم أسبق من الفعل أنه أقوى في النفس ، وأسبق في الاعتقاد من الفعل لافي الزمان ، فأما الزمان فيجوز أن يكونوا عند التواضع قدّموا الاسم قبل الفعل ، ويجوز أن يكونوا قدّموا الفعل في الوضع قبل الاسم ، وكذلك الحرف » (٤١) .

فتجولت قضية الاشتقاق على يدي سيبويه وأبي علي إلى مسألة أخرى ، ولم ينحصر الخلاف في اشتقاق الاسم من الفعل أو الفعل من الاسم ، وإنما صار البحث أبعد عن المغيبات التي لانعلم عنها شيئا ، وأقرب إلى البحث اللغوي العلمي ، وهو البحث الذي مداره على مستعمل اللغة ، وسعيه إلى استعمال الألفاظ المعبرة والموصلة إلى التفاهم مع الآخرين بأكبر قدر من الاقتصاد وبأبعد مدى عن التعقيد الذي يجافي البساطة ، وهي الأمور التي تسعى كل لغة لأن تمتلكها إذا أرادت أن تحيا وتستمر أداة للتفاهم بين الناطقين بها (٤٢) .

ويدل هذا الرأي أيضاً على أن المشتقات تنمى وتكثر حين الحاجة إليها ، وقد يسبق بعضها بعضاً في الوجود (٤٣) . وليس من اليسير دائماً أن ندرك أسبقها ، وأن نعيّن متى استعملت مادتها الأصلية أول مرة ، ومتى بدأت تدل على معنى خاص (٤٤) .

بيد أننا إذا أنعمنا النظر في أصل المشتقات كلها استطعنا ردّ المسألة كلها إلى نشأة اللغة على نحو يصح معه البحث في طبيعة اكتساب الإنسان للخبرات المحيطة به ، وهي الخبرات التي تنتقل إليه من الحواس ، فالعلم الأول أتى النفس أولاً من طريق الحواس والطباع ثم من جهة النظر والروية (٤٥) .

فالكلام الإنساني يتطور «وفق هذه النظرة» من مرحلة حسية

نسبياً إلى مرحلة أكثر تجريداً ، والأسماء الأولى لدينا أسماء محسوسة
تقرن نفسها بفهم حقائق أو أفعال خاصة . وكلّ الظلال التي نجدها
في تجربتنا المحسوسة توصف بدقة وتفصيل ولكنها لاتندرج تحت
جنس مشترك. (٤٦).

ولذلك فإننا نرجح دائماً أن الحسّي أسبق في الوجود من
المعنوي المجرد ، وهذا ما يجعلنا ننتصر للرأي القائل : أن أصل
المشتقات هي الأسماء لا الأفعال ، ولا سيما أسماء الأعيان (٤٧).

وإن مقارنة بسيطة بين المصادر وأسماء الأعيان تبين كيفية
اتخاذ كثير من المصادر من هذه الأسماء . «فمن ذا الذي يصدق أن
مصدر التأبّل "أي اتخاذ الإبل" قدوضع قبل أن يوضع لفظ إبل
نفسه» (٤٨).

وتجري وفق هذا الأمر أشياء عديدة مما نلاحظه في كتب اللغة
حيث نلقي عددا ليس باليسير من المصادر التي يؤول إلى أسماء
الأعيان . من ذلك : «الرأس - أعلى الرجل ، والأرأس والرؤاسي
العظيم الرأس ، وقد رئيس رأساً عظماً رأسه» (٤٩) . ومنه : «البساط
- مابسطته أي فرشته ، الجمع بُسُط ، وبسطته أبسطه بسطاً
وانبسط ومبسط» (٥٠).

ولذلك فإن ابن جنّي يناقش قضية الاشتقاق ، ويبحث في
أصل المشتقات ، ويذهب كما ذهب سيبويه إلى أن الفعل «أمثلة
أخذت من لفظ أحداث الأسماء» (٥١) ، ويرى أن المصدر «إنما هو
ذلك الحدث الصافي ، كالضرب ، والقتل ، والأكل ،
والشرب» (٥٢).

وقد أدرك بحسه اللغوي شيئاً بالغ الأهمية ، فقد أجاب قول
القائل : إنَّ «في الناقة معنى الفعل ، وذلك أنها فعلة من التنوّق في

الشيء وتحسينه ، والتقاؤهما أن الناقة عندهم مما يُحسن به ويزدان بملكه ، وبالأبل يتباهون ، عليها يحملون ويتحملون ، ولذلك قالوا لمذكّرها : الجمل ، لأنه فَعَلَ من الجمال ، كما أن الناقة فَعَلَتْ من التنوّق»^(٥٣).

وذكر في إجابته ما يعارض هذا القول فقال : «فأما ما في الناقة من معنى الفعلية والتنوّق ، فليس بأكثر مما في الحجر من معنى الاستحجار والصلابة ، فكما أن استحجر الطين واستنسر البغاث من لفظ الحجر والنسر ، فكذلك استنوّق من لفظ الناقة»^(٥٤) ويعنى ذلك أن الاشتقاق قد يكون مبدؤه أسماء الأعيان لا المصادر ، فاستنوّق مأخوذ من الناقة ، وهو اسم عين ، وكذلك استحجر دون أن يكون الاستحجار أو التنوّق مصدرين لاسم العين .

وإذا كانت مسألة الاشتقاق على هذا الوجه ، فإن ردّ المصادر ، وهي الأحداث الصافية إلى المحسوسات يبقى أمراً معللاً غير بعيد عن الصواب ، ويظهر ذلك أيضاً مسألة الأعلام التي تبين صلة الإنسان بالمحسوسات أكثر من المجردات ، فإن تساءلنا «لَمْ قَلَّتْ الأعلام في المعاني ، وكثرت في الأعيان ، نحو زيد ، وجعفر ، وجميع ما علق عليه علمٌ وهو شخص ؟ قيل : لأن الأعيان أظهر للحاسة ، وأبدى إلى المشاهدة ، فكانت أشبه بالعلمية مما لا يرى ، ولا يُشاهد حسّاً ، وإنما يُعلم تأملاً واستدلالاً ، وليس كمعلوم الضرورة للمشاهدة»^(٥٤) .

ونتبين هذا الأمر من تتبع بعض المفردات التي تطورت دلالتها من الحسية إلى المجردة ، ولتكن لفظة «البناء» . ذكر ابن فارس في المقاييس أن «بنى : الباء والنون والياء أصل واحد ، وهو بناء الشيء يضمّ بعضه إلى بعض . تقول : بنيت البناء أبنية»^(٥٥) . أو رد بعد

ذلك بعض المعاني التي تعود إلى الأصل وتتصل به بسبب فقال : «وتسمى مكة : البنية . ويقال قوس بانية ، وهي التي بنيت على وترها ، وذلك أن يكاد وترها ينقطع للصوق بها » ^(٥٦) . ومن صفات البناء أنه يلزم موضعه ، لا يزول من مكان إلى غيره ، ويفترق لهذا الأمر عن بقية الآلات المنقولة المستعملة ، كالخيمة والمظلة ، والسرادق ، ونحو ذلك ^(٥٧) . على أننا إذا أطلقنا على هذه الأدوات لفظ البناء ، وهي المستعملات المزالة من مكان إلى مكان ، فإن ذلك يكون «تشبيهاً لذلك - من حيث كان مسكوناً ، وحاجزاً ومظلاً - بالبناء من الآجر والطين والجص» ^(٥٨) .

وقد تطور عن هذه المعاني معنى آخر فقالوا : قد بنى فلان بأهله ، وذلك أن الرجل كان إذا أراد الدخول بأهله بنى بيتاً من آدم أو قبة أو نحو ذلك من غير الحجر والمدر ، ثم دخل بها فيه ، فقليل لكل داخل بأهله : هو بان بأهله ، وقد بنى بأهله ، وابتنى بالمرأة هو افتعل من هذا اللفظ ، وأصل المعنى منه ، فهذا كله على التشبيه لبيوت الأعراب ببيوت ذوي الأمصار » ^(٥٩) .

وعدّ الزمخشري الانتقال من الأصل ، وهو البناء بالطين والآجر والجص إلى قولهم : « بنى فلان بأهله » من الجاز ، لأن معنى بني قد تحول إلى معنى آخر وهو الإعراس ، فقولهم : بنى أهله كقولهم أعرس بها ^(٦٠) .

وتتضح صورة التحول من الخسوس إلى التجريد من خلال النظر في المعاني الأخرى التي انتقلت إليها كلمة «البناء» ، فنجد قولهم : «بنى مكرمة ، وابتناها» ، و «هو من بناء المكارم» و «ملعون من هدم بنيان الله أي ماركبه وسواه» و «بني فلان على الحزم» و «بني كلاماً وشعراً» و «بنى على كلامه: احتذاه» ^(٦١)

وعلى حين رأى ابن فارس أن «المبناة»، وهي النّطع من باب «بنو»، ونصّ على شذوذ دلالتها، لأنها لا تعود إلى أصل المعنى الذي صدر عنه «بنو»^(٦٢)، فإن الزمخشري جعلها من «البناء» فقال: «وطرحوا له بناء ومبناة وهي النّطع»^(٦٣).

ويتضح الخلاف بين الرجلين، إذ نرى ابن فارس وقد أورد مادة «بني» معزولة عن مادة «بنو»، على حين ذكر الزمخشري المادتين متتابعتين دون أن ينص على انفصالهما، وبدأ ابن فارس مادة «بنو» بذكر أصل معناها «وهو الشيء يتولد عن الشيء»، كابن الإنسان وغيره. وأصل بنائه بنو. والنسبة إليه بنوي^(٦٤).

أمّا الزمخشري فإنه لم يعتد بأصل المعنى وإنما راح يعدّ ما آلت إليه الكلمة من المعاني المجازية، كقولهم: «طلع ابن ذكاء»، وهو الصبح، قولهم: «صادوا بنات الماء، وهي الغرائيق»، «وكان الثريا ابن ماء محلق»، «وهو ابن جلا: للرجل المشهور» و«أنا ابن ليلها، وابن ليلتها: لصاحب الأمر»^(٦٥).

ورأى ابن فارس أن العرب استعملت الكلمة بمعناها الأصلي ثم تفرغوا، فسُمّت أشياء كثيرة بابن كذا، وأشياء غيرها بُنيت كذا، فيقولون ابن ذكاء: الصبح، وذكاء: الشمس، لأنها تذكو كما تذكو النار^(٦٦).

ولم يكتف التحول بالكلمة من الحسي إلى المجرد بما رأيناه، وإنما صارت للكلمة دلالة أخرى وفق طبيعة استعمالها، فانتقلت إلى أيدي النحاة ليطلقوها على حالة من أحوال الكلمات، فصارت لديهم دالة على «لزوم آخر الكلمة ضرباً واحداً من السكون والحركة، لالشيء أحدث ذلك من العوامل»^(٦٧).

وترجع هذه التسمية إلى الأصل الحسي الأول، (وكانهم إنما

سمّوه بناءً لأنه لما لزم ضرباً واحداً فلم يتغير تغير الإعراب سُمي بناءً، من حيث كان البناء لازماً موضعه ، لا يزول من مكان إلى غيره » (٦٨) .

ولا يعني ما قدمناه أن كل مادة تمرّ في المعاجم تردّ إلى الأعيان أو المحسوسات ، فقد تعرض لنا مواد هي في أصلها معنوية ، أو لاندري عنها إلا أنها كذلك ، من ذلك تلك الألفاظ الدالة على المشاعر الإنسانية كقولنا «فرح» فهي كما قال ابن فارس : «فرح الفاء والراء والحاء أصلان ، يدل أحدهما على خلاف الحزن والآخر الإثقال ، فالأول : الفرح : فرح يفرح فرحاً ، فهو فرح . قال الله تعالى : «ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفرحون » (٦٩) .

ولما ينتقل معنى الكلمة إلى دلالات أخرى فإن انتقالها يؤول في التركيب إلى معنى الأصل كقولنا : لك عندي فرحة أي بشرى .. وتقول : أفرحتني الدنيا ثم أفرحتني ثم غمّتي ، والهمزة : للسلب .. وتقول : المرء دائر بين مفرحين ، قاعد بين سلامة وحين . (٧٠) .

وسواء أكانت الكلمة منتقلة من أمر حسي إلى آخر معنوي ، أم كانت ذات دلالة معنوية بدءاً ، لا ريب أن أصل اشتقاقها من الأسماء لا من الأفعال ، لأن الأسماء أدعى إلى البساطة التي هي منشأ الوعي الإنساني ، وقد أراد البصريون التعبير عن ذلك فذهب بعضهم إلى أن المصدر هو الأصل ذلك أنه اسم والاسم يقوم بنفسه ويستغني عن الفعل ، وأما الفعل فإنه لا يقوم بنفسه ويفتقر إلى الأسماء ، وما يستغني بنفسه ولا يفقر إلى غيره أولى بأن يكون أصلاً مما لا يقوم بنفسه ويفتقر إلى غيره . (٧١) .

على أن بعضهم كان أوضح في التعبير عن هذه المسألة حين

رأى أن الدليل على أن المصدر هو الأصل أن الفعل بصيغته يدل على شيئين : الحدث ، والزمان المحصل ، والمصدر يدل بصيغته على شيء واحد ، وهو الحدث ، ولما أن الواحد أصل الاثنين فكذلك المصدر أصل الفعل^(٧٢) .

وهذه الخاصة الاشتقاقية في اللغة العربية تعبر عن حيوية اللغة كما أنها تعين على إرجاع كل كلمة إلى أصلها وردّها إلى نسبها ، ومعرفة هذا الأصل تعين على إدراك التحول الدلالي الذي أصابها ، ومانتقلت إليه بالاستعمال من الدلالات التي تتصل بسبب أو بآخر بالمعنى الأصلي ، فيسهل الوقوف على استعمالاتها المجازية .

ومن مظاهر حيوية اللغة :

التغير اللغوي والعوامل الاجتماعية والفكرية :

كان الاعتماد فيما مرّ من البحث على فكرة أن اللغة نظام اجتماعي ، به يتمّ التواصل بين الناس الناطقين بها ، وأن هذا النظام قادر على التبدل والانتقال ليواكب الحالات الاجتماعية المستجدة والأفكار المستحدثة .

واستطاع بعض النقاد العرب ذوي النظرة الفاحصة ، والذهن النافذ أن يروا في اللغة وتبدلها دلالات بيئية واجتماعية ، ذلك أنهم أرادوا التعليل لبعض ظواهر الشعر العربي فنفضوا إلى لغته وأساليبه .

وكان أظهر هؤلاء علي بن عبد العزيز الجرجاني « - ٣٦٦ هـ » الذي استطاع في مقدمة «الوساطة» أن يبين لنا طبيعة التعبير اللغوي بسبب الظروف المحيطة من بيئة ومجتمع .

وقد جعل مدار الأمر في الشعر القديم على اللغة التي اختصت

على نحو عام بالصحة وإن لم يبرأ هذا الشعر من خطأ في اللفظ أو النظم أو الترتيب والتقسيم أو المعنى أو الإعراب ^(٧٣) .

وانتقل من بعد إلى تقرير أن الشاعر المحدث في حاجة إلى رواية الشعر القديم — لأنه يصوغ شعره باللغة «ولا يمكنه تناول ألفاظ العرب إلا رواية ولا طريق للرواية إلا السمع وملاك الرواية الحفظ ، وقد كانت العرب تروي وتحفظ ويعرف بعضها برواية بعض» ^(٧٤) .

ويذكر فحوص الجرجاني عن الشعر القديم ، ومقارنته بالشعر المحدث على وعي تام بالتغير الذي طرأ على اللغة ، فيجيب عن سؤال مهم يصوغه هو : «فما بال المتقدمين خصّوا بمثانة الكلام وجزالة المنطق وفخامة الشعر حتى إن أعلمنا باللغة وأكثرنا رواية للغريب لو حفظ كان ماضت الدواوين المروية والكتب المصنفة من شعر فحل وخبر فصيح ولفظ رائع — ونحن نعلم أن معظم هذه اللغة مضبوط مروى وجلّ الغريب محفوظ منقول — ثم حاول أن يقول قصيدة أو يقرض بيتا يقارب شعر امرئ القيس وزهير في فخامته وقوة أسره وصلابة معجمه ، لوجده أبعد من العيوق متناولاً» ^(٧٥) .

وقد ردّ على هذا التساؤل بمقدمه من الرواية ، وبما يوجد لدينا من الشعر القديم الذي دخل بعضه النحل ، فاستطاع حماد وخلف وابن داب وأضرابهم ممن نحل القدماء شعره فاندمج في أثناء شعرهم وصعب على أهل العناية إفراده ^(٧٦) أن يصوغوا شعرا بلغة الأقدمين حين امتلكوا لغتهم وطرائق صياغتهم .

ولكل بيئة طريقة في انتقاء الألفاظ واستعمال بعضها دون بعض ، فالبداءة يرومون الألفاظ الكثرة والكلام المعقد والخطاب الوعر ذلك أن الهداوة من شأنها أن تحدث فيهم ذلك ^(٧٧) .

على أن الصفة العامة المميزة للشعر القديم هي فخامة اللفظ وجمال المنطق لأن العرب ومن تبعها من السلف كانت « تجري على عادة في تفخيم اللفظ وجمال المنطق لم تألف غيره ولا أنسها سواه ، وكان الشعر أحد أقسام منطقها ومن حقه أن يختص بفضل تهذيب ، ويفرد بزيادة عناية ، فإذا اجتمعت تلك العادة والطبيعة ، وانضاف إليهما العمل والصنعة ، وخرج كما تراه فخماً جزلاً قوياً متيناً » ^(٨٧) ، وإن كان هناك تفاوت في احوال الشعراء « فيرق شعر أحدهم ويصلب شعر الآخر ويسهل لفظ أحدهم ويتوعر منطق الآخر » ^(٧٩).

أما التحول الحقيقي في لغة الشعر وغيرها ، فقد جرى بسبب النقلة الحضارية التي أتى بها الإسلام « فلما ضرب الإسلام بجرانه ، واتسعت ممالك العرب وكثرت الحواضر ونزعت البوادي إلى القرى وفشا التأدب والتظرف اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله وعمدوا إلى كل شيء ذي أسماء كثيرة اختاروا أحسنها سمياً والطفها من القلب موقعا ، وإلى ما للعرب فيه لغات فاقصروا على أسلسها وأشرفها . » ^(٨٠)

ولم يتوقف التأثير الحضاري في العرب ، وانقلاب المجتمع وتغير عاداته اللغوية عند هذا الحد ، فقد تجاوزوا الحد في طلب التسهيل حتى تسمحوا ببعض اللحن وحتى خالطتهم الركابة والعجمة وأعابهم على ذلك لين الحضارة ، وسهولة طباع الأخلاق » ^(٨١).

ويظهر أن المجتمع اللغوي لم يعد ليقبل بعد هذه النقلة الحضارية أن يعود المتكلم ثانية إلى الإعراب والتقعر ، فقد كان الميل إلى السهولة واليسر سمة قد بدأت تقوى ، وتمتد أصولها .

روى الجاحظ أنَّ غلاماً كان يقَرُّ في كلامه فأتى أبا الأسود الدؤلي يلتمس بعض ما عنده ، فقال له ابو الأسود: ما فعل أبوك ؟ قال : «أخذته الحمى فطبخته طبخاً ، وفنخته فنخاً ، وفضخته فضخاً»^(٨٦) . واضطر الجاحظ (- ٢٥٥ هـ) أن يشرح لقارئه الألفاظ التي تفوّه بها الغلام ليفهم الكلام ، وما يعنيه ذلك أن مجتمع الجاحظ لم يكن يألف مثل هذه الألفاظ الغريبة ، فقال : «فنخته : أضعفته ، والفنيخ : الرّخو الضعيف ، وفضخته : دقته»^(٨٧) .

ومما يثير في هذا الخبر أن الجاحظ أورد له ليسخر من أولئك الذين يتعمدون الإغراب في عصره ، وأن أبا الأسود الدؤلي « - ٦٩ هـ » قد أنكر على الغلام استعماله هذا الكلام الغريب ، فقال الغلام : «يابني ، كل كلمة لا يعرفها عمّك فاسترها كما تستر السنور جفراً»^(٨٨) .

ويبدو أن عدوى الغريب قد انتقلت إلى الكتاب الذين عاصروهم الجاحظ ، وحمل عليهم ، فذكر أنه رأى يديرون في كتبهم أن امرأة خاصمت زوجها إلى يحيى بن يعمر فانتهرها مراراً - فقال له يحيى بن يعمر (أئن سألتك عن شكرها وشبّرك انشأت تطيلها وتضهلها » ، قالوا : الضّهل : التقليل) والشكر : الفرج ، والشبّر : النكاح ، وتطيلها : تذهب بحقها ، يقال : دم مطلول ، ويقال : بثر ضهول ، أي قليلة الماء^(٨٩) .

وأنكر الجاحظ ذلك على الكتاب إنكاراً ، فرأى أنهم : كانوا «إنما رويوا هذا الكلام لأنه يدلّ على فصاحة فقد باعده الله من صفة البلاغة والفصاحة . وإن كانوا إنما دونوه في الكتب وتذاكروه في المجالس لأنه غريب ، فأبيات من شعر العجاج وشعر الطرمّاح وأشعار هذيل تأتي لهم مع حسن الرصف على أكثر من ذلك .. وهذا ليس من اخلاق الكتاب ولا من آدابهم»^(٩٠) .

وإذا كان هذا شأن الخطاب والنثر، فإنَّ الشعر لم يكن بمبعدة عنه ، فقد نما بعض الشعراء هذا المنحى ، وراموا الغريب في شعرهم بعد أن بدا يستقر في الأذهان الميل إلى السهولة والتجاني عن الحوشي والغريب ، ومن هؤلاء أبو تمام الذي حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل في كثير من ألفاظه ، فحصل منه على توعير اللفظ وتبحر في غير موضع من شعره ، فقال :

فكأنما هي في السَّماع جنادل وكأنما هي في القلوب كواكب

فتسعف ما أمكن وتغلغل في التصعب كيف قدر (٨٦) .

وواضح أن هذه الحملة المتتابة على الغريب غير المسوغ في الخطاب والشعر كانت نتيجة للتبدل الحضاري الذي كان يسعى لأن توازيه لغة معبرة عما استجدَّ من أحوال الحياة ، وما تغيَّر من مفاهيم اجتماعية ومعايير فكرية .

ونتبين صورة هذا التغير حين ننظر إلى ما طرأ على بعض ألفاظ اللغة من تغيُّر دلالي بعد مجيء الإسلام ، وكان ذلك بسبب الحاجة إلى ألفاظ تعبر عن الأفكار الجديدة ، تلك التي أتى بها الإسلام ونشرها في المجتمع ، وكذلك حين نجد أن الإسلام استطاع أن يغيِّر من اللغة على مستوى آخر ، ونعني بذلك إقراره دلالات ألفاظ ونسخه لدلالات ألفاظ أخرى ، واستبدالها بدلالات جديدة .

فقد «ترك الناس مما كان مستعملاً في الجاهلية أموراً كثيرة ، فمن ذلك تسميتهم للخراج إتاوة ، كقولهم للرشوة ولما يأخذه السلطان : الحملان والمكس ... وكما تركوا أنعم صباحاً . وأنعم ظلاماً ، وصاروا يقولون : كيف أصبحتم ؟ وكيف أمسيتم ؟ .. وقد زعموا أن حذيفة بن بدر كان يُحيّا بتحية الملوك ويقال له :

أَيَّتَ اللَّعَنَ ، وَتَرَكُوا ذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا ...
وَقَدْ تَرَكَ الْعَبْدُ أَنْ يَقُولَ لِسَيِّدِهِ رَبِّي ، كَمَا يَقَالُ : رَبُّ الدَّارِ ،
وَرَبُّ الْبَيْتِ ، وَكَذَلِكَ حَاشِيَةُ السَّيِّدِ وَالْمَلِكِ تَرَكُوا أَنْ يَقَالُوا
رَبَّنَا» (٨٧) .

وَيَكُونُ الْإِسْلَامُ بِذَلِكَ قَدْ غَيَّرَ مِنَ الْعَادَاتِ اللَّغَوِيَّةِ وَالْأَعْرَافِ
الدَّلَالِيَّةِ ، فَاسْتَطَاعَ أَنْ يَعِيدَ صِيَاحَةَ دَلَالَاتِ اللُّغَةِ الْمُتَعَارَفِ عَلَيْهَا ،
وَأَنْ يَنْشِئَ مَفْهُومَاتَ دَلَالِيَّةٍ جَدِيدَةٍ تَتَسَقُّ وَمَا يَرْمِي إِلَيْهِ مِنْ إِعَادَةِ
صِيَاحَةِ الْفِكْرِ وَالْمُجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَلِذَلِكَ كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ يُوْجِّهُونَ الدَّلَالَاتِ اللَّفْظِيَّةَ ،
وَالْعَادَاتِ اللَّغَوِيَّةَ الرَّجْهَةَ الَّتِي يَرِيدُهَا الْإِسْلَامُ ، وَتَتَفَقَّ وَتُعَالِمُهُ
وَمُبَادِئُهُ .

فَرَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ :
«لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ نَحْبْتُ نَفْسِي ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ لَقِيسَتِ نَفْسِي . كَأَنَّهُ
كَرِهَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُضَيِّفَ الْمُؤْمِنَ الطَّاهِرَ إِلَى نَفْسِهِ الْخَبْثِ
وَالْفُسَادِ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوَجْهِ» (٨٨) .

وَسَارَ الصَّحَابَةُ عَلَى هَدْيِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ، فَقَدْ جَاءَ عَنْ
عَمْرِ وَجَاهِدٍ وَغَيْرِهِمَا النَّهْيُ عَنْ قَوْلِ الْقَائِلِ : اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِفُلَانٍ ،
بَلْ يَقَالُ : مَاتَ فُلَانٌ ، وَيَقَالُ : اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِ الْغَيْبِ ، وَاسْتَأْثَرَ
اللَّهُ بِكَذَا (٨٩) .

وَتَتَسَقُّ هَذِهِ الْعَادَاتُ اللَّغَوِيَّةُ الْجَدِيدَةُ الَّتِي أَقْرَاهَا الْإِسْلَامُ مَعَ
الْعَادَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي تَتَّصِلُ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوَجْهِهِ بِالسَّأَلِ اللَّغَوِيَّةِ ،
فَقَدْ « قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ : دَقَّقْتُ الْبَابَ
عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : مَنْ هَذَا ؟ فَقُلْتُ :
أَنَا ، فَقَالَ : أَنَا ؟ كَأَنَّهُ كَرِهَ قَوْلِي أَنَا » (٩٠) .

كما اتفقت هذه التبدلات اللغوية مع تغيّر في دلالات الألفاظ، فأحدثت أسماء لم تكن «وإنما اشتقت لهم من أسماء متقدمة، على التشبيه، مثل قولهم لمن أدرك الجاهلية والإسلام مخضرم، كأبي رجاء العطاردي بن سالم وشقيق بن سالم، ومن الشعراء النابغة الجعدي وابن مقبل، وأشباههم من الفقهاء والشعراء. ويدل على أن هذا الاسم أحدث في الإسلام، أنهم في الجاهلية لم يكونوا يعلمون أن أناساً يسلمون وقد أدركوا الجاهلية ولا كانوا يعلمون أن الإسلام يكون» (٩١).

ومثل ذلك من الأسماء المحدثّة المشتقة «اسم منافق لمن رأى بالإسلام واستسرّ بالكفر أخذ من النافقاء والقاصعاء والدماة» (٩٢) «(٩٣)». ومثل ذلك «الكافر»، وأصله من الكفر، وهو السّر، وتحول من بعد الإسلام ليُدل على من يسرّ الحق ويغطيه (٩٤).

ومن الأسماء الإسلامية الأخرى التي استحدثت لها دلالة جديدة كلمة «الخلق». وكانت تدل في كلام العرب على أمور لها صلة بالحياة اليومية، فهي دالة على معنى «التقدير». يقال: خلق الثوب، إذا قدره، وخلق الأديم للسّقاء، إذا قدره (٩٥). ويقال: رجل مختلق: إذا كان حسناً تاماً كأحسن الرجال (٩٦). والمخلوق: التّام الحُسن (٩٧). وحين أطلقت الكلمة في الإسلام أريد منها أن تدل على معنى خاص، فصار «الخلق» من أفعال الله وحده، وقد جمعت الكلمة المعنيين معاً، وجعلت خاصة بالله تعالى «فكأنه قيل: خلق الله الخلق، أي: قدره أحسن تقدير وأتمه، لأنه عز وجل أحسن الخالقين، فخلق الخلق كله تاماً حسناً كما وجب أن يكون، لم ينقص عن خلقته ولم يقبح، بل خلقه مقدراً، وهو يقول

عز وجل : «إنا كل شيء خلقناه بقدر» ^(٩٨) ، فتبارك الله أحسن الخالقين ^(٩٩) .

وأثر النص القرآني في تحويل دلالة بعض الألفاظ بسبب المجاورة ، فقد تجاور لفظة ما معنى من المعاني ، ويكثر استعمالها مقترنة بهذا المعنى ، فتتحول دلالتها بسبب هذه المجاورة ، من ذلك كلمة «التيمم» ، وتعني في العربية «القصد» ، يقال : تيممت فلاناً ويممته وتأممته ، وأيمته أي قصده ^(١٠٠) ، وقد استعملت في القرآن الكريم بهذا المعنى ، قال الله تعالى «فتيمموا صعيداً طيباً» ^(١٠١) ، قال الجاحظ : «أي تحرّوه وتوخّوه» ^(١٠٢) . لكن اللفظة استعملت مقرونة بالمسح ، فصارت تدلّ عرفاً على المسح ، وفسرها الجاهل ظ حيث ذكر الآية الكريمة ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾ ^(١٠٣) ، وبين أن هذا كثر في الكلام حتى صار التيمم هو المسح نفسه ، وكذلك عاداتهم وصنيعهم في الشيء إذا طالت صحبتهم وملايستهم له ^(١٠٤) .

ولم يقتصر أثر الإسلام على هذا ، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يستحدث عبارات لم تكن العرب تعرفها ، وقد أثرت عنه ، وصارت مستعملة متداولة في المجتمع اللغوي ، من ذلك قوله : «إذا لا ينتطح فيها عنزان» . ومن ذلك قوله : «مات حتاف أنفه» ، ومن ذلك قوله : «ياخيل الله أركبي» ، ومن ذلك قوله : «كل الصيد في جوف الفرا» ، وقوله : «لا يلسع المؤمن من جحر مرتين» ^(١٠٥) ، وصارت هذه العبارات دائرة على ألسنة الخطباء ، «ألا ترى أن الحارث بن حذّان حين أمر بالكلام عند مقتل يزيد بن المهلب ، قال : أيها الناس ، اتقوا الفتنة ، فإنها تقبل بشبهة ، وتدبر ببيان ، وإن المؤمن لا يلسع من حجر مرتين ، فضرب بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل» ^(١٠٦) .

النقل : يعدّ النقل ظاهرة من ظواهر التطور اللغوي في العربية، فيه يتم نقل معاني الألفاظ وخلعها على مسميات جديدة أو مصطلحات جديدة .. وقد كان مفهوم النقل مضطرباً لن تتعين حدوده ، أو لم يخصّ في الاصطلاح بتعريف دقيق ، فبقي معنى النقل - لغة - السمة الغالبة عليه ^(١٠٧) .

ونجد صورة النقل موزعة بين أبحاث النحاة واللغويين والبلاغيين من جهة وبين أبحاث علماء أصول الفقه من جهة أخرى، ويحتاج دارس هذه الظاهرة إلى جمع أطراف الموضوع من كتبهم مجتمعة لتتكشف الصورة على نحو جلي .

أمّا النحاة فقد تحدثوا عن النقل في معرض كلامهم على « همزة النقل » في « أفعل » ، فقد ذكر الفراء هذه المسألة ، وهو يتحدث عن قوله تعالى : ﴿ فلما جن عليه الليل ﴾ ^(١٠٨) ، فنص على أنه يقال : « جن عليه الليل ، وأجنّ أو أجنه الليل ، وجنه ، وبالألف أجود إذا ألقيت « على » ، وهي أكثر من جنة الليل » ^(١٠٩) .

كما ذكرها ابن الحاجب في الثانية ، فقال : « وافعل للتعدي » غالباً ، نحو أجلسته .. » ^(١١٠) .

وشرح الرضي هذا الكلام ، فبين أن الأغلب في هذه الأمثلة أن لا تنحصر الزيادة في معنى ، بل تجيء لمعان على البذل ، كالهزمة في أفعل تفيد النقل ^(١١١) ..

ومما أشار إليه النحاة في معرض حديثهم عن النقل «تضعيف النقل» ، ويشرح الرضي هذه المسألة مشيراً إلى قول ابن الحاجب : « وللتعدي نحو فرّحته » فيذكر أن معنى التعدي في هذا الباب كما في باب أفعل على ما شرحه ، « والأولى في باب المضعف أن يقال في

مقام التعدي : هو بمعنى جعل الشيء ذا أصله ، ليعم نحو فتحى
القدر ، أي جعلها ذات فحا^(١١٢)

ويعني ذلك أن التضعيف يتم به نقل غير المتعدي إلى التعدي ،
وبهذا النقل تتغير دلالة الفعل ، لأن الزيادة التي لحقته من همزة
وتضعيف قد حملته معنى جديداً.

ومن النقل الذي أشار إليه النحويون في الأدوات ما ذكره
عن الأحرف الناصبة ، وجعل الكفوي هذا النوع من النقل المعنوي ،
فبين أن كل حرف من الحروف الناصبة تدخل على الفعل فلا تعمل
فيه إلا بعد أن تنقله نقلتين . فـ «أن» تنقله إلى المصدرية
والاستقبال^(١١٣) ، و«كي» تنقله إلى الاستقبال والغرض^(١١٤) ،
و«لن» تنقله إلى الاستقبال والنفي^(١١٥) ، و«إذن»^(١١٦) تنقله إلى
الاستقبال والجزاء^(١١٧) . ويدل هذا القول على تبدل في دلالة
الفعل بدخول هذه الأدوات عليه ، فالفعل المضارع يصلح في
الأصل بسبب شبهه للاسم «لزمانى الحال والاستقبال»^(١١٨) ،
ولكنه في دلالة على هذين الزمانين مبهم فيهما «ثم يدخل على
الفعل ما يخلصه لواحد بعينه ويقصره عليه»^(١١٩) ، وحين دخلت
عليه الأدوات الناصبة المذكورة بدلت من دلالاته الأصلية ، وحملت
دلالة جديدة ، فنقلته بذلك من دلالة إلى أخرى.

ومن ظواهر النقل الأخرى التي أشار إليها النحاة وعلماء
الأصول والبلاغيون «العلم» ، وقسمه النحويون إلى مرتجل
ومنقول ، فذكر ابن مالك أنه ينقسم «إلى مرتجل ، وهو : المستعمل
من أول الأمر علماً ، كأدب لرجل ، وسعاد لامرأة ، ومنقول -
وهو الغالب - وهو : ما استعمل قبل العلمية لغيرها ، ونقله إما من
اسم إما لحدث كزيد وفضل أو لعين كأسد وثور ، وإما من وصف

إمّا لفاعل كحارث وحسن أو لمفعول كمنصور ومحمد ، وإما من فعل إمّا ماض كشمرّ أو مضارع كيشكر ، وإما من جملة إمّا فعلية كشاب قرناها ، أو اسمية كزيد منطلق ، وليس بمسموع ، ولكنهم قاسوه . وعن سيبويه : الأعلام كلها منقولة ، وعن الزجاج كلها مرتجلة»^(١٢٠).

والنقل في العلم خارج عن التغيير في اللغة ، ولذلك قال النحويون : «العلم ما يجوز تبديله وتغييره ولا يلزم من ذلك تغيير اللغة»^(١٢١) ، ويعني النقل في العلم «أن يكون الاسم بإزاء حقيقة شاملة فتنقله إلى حقيقة أخرى»^(١٢٢) ، فجعفر في النهر الصغير مرتجل ، وفي الشخص علماً ليس بمرتجل لتقديم وضعه للنهر الصغير ، وكذلك زيد بالنسبة إلى المصدر الذي نقول فيه : زاد يزيد زيدا ، وغير مرتجل بالنسبة لجعله علماً على شخص معين .^(١٢٣)

فكان النقل في العلم تخصيص لهذا الشيء الشامل ، وجعله لا يشارك بينه وبين غيره في الاسم ، وهو نوع من الكلام المستعمل في المعاني ، ولا يحمل صفة الشمول ، فما يحمل هذه الصفة كقولنا : «شيء فإنه وضع لكل ما يصح أن يعلم . والآخر أسماء الأعلام ، كقولنا : «زيد» . وذلك أن من سُمّي ابنه زيدا ، فإنه لا يجب^(١٢٤) أن يشارك بينه وبين غيره في الاسم . والألقاب تجري مجرى الإشارة ، لأن اللقب لا يفيد صفة مخصوصة ، ولا مجموع صفاته»^(١٢٥).

ويتم هذا النقل في الأعلام دون زيادة صفة أو نقصانها ، لأننا نستطيع زيادة صفة أخرى للعلم من طول وسمن ولا يتغير اسمه (وإنما جاز ذلك لأن تسمية هذا الشخص زيدا لم تكن توضع من واضعي اللغة ، حتى إذا سلبناه عنه ، كنا قد خالفنا لغتهم»^(١٢٦) ، ويختلف

العلم المنقول عن الصفة في أن الصفة إذا سلبت غيرت الوضع ، فنحن إذا سلبنا اسم الطويل عن الطويل ، وعوضنا منه اسم القصير نكون قد غيرنا في أوضاع اللغة (١٢٧) .

والنقل في الأعلام على هذه الصورة يعدّ من النقل المعنوي ، وهو «نقل المركبات إلى العلمية» (١٢٨) ، ويعني الانتقال بدلالة الكلمة إلى موضوع آخر ، وهو نقل من أجناس مختلفة إلى العلم «فأثبتوا بهذا كله النقل من غير العلمية إلى العلمية» (١٢٩) ، وأطلقوا في الأعلام اسم النقل دون المجاز لعدم وجود علاقة بين المعنى الأول والمعنى الثاني «ولم يروا أن يصفوه بالمجاز فيقولوا مثلاً إن "يشكر" حقيقة في مضارع شكر ومجاز في كونه اسم رجل ، وإن حجراً حقيقة في الجماد ومجاز في اسم الرجل ، وذلك أن الحجر لم يقع اسماً للرجل لالتباس كان بينه وبين الصخر» (١٣٠) .

وإذا عدّينا مسألة النقل في الأعلام إلى البحث في مفهوم «النقل» على نحو عام ، فإننا في حاجة إلى صُوى تبين تصور علمائنا له ، ونعثر على ذلك في حدّ النقل الذي أورده الكفوي حيث قال : «والنقل : نقل كلمة من موضع إلى موضع آخر أعم من أن يكون فيه تغيير صفة أو تبديلها أم لا» (١٣١) ، وعلى ما في هذا الحد من الابهام والعموم ، فإن البحث فيه وتحليله قد يوصلنا إلى مفهوم النقل الذي نحن بصددّه .

إن نظرة الكفوي إلى النقل تبدو أقرب إلى الابهام منها إلى الوضوح بسبب أنها ليست حداً بقدر ما هي تصور لمسألة «النقل» ، ويشير هذا التصور إلى ما يقربّه من الأذهان فيجعل «النقل» قائماً على الكلمة التي تنقل من موضع إلى آخر حين يفسر «النقل» بأنه «نقل كلمة من موضع إلى موضع» ، ولكنه يعود إلى الابهام موحياً

بعدم قدرته على وضع حد يبين أطراف المحدود ، فجعل «النقل»
«أعم من يكن فيه تغيير صفة أو تبدلها أم لا» .

وتغيير صفة أو تبدلها هو أحد أطراف النقل وكذلك عدم
التغيير ، فيكون تصور «النقل» مبنياً على نقل كلمة من موضع إلى
موضع تتغير له صفة الكلمة أو تبدل ، وقد لا يمسها تغيير في الصفة
أو تبدل ، وقد يكون النقل حاصلاً بأمور أخرى أعم من ذلك .

فالنقل وفق هذا التصور مبني على تبدل دلالة الكلمة ، فهو
نقل دلالي من موضع إلى موضع ، ولكن هذا النقل الدلالي قد يتم
بوسيلتين ، فهو إما أن يحدث بتغيير صفة الكلمة ، كأن تدخل
عليها همزة النقل ، أو يطرأ عليها التضعيف الذي ينقلها من اللازم
إلى المتعدي ، وإما أن يتم بتغيير دلالي دون تبدل في صفات
الكلمات ، وهذا ما يمكن تصوره في نقل الدلالات إلى الموضوعات
الشرعية ، أو نقلها نقلاً عرفياً على مذهب المعتزلة .

ويضيف إلى تصور النقل وضوحاً ما ذكره الكفوي عن
المنقول ، فيه نستجمع بعض أطراف موضوعه ، يقول الكفوي :
«والمنقول : هو ما كان مشتركاً بين المعاني ، وترك استعماله في
المعنى سمي به لنقله من المعنى الأول ، والمنقول حقيقة في الأول ،
بماز في الثاني من حيث اللغة ، وبماز في الأول حقيقة في الثاني من
حيث النقل ، وهجران المعنى الأول لا يشترط في المنقول بل الغلبة في
الثاني كافية»^(١٣٢) .

وأن من الأجدى لمعرفة مفهوم النقل أن نجعل كلا الحدين
متكاملين ، فنضع بذلك بين أيدينا مفهوماً عاماً للنقل ، وتصوراً
للمنقول ، فكلا الحدين يبحث في موضوع واحد .

فالنقل وفق هذين الحدين أخذ كلمة من موضعها وجعلها في

موضع آخر ، وليس هذا المعنى بعيداً عن المعنى اللغوي للنقل الذي ذكره ابن فارس ، فقال : « النون والقاف واللام : أصل واحد صحيح ، يدل على تحويل شيء من مكان إلى مكان ، ثم يفرغ ذلك . يقال : نقلته أنقله نقلاً »^(١٣٣).

ومن الواضح أنّ المعنى الاصطلاحي الذي ذكره الكفوي غير بعيد عن المعنى اللغوي ، فكلاهما يحملان دلالة واحدة ، وهي « التحول » ، والمعنى اللغوي يدل على التحول في المكان ، وهو مكان حسي ، أمّا النقل فهو نقل اللفظ من مكان استعمال إلى مكان استعمال آخر ، وهو بهذا المعنى تحول أيضاً .

والمقول لفظ مشترك بين المعاني ، وقد أوضح ابن فارس أصل معنى الاشتراك فقال : « الشين والراء والكاف أصلان ، أحدهما : يدل على مقارنة وحلاف الأفراد ، والآخر يدل على امتداد واستقامة . فالأول : الشراكة ، وهو أن يكون الشيء بين اثنين لا ينفرد به أحدهما ... »^(١٣٤).

فالمقول وفق هذا المعنى لفظ له معان مختلفة استعمل بها ، ولم ينفرد بواحد منها ، ولذلك قال الكفوي دلالة على ذلك ، « وهجران المعنى الأول لا يشترط في المنقول بل الغلبة في الثاني كافية »^(١٣٥) ، وكأن المعنى اللغوي للمنقول كان وراء صياغة التصور الذي أتى به الكفوي ، فهو ليس مجرد ما هو موجود في طبيعة النقل ، وذلك إن تصور المنقول مجرد أمر في غاية الصعوبة بسبب اتساع مجالات النقل ، والتي عبّر عنها الكفوي بقوله : « والنقل : نقل كلمة من موضع إلى موضع أعم من أن يكون فيه تغير صفة أو تبديلها أم لا »^(١٣٦) . وصفة العمومية التي أضافها إلى النقل برهان على الاتساع في هذا المجال ، مما يجعل حده من الصعوبة بمكان .

وقد انتقل الكفوي من الحدّ ، وتبيان صفات المنقول إلى استعماله ، وبعد أن أعطاه تصوراً كان لابد من النظر إليه من جهة الاستعمال ، فجعله بين الحقيقة والجواز من جهة النظر إليه ، فهو ذو معنيين : أصلي ، ومعنى طارئ ، فإن نظرنا إليه من حيث اللغة فهو في المعنى الأول حقيقة ، وفي المعنى الثاني مجاز ، وإن نظرنا إليه من حيث النقل فهو في المعنى الأول مجاز وفي المعنى الثاني حقيقة ، ولم يذكر أمثلة تبين مقصوده من هذا الكلام ، فألقاه عاماً مبهماً يحتاج الناظر فيه إلى العودة في مشكلة «النقل» إلى كتب الأصول واللغة والبلاغة ليفهم طبيعة الحديث عن هذا المصطلح .

ذكر علماء الأصول «النقل» في معرض حديثهم عن الموضوعات الشرعية والدينية ، وهم يشرحون أصول هذه الألفاظ ، وقد كان البحث في هذا الموضوع ذا اتجاهات متباينة بتباين الباحثين فيه ، لأن المسألة بين أيديهم ليست مسألة لغوية بحثية بقدر ما هي مسألة عقدية ، اختلفوا فيها كما اختلفوا في غيرها من المسائل التي تحمل في طبيعتها وجهين أحدهما عقدي ، والآخر لغوي .

بيند أن هؤلاء الدارسين على اختلاف مذاهبهم لم ينظروا إلى مسألة «النقل» من حيث دلالة الألفاظ ، وإنما بحثوها من حيث استعمال اللفظة ، وتبدل دلالتها وفق هذا الاستعمال ، وهذا ما كان من أمر الكفوي في حديثه عن المنقول ، وقد بين القرافي طبيعة العلاقة بين النقل والاستعمال ، وبين أن مدار الأمر في هذه المسألة على «الوضع» «فالوضع يقال بالإشراك على جعل اللفظ دليلاً على المعنى كتسمية الولد «زيداً» ، وهذا هو الوضع اللغوي ، وعلى غلبة استعمال اللفظ في المعنى حيث يضير أشهر فيه من غيره ، وهذا هو وضع المنقولات في الثلاثة " الشرعي " نحو " الصلاة "

و " الغريفي العام " نحو " الدابة " ، و " العريفي الخاص " نحو " الجوهر والعرض " عند المتكلمين » ^(١٣٧) ، ثم أوضح معنى الاستعمال بقوله : « والاستعمال إطلاق اللفظ وإرادة مسماه بالحكم ، وهو الحقيقة ، أو غير مسماه لعلاقة بينهما ، وهو المجاز » ^(١٣٨) .

وتعدّ هذه المسألة من أكثر مسائل نشأة اللغة تجريدًا في التفكير اللغوي العربي ، لأنها أقرب إلى العمل الذهني منها إلى البحث اللغوي ، ودخولها في مشكلة الوضع يحمل على هذا التصور ، كما تحمل عليه اشارات الكفوي في حديثه عن المنقول ويحتاج في هذا الوضع إلى النظر في طبيعة استعمال اللغة ، وانتقالها من الوضع إلى العرف العام ، فالكلمة حين وضعها لاتحمل دلالة على الحقيقة والمجاز ، وما يحملها على إحدى هاتين الصفتين هو استعمالها ، لأن وضع الألفاظ علامات على الأشياء لا يعني وجوب الصلة بين الأسم والمعناه ، فإن « كون الاسم اسماً للمعنى غير واجب لهم . وإنما هو تابع للاختيار بدلالة انتفاء الاسم عن المعنى قبل المواضعة ، وإنه كان يجوز أن يسمى المعنى بغير ماسمي به » ^(١٣٩) ، ولذلك نجد التفريق بين « الوضع » ، وبين الاستعمال ، ويمكن تصور ذلك من خلال المجادلة الآتية : « فإن قيل : إذا قال الواضع : سموا هذا حائطاً ، أو قال : قد سميت هذا حائطاً ألا يكون قوله : " حائطاً " في تلك الحال حقيقة للحائط ، قيل : كذلك نقول ، لأنه لم يتقدم ذلك مواضعة ، فيكون قد أفاد بقوله : " حائط " ما اقتضته تلك المواضعة ، ولا يكون أيضاً مجازاً ، لأنه لم يتقدمه مواضعة بخلاف ما أفاد به الآن فيكون مجازاً » ^(١٤٠) .

فمعيار الحكم على اللفظ من حيث الحقيقة والمجاز هو الاستعمال ، وحين تكون المواضعة منشأ الاستعمال ، فإن اللفظ

محكوم عليه بالحقيقة إذا وافق استعماله أصل وضعه ، ومحكوم عليه بالبحاز ، إذ انتقل به المستعمل إلى موضع آخر غير موضعه الأصلي .

وتبدل دلالة الألفاظ حين تنتقل بها من الدلالة الوضعية إلى الدلالة العرفية أو الشرعية ، فتحول إلى البحاز إذا قسناها إلى الدلالة الوضعية الأصلية ، وهي حقيقة ، لأنها أصبحت شائعة في العرف والاستعمال «فإن قيل : فيجب ، إذا أفاد المتكلم بكلامه معناه العرفي أو الشرعي ، أن يكون بحازاً لأنه غير المواضعة الأصلية قيل : هو بحاز بالاضافة إلى المواضعة الأصلية ، وليس بمحاز بالاضافة إلى المواضعة العرفية ، لأنه لم يفد به في الاصطلاح معنى غير ماوضع له ، وكذلك القول في الاسم الشرعي» (١٤١) .

ولذلك يقسم المنقول إلى قسمين تبعاً لطبيعة النظر إليه ، فهو من حيث اللغة التي تقوم على الوضع الأصلي ، انتقال من الحقيقة إلى البحاز ، وحين يتحول هذا المعنى العرفي الجديد إلى الاستعمال ، فيغلب على اللفظ المعنى الجديد ، فإن هذا المعنى يصبح حقيقة ، ولذلك فإن المنقول يتحول من البحاز إلى الحقيقة من حيث النقل ، وهذا ما أشار إليه الكفوي ، وبينه السيوطي في قوله : «فصل فيما يوصف بانه حقيقة وبحاز " باعتبارين " هو الموضوعات الشرعية كالصلاة والزكاة والصوم والحج فإنها حقائق بالنظر إلى الشرع ، بحازات بالنظر إلى اللغة» (١٤٢) .

وإذا ماخذنا برأي القرافي في حديثه عن أنواع الاسم المنقول فإننا واجدون أنها المنقول الشرعي ، العرفي العام ، والعرفي الخاص ، فهي ثلاثة دار حولها النقاش وكانت فيها آراء كثيرة .

فالمنقول الشرعي : هو «اللفظ التي يستفاد من جهة الشرع وضعها لمعنى غير ما كانت تدل عليه في أصل وضعها اللغوي» (١٤٣) ، وقد قسم أقساماً ، فمنه الأسماء الشرعية «كالصلاة والصوم والحج

والزكاة»^(١٤٣) ، ومنه الأسماء الدينية ، وهي ما «نقلته الشريعة إلى أصل الدين كلفظ الإيمان والكفر والفسق»^(١٤٤) .
وقد وقع خلاف كبير بين علماء الأصول حول نقل هذه الأسماء من معناها اللغوي الأصلي إلى معناها الشرعي الجديد ، «ولا خلاف بين العلماء في كون هذا النقل ممكناً»^(١٤٥) ، وأنه غير متعذر، وإنما النزاع في وقوعه»^(١٤٦) .

وكان أطراف الخلاف في هذه المسألة هم المعتزلة ، ومن لهج لهجهم ، وأهل الظاهر ، ومثلهم ابن حزم ، وأصحاب السنة ، ومثلهم الغزالي . وقد تحول النقاش في المسألة من كونه نقاشاً لغوياً إلى مسألة عقدية ، فنصّ ابن حزم على عدم جواز نقل الاسم عن موضوعه في اللغة دون دليل حيث قال : «وأما مادمتنا لا نجد دليلاً على نقل الاسم عن موضوعه في اللغة فلا يحملّ لمسلم أن يقول : إنه منقول ، لأن الله تعالى قال : ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾»^(١٤٧) . فكل خطاب مخاطبنا الله تعالى به أو رسوله "ص" فهو على موضوعه في اللغة ومعهوده فيها إلا بنص أو إجماع أو ضرورة حين تشهد بأن الاسم قد نقله الله تعالى أو رسوله "ص" عن موضوعه إلى معنى آخر»^(١٤٨) .

وذهب المعتزلة إلى أن النقل حاصل في هذه الأسماء ، لأن النقل على نحو عام موجود في اللغة ، والدليل على ذلك «أن كون الاسم اسماً للمعنى غير واجب له . وإنما هو تابع للاختيار بدلالة انتقاء الاسم عن المعنى قبل المواضعة ، وأنه كان يجوز أن يسمى المعنى بغير ما سمي به . نحو أن يسمى البياض سواداً ، إلى غير ذلك . فإذا كان كذلك ، جاز أن يختار سلب الاسم عن معناه ونقله إلى غيره إذا كان ذلك تابعاً للاختيار»^(١٤٩) .

والنقل في الاسماء الشرعية حسن «فقد جاءت الشرعية بعبادات لم تكن معروفة في اللغة ، فلم يكن بدّ من وضع اسم لها لتمييز به من غيرها» (١٥٠) .

وكان هذا الاحتجاج عما ذهب إليه ابن فارس اللغوي الذي أرجع هذه الألفاظ إلى الضرورة فقد «كسّلت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرايبهم. فلما جاء الله جل ثناؤه بالإسلام حالت أحوال ، ونسخت ديانات ، وأبطلت أمور ، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخر بربادات زهدت ، وشرائع شرعت ، وشرائط اشترطت» (١٥١) .

وما ذهب إليه المعتزلة يعني وجود النقل في هذه الأسماء من معناها اللغوي إلى معان أخر «وصارت معانيها اللغوية نسباً منسياً ، فالصلاة مفيدة لهذه الأعمال المخصوصة ، وهكذا حال الزكاة ، والصوم ، فهي مفيدة على جهة الحقيقة دون غيرها من المعاني اللغوية» (١٥٢) .

وقد أنكر القاضي أبو بكر الباقلاني النقل إنكاراً ، وحجته في ذلك أن هذه الأسماء باقية على معانيها اللغوية من غير زيادة ، وجعل ما يشبهه فيه النقل من المحاز كقوله تعالى ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ (١٥٣) ، «وأراد به الصلاة نحو بيت المقدس .. قلنا : أراد بالإيمان التصديق بالصلاة والقبلة ، وأراد بالمصلين : المصدقين بالصلاة ، وسمى التصديق بالصلاة صلاة على سبيل التجوز ، وعادة العرب تسمية الشيء بما يتعلق به نوعاً من التعلق والتجوز من نفس اللغة» (١٥٤) .

أما الغزالي فإنه أخذ ما أورده ابن فارس عن النقل ، غير أنه أوّله تأويلاً خاصاً ، فجعل هذه الألفاظ دالة على معانيها اللغوية ،

لكن الشرع تصرف في هذه الأسماء «ولاسبيل إلى دعوى كونها منقولة عن اللغة بالكلية كما ظنه قوم ولكن عرف اللغة تصرف في الأسماء أحدهما التخصيص ... فتصرف الشرع في الحج والصوم والإيمان من هذا الجنس ، إذ للشرع عرف في الاستعمال كما للعرب ، والثاني في إطلاقهم الاسم على ما يتعلق به الشيء ويتصل به ، كتسميتهم الخمر محرمة ، والمحرم شربها .. فتصرفه في الصلاة كذلك» (١٥٥).

وأما ابن الخطيب الرازي ، «فزعّم أن إطلاق هذه الألفاظ على هذه المعاني الشرعية ، على جهة المجاز من معانيها اللغوية التي تدل عليها» (١٥٦).

ومن الواضح أن الخلاف في هذا الموضوع تحول إلى خلاف عقدي - كما قلنا - ، بيد أن حديث القوم عن «النقل» في الأسماء الشرعية كان مرده إلى النظر إلى هذه الأسماء من حيث حقيقتها ومجازها ، فمانعو النقل كانوا على أنها على أصلها اللغوي، وما جرى فيها من تصرف في الدلالة مرده إلى المجاز ، ماعدا ابن حزم، فكانت له أراؤه الخاصة في هذا الموضوع ، فأرجع هذه الألفاظ إلى الحقيقة دون المجاز ، لأن واضح اللغة هو الله تعالى، وحين يقوم بنقل الألفاظ ، فإنما يفعل ذلك على سبيل الحقيقة «فكل كلمة نقلها الله تعالى عن موضوعها في اللغة إلى معنى آخر ، فإن كان تعالى تعبدنا بها قولاً وعملاً كالصلاة والزكاة والحج والصيام والربا وغير ذلك فليس شيء من هذا مجازاً ، بل هي تسمية صحيحة واسم حقيقي لازم مرتب من حيث وضعه الله تعالى» (١٥٧).

أما مؤيدوا النقل ، وهم المعتزلة ، فإنهم جعلوا هذه الألفاظ حقيقية عرفية ، لأن معانيها الأصلية قد نسيت ، وما نعرفه منها معناها العرفي فحسب .

وواضح أن هذا الخلاف في نقل الأسماء في الشرع عائداً إلى نظرة هؤلاء إلى نشأة اللغة ، فالقائلون بالمواضعة «وهم المعتزلة» يسوّغون هذا النقل ، لأن المواضعة في نظرهم متجددة وفق ما تحمل عليه الضرورة ، وأما القائلون بالتوقيف ، فإنهم يحجّرون في الأسماء ويمنعون من نقلها إلى دلالات جديدة .

* المنقول العرفي العام : واللفظة العرفية هي «التي نقلت من مسماها اللغوي إلى غيره بعرف الاستعمال» ^(١٥٨) ، أو هو «ما أفاد ظاهره - لاستعمال طارئ من أهل اللغة - ما لم يكن يفيد من قبل» ^(١٥٩) ، ويرجع المعتزلة هذا النوع من الألفاظ إلى فكرة تجدد المواضعة فيعللون لكيفية انتقال الاسم بالعرف بقولهم : «وأما كيفية انتقال الاسم بالعرف فهو أنه يتعذر - مع كثرة أهل اللغة - أن يتواطؤوا على ذلك ، ولكنه لا يمتنع أن ينقل الاسم طائفة من الطوائف ، ويستفيض فيها ، ويتعدى إلى غيرها فيشيع في الكل على طول الزمان ، ثم ينشأ القرن الثاني فلا يعرفون من إطلاق ذلك الاسم إلا ذلك المعنى الذي نقل إليه» ^(١٦٠) .

ومدار الأمر في التفريق بين الألفاظ اللغوية دلالتها على «الوضع» أو «العرف» ، فالأسماء اللغوية «تنقسم إلى وضعية وعرفية» ^(١٦١) . والوضع هو الأصل ، أما العرف فطارئ ، ذلك أن اللفظ في معناه العرفي يتخذ صورتين ، إحداهما : التخصيص والأخرى الانتقال من المجاز إلى الحقيقة .

أما التخصيص : فهو «أن يوضع الاسم لمعنى عام ثم يخصص عرف الاستعمال من أهل اللغة ذلك الاسم ببعض مسمياته» ^(١٦٢) ، ويعنى ذلك «قصر الاسم على بعض مسمياته ، وتخصيصه» ^(١٦٢) . ومن الأمثلة المتداولة على تخصيص العام لفظ «الدابة» ،

وأخذت هذه اللفظة من (دب) ، قال ابن فارس : «دبّ : الدال والباء أصل واحد صحيح منقاس ، وهو حركة أنحف من المشي ، تقول : دبّ ديباً ، وكل مامشي :

تري أثره في صفحته كآله مدارج شهبان هنّ ديب (١٦٣) .

ونقل ابن منظور عن الأصمعي قوله : «الحشرات والأحراش والأحناش واحد ، وهي هوام الأرض» (١٦٤) ، ويلفسر كلام الأصمعي قول ابن الأعرابي فيكون (الديب) حركة الحيوان لاحتكاك الإنسان في الأصل .

والناظر في الأمثلة التي ذكرها الأصمعي والثعالبي يدرك أن الدابة سميت دابة لأنها تدب على الأرض في حركة معينة ، وهي حركة بطيئة ، لأن (الديب) «أول سير الإبل» (١٦٥) . وحين ننقل الكلمة إلى الإنسان فإننا نشبه مشيته البطيئة الهينة بما يفعله الحيوان في مشيته فنقول : «دبّ دباً وديباً مشى على هيئته ، وهو خفيّ الدبة» (١٦٦) ، وحين نطلق كلمة «الدابة» فإنما نعني بها الحيوان فالدابة «مادبّ من الحيوان» (١٦٧) .

ولا عبرة في أن يكون الحيوان من ذي القوائم الأربع ، أو أكثر من ذلك ، أو بلا قوائم ، فالشبه دويبة ذات قوائم سب طول ، وقيل هي : دويبة كثيرة الأرجل (١٦٨) . والأحراش هي الحيات (١٦٩) ، أو الكركدن أو دويبه أكبر من البدودة علي قدر الإصبع ، لها قوائم كثيرة (١٦٩) . وهذه الهوام كلها ذات سير بطيء .

ويكون بذلك أصل معنى «الدابة لما لا يعقل» (١٧٠) وهو هوام الأرض وغيرها من أجناس مختلفة ، غير أن الكلمة لم تستعمل في

العرف اللغوي إلا لما يركب ، فالدابة : التي تتركب وقد « غلب هذا الاسم على ما يركب من الدواب .. وهو يقع على المذكر والمؤنث وحقيقته الصفة » ^(١٧١) ، ويدل على ذلك خبر ذكر عيسى رؤية هو « أنه كان يقول : قرب ذلك الدابة ، ليردّون له » ^(١٧٢) . وذكر علماء أصول الفقه والبلاغيون المتأثرون بهم هذه الكلمة ، وجعلوها مما كان معناه عاماً ثم خصص يعرف الاستعمال من أهل اللغة ببعض مسمياته ، فللمظة الدابة « حارية في وضعها اللغوي على كل ما يذهب من الحيوانات من الدودة إلى الفيل ، ثم إليها احتضنت بعض البهائم ، وهي ذوات الأربع من بين سائر ما يذهب بالعرف اللغوي » ^(١٧٣) .

على أننا نحتاج إلى ما يفسر اقتران « المشي » بالدابة عند ابن فارس ، ونحن عرفنا أن معناها أوسع من الدلالة على ماله قوائم ، وإن خصصت لذوات الأربع من بعد ، ويدلنا على ذلك ما جاء في القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى : « والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشي على بطنه ، ومنهم من يمشي على رجلين ، ومنهم من يمشي على أربع » ^(١٧٤) .

وجاءت تفسيرات الآية الكريمة لتبين صلة الدابة - وهي في الأصل لغير العاقل - بالمشي والمشي الذي القوائم من إنسان أو بهائم أو هوام ، وكذلك صلة المشي بالزاحف على بطنه .

فتوقف أبو عبيدة في مجاز القرآن عند كلمة « يمشي » ، وجعلها مدار تفسير الآية الكريمة ، وقال : (فهذا من التشبيه ، لأن المشي لا يكون على البطن إنما يكون لمن له قوائم ، فإذا خلطوا ماله قوائم بما لا قوائم له جاز ذلك ، كما يقولون : أكلت خبزاً ولبناً ، ولكن يقال : أكلت الخبز ، قال الشاعر ^(١٧٥) :

يأليت زواجك قد غدا متقلداً سيفاً ورثاً (١٧٦)

وفي نص أبي عبيدة أمران أولهما أن إطلاق «المشي» على الزاحف من التشبيه ، وثانيهما مسألة خلط أمر بآخر ، وحمل اللفظة عليهما معاً .

وينبها الأمر الأول علي أن ابن فارس حين جعل المشي من صفات «الدابة» كان متأثراً بتفسير الآية الكريمة ، والمشي فيها للزاحف على التشبيه كما نص أو عبيدة ، وكان الزمخشري أكثر وضوحاً في تعبيره عن المعاني التي اشتملت عليها الآية الكريمة ، حيث يقول : «وقيل من يمشي في الماشي على بطن والماشي على أربع قوائم .. فإن قلت لم سُمي الزحف على البطن مشياً؟ قلت: على سبيل الاستعارة ، كما قالوا في الأمر المستمر : قد مشي هذا الأمر ، ويقال : فلان لا يمشي له أمر ، ونحوه استعارة الشفة مكان الجحفة والمشفّر مكان الشفة، ونحو ذلك ، أو على طريق المشاكلة لذكر الزاحف مع الماشين» (١٧٧) .

فتكون صفة المشي التي أضافها ابن فارس للدابة ذات تفسيرين، فإما أنه أخذ بالمعنى الخاص ، وهو دلالة اللفظة علي ذوات الأربع ، وإما أنه حمل المشي على الاستعارة أو المشاكلة كما ذكر الزمخشري .

ويمكن أن نؤرخ لدلالة المفردة في ثلاث فترات من خلال الآية الكريمة ، أولاها قبل الإسلام ، وكانت دالة كما لاحظنا علي غير العاقل ، وثانيتها في القرآن الكريم ، والأنحية بعد الإسلام وتفسر دلالة المفردة في القرآن على تطورها إلى معنى عام جديد بعد أن كانت قد تخصصت بعد شوموم.

فقد دلت «الدابة» في الآية على المميز وغير المميز لكن غلب المميز «فأعطى ماوراءه حكمه كأن الدواب كلهم مميزون فمنهم من قيل منهم»^(١٧٨) ، وفسر الفراء هذه المسألة على نحو آخر فقال : «لما قال : خالق كل دابة ، فدخل فيهم الناس كنى عنهم ، فقال : "منهم" لمخالطتهم الناس ، ثم فسرهم بمن لما كنى عنهم كناية الناس خاصة ، وأنت قائل في الكلام : من هذان المقبلان ؟ لرجل ودابته ، أو رجل وبعيه ، فتقوله بمن لاختلاطهما»^(١٧٩) .

وأشار المبرد إلى هذه المسألة من خلال بيت الشعر السابق :
ياليت زوجك قد

ومن خلال الآية الكريمة ، واستعمل مصطلحاً آخر للدلالة على تغليب صفة العاقل على غير العاقل ، فقال : «الرمح لا يتقلد ، ولكنه أدخله مع ما يتقلد ، فتقديره متقلداً سيفاً ، وحاملاً رمحاً»^(١٨٠) ، فصار - بذلك - لدينا مصطلحان يدلان دلالة واحدة هما : الاختلاط ، والخلط .

وبيّن لنا ابن هشام في المغني قاعدة الاختلاط على «أنهم يغلبون على الشيء ما لغيره ، لتناسب بينهما ، أو اختلاط»^(١٨١) .
ويجعل من الاختلاط ما ورد في الآية الكريمة ﴿فمنهم من يمشي...﴾^(١٨٢) ، وأطلقت «من» على ما لا يعقل فيها لأجل «الاختلاط» «فإن الاختلاط حاصل في العموم السابق في قوله تعالى : ﴿كل دابة من ماء﴾ وفي ﴿من يمشي على رجلين﴾ اختلاط آخر في عبارة التفصيل ، فإنه يعم الإنسان والطائر»^(١٨٣) .

وفي هذا تحليل لجزء من المسألة ، وهو أن «المشي» لما اختلط مع أنواع الحركة الأخرى غلب عليها ، لأنه للإنسان وغيره من الحيوان ، وأنواعه كثيرة مشاهدة ، واضحة على الأرض أكثر من غيرها.

غير أن هناك تفسيراً آخر داخل هذا التفسير ، وهو مصطلح «الإدخال» ، ولم يشر إليه أبو عبيدة في تفسيره الآية ، ولكنه أشار إليه بالمثل والشاهد ، أمّا المبرد فقد نصّ عليه حين قال : «ولكنه أدخله مع ما يتقلد» .

وقد عبر المتأخرون عن هذا المعنى بما سموه «التضمين» . فقد فسر ابن جنّي قول الشاعر «متقلداً سيفاً وريحاً» على تضمين متقلداً معنيين هما «التقلد» و «الحمل» ، فقال : «أي وحاملاً ريحاً، فهذا محمول على معنى الأول لا لفظه»^(١٨٤).

فحمل «المشي» في الآية الكريمة «معنى الحركة على الرجلين ومعنى الزحف وكان معنى المشي قد أشرب معنى لفظ آخر فأعطي حكمه»^(١٨٥).

ويعني ذلك أن «الدابة» في الآية الكريمة قد أضيفت لها دلالة جديدة ، هي أنها صارت تدل على الإنسان - كما تدل على غيره من الهوام والبهائم ، وأن المشي قد ضمن معنى الزحف إضافة إلى معناه الأصلي الدال على ذي القوائم ، فيفسر اقتران المشي لدى ابن فارس بالدابة على أنه تضمين «المشي» معنى الزحف بسبب الاختلاط ، فكان تفسيره للدابة بأنها «كل ما مشى على الأرض» معنيّ به المميز وغير المميز ، وهو معنى طارئ على الكلمة بسبب الآية الكريمة.

وصفوة القول أن كلمة «الدابة» كانت تدل على البهائم والهوام ، وهو معنى عام ، ثم خصصت بذوات الأربع ، واتسع مدلولها ليشمل الإنسان بفضل الآية الكريمة التي وسعت هذا المدلول.

بيد أن ذلك لم يمنع من أن تكون دلالة المفردة العرفية على ذوات الأربع من البهائم بقيت سائدة ، ولم تحول الآية هذه الدلالة

إلى الاتساع في المجتمع اللغوي ، فقد استمر الناس يفهمون من لفظة الدابة ما غلب على نوع معين . من البهائم ، وهو ما يركب من الدواب ^(١٨٦) ، وكان ذلك في عصر قطري بن الفجاءة «٧٨هـ» ويدل عليه خبر ذكره ابن منظور ، وبين فيه أن أول ما يطرأ على ذهن سامع لفظة «الدابة» هو معناه العرفي لامعناه الواسع ، قال : «ولما قال الخوارج لقطري : اخرج إلينا يادابة ، فأمرهم بالاستغفار تلوا الآية حجة عليه» ^(١٨٧) ، فقد ذهب تفكير قطري إلى معنى اللفظة «العرفي» - كما هو سائد في المجتمع اللغوي - واحتاج إلى من يذكره بالاتساع الذي دخل على الكلمة بعد نزول القرآن الكريم.

والحقيقة أن كلمة «الدابة» بقيت على دلالتها العرفية الخاصة ، ونسيت دلالتها قبل نزول القرآن وبعده في عصرنا الراهن ، فهي تذهب بسامعها إلى ما يركب من البهائم دون غيرها من الدلالات . ويعمل ذلك ما قاله الأصوليون من أن أمارة الانتقال بالاسم إلى معناه العرفي «أن يسبق إلى الأفهام عند سماعه معنى غير ما وضع له في الأصل ، فإن كان السامع للاسم يتردد في فهمه المعنى العرفي واللغوي معاً ، كان الاسم مشتركاً فيها على سبيل الحقيقة» ^(١٨٨).

- أما صورته الثانية فهي الانتقال من المجاز إلى الحقيقة :

وهو «أن يصير الاسم شائعاً في غير ما وضع له أولاً فيما هو مجاز فيه كالغائط : المطمئن من الأرض ، والعذرة : البناء الذي يستتر به وتقضي الحاجة ورائه ، فصار أصل الوضع منسياً والمجاز معروفاً سابقاً إلى الفهم بعرف الاستعمال ، وذلك بالوضع الأول» ^(١٨٩).

وبعني ذلك أن بعض الأسماء قد انتقلت من الحقيقة ، وهي أصل الوضع إلى المجاز ، ومن ثم شاعت على ألسنة الناس فتحول المجاز إلى حقيقة ، فعادة البشر أن يتخذوا لبعض حاجاتهم ألفاظاً خاصة بالمجتمع اللغوي الذي اتخذها ، ولا تكون دالة على الحاجة نفسها ، وإنما يكون عنها باسم له صلة بها ، وبما يدعو إلى تجنب الألفاظ والعدول عنها إلى غيرها الاشمعزاز والتشاؤم والتفاؤل ، «وذلك كبعض أعضاء الإنسان وأفعاله وبعض الأمراض والعاه - وبعض أنواع الحيوان» (١٩٠).

وتعد هذه المسألة نفسية ، لأنها متصلة بالطبع الإنساني ، ومعلوم «أنه قد تنفر الطباع عن بعض المعاني ، وتتجافى الناس التصريح بذلك ، فيكون عنه باسم ما انتقل عنه ، وذلك كقضاء الحاجة المكنى عنه باسم المكان المطمئن من الأرض الذي تقضي فيه الحاجة» (١٩١).

وحين تشيع الألفاظ المجازية بين الناس ، وتستعمل بكثرة تتحول إلى حقيقة عرفية (١٩٢).

وفي العربية ألفاظ كثيرة نقلها العرف الاجتماعي إلى معانٍ أخرى تفاؤلاً أو تطييراً ، من ذلك «السليم» ، ويقال للملدوغ سليماً لأنهم تفاءلوا بالسلامة (١٩٣) خلافاً لما يحذر عليه منه (١٩٤) ، وإنما سمي اللديغ سليماً لأنهم تطيروا من اللديغ فقبلوا المعنى ، كما قالوا للحبشي أبو البيضاء ، وكما قالوا للفلاة مفازه ، تفاءلوا بالفوز وهي مهلكة ، فتفاءلوا بالسلامة (١٩٥) ، وقد يسمون الشيء بأسماء في التفاؤل والتطير (١٩٦).

فالسليم في أصله مأخوذ من «سلم» والسين واللام والميم معظم بابه من الصبغة والعافية ، ويكون فيه ما يشد ، والشاذ عنه قليل ، فالسلامة أن يسلم الإنسان من العاهة والأذى (١٩٧).

وحين يسمى المددوغ المشرف على الموت سليماً ، فإن اللفظة قد نقلت من معناها الأصلي ، وهو الصحة والعافية إلى معنى آخر يعرف اجتماعي تطيراً وتفاؤلاً في آن معاً .
- أما النوع الثالث من أقسام النقل فهو المنقول العرفي الخاص :

ونعني به المصطلحات التي تضبط العلم ، فالمصطلح يُعدُّ اسم علم على الفكرة العلمية^(١٩٨) ، و«كان من الآثار المباركة في القرآن الكريم على العرب والمسلمين أن حفزهم للنشاط العقلي ، ودفعهم إلى بناء حياة ثقافية تدور حول نصه المعجز»^(١٩٩) . غير أن علوم العرب المستحدثة كانت في حاجة إلى اصطلاحات تعبر عن مفاهيمها ، وقد بدأ العرب كغيرهم من الأمم بوصف الأفكار دون تسميتها باسماء ثابتة لها تعرف بها^(٢٠٠) ، ومنه انتقلوا إلى تحديد المدلولات بالفاظ معينة نقلوها من معانيها الأصلية إلى معان جديدة لتعبر عن هذه الأفكار .

وإن تتبع هذه المسألة في كتب النحو - على سبيل التمثيل - يمكن أن يدلنا على الانتقال من وصف الأفكار إلى تسميتها ، ومن ثم فإنها ترشدنا إلى طريقة النقل التي اعتمدها القدماء في تسمية الأفكار .

وإذا أخذنا مصطلح «النحو» على أنه علم على هذا القسم من علوم العربية ، وحاولنا البحث فإننا واجدنا آراء مختلفة في ذلك تتباين باختلاف من يبحث فيه ، وباختلاف الروايات التي استند إليها ، وقد تحدث القدماء عن سبب تسمية هذا العلم بالنحو ، فذكروا أن أبا الأسود الدؤلي حين وضع ملاحظاته في العربية قال للناس : «انحوا هذا النحو» ، وذكروا أن علي بن أبي

طالب سلم أبا الأسود الدؤلي الصحيفة النحوية وقال له : انح هذا النحو ، فسمي العلم كله بـ «النحو»^(٢٠١).

وقد ذهب الدكتور محمد خير حلواني إلى سبب هذه التسمية هو «أن المؤدبين أو المقرئين كانوا يستخدمون كلمة «نحو» ليدلوا بها على الطريقة العربية في عبارة ما ، كأن يقول بعضهم لبعض : العرب تنحو في هذا كذا ، أو نحو : العرب في هذا كذا ... وربما كان المؤدبين يستعملون كلمة نحو لتوضيح القاعدة بالمثال الفصيح ، فتحول هذا المعنى المعجمي إلى معنى اصطلاحى ، وذلك من باب تسمية «الكل» باسم الجزء ، والذي يؤيد هذا أن استعمال كلمة «نحو» بمعنى «مثل» ، ترجع إلى عصر ابن أبي اسحاق الحضرمي ... وقد كثر فيما بعد في كتب خالفه ، فأدّى هذا إلى انتقال اللفظ من معناه اللغوي المعجمي إلى معنى اصطلاحى جديد ، هو أن يصير علماً على هذا الضرب من علوم اللغة العربية»^(٢٠٢).

وكان لتكوّن بعض مصطلحات النحو ضلة بواقعة معينة ، وقد أدت هذه الواقعة إلى انتقال الكلمات من معناها المعجمي إلى معان اصطلاحية جديدة ، من ذلك ما ذكر عن نقط المصحف الذي تولاه أبو الأسود الدؤلي ، فقد روي أنه قال لزياد بن أبيه : «قد أجبتك إلى ما سألت ، ورأيت أن أبدأ بإعراب القرآن ، فابعث إلى بثلاثين رجلاً . فاحضروهم زياد ، فاختار منهم أبا الأسود عشرة ، ثم لم يزل يختارهم حتى اختار منهم رجلاً من عبد القيس ، فقال : خذ المصحف ، وصيغاً يخالف لون المداد ، فإذا فتحت شفتي فانقط واحدة فوق الحرف ، وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف ، وإذا كسرتها فاجعل النقطة في أسفله ، فإن أتبعته شيئاً من هذه الحركات غنة فانقط نقتطين»^(٢٠٣).

وقد انتشرت مصطلحات أبي الأسود الدؤلي هذه في الناس إلى يومنا هذا وهي « مصطلحات تراعي طريقة النطق ، وتشكل الشفتين »^(٢٠٤). وقد نقل هذه المصطلحات من معانيها الأصلية إلى معانيها الاصطلاحية ، فصار للفظه معنيان : أصلي ، واصطلاحي .

ويعد عمل أبي الأسود ، وما فعله المعلمون قبله ممن أطلقوا على فرع من علوم العربية مصطلح « النحو » نوعاً من تصور الحالة اللغوية ومن ثم تسميتها وتحديدتها ، فإذا أخذنا مثلاً لهذا التصور من كتاب سيبويه « - ١٨٠ هـ » وتبعناه فيما جاء بعده من الكتب النحوية فإننا سوف نعثر على طريقة التحول من التصور إلى التسمية عن طريق النقل ، قال سيبويه : « هذا باب الفعل الذي يتعدى اسم الفاعل إلى اسم المفعول ، واسم الفاعل والمفعول فيه شيء واحد ، فمن ثم ذكر على حديثه ، ولم يذكر مع الأول ، ولا يجوز فيه الاقتصار على الفاعل كما لم يجوز في ظننت الاقتصار على المفعول الأول ، لأن حالك في الاحتياج إلى الآخر ههنا كحالك في الاحتياج إليه ثمة . وسنبين لك إن شاء الله ، وذلك قولك : كان ويكون وصار ، ومادام وليس ، وما كان نحوهن من الفعل مما لا يستغني عن الخبر ... »^(٢٠٥).

ونلاحظ في هذا التصور الذي تهيأ لسيبويه أنه قرن هذه الأفعال بنظائرها التي مرت معه سابقاً ليتضح الفرق بينها وبين ما يتحدث عنه مما أفرد منها على حديثه ، فالأفعال هنا متعدية اسم الفاعل متجاوزة إياه إلى اسم المفعول . غير أن الفاعل والمفعول شيء واحد ، لأن قولنا : كان عبد الله أخاك ، إنما هو إخبار عن الأخوة ، وأدخلت كان لتجعل ذلك فيما مضى ، مع ملاحظة أن ذكر الأول يشبه ذكر المفعول الأول في ظننت^(٢٠٦).

فإذا انتقلنا إلى المبرد «-٢٨٥هـ» وجدنا التصور ذاته ، بيد أن ملاحظناه عند سيبويه من إطالة في التعبير عنه قد بدأ يتقلص ويختصر ، وصار ينحو منحى العنوان المبسط الذي يمهّد لوجود المصطلح ، قال : «هذا باب الفعل المتعدي إلى مفعول واسم الفاعل والمفعول فيه لشيء واحد»^(٢٠٧).

ونجد الشيء ذاته لدى ابن السراج (-٣١٦هـ) حيث يقول : «الفاعل الذي تعداه فعله إلى مفعول واسم الفاعل والمفعول فيه لشيء واحد»^(٢٠٨).

ويتطور التصور ليتجه نحو المصطلح ، فنجد في كتاب الجمال للزجاجي «-٣٤٠هـ» الباب الآتي : «باب الحروف التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار»^(٢٠٩) ، ويبدو أن مصطلح «الأفعال الناقصة» كان مبعثه ما أتى به الزجاجي ، وذلك لأمرين : أولهما أنه نصّ على نقصان كان بقوله : (واعلم أن لكان أربعة مواضع : تكون ناقصة ، وهي التي ذكرنا أنها تحتاج إلى اسم وخبر كقولك : "كان زيد عالماً " ، و "كان عمرو شاكساً" ^(٢١٠) ».

والثاني : أنه استعمل كلمة «الحروف» بدل «الأفعال» ، وقد علل ذلك بأنه أراد بالحروف الكلم ، أو أنه أطلق عليها حروفاً لضعفها ، وكونها لاتنصب مصادرها^(٢١١) . وهذا الذي قلناه يعد تمهيداً لفكرة النقص التي نصّ عليها في سياق كلامه على هذه الأفعال ، وهكذا ابتداء مصطلح «الأفعال الناقصة» يندرج في أبواب النحو العربي من بعد ، فتم نقل المصطلح من معناه الأصلي ليصبح علماً على مجموعة من الأفعال لاتكتفي بأسمائها بل تطلب معها أخباراً . قال ابن يعيش «-٦٨٤هـ» «ومن أصناف الفعل الأفعال الناقصة»^(٢١٢).

ووفق هذه الطريقة كان وضع مصطلحات علم النحو ، وكان شأنه في ذلك شأن كل فرع من فروع العلم يطرد «مع تقدمه تحديد المصطلحات وضبطها ، ومن ثم كان لابد لفروع المعرفة العربية التي نشأت في ظل القرآن الكريم أن تسعى قدماً في طريق الاكتمال ، وأن يصحب هذا السعي تحديد المصطلح ، وبناء هيكل اصطلاحي لهذا الفرع يضبط أفكاره ويتطور بتناول موضوعاته من مجرد إشارات غامضة إلى مفاهيم واضحة المعالم ، محددة الدلالة ، مبرأة من الظلال الجانبية للمعنى»^(٢١٣) ، وهذا الأمر ذاته سوف نلاحظه حين حديثنا عن «الجزاز» واصطلاحه ، وهو أحد المصطلحات الغامضة التي لم تحدد دلالتها إلا في متأخر العصور .

وما حصل في النحو جرى في بقية علوم العربية ، وفي غيرها من العلوم ، ويرجع الجاحظ مسألة وضع «المصطلح» إلى غاية تعليمية «لأنهم لو لم يضعوا هذه العلامات لم يستطيعوا تعريف القرويين وأبناء البلدين علم العروض والنحو ، وكذلك أصبح الجسباب قد اجتلبوا أسماء جعلوها علامات للتفاهم»^(٢١٤) .

وهذا الخليل بن أحمد «-١٧٠هـ» قد وضع للعروض مصطلحاته ، فوضع «لأوزان القصيد وقصار الأرجاز القاباً لم تكن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك الألقاب ، وتلك الأوزان بتلك الأسماء ، كما ذكر الطويل ، والبسيط ، والمديد ، والوافر ، والكمال ، وأشباه ذلك ، كما ذكر الأوتاد والأسباب ، والحرم ، والزحاف»^(٢١٥) .

وجين وضع الخليل «مصطلح العروض» كان عليه أن ينقل بعض ألفاظ من دلالاتها الأصلية الوضعية إلى دلالات جديدة اصطلاحية ، «والشيء اللافت للنظر في مصطلح الخليل أنه مستمد

من بيت «الشعر» - فتح الشين - وقد كان عمله من هذه الناحية يمثل وعياً دقيقاً وتكاملاً في النظرة العامة»^(٢١٦).

وكان تشبيه الخليل لبيت «الشعر» ببيت «الشعر» وعياً منه لطبيعة استقلال البيت الشعري معنى ووزناً عما سبقه وعما يليه ، وكأنه «الخباء» الذي يماثل غيره لعين الناظر ، غير أنه يبقى مفهوماً بما فيه ، وقد وعى ابن خلدون طبيعة تفكير الخليل في هذا الشأن فعرف الشعر بقوله : «هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده الجاري على أساليب العرب المخصوصة به»^(٢١٧). وفسر قوله «مستقل كل جزء منها ...» بقوله : «وقولنا مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده بيان للحقيقة ، لأن الشعر لا تكون أبياته : إلا كذلك ، ولم يفصل به شيء»^(٢١٨).

ويصور الخليل طريقة استنباطه لمصطلحات علم العروض من بيت «الشعر» ، وطريقة النقل التي تمت من ألفاظ البيعة بمعانيها الأصلية إلى معان اصطلاحية في قوله : «رتبت البيت من الشعر ترتيب البيت من الشعر - يريد الخباء - قال : فسميت الإقواء ما جاء من المرفوع في الشعر والمخفوض على قافية واحدة ، وإنما سميته إقواء لتخالفه ، لأن العرب تقول : أقوى الفاتل إذا جاءت قوة من الجبل تخالف سائر القوى»^(٢١٩).

ولم تكن البلاغة في مسألة الاصطلاح بعيدة عن هذا كله ، وقد نشأت كغيرها من العلوم تصورات عامة تهيأت في أذهان الدراسين الذين اهتموا بالبحث في اللغة والنحو والنقد الذي كان ملاحظات نقدية غير منظمة.

ومن هنا رأينا بعض مصطلحات هذه الفروع تتسلل إلى حقل المصطلح البلاغي ويُحتفى بها كما لو كانت في أصلها مصطلحات بلاغية ، وانظر مثلاً إلى مصطلحات مثل «الفصاحة» و«البيان» و«المجاز» وغيرها مما ورد على ألسنة النحاة أو الأدباء أو في البحوث التي تدور حول نص القرآن الكريم^(٢٢٠).

وكان للظروف الاجتماعية والفكرية والسياسية أثر في نشأة علم طارئ هو «علم الكلام» ، وسمي هذا العلم بعلم الكلام ، لأن سبب وضعه والخوض فيه هو إثبات الكلام النفسي لله تعالى . وقيل : إنه مبني على الدليل العقلي ، وقلما يرجع فيه إلى نقل ، فالمعول فيه على الكلام والبلوغ به إلى الإقناع ، ويسمى بأصول الدين أيضاً ، وسماه أبو حنيفة النعمان بالفقه الأكبر ، ويسمى بعلم النظر والاستدلال ، ويسمى بعلم التوحيد والصفات^(٢٢١).

وحين نبحث عن أصل التسمية فإننا نجد أن البحث في أمور العقائد كان يسمى «كلاماً» ، والباحثون في هذا الموضوع يسمون متكلمين ، وحين دونت الكتب والرسائل في هذه المسائل أطلق على هذا العلم المدون ما كان لقباً لهذه الأبحاث^(٢٢٢).

وكان المتكلمون في حاجة إلى اصطلاحات لعلمهم وجداهم مع الخصوم ، فاتخذوا إلى ذلك سبلاً شتى يصورها الجاحظ «-٢٥٥هـ» صدد حديثه عن المتكلمين واصطلاحاتهم ، حيث يقول : «هم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني ، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء ، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم ، فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف ، وقد وة لكل تابع ، ولذلك قالوا : العرض والجوهر ، وأيس وليس ، وفرقوا بين البطلان والتلاشي ، وذكروا الهذية والهوية والماهية»^(٢٢٣). وعلل عملهم في إيجاد المصطلحات ، وسوَّغه بسبب عجز الأسماء عن اتساع المعاني .

وتتضح صورة عملهم في إيجاد المصطلح بتتبع واحد من مصطلحاتهم التي كثر دورانها على ألسنتهم ، وهو مصطلح «الجوهر». ويحمل هذا المصطلح في ثنياء فكرة نظرية كاملة ، وهي نظرية «الجزء الذي لا يتجزأ» أو «الجوهر الفرد» ، وتعد أهم نظرية كونها متكلمو الإسلام ، وامتازت بها مذاهبهم «غير أن نشوء هذه النظرية يكاد يكون حتى الآن غامضاً تمام الغموض ، فلقد قال بها المتكلمون من المعتزلة ، وقال بها مخالفوهم بنوع خاص قبل الأشعري»^(٢٢٤).

وندرس قبل البحث في دلالة المصطلح لديهم ، وما تعنيه نظرية «الجزء الذي لا يتجزأ» كلمة «الجوهر» نفسها لنعرف وسيلة انتقالها إليهم ، ثم اتخذهم إياها مصطلحاً دالاً.

كانت كلمة «الجوهر» مستعملة في الفترة الإسلامية الأولى ، فقد روى المبرد أن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت أو أبا دهبيل الجمحي قال^(٢٢٥):

وهي زهراء مثل لؤلؤة الغواص ميرت من جوهر مكنون

ويحتمل أصل الكلمة أحد وجهين ، أولهما كونها فارسية معربة ، والثاني : أنها عربية ، وقد ذكر الجواليقي أن «جواهر الشيء : أصله . فارسي معرب ، وكذلك الذي يخرج من البحر وما يجري مجراه في النفاضة مثل الباقوت والبرجد»^(٢٢٦).

أمّا المعري فقد رأى إمكان حملها على أنها من كلام العرب في قوله : «ولو حمل على أنه من كلام العرب لكان الاشتقاق دالاً عليه ، فإنهم يقولون : فلان جهير أي حسن الوجه والظاهر ، فيكون الجوهر من الجهارة التي يراد بها الحسن»^(٢٢٧).

فالواو في «جواهر» على رأي المعري «واو» الالحاق للدلالة على الكثرة ، مثلها في ذلك مثل كلمة (كوثر) التي زيدت فيها الواو للدلالة على الكثرة من الشيء^(٢٢٨) ، فتكون كلمة «الجواهر» دالة على الزيادة في حسن الشيء.

ولكلمة «جهر» في العربية معان متعددة أوقفنا عليها ابن فارس ، حيث جعلها أصلاً واحداً ، وهو إعلان الشيء وكشفه وعلوه ... «ومن هذا الباب : جهرت الشيء ، إذا كان في عينك عظيماً ، وجهرت الرجل كذلك ، فأما العين الجهراء فهي التي لا تبصر الشمس . ويقال : رأيت جُهر فلان أي هيئته ، ويقال : جهير بين الجهارة إذا كان ذا منظر ، ويقال جهرنا بني فلان : أي صبحناهم على غرة أي أتيناهم صباحاً ، ويقال للجماعة : الجهراء ، ويقال : أن الجهراء الرابية العريضة»^(٢٢٩).

فأنت ترى إلى معاني هذه الكلمة وقد عادت كلها إلى أصل الإعلان والكشف ، والمعاني التي ساقها ابن فارس تؤول بوجه أو بآخر إلى هذا المعنى الأصلي . وحين نتأمل كلمة «الجواهر» في بيت عبد الرحمن بن حسان أو أبي دهب نجد كلمة «الجواهر» قد دلت على شدة الجمال ، وحسن الهيئة ، وعظيم المرأى ، وهذا من خصائص «الجواهر» كاللؤلؤ وما يجري مجراه.

ويظهر أن الكلمة لم تقف من بعد عند هذه الدلالة ، بل تغيرت دلالتها إلى العموم ، فصارت تدل على «كل حجر يستخرج منه شيء ينتفع به»^(٢٣٠) ونتوقف عند معنى آخر للكلمة ، وهو قول ابن فارس «ويقال : رأيت جُهر فلان أي هيئته» ، وزاد الزمخشري على ما قاله ابن فارس توضيحاً فقال : «ورأيت جُهره ، فعرفت سره . قال القطامي :

شئتكَ إذ أبصرتُ جُهرَكَ سينا وما غيَّبَ الأقوامُ تابعةَ الجُهرِ

أي مغيباتهم ، ومخابرههم تابعة لهيئتهم»^(٢٣١) . وهو معنى متطور عن معنى حسي آخر «تقول العرب : جَهَرْتُ الركية إذا كان ماؤها قد غطي بالطين فنقي وذلك حتى يظهر الماء ويصفو»^(٢٣٢) .

ويظهر أن هذه المعاني كلها كانت أصل كلمة «الجوهر» بمعناها الذي اصطلح عليه المتكلمون . فقد ذكر صاحب القاموس أن جوهر الشيء «ما وضعت عليه جبلته»^(٢٣٣) وقال ابن سيده : «وله تحديد لا يليق بهذا الكتاب»^(٢٣٤) . وعلق الزبيدي على هذا الكلام بقوله : «قلت : ولعله يعني الجوهر المقابل للعرض الذي اصطلح عليه المتكلمون حتى جزم جماعة أنه حقيقة عرفية»^(٢٣٥) .

واشتهرت الكلمة على ألسنة المتكلمين على أنها تدل على معنى المتحيز بالذات ، ومعنى القيام بنفسه أن يصح وجوده من غير محل يقوم بنفسه لا ما يستغني وجوده عن غيره كما قاله الأشعري حتى قال : لا قائم بالنفس إلا الله ، فأنكر قيام الجواهر بنفسها»^(٢٣٦) .

واستعمل الفلاسفة العرب كلمة «الجوهر» ، وقد ثبت لديهم على معنى الذات والماهية والحقيقة ، واشتهر بينهم بمعنى الوجود القائم بنفسه ، وبمعنى الذات والحقيقة^(٢٣٧) ، وتقابل كلمة «الجوهر» العربية مصطلح (SUBSTANCE) عند الفلاسفة الغربيين ، ومسألة الجوهر مرتبطة في الفلسفة ارتباطاً وثيقاً بظاهرة الصيرورة والتغير قياساً إلى الوجود^(٢٣٨) ، وقد اختلف الفلاسفة الغربيون المحدثون في تصور مفهوم «الجوهر» وفق تباين نظراتهم الفلسفية^(٢٣٩) .

و لم يكن الفلاسفة بعديدين عن هذه الطرائق في صنع

المصطلحات التي تهمهم في علمهم ، ولذلك نقلوا معاني بعض الأدوات من معانيها التي اشتهرت بين النحاة ، وجعلوها خاصة بهم ، واشتقوا منها أسماء جديدة لتدل على بعض مفاهيمهم .

وقد فرق الفارابي بين أصناف الألفاظ التي يستعملها جمهور النحاة على معنى ، ويستعملها أصحاب العلوم على معان أخرى ذلك أن « صناعة النحو تنظر في أصناف الألفاظ بحسب دلالتها المشهورة عند الجمهور لا بحسب دلالتها عند أصحاب العلوم .. وقد يتفق في كثير منها أن تكون معاني الألفاظ المستعملة عند الجمهور هي بأعيانها المستعملة عند أصحاب العلوم » (٢٤٠).

ومن أنواع هذه الاصطلاحات ما سماه الفارابي « الحواشي » ، وقال : « هي أصناف كثيرة ، منها الحروف التي تقرر بالشئ فتدل على أن ذلك الشئ ثابت الوجود وموثوق بصحته ، مثل قولنا : « إنَّ مشددة النون » ، ومثال ذلك قولنا : إنَّ الله واحد وإنَّ العالم متناه » (٢٤١) .

وقد أعطى الفارابي الأداة مفهوماً فلسفياً حين جعل « إنَّ » دالة على أن ذلك الشئ ثابت الوجود ، على حين فهم النحاة العرب منها أنها حرف تأكيد تنصب الاسم وترفع الخبر ، وهو الفهم الذي كان وراء قوله : « إن هذه الأداة تدل على أن الشئ » « موثوق بصحته » ، وهو قول فلسفي أيضاً يسعى إلى التجريد ، فنقل الأداة من معناها النحوي إلى معنى فلسفي مجرد ليتسق مع طبيعة فهمه للتركيب اللغوي .

ولم يكتف بذلك بل أشار إلى أن الفلاسفة قد تشتق من هذه الأداة مصطلحاً آخر مداره على مافهموه منها بالتجريد « فلذلك ربما سمي وجود الشئ إنَّيته ، ويسمى ذات الشئ إنَّيته » ،

وكذلك جوهر الشيء يسمى إنشئته . فإننا كثيراً مانستعمل قولنا إنشئ الشيء بدل قولنا جوهر الشيء»^(٢٤٢) .

فكان نقل معنى الأداة إلى معنى فلسفي مجرد ، داعياً إلى توليد مصطلح فلسفي آخر منها مداره على فهم الفلاسفة لمعناه .

ومن المصطلحات التي دارت على ألسنة الفلاسفة «الفيض» ، وتؤول كلمة الفيض إلى أصول حسية ، فهي - كما قال ابن فارس - أصل واحد صحيح^(٢٤٣) ، وإن التدقيق في هذه الأصول يفصح عن تطورها عبر تاريخها ، ويمكن أن نلاحظ لدلالة الكلمة تاريخاً في ثلاث فترات ، الأولى : قبل الإسلام ، والثانية بعد الإسلام حيث اتخذت نهجين : أولهما في زمن نزول القرآن الكريم ، وثانيهما : في مرحلة تأسيس العلوم العقلية ، والثالثة : في العصر الحديث .

فقد دلت الكلمة في أصلها على جريان الشيء بسهولة^(٢٤٤) ، وقاس ابن فارس على ذلك «فاض الماء فيفيض» ، و«أفاض إياه إذا ملأه» ، و«أفاض دموعه»^(٢٤٥) ، والمبتدأ في هذه المعاني «فيض الماء» ، وذلك أن «الفيض» يمكن أن يكون الماء النهر الذي يفيض حتى يسيل على ضفة الوادي ، ويمكن أن يكون لدمع العين ، فتفيض : أي تسيل^(٢٤٦) . ولذلك سمي النهر فيضاً ، وقد خصص الأصمعي هذه التسمية بنهر البصرة^(٢٤٧) ، وإنما سمي كذلك لعظمه^(٢٤٨) .

ثم صارت الكلمة تطلق على الكثرة ، فيقال : فاض الماء والمطر والخير إذا كثر^(٢٤٩) ، وجعل الزمخشري «من المجاز» قولهم : رجل فياض وفيض بمعنى : جواد ، وكذلك فاض الخير فيهم : أي كثر ، وفاض صدره من الغيظ ، وفاضوا عليه : غلبوه^(٢٥٠) ، فتحولت دلالة المفردة من الحسي الخالص إلى الصفات البني

لاتلحظ، كقولهم : فاض صدره من الغيظ ، فأبانت بذلك عن
قدرة على التغير والتطور .

ونلاحظ في المعاجم معنى آخر للمفردة متصل بالمعنى الأول ،
وهو الكثرة والزيادة ، ذلك أن كثرة الماء في النهر تؤدي إلى فيضه ،
وكثرة الماء في العين تنتج عنها الدموع ، وزيادة الكرم في الرجل
توصل إلى الجود ، وهكذا ، ولذلك فإن الكلمة اتخذت معنى
«الدفع» و«الاندفاع» تبعاً لهذه المعاني ، ويقال : أفاض البعير
بجرّته (٢٤٩) : إذا دفع بها من صدره (٢٥٠) ، وأفاض بالقداح،
إذا ضرب بها ، كأنه أجراها من يده (٢٥١) .

وصارت الكلمة مستعملة بهذا المعنى في مواضع عدة ، فيقال:
استفاض الخبر ، وهذا حديث مستفيض ، واستفاض المكان : اتسع
وانتشر (٢٥٢) ، كما يقال : امرأة مفاضة : ضخمة البطن ،
مسترخية اللحم ، بخلاف المحدولة ، وتؤول هذه المعاني كلها إلى
الاندفاع والسيلان ، وكلها ترجع إلى الزيادة التي تؤدي إلى الفيض.

واستعمل القرآن الكريم كلمة «الفيض» بهذا المعنى في قوله
تعالى : ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ (٢٥٣) ، ومنه :
أفاض القوم من عَرَفه ، إذا دفعوا ، وذلك كجريان السيل (٢٥٤).

وتحولت الكلمة إلى الفلاسفة ، فصارت تطلق في اصطلاحهم
على فعل فاعل يفعل دائماً لالعوض ، ولالغرض ، وذلك الفاعل
لا يكون إلا دائم الوجود ، لأن دوام صدور الفعل عنه تابع لدوام
وجوده ، وهو المبدأ الفيّاض والواجب الوجود الذي يفيض عنه كل
شيء فيضاً ضرورياً معقولاً . والمقصود بالفيض أن جميع الموجودات

التي يتألف منها العالم تفيض عن مبدأ واحد أو جوهر واحد من دون أن يكون في فعل هذا المبدأ أو الجوهر تراخ أو انقطاع ، لذلك كان القول بفيض العالم عن الله مقابلاً للقول بخلقه من عدم (٢٥٥)

ويعرف الفيض في الفلسفة الحديثة على أنه يعني EMANATION ، ويختلف بذلك عن مذهب وحدة الوجود ، وإن كان مشابهاً له في بعض جوانبه . وخلاصة القول : إن مذهب الفيض EMANATISME هو القول : إن العالم يفيض عن الله كما يفيض النور عن الشمس ، أو الحرارة عن النار فيضاً متدرجاً .

وتؤول هذه المعاني إلى أصل الكلمة الحسي ، وهو الكثرة والاندفاع ، ولذلك فإن الفيض مرادف للصدور ، نقول : فاض الشيء عن الشيء : صدر عنه على مراتب متدرجة (٢٥٦) .

وصفوة القول : إن هذه التبدلات التي طرأت على ألفاظ اللغة تعني أن اللغة كائن حي يتغير بتغير مستعمله من حيث تفكيره ، وعصره ، وأطوار حضارته وتغيرها ، فتستجيب اللغة للتغير عندما تملك في ذاتها القدرة عليه ، وحين لا يكون لها هذا الشأن فإنها تندثر أو تتحجر .

والحقيقة أن اللغة العربية قد استطاعت أن تواكب مسيرة الإنسان العربي الحضارية ، وأن تضيفي على تفكيره مسحة من الدقة والاتساع لما تملكه من خصائص تجعلها لغة حيوية متطورة .

وإذا كانت مظاهر حيوية اللغة التي درسناها تتصل بطبيعة اللغة ذاتها، فإن هذه اللغة لها شأن آخر مع الناطقين بها ، أولئك الذين أدركوا مرونتها ، وحيويتها ، فاستطاعوا التعبير بها بوسائل مختلفة ، واصطنعوا لأنفسهم أسلوباً تعبيرياً خاصاً منشؤه اللغة نفسها ، ومرده إلى المتكلم أو كاتب النص اللغوي .

واستطاع متكلمو العربية عبر عصورهم أن يمتحوا من اللغة أفانين القول ، وأن يحولوا الدلالات اللفظية إلى مدلولات جديدة تستجيب لطبيعة المتكلم وعصره ، وتفكيره .

وإذا كنا قد درسنا حتى الآن اللغة ذاتها وطبيعتها فإن ماسيأتي من الدراسة هدفه إيضاح مقدرة متكلمي اللغة وكتابي نصوصها اللغوية على الاستفادة من خصائصها لأغراض الاتصال الاجتماعي أو تلبية الحاجات الجمالية . وكذلك سوف ندرس جهود علمائنا في تحليل النصوص اللغوية والكلام . وهذا لا يقل خطراً عن صياغة النص أو الكلام .

ولا يفوتنا أن نذكر أن هذه الدراسات لم تكن لتقوم لولا وجود النص اللغوي الذي استطاع استثمار ما في العربية من خصائص وحياة متجددة ونعني به النص القرآني الكريم .

ولذلك لا غرابة أن يكون القرآن الكريم مآل أية دراسة لغوية جادة تريد أن تصطنع منهجاً سليماً في النظر إلى اللغة العربية . فقامت دراستنا اللاحقة على النص القرآني وما أثاره من دراسات وأبحاث .



هوامش الفصل الثالث :

- (١) - مقدمة ابن خلدون ، ص ٤٢٩
- (٢) - نفسه ، ص ٤٢٨
- (٣) - فقه اللغة وخصائص العربية ، د محمد المبارك ، ص ٢٠٧.
- (٤) - oxford avanced P ٨٨١
- (٥) - الصاحبى ، ص ٥٧
- (٦) - سنن الترمذي « الجامع الصحيح » حققه وصححه عبد الرحمن محمد عثمان . دار الفكر بيروت ١٩٨٠ ، ج ٣ ص ٢١١ والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ٢ / ٢٣٨.
- (٧) - نفسه ١ / ٣٤٦ - ٣٤٧.
- (٨) - في أصول النحو ، ص ١٣٠ - ١٣١.
- (٩) - الزهر ١ / ٣٤٦ - ٣٤٧
- (١٠) - الخصائص ٢ / ١٣٣
- (١١) - الزهر ١ / ٣٤٧
- (١٢) - الخصائص ٢ / ١٣٧
- (١٣) - نفسه ٢ / ١٣٥
- (١٤) - في أصول النحو ، ص ١٣١
- (١٥) - الخصائص ١ / ١٤٦
- (١٦) - نفسه ١ / ١٤٧
- (١٧) - نفسه ١ / ١٤٥
- (١٨) - نفسه ١ / ١٥٠
- (١٩) - نفسه ٢ / ١٥٠
- (٢٠) - الخصائص ٢ / ١٥٠
- (٢١) - في أصول النحو ، ص ١٣٤ . ويلاحظ أن العربية لا تنفرد بهذا النوع من الاشتقاق فيقال بالانكليزية : (branch) لوجبة الطعام التي تتناول في الضحى ، فتقوم مقام الفطور والغداء معاً ، وهي منحوتة فيها من break fast = فطور + lunch = غداء . انظر فصول في فقه العربي ، ص ٣٠٢

- (٢٢) الاشتقاق والتعريب ١٣ - ١٤ ، وفي أصول النحو ١٣٤ - ١٣٥
وفصول في فقه العربية ص ٣٠٢ .
- (٢٣) عن ابن حبان في شرحه لتسهيل ابن مالك «ذكره السيوطي في الزهر
١ / ٤٨٥» .
- (٢٤) دراسات في فقه اللغة ، ص ٢٤٥ .
- (٢٥) المقاييس ١ / ٣٢٩
- (٢٦) المقاييس ١ / ٣٢٨ - ٣٢٩
- (٢٧) نفسه ١ / ٣٢٩
- (٢٨) نفسه .
- (٢٩) دراسات في فقه اللغة ص ٢٤٧
- (٣٠) نفسه ص ٢٤٨
- (٣١) تفسير أرجوزة أبي نواس ص ٥٨ .
- (٣٢) الكتاب ٤ / ٧١ .
- (٣٣) انظر مشكلات الوجبة في كتاب «الحيوان» للجاحظ ١ / ٧٥ - ٧٨ .
- (٣٤) الاشتقاق والتعريب لعبد القادر المغربي ، ص ٨ .
- (٣٥) الخصائص ٢ / ٣٧ .
- (٣٦) الانصاف ، المسألة «٢٨» ١ / ٢٣٥ .
- (٣٧) شرح الرضي للكافية ٢ / ١٩٢ ، والانصاف ١ / ٢٥٦ ونجد جدالات
كثيرة حول أسبقية الاسم أو الفعل في شرح الرضي ٢ / ١٩١ - ١٩٢
- والانصاف ، المسألة (٢٨) ١ / ٢٣٥ .
- (٣٨) الفاعل .
- (٣٩) الكتاب ١ / ٢٠ - ٢١ .
- (٤٠) الكتاب ١ / ٢٢ - ٢٣ .
- (٤١) الخصائص ٢ / ٣٠ .
- (٤٢) انظر مفهوم الاقتصاد في اللغة في «الألسنية - علم اللغة الحديث -
مبادئها واعلامها» د. ميشيل ذكريا ، ص ٥٨ ص ١٤٢ .
- (٤٣) فقه اللغة وخصائص العربية ، د. محمد المبارك ص ٧٠ .
- (٤٤) دراسات في فقه اللغة ، د. صبحي الصالح ، ص ١٨٠ .
- (٤٥) أسرار البلاغة ، ص ١٠٢ .

- (٤٦) مدخل إلى فلسفة الحضارة الانسانية ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .
- (٤٧) دراسات في فقه اللغة ، ص ١٨٠ - ١٨٢
- (٤٨) نفسه . ص ١٨٢
- (٤٩) الإفصاح في فقه اللغة ، ص ١١ .
- (٥٠) نفسه، ص ٢٧٧ .
- (٥١) الكتاب ١ / ١ .
- (٥٢) الخصائص ١ / ١٢٢ .
- (٥٣) الخصائص ١ / ١٢٢ .
- (٥٤) نفسه ١ / ١٢٣ .
- (٥٥) نفسه ١ / ٢٠٠ .
- (٥٦) مقاييس اللغة (بني) ١ / ٣٠٢ .
- (٥٧) نفسه .
- (٥٨) الخصائص ١ / ٣٧ .
- (٥٩) نفسه ١ / ٣٧ - ٣٨ .
- (٦٠) الخصائص ١ / ٣٩ .
- (٦١) أساس البلاغة «بني» ، ص ٣٩ .
- (٦٢) نفسه .
- (٦٣) المقاييس «بني» ١ / ٣٠٢ .
- (٦٤) أساس البلاغة ، ص ٣١ .
- (٦٥) المقاييس «بني» ١ / ٣٠٣ .
- (٦٦) أساس البلاغة ، ص ٣١ .
- (٦٧) المقاييس «بني» ١ / ٣٠٣ .
- (٦٨) الخصائص ١ / ٣٧ .
- (٦٩) نفسه ١ / ٣٧ .
- (٧٠) المقاييس «فرح» ٤ / ٤٩٩ - ٥٠٠ ، والآية هي الآية ٧٥ من سورة المؤمن .
- (٧١) أساس البلاغة ، ص ٣٣٧ .
- (٧٢) الانصاف - المسألة «٢٨» ١ / ٢٣٧ .
- (٧٣) - نفسه .

- (٧٤) الوساطة ، ص ١٢ .
- (٧٥) - نفسه ، ص ١٩ .
- (٧٦) - نفسه ، ص ١٩ - ٢٠ .
- (٧٧) - نفسه ، ص ٢٠ .
- (٧٨) - الوساطة ، ص ٢١ .
- (٧٩) --- نفسه .
- (٨٠) - نفسه .
- (٨١) - نفسه ، ص ٢٢ .
- (٨٢) - نفسه .
- (٨٣) - البيان والتبيين ١ / ٣٧٩ .
- (٨٤) - نفسه .
- (٨٥) - البيان والتبيين ١ / ٣٧٩ .
- (٨٦) - نفسه ١ / ٣٧٨ .
- (٨٧) - نفسه ١ / ٣٧٨ - ٣٧٩ .
- (٨٨) - الوساطة ، ص ٢٢ .
- (٨٩) - الحيوان ١ / ٣٢٧ - ٣٢٨ .
- (٩٠) - نفسه ١ / ٣٣٥ .
- (٩١) - نفسه . وانظر الحيوان ١ / ٣٣٨ ، وانظر موقف التابعين في الحيوان ١ / ٣٤١ .
- (٩٢) - نفسه .
- (٩٣) - الحيوان ١ / ٣٣٠ - ٣٣١ .
- (٩٤) - هي من أسماء جحرة اليربوع السبع . اللسان «دمم» .
- (٩٥) - الحيوان ١ / ٣٣٢ .
- (٩٦) - الحيوان ١ / ٣٣٢ ، وتحير التنبيه ، ص ٤٧ .
- (٩٧) - الزينة في الكلمات الاسلامية العربية للرازي ٢ / ١٣٣ ، واللسان «خلق» ١٠ / ٨٧ .
- (٩٨) - الزينة ٢ / ١٣٣ ، واللسان ١٠ / ٨٩ .
- (٩٩) - الزينة ٢ / ١٣٤ .
- (١٠٠) - القمر ٤٩ .

- (١٠١) - الزينة ٢/ ١٣٤ .
- (١٠٢) - تحرير التنبيه ، ص ٤٨ .
- (١٠٣) - النساء ٤٣ .
- (١٠٤) - الحيوان ١ / ٣٣٢ .
- (١٠٥) - النساء ٤٣ .
- (١٠٦) - الحيوان ١ / ٣٣٢ .
- (١٠٧) - الحيوان ١ / ٣٣٥ .
- (١٠٨) - البيان والتبيين ١ / ١٦ .
- (١٠٩) - دراسات في اللغة ، د. مسعود بوبو ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .
- (١١٠) - الانعام ٧٦ .
- (١١١) - معاني القرآن للفراء ١ / ٣٤١ ، وذكر المسألة في مواضع منها في ٢ / ١٦٤ - ١٩١ .
- (١١٢) - شرح شاليه بن الحاجب للرضي ١ / ٨٣ .
- (١١٣) - نفسه .
- (١١٤) - نفسه ١ / ٩٣ .
- (١١٥) - المقتضب للمبرد ١ / ٤٨٠ .
- (١١٦) - عني بالعرض التعليل ، ولا تكون كذلك إلا إذا لم تقدر اللام قبلها ، فهي تعليلية جارة ، ويجب حينئذ إضمار أن بعدها . المفني ١ / ١٩٩ .
- (١١٧) - المقتضب للمبرد ، ٨ / ٢ ، والمفني ١ / ٣١٤ .
- (١١٨) - ١٣ / ٢ .
- (١١٩) - الكليات للكفوي ق ٣٥٧ / ٤ ، وقارن بما ذكره استاذنا الدكتور مسعود بوبو في «دراسات في اللغة» ، ص ٢٠٤ .
- (١٢٠) - شرح المفصل لابن يعيش ٦ / ٧ .
- (١٢١) - نفسه .
- (١٢٢) - أوضح المسالك ١ / ٨٨ .
- (١٢٣) - شرح المفصل لابن يعيش ١ / ٢٧ .
- (١٢٤) - شرح المفصل لابن يعيش ١ / ٢٩ .
- (١٢٥) - تنقيح الفصول في اختصار الحصول للقراي ، ص ١٥ - ١٦ .
- (١٢٦) - في الأصل : يجب ، ويجب أقرب إلى السياق .

- (١٢٧) المعتمد لابن الطيب المصري ، ص ١٠ .
- (١٢٨) المعتمد ، ص ١٠ - ١١ .
- (١٢٩) نفسه - ص ١١ .
- (١٣٠) الكليات ٣٥٧/٤ .
- (١٣١) أسرار البلاغة ، ص ٣٤٤ .
- (١٣٢) أسرار البلاغة ، ص ٣٤٤ ، أثار أسماء الأعلام كثيراً من الدراسات والمناقشات قديماً وحديثاً في مختلف الدراسات الانثروبولوجية واللسانية والمنطقية ، فقد تناوها الروائيون وشراح التوراة فبينوا قصديتها عن طريق الاشتقاق بقصد البرهنة على تقارب المعنى بتقارب الصور ، وقد اهتم بعض الباحثين بوظيفتها وحقيقتها وجمالياتها وكيفية الاشتقاق منها وعلى نحو خاص في الخطاب الشعري ، لأن أسماء الأعلام تحمل تداعيات معقدة تربطها بقصص تاريخية ، أو أسطورية ، تحليل الخطاب الشعري. د. محمد مفتاح ، ص ٦٤ - ٦٥ .
- (١٣٣) الكليات ٣٥٦/٤ - ٣٥٧ .
- (١٣٤) نفسه ٢٩٣/٤ .
- (١٣٥) المقاييس ٤٦٣/٥ .
- (١٣٦) المقاييس ٢٦٥/٣ .
- (١٣٧) الكليات ٢٩٣/٤ .
- (١٣٨) نفسه ٢٩٣/٤ .
- (١٣٩) تنقيح الفصول في اختصار المصنوع ، ص ١٠ .
- (١٤٠) نفسه ، ص ١٠ .
- (١٤١) المعتمد ، ص ١٨ .
- (١٤٢) المعتمد ، ص ١١ - ١٢ ، والطراز ٥٧/١ - ٥٨ .
- (١٤٣) نفسه ، ص ١٢ .
- (١٤٤) الاتقان ٤١/٢ .
- (١٤٥) الطراز ٥٥/١ .
- (١٤٦) المستصفى للغزالي ٣٢٧/١ ، والطراز ٥٥/١ .
- (١٤٧) نفسه .
- (١٤٨) في الأصل : ممكن ، ولا يخفى ما فيه من خطأ .

- (١٤٩) الطراز ٥٥/١ .
- (١٥٠) ابراهيم ٤ .
- (١٥١) الاحكام ٥٣١/١ .
- (١٥٢) المعتمد ، ص ١٨ - ١٩ .
- (١٥٣) نفسه ، ص ١٩ .
- (١٥٤) الصاحبي ٧٨ .
- (١٥٥) الطراز ٥٥/١ .
- (١٥٦) البقرة ١٤٣ .
- (١٥٧) المستصفي ٣٢٨/١ .
- (١٥٨) نفسه ٣٣٠/١ - ٣٣١ .
- (١٥٩) الطراز ٥٦/١ .
- (١٦٠) الاحكام ٥٣١/١ - ٥٣٢ .
- (١٦١) الطراز ٥٢/١ .
- (١٦٢) المعتمد ٢١ .
- (١٦٣) نفسه ، ص ٢٢ .
- (١٦٤) المستصفي ٣٢٥/١ .
- (١٦٥) المستصفي ٣٢٥/١ .
- (١٦٦) الطراز ٥٣/١ .
- (١٦٧) مقاييس اللغة ١٣/٦ ، والبيت لساعدة بن جوية الهذلي ، في شرح اشعار الهذليين .
- (١٦٨) لغة اللغة للعلالي ، ص ١٨٩ .
- (١٦٩) القاموس المحيط «دب» ٢٦/١ .
- (١٧٠) نفسه .
- (١٧١) اللسان ١٥٨/٦ .
- (١٧٢) اللسان ٢٨١/٦ .
- (١٧٣) اللسان ٢٨٢/٦ .
- (١٧٤) اللسان ٣٧٠/١ .
- (١٧٥) اللسان ٣٧٠/١ .
- (١٧٦) نفسه .

- (١٧٧) نفسه.
- (١٧٨) الطراز ٥٣/١ والمستصفي ٣٢٥ / ١.
- (١٧٩) النور ٤٥.
- (١٨٠) البيت لعبد الله بن الزبيري ، وهو في الكامل ٨٣٦/٢ ، والخصائص ٤٣١/٢.
- (١٨١) مجاز القرآن ٦٨/٢ ، والحيوان للجاحظ ٢٧٣/٤.
- (١٨٢) الكشف ٧١/٣.
- (١٨٣) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٥٧.
- (١٨٤) الكامل ٨٣٦/٢.
- (١٨٥) المغني ٧٦٤/٢.
- (١٨٦) النور ٤٥.
- (١٨٧) المغني ٧٦٥/٤.
- (١٨٨) الخصائص ٤٣١/٢ ، وانظر معنى التضمنين في المغني لابن هشام ٧٦٢/٢.
- (١٨٩) المغني ٧٦٢/٢.
- (١٩٠) اللسان ٣٧٠/٦.
- (١٩١) اللسان (ديب) ٣٧٠/١.
- (١٩٢) المعتمد ، ص ٢٢.
- (١٩٣) المستصفي للغزالي ٣٢٦/١.
- (١٩٤) فقه اللغة ، وخصائص العربية ، د. محمد المبارك ، ص ٢١٦.
- (١٩٥) المعتمد ، ص ٢١ - ٢٢ ، والمزهر ٣٦٠/١.
- (١٩٦) المزهر ٣٦٨/١.
- (١٩٧) المقاييس «سلم» ٩١/٣ .
- (١٩٨) اللسان «سلم» ٢٩٢ / ١٢.
- (١٩٩) نفسه .
- (٢٠٠) المقاييس «سلم» ٩١/٣.
- (٢٠١) نفسه.
- (٢٠٢) المصطلح البلاغي القديم في ضوء الياضة الحديثة ، د. تقيام حسان ، ص ٢١.

- (٢٠٣) المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة ، د. تمام حسان ، ص ٢١ .
- (٢٠٤) نفسه .
- (٢٠٥) الفصل في تاريخ النحو العربي قبل سيبويه ، ص ١٥ ، وأصول المسألة في الايضاح للزجاجي ، ص ٨٩ ، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٠١/١ ، وطبقات النحويين واللغويين ، ص ٢١ .
- (٢٠٦) نفسه ، ص ١٥ - ١٦ .
- (٢٠٧) ايضاح الوقت والابتداء ، ص ٤١ - ٤٢ .
- (٢٠٨) الفصل في تاريخ النحو ، ص ١٠٤ .
- (٢٠٩) الكتاب ٤٥/١ .
- (٢١٠) نفسه .
- (٢١١) المقتضب ٨٦/٤ .
- (٢١٢) الأصول ٢٨٨/٢ .
- (٢١٣) الجمل للزجاجي ، ص ٤١ .
- (٢١٤) نفسه ، ص ٤٨ .
- (٢١٥) نفسه ، ص ٤٨ .
- (٢١٦) شرح الفصل لابن يعيش ٨٩/٧ .
- (٢١٧) المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة ص ٢١ .
- (٢١٨) البيان والتمهيد ١٤٠/١ .
- (٢١٩) نفسه ١٣٩/١ .
- (٢٢٠) تاريخ النقد العربي عند العرب ، د. احسان عباس ، ص ٤٧ .
- (٢٢١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٥٧٣ .
- (٢٢٢) نفسه ، ص ٥٧٣ .
- (٢٢٣) الموشح للمرزباني ، ص ١٥ - ١٦ .
- (٢٢٤) المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة ص ٢١ .
- (٢٢٥) الفلسفة الاسلامية وملحقاتها ، عمر رضا كحالة ، ص ١١١ .
- (٢٢٦) نفسه .
- (٢٢٧) البيان والتمهيد ١٣٩/١ .
- (٢٢٨) نفسه ، ص ١٤١/١ .

- (٢٢٩) الفلسفة الإسلامية وملحقاتها ، ص ١١٩. ويرى الاستاذ : عمر رضا كحالة أن أصول هذه النظرية ترجع في أصولها الأولى إلى الفلسفة اليونانية الطبيعية التي بحثت في هذا الموضوع ، ثم انتقلت إلى المتكلمين العرب لما تطلبت مباحث الكلام من جدال وانتصار للمذهب . انظر الفلسفة الإسلامية وملحقاتها ، ص ١١٩، وانظر أصل النظرية عند اليونانيين في تاريخ الفلسفة اليونانية ، يوسف كرم، ص ٣٨، وص ١٣٦.
- (٢٣٠) الكامل للمبرد ١٧٤/١، والمعرب للجواليقي ٩٨.
- (٢٣١) المعرب للجواليقي ، ص ٩٨. والكلمة الفارسية التي تدل على معنى « أصل أو وجه » هي «جهر» . انظر المعجم الذهبي ، د. محمد التوحي ، ص ٢٢٥.
- (٢٣٢) المعرب للجواليقي ، ص ٩٨. وانظر كتاب لباب العقول في الرد على الفلاسفة في علم الأصول للمكلائي ، ص ٢٧.
- (٢٣٣) شرح الشافية للرضي ٥٢/١ - ٥٣ ، واللسان «كثر» ١٣٣/٥.
- (٢٣٤) المقاييس «جهر» ٤٨٨/١.
- (٢٣٥) القاموس المحيط «جهر» ٤١٠/١.
- (٢٣٦) أساس البلاغة للزمخشري «جهر» ، ص ٥ .
- (٢٣٧) اللسان «جهر» ١٥٢/٤.
- (٢٣٨) القاموس المحيط «جهر» ٤١٠/١.
- (٢٣٩) اللسان «جهر» ١٥٢/٤.
- (٢٤٠) تاج العروس «جهر» ١١٥/٣ .
- (٢٤١) الكليات للكفوي ١٦١/٢، والتعريفات للجرجاني ، ص ٨٣.
- (٢٤٢) نفسه ١٦١ / ٢، وانظر نظرة ابن سينا إلى الجوهر في معجم المصطلحات العلمية العربية، د. فايز الداية ، ص ١٢٨.
- (٢٤٣) الموسوعة الفلسفية العربية مج ٣٤٥/١.
- (٢٤٤) انظر هذا الخلاف في المرجع السابق مج ٣٤٥/١ - ٣٤٧.
- (٢٤٥) - كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق ، لأبي نصر الفارابي ص ٤٣.
- (٢٤٦) - كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق ، لأبي نصر الفارابي ص ٤٥.
- (٢٤٧) - نفسه .
- (٢٤٨) - المقاييس ٤٦٥/٤.

- (٢٤٩) - نفسه .
- (٢٥٠) - نفسه .
- (٢٥١) - اللسان «ليض» ٢/٢١٠ .
- (٢٥٢) - المقاييس ٤/٤٦٦ .
- (٢٥٣) - اللسان ٤/٢١١ .
- (٢٥٤) - نفسه ٤/٢١٠ .
- (٢٥٥) - أساس البلاغة «ليض» ، ص ٣٥١ .
- (٢٥٦) - الجفرة : ما يخرج البعير للاجوار ، أي ما يخرج من بطنه ليضطه ثم يبلعه. اللسان ٤/١٣٠ .
- (٢٥٧) - المقاييس ٤/٤٦٥ .
- (٢٥٨) - نفسه .
- (٢٥٩) - أساس البلاغة ، ص ٣٥١ - ٣٥٢ .
- (٢٦٠) - سورة البقرة ، الآية ١٩٩ .
- (٢٦١) - المقاييس ٤/٤٦٥ .
- (٢٦٢) - المعجم الفلسفي ، د. جميل صليبا ٢/١٧٢ .
- (٢٦٣) - المعجم الفلسفي ، د. جميل صليبا ٢/١٧٢ .

الفصل الرابع

المجاز الأسلوبى

فهم الكلام والنص (١)

لا يتم التواصل اللغوي بين المتكلم والسامع دون أن تكون لدى الاثنين أداة لغوية واحدة ، ولعل ذلك ماحدا باين جنسي « - ٣٩٢ هـ » لأن يرى أن اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم (٢) .

وتفسر الأغراض هنا بالمعاني والدلالات التي يراد نقلها من متكلم إلى مستمع باستخدام الأصوات المنطوقة «أو المكتوبة» ، أي أننا هنا بصدد جانبين : أحدهما مادي ، مسموع أو مرئي ، والآخر : إدراكي معنوي . وكلا الجانبين يؤثر في الآخر ويتأثر به (٣) .

ولا يغيب عن البال في هذا الموضع أن لكل لغة خصائصها ، وحين نتحدث عن اللغة العربية فإن علينا أن ننتبه على أن المعاني التي يتم نقلها من المتكلم إلى السامع قصدها الإفهام ، وهذا لا يتم إلا بلغة عربية سليمة ، وذلك أن معضلة الإفهام في العربية لا تقبل إلا بشروط خاصة ، فليس كل «من أفهمنا من معاصر المولدين

والبليدين قصده ومعناه ، بالكلام الملحون ، والمعدول عن جهته ،
والمصروف عن حقه ^(٤) محكوماً عليه بالبلاغة ، أو مقبولاً ذلك منه ،
إلا إذا كان كلامه مبنياً على كلام العرب الفصحاء ^(٥) .

وإذا كان مدار الاتصال اللغوي على الفهم ، فإننا نقسم
دراسة الفهم إلى منطقتين متميزتين :

الأولى : يمكن أن نطلق عليها عملية الصياغة ، وهي تُعنى
بالطريقة التي يصوغ بها المستمعون التفسير للجمل المقدمة من
المتحدث في شكل كلمات ، ويبدو أنهم يبدوون بتحديد البناء
السطحي ، وينتهون بالتفسير الذي يقابل تمثيلاً ضمناً
(UNDERLYING REPRESENTATION) ، والمنطقة الثانية من
الدراسة تسمى «عملية التوظيف» (UTILIZATION PROCESS)
وتعني بكيفية توظيف المستمعين للتفسير في أغراض أخرى كتسجيل
معلومات جديدة ، وإجابة أسئلة ... ^(٦)

وتبعاً لذلك يستطيع المستمع «أو القارئ» أن يبيّن الأحكام
على ما يسمع أو يقرأ ، ويختلف الأمر وفق تصور الباحثين في الكلام
أو النصوص على اختلاف مداركهم وتباين ثقافتهم ، وماتسم به
الأبحاث من الاجتزاءات التي لها من العاقبة مألوف القارئ على
قوله : «لاتقربوا الصلاة» من قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا
لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ ^(٧) . فالأمور مرهونة بأوقاتها
موصولة بأسباب حياتها ، وهي مسرفة التشعب إذ هي نتيجة لما
قبلها موصولة لما بعدها ^(٨) .

وقد تنبّه عبد القاهر الجرجاني «- ٤٧١هـ» إلى ما يمكن أن
يقع فيه القابل أو متلفي الكلام والنص من انحراف عن تأدية معناه
حين يعيد صياغته بلغته ، ذلك أن منتج النص غير قابل له «لأنه

لا سبيل إلى أن تجيء إلى معنى بيت من الشعر ، أو فصل من النثر ، فتؤديه بعينه وعلى خاصته وصفته بعبارة أخرى حتى يكون المفهوم من هذه هو المفهوم من تلك ، لا يخالفه في صفة ولا وجه ولا أمر من الأمور ، ولا يغيرك قول الناس : «قد أتت بالمعنى بعينه ، وأخذ معنى كلامه على وجهه» ، فإنه تسامح منهم ، والمراد أنه أدى الغرض ، فأما أن يؤدي المعنى بعينه على الوجه الذي يكون عليه في كلام الأول ... ففي غاية الإحالة»^(٩) .

وقد فهمت دلالات ألفاظ المعري في بعض لزومياته على محمل يصح معه الطعن عليه - إن حملت الألفاظ على ظاهرها - مما اضطر أبا العلاء لإيضاح هذه الدلالات في كتابه «زجر النابح» ، وإن مقارنة بين قول أبي العلاء الشعري ، وقوله النثري تبين المفارقة بين الصيغة الكلامية الشعرية ومعادها النثري ، ذلك أن نثر الشعر ، أو إعادة صياغة القول الشعري لتبيان معانيه ذهبت مذاهب بعيدة ، بل إنها حملت معاني وظلالا من نفس المتكلم أبان عنها المعنى النثري ، فكان دلالات الألفاظ في طريقي الصياغة مختلفة ، وإن صدرتا عن إنسان واحد .

ومن امثلة ذلك ما أورده المعري في «زجر النابح» ، فقد - بقوله :

كن عابداً لله دون عبیده فالشرع يَغْبِذُ والقياسُ يُحرِّرُ^(١٠)

ثم أعقبه بقوله : «المعنى أن الناس إذا خالفوا فتركوا العبادة ، فيجب عليك أن تكون عبداً لله عابداً ، فالشرع يُعْبِدُ ، أي : يجعلك عبداً . و«القياس يحرر» يحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون كاللغز ، وهو أن يجعل التحرير من تخلص الشيء وتبيينه ، كما يقال : حررت الميزان وحررت المال ، ويكون هذا إثباتاً

للقياس ملغزاً عن التحرير الذي هو ضد الإعباد . والآخر : أن يكون في الكلام نهى^{١٠} عن القياس ، وقد روي عن جعفر بن محمد عليه السلام وغيره ، ومذهب جميع المجتهدين في النسك ، إنما هو الرضى والتسليم وترك ما يستكشف من الغوامض^(١١) .

فانجحت الألفاظ إلى احتمالات شتى ارتبطت بالثقافة التي حصلها مبين المعنى ، ويمكن أن ترجع الألفاظ في الصياغة اللغوية نفسها إلى اصول معنوية أخرى بتغير الناظر فيها وفق ثقافته وتجربته ومعاييره ، فوجب لذلك أن تعاد الصياغة اللغوية باستبدال المفردات على أن تكون المفردات الجديدة دالة على أصول المعاني ليتم الربط بينها وبين المعاني التي نخرج إليها المتكلم أو أرادها كما فعل المعري حين أرجع الألفاظ إلى معانيها الأصلية فقال : «الشرع يُعبد : أي يجعلك عبداً . وحين شرح معنى التحرير بإرجاعه إلى أصوله» .

وقد تكون الرسالة اللغوية «الكلام أو النص» على تباين في درجة وضوحها وإشكالاتها ، ذلك أن مرسلها قد يأتي بالألفاظ المفهومة في عصره وبيئته ، وقد يُغرب ويتعد عن الألفاظ المتداولة والصيغ المعروفة ، وقد فهم ابن فارس طبيعة هذه المسألة فهماً تاماً حين قسم الكلام إلى مراتب وفق وضوحه أو إشكالاته ، فرأى أن الواضح «يفهمه كل سامع عرف ظاهر كلام العرب»^(١٢) . ومن أمثلة ذلك قول القائل «شربت ماء ، ولقيت زيدا»^(١٣) . أما المشكل فيمكن رده إلى عدة أنواع^(١٤) :

غربة اللفظ مثل قول القائل : «مملخ في الباطل ملخاً»^(١٥) .
- المشكل لايماء قائله إلى خبر لم يفصح به^(١٦) كقول القائل : «لم أفرّ يوم عينين»^(١٧) .

- المشكل لأنه لا يحدّ في نفس الخطاب ، فكقوله جلّ ثناؤه :
﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾^(١٨) ، فهذا يحمل غير مفصّل حتى فسّره النبي
صلى الله عليه^(١٩) .

- المشكل لوجازة لفظه - قولهم : الغمرات ثمّ ينجليها^(٢٠) .
- المشكل لاشتراك اللفظ قول القائل : وضعوا اللجّ على
قفّي^(٢١) ، ولعل الاشتراك هنا من اختلاف المفسرين في كلمة اللجّ ،
وردها إلى لهجة قبيلة دون غيرها .

فالكلام له صفتان في تعبيره عن المعنى المقصود ، فهو أمّا
واضح وإما مشكلّ لأسباب مختلفة ، وسعيّ المفسر ، وهو متلقي
الكلام إلى معرفة المقصود دائبٌ ، وهذا ما فعله الباحثون حين صنفوا
في غريب القرآن الكتب كما أشار إلى ذلك ابن فارس^(٢٢) .

وشغلت فكرة غموض الرسالة اللغوية عبد القاهر الجرجاني
كما شغلت ابن فارس ، وجاء ذلك في معرض كلامه على التمثيل
الذي يُجْلو المعنى بعد أن يُحوج إلى طلبه بالفكرة^(٢٣) . ويرد قول
القائل : إنه يجب على هذا أن يكون التعقيد والتعمية وتعمّد
ما يكسب المعنى غموضاً مشرفاً له وزائداً في فضله ، ويرى أن
المقصود ليس تعمية المعنى ، ذلك أن على الإنسان أن يجد في الشعر
بعض العناء ليصل إلى المعنى ، دون أن يكون هذا المعنى على
درجة من الابهام والتعمية^(٢٤) .

أمّا سبب التعقيد المذموم فيحدث «لأجل أن اللفظ لم يرتّب
الترتيب الذي يمثله تحصل الدلالة على الغرض حتى احتاج السامع
أن يطلب المعنى بالحيلة ، ويسعى إليه من غير الطريق»^(٢٥) .

ولهذا السبب كان الامام عبد القاهر مسهباً في بيان أن حقيقة
النظم توحي معاني النحو وأحكامه وفروقه ووجوهه والعمل

بقوانينه وأصوله فيما بين معاني الكلم من تقديم وتأخير وتعريف وتنكير ووضع كل معنى في وضعه اللائق^(٢٦) .

فحمل على المتنبي في قوله :

ولذا اسمُ أعطية العيون جفونها

من أنها عمَل السيف عوامل^(٢٧) .

ورأى أنه إنما «ذمّ هذا الجنس لأنه أحوجك إلى فكر زائد على المقدار الذي يجب في مثله ، وكذلك بسوء الدلالة ، وأودع المعنى لك في قالب غير مستو ولا ملمس ، بل خشن مضرّس ، حتى إذا رمت إخراجك منك عسر عليك ، وإذا خرج خرج مشوّه الصورة ناقص الحسن^(٢٨) .

وإذا كان التعقيد في الكلام أو النص ناتجاً أحياناً عن التصرف الواسع في التركيب ، فإن مراعاة معاني النحو وأحكامه ستؤدي إلى كلام مفهوم . يبيّن أن الأمر يبدو أوسع من ذلك حين ننظر إلى الألفاظ وما اكتسبته اللفظة خلال حياتها ثم ما خلعت عليها من المستعمل لها وما يكتنفها من ظروف متفاوتة إلى غير ذلك ، وهذا يجعلنا نجد صعوبة بالغة في تطهيرها مما علق بها في مراحل تطوّر حياتها وهذه هي معاناة الأديب إذ هو في صراع شامل لتحرير الكلمات من المعاني المعتادة ، وذلك باستعمال كلمات ذات معانٍ معتادة فعلاً ، وهذه هي الجدّة المطلوبة دائماً^(٢٩) .

واستطاع علماء أصول الفقه أن ينظروا إلى النص القرآني والحديث النبوي الشريف نظرة علمية ، فأفسسوا لفهم النص وسيلة ، ولحبوا الطريق لمعرفة الخطاب اللغوي بمعايير مضبوطة .

ورأوا اللغة هي الأصل الذي يبنى عليه الاتصال بين الله تعالى

والأنبياء ، ومعرفة اللغة ضرورة لفهم فحوى الخطاب ، فإن كان الخطاب « نصاً لا يحتمل كفى معرفة اللغة » ^(٣٠) .

بيد أن الخطاب قد يتطرق إليه « الاحتمال » ، ولذلك فإن معرفة المراد منه حقيقة لا تكون إلاً بانضمام قرينة إلى اللفظ . وتعدد القرائن الدالة على فحوى الخطاب ، فقد تكون لفظاً مكشوفاً كقوله تعالى ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ ^(٣١) والحق هو العُشر ^(٣٢) .

وحين لا يكون المعنى مكشوفاً فإننا نعرف فحوى الخطاب بالإحالة على دليل العقل كقوله تعالى ﴿ والسماوات مطويات بيمينه ﴾ ^(٣٣) . قوله عليه السلام « قلب المؤمن بي إصبعين من أصابع الرحمن » ^(٣٤) .

ذلك أن الله تعالى لا يمكن أن يوصف بما يوصف به المخلوقون ، ولذلك لا تحمل الصفات في الآية والحديث على ظاهرها ، ويرى الزمخشري أن « الغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته وبمجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله لا غير ، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمن إلى جهة حقيقية أو جهة مجاز » ^(٣٥) . وحمل قوله تعالى : ﴿ والسماوات مطويات بيمينه ﴾ على التخيل ^(٣٦) . وفسر صاحب الانتصاف التخيل في هذا الموضع بالتمثيل ^(٣٧) .

ولفهم فحوى الخطاب قرائن أخرى تدل على ما يقصد من الكلام ، وهي قرائن خارجة عن النص نفسه ، وإنما يؤتى بها لتعين على فهمه ، وهي قرائن أحوال « من إشارات ورموز وحركات وسوابق ولواحق لا تدخل تحت الحصر والتخمين يختص بدركها المشاهد لها ، فينقلها المشاهد من الصحابة إلى التابعين بألفاظ

صريحة أو مع قرائن من ذلك الجنس أو جنس آخر حتى توجب علماً ضرورياً أو توجب ظناً ، وكل ما ليس له عبارة موضوعة في اللغة فتتبع فيه القرائن »^(٣٨) ، ولذلك يرى ابن يعيش أنه إذا ظهر المعنى بقرينة حالية أو غيرها لم يحتج إلى اللفظ المطابق ، فإن أتى به جاز وكان كالتأكيد^(٣٩) .

وأفاد علماء البلاغة من القرائن الحالية إفادة ، وجعلت من حسنات المتكلم الذي يعرف مواضع الكلم ، كما يعرف طرائق الإبانة عن معانيها ، ومن هؤلاء البلاغيين ابن المقفع ، وهو الذي جمع بين تصوره للبلاغة وإحسان المتكلم الدلالة على المعنى بواسطة القرائن الحالية ، فقد قال في صدد حديثه عن البلاغة : «البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة . فمنها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون في جواباً ، ومنها ما يكون ابتداءً ، ومنها ما يكون سجعا وخطبا ، ومنها ما يكون رسائل ، فعامه ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها ، والإشارة إلى المعنى »^(٤٠) .

ونتين هنا موقع كلام الجاحظ عن أصناف الدلالات على المعاني ، ذلك أنه جمع بين أصناف الدلالات التي تحدث عنها علماء أصول الفقه ، وأضاف إليها دلالات أخرى ، فلم يكتف بالدلالة اللفظية على المعنى بل أضاف إليها : الإشارة والعقد ، والخط ، والحال التي تسمى نصبة ، وشرح النصبة بأنها «الحالة الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف»^(٤١) .

ثم بين معنى دلالة الإشارة فقال : « فأما الإشارة فباليد ، وبالرأس ، وبالعين والحاجب والمنكب ، إذا تباعد الشخصان ،

وبالثوب وبالسيف . وقد يتهدد رافع السيف والسوط ، فيكون ذلك زاجراً ومانعاً رادعاً ، ويكون وعيداً وتحذيراً »^(٤٢) .

فإن أردنا فهم الكلام والنص احتجنا إلى مراعاة القرائن الخارجة عنهما ، فإنها تعين على فهم المقصود منهما ، وقد تقوم مقام الألفاظ ، غير أن الدلالات الخارجة عليه تفيدنا في تبين معنى الكلام المنطوق لامعنى النص المكتوب ، إلا إذا وجدت فيه إشارات تصور الحالة التي قيل فيها النص مما يوقفنا على المقام ، ويصور الحالة النفسية التي كان عليها صانعه .

وقد وضع علماء أصول الفقه طريقاً لفهم دلالة النص وفق معايير دقيقة ، واستندوا في ذلك إلى دراساتهم في النص القرآني الكريم ، فكانت أبحاثهم أقرب إلى المنهج العلمي الذي يمكن الأخذ به وتطبيقه على النصوص الشرعية أو الثرية ، به تتوضح دلالتها ، وتظهر مرامي الخطاب فيها .

أمّا منهجهم فيقوم على النظر في النص نفسه لمعرفة دلالاته الظاهرة أو تلك التي لا يوحى بها ظاهره ، فيحمل دراسته على التعمق فيما وراء الألفاظ لاكتشاف المعاني الخبيئة فيه وراء الصورة اللفظية الظاهرة^(٤٣) .

وتحصّلت لهم أنواع من دلالة النصّ ، أحدها : عبارة النص : وعَنُوا بها صيغته المكونة من مفرداته وجمله ، ويفهم منها : المعنى الذي يتبادر فهمه من صيغته ، ويقصد من سياقه ، فهو المعنى الحرفي للنص^(٤٤) . والثاني : إشارة النص : وتعني لديهم المعنى الذي لا يتبادر فهمه من ألفاظه ، ولا يقصد من سياقه ، ولكنه معنى التزامي يفهم بالإشارة لبالعبارة^(٤٥) . والثالث : دلالة النص : وسموه أيضاً «مفهوم النص» ، وهو المعنى الذي يفهم من روح

النص ومعقوله ^(٤٦). والرابع اقتضاء النص : ويراد بما يفهم من اقتضاء النص : المعنى الذي لا يستقيم الكلام إلا بتقديره ، فصيغة النص ليس فيها لفظ يدلّ عليه ، ولكن صحتها واستقامة معناها تقتضيه ، أو صدقها ومطابقتها الواقع تقتضيه ^(٤٧) ، كقوله تعالى : ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾ ^(٤٨) ، أي أهلها ^(٤٩) ، لأن القرية لا يصحّ سؤالها عقلاً ، فقدّر في الجملة محذوف ^(٥٠) ، وجعلت الدلالة مجازية ^(٥١) .

واختلفوا في بعض الدلالات ، فقال بعضهم إنّ «دلالة المفهوم» مجازية ، لأنها فهمت من السياق والقرائن ، وهي نوع من إطلاق الأخص على الأعم ، كقوله تعالى : ﴿فَلَا تَقْلُ لَهَا﴾ ^(٥٢) . حيث فهم منها تحريم الضرب ، وقال بعضهم هي حقيقة عرفية لأن اللفظ نقل من الدلالة على الأخص إلى الأعم عرفاً ^(٥٣) .

وتوضح هذه التقسيمات مدى العناية التي أولاها الأصوليون لفهم النص ، وهم وإن وجهوا منهجهم في فهم النص لمعرفة دلالاته من أجل غاية استنباط الأحكام إلا أنّ دراساتهم يمكن أن يصبح لها شأن فيما لو طبقت لغايات أخرى .

ونجد لدى عبد القاهر الجرجاني صورة من صور الإفادة من هذه المعايير التي أشرنا إليها ^(٥٤) .

ويتضح الأمر حين ننظر في تقسيمه الكلام حيث جعله على ضربين : «ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن «زيد» مثلاً بالخروج على الحقيقة ، فقلت : «خرج زيد» وبالاتفاق عن عمرو ، فقلت : «عمرو منطلق» وعلى هذا القياس : وضرب آخر : أنت لاتصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي

يقتضيه موضوعه في اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض»^(٥٥) .

فذكره هذين الضربين يذكّرنا بتقسيمات الدلالات عند الأصوليين ، ويقابل الضرب الأول لدى عبد القاهر ما ذكره الأصوليون عن دلالة عبارة النص — أمّا الضرب الثاني عنده فإنه دلالة الإشارة لديهم .

وقد جعل الجرجاني مدار الأمر فيما سماه «معنى المعنى» على الكناية والاستعارة والتمثيل^(٥٦) . وقوام نظريته أن المتكلم حين يطلق اللفظ لا يفيد غرضه الذي يعنيه من مجرد اللفظ «ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجهه ظاهره ، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانياً»^(٥٧) . وهذا المعنى الثاني هو الغرض الذي رمى إليه المتكلم .

ولا يختلف الأمر في الاستدلال على المعنى الثاني بواسطة القرائن الحالية والمقامية بين عبد القاهر والأصوليين . ويفيدنا في معرفة ذلك النظر فيما أورده الجرجاني عمّا سماه «الكناية» و «التشبيه» كقولنا : «نؤوم الضحى» في المرأة المترفة المخدومة ، ومن التشبيه قولنا : «رأيت أسداً» . فذكر عبد القاهر أن المقام دلّ على أن المتكلم لم يرد السَّبَّحَ فنعلم أنه أراد التشبيه ، إلا أنه بالغ فجعل الذي رآه بحيث لا يتميز عن الليث في شجاعته^(٥٨) ، فاستعمل القرائن الخارجة عن النص لفهمه ، وصنع بذلك ماصنعه الأصوليون حين اعتمدوا هذه القرائن لفهم النصوص .

وإن مقارنة سريعة بين ما أتى به الأصوليون في أبحاث الدلالة وما ذكره عبد القاهر تبين عمق ما أفاده الجرجاني من هذه الدراسات، بيد أن إحساسه النقدي الجمالي جعله يحمل ما أورده

علماء الفقه وأصوله محملاً آخر ، فنقل طريقتهم في الاستدلال
ليجعلها طريقه بلاغية لفهم دلالات النص القرآني والشعري على
وجه جمالي خالص .

وقد حقق بمنهجه الذي ارتضاه أمرين في آن واحد .
أحدهما: التنقيب عن أصول المعنى لتتأهل له دراسة طرائق التعبير عنه.
وثانيهما : قيمة الصياغة الفنية الجمالية . ويحمل طريقته بقوله :
«فإذا رأيتهم يجعلون ألفاظ زينة للمعاني وحلية عليها
ويجعلون المعنى ينبل به ويشرف ، فاعلم أنهم يصفون كلاماً قد
أعطاك المتكلم أغراضه فيه من طريق معنى المعنى ، فكفى وعرض ،
ومثل واستعار ... وأن المعرض وما في معناه ليس هو اللفظ المنطوق
به، ولكن معنى اللفظ الذي دللت به على المعنى الثاني» (٥٩) .

فتحوّل إدراكه لوجود معنى وراء المعنى الظاهري إلى بحث
دائب عن الصفات الجمالية التي نبجدها في النص الذي لايهمنا منه
معناه الظاهري ، وإنما يدلنا المعنى على معنى المعنى .

فكان عمل الأصوليين أشبه بالباحث عن الطريق الذي يوصل
إلى الغاية .، وكان عمل عبد القاهر أقرب إلى مَنْ يسير على الطريق
ليشرح مافيه من قيم جمالية .

• طرائق فهم الكلام والنص :

إن دراسة طرائق فهم النص والكلام عمل في غاية الصعوبة ،
ذلك أنه يقوم على معرفة معاني ألفاظ العبارات ، ومقاصد
المتكلمين ، ومدار الأمر هنا ليس على فهم المقصود وحده ، وإنما
يقوم على وعي شامل باللغة ومقاصدها ، ومعانيها الوضعية ،

وما تخرج إليه من المعاني المتجددة التي يخرج إليها النص أو الكلام .
ويرجع أمر معرفة معاني ألفاظ العبارات لدى ابن فارس إلى
ثلاثة أمور ، هي «المعنى ، والتفسير ، والتأويل ، ويرى أنها وإن
اختلفت فإن المقاصد بها متقاربة» (٦٠)

• فأما المعنى : فهو القصد والمراد (٦١) ، واشتقوه أحياناً من
الإظهار (٦٢) ، أو ظهور الشيء وبروزه (٦٣) ، ويدل قياس اللغة
على أن المعنى : هو القصد الذي يبرز ويظهر في الشيء إذا بحث
عنه ، يقال : هذا معنى الكلام ومعنى الشعر ، أي الذي يبرز
مكون ما تضمنه اللفظ (٦٤) . فيراد بالمعنى على ذلك الشيء
الذي يفيد اللفظ (٦٥) .

• وأما التفسير : فإنه التفصيل (٦٦) ، وتدل الكلمة على بيان شيء
وايضاحه (٦٧) ، فهو راجع إلى معنى الكشف والإظهار (٦٨) .
وقد يرجع معناه إلى اطلاق المحتبس (٦٩) ، ولذلك كان تفسير
الآية يعني : أن المفسر يكشف عن الآية وقصصها ومعناها (٧٠) ،
ويعني كشف المعلق من المراد بلفظه ، وإطلاقاً للمحتبس عن
الفهم به (٧١) .

• وأما التأويل : فآخر الأمر وعاقبته (٧٢) ، وآل يسؤول أي
رجع (٧٣) ، وآل الأمر إلى كذا صار ، والمراد به : نقل ظاهر
اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ماترك ظاهر
اللفظ (٧٤) .

ويرى عبد القاهر الجرجاني أن حقيقة قولنا «تأولت الشيء»
أنك تطلب ما يؤول إليه من الحقيقة أو الوضع الذي يؤول إليه من
العقل (٧٥) ، والمآل : المرجع (٧٦) ، ويتفق الجرجاني في ذلك مع
علماء أصول الفقه الذين ذهبوا إلى أن التفسير بيان وضع اللفظ أما

حقيقة أو مجازاً ، أمّا التأويل فهو تفسير باطن اللفظ ، وهو مأخوذ من الأول ، وهو الرجوع لعاقبة الأمر^(٧٧).

وقد اختلف أصحاب علم التفسير في دلالة كلمتي التفسير والتأويل ، فذكر الزركشي في البرهان أن التفسير والتأويل واحد^(٧٨) بحسب الاستعمال ، وإن كان يرى أنهما متغايران^(٧٩).

وأوضح ابن تيمية معنى كلمة التأويل وما يراد من إطلاقها في منهج تاريخي تتبع فيه استعمالات المفردة ، وما آلت إليه دلالتها فذكر أن لفظ التأويل في القرآن يراد به مايؤول الأمر إليه وإن كان موافقاً للدلول اللفظي ومفهومي في الظاهر ، ويراد به تفسير الكلام وبيان معناه وإن كان موافقاً له . وذكر أن هذا هو اصطلاح المفسرين المتقدمين كمجاهد وغيره ، وقرر أنه يراد به صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح للدليل يقتزن بذلك . وتخصيص لفظ التأويل بهذا المعنى يوجد في كلام بعض المتأخرين أمّا الصحابة والتابعون لهم وسائر أئمة المسلمين كالأئمة الأربعة فلا يخصّون لفظ التأويل بهذا المعنى^(٨٠).

فقسم بهذا القول مفهوم التأويل على مرحلتين زمنيتين ، وكان مرد الحكم فيهما على معنى التأويل والتفسير إلى القرآن الكريم ، وما تعنيه كلمة التأويل فيه .

• فأما المرحلة الأولى : فهي مرحلة المفسرين المتقدمين كمجاهد وغيره ، وقد أخذوا معنى التأويل واصطلحوا عليه بما جاء به في القرآن حيث يراد به مايؤول الأمر إليه وإن كان موافقاً للدلول اللفظي ومفهومي في الظاهر . ويراد به تفسير الكلام وبيان معناه وإن كان موافقاً له .

• أمّا المرحلة الثانية : فهي مرحلة المتأخرين ، وفيها تميز

التفسير من التأويل ، فصار معنى التأويل خاصاً - ويراد به صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل .

وقد ظل التفسير والتأويل موضع خلاف بين علماء أصول الفقه والمفسرين وأصحاب اللغة ، نجد ذلك فيما ذكره صاحب اللسان من أن أبا العباس أحمد بن يحيى ثعلب جعل التأويل والمعنى والتفسير واحداً^(٨١) .

ووجد المتأخرون كما ذكر ابن تيمية أن هذه الاصطلاحات متغايرة الدلالة ، ويمكن تلخيص آرائهم في أن بعضهم ذهب إلى أن التفسير عام والتأويل خاص ، وجعل التفسير للألفاظ ، أما التأويل ففي غيرها ، ذلك أن التفسير يهتم بمعاني مفردات الألفاظ .

وذهب القرطبي مذهباً قريباً من مذهب ابن تيمية ، فرأى أن التأويل يأتي أحياناً بمعنى التفسير ، ويأتي أحياناً أخرى بمعنى ما يؤول إليه الأمر ، غير أن التفسير متصل بدلالة المفردات ، أما التأويل فهو بيان المعنى^(٨٢) .

ولهذا الأمر فرّق بعض العلماء بين التفسير والتأويل من حيث طريق كل منهما ، فرأوا أن التفسير طريقه السماع والاتباع ، لأنه يبحث في مدلولات الألفاظ ، أما التأويل فهو استنباط ، ولذلك يتعلق بالدراية^(٨٣) .

وفسّروا هذا الاستنباط بأنه صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وما بعدها تحتمله الآية ، على أن يكون غير مخالف للكتاب والسنة^(٨٤) .

وتفسير الألفاظ إنما يكون ببيان وضعها من حيث حقيقتها وبمازها ، وتأويلها إنما هو الإخبار عن حقيقة المراد منها^(٨٥) .

والحقيقة أن كل كلام أو نص يحمل معنى وراء ألفاظه ، وهذا المعنى هو المقصود والمراد من ذكره ، وحين نريد فهم الكلام أو النص ، فإننا نحتاج إلى منهج يوصلنا إلى ما نريده ، فنستعمل أحياناً طريقة التفسير لفهم معاني الألفاظ ، وحين ندرك أن هذا النص يحمل دلالات وراء ألفاظه لم تبين عنها الألفاظ بظاهرها نعمل التأويل فيه لكشف المعاني المقصودة ومعرفة المراد . ولذلك فإن مدار الأمر في المنهجين على التنقيب عن المعاني وكشفها ومعرفة مقصود الكلام أو النص .

ولما كان القرآن الكريم مبتدأ هذه المناهج في فهم النصوص ، فإن إدراك حقيقة التفسير والتأويل لا تتأتى إلا بالنظر في تطبيقات هذين المنهجين على النص القرآني الكريم .

ومن ثم يمكن لنا النظر من بعد في أثر التفسير والتأويل على دارسي اللغة وعلومها ، فنتبين طرائق تطبيق هذين المنهجين لديهم ، فقد وضعنا بدءاً لمعرفة مقاصد النص القرآني الكريم ، ومن بعد صاراً منهجين شائعين في علوم لغوية عديدة .

ونتبين منهج التفسير في كتب تفسير القرآن ، ومنها معاني القرآن للقرآني ، وفيه تظهر صورة هذا المنهج جلية ، فنجد فيه بحثاً عن معاني المفردات ، وأوجه القراءات ، وطريقة الرسم ، واحتمالات قراءة النص تبعاً لذلك . من ذلك ما فسّر به الآية الكريمة : ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾^(٨٦) .

فبدأ بتفسير المفردات ، فذكر أن العرب تقول : البراء والخلاء ، والواحد والاثنان ، والجميع من المؤنث والمذكر يقال فيه براء لأنه مصدر ، ولو قال بريء ل قيل الإثنين بريئان ، وفي القوم بريئون وبراء ، وتحدث علي القراءات الأخرى في الآية فذكر قراءة

ابن مسعود وفيها «بريء» بدل «براء» ، وصوب هذه القراءة ، وجعل ذلك من احتمالات كتابة النص ، ذلك أن العرب تكتب يستهزئ بالألف الممدودة «يستهازأ» ، يجعلون الهمزة مكتوبة بالألف في كل حالاتها ، يكتبون «شيء» «شيأ» وهو كثير في المصاحف (٨٧) .

فجمع في تفسيره للآية بين صور التفسير المتعددة كبيان مدلول المفردة ، وبنائها ، وقراءاتها ، وكتباتها.

ثـن انتقل منهج التفسير من القرآن الكريم إلى النصوص الأخرى كالحديث النبوي الشريف والشعر ، وغيرهما ، ففسرت الأحاديث النبوية تفسيراً لغوياً خاصاً - أنبأ عن منهج تفسيري واضح نجد ملامحه الأولى لدى النبي الكريم صلى الله عليه وسلم .

فقد ذكر القالي في أماليه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي بِمَجْلَسِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَحَاسَنُكُمْ أَخْلَاقًا ، وَأَبْغَضُكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي بِمَجْلَسِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الثَّرَثَارُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفِيهِقُونَ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ : قَدْ عَرَفْنَا الثَّرَثَارِينَ وَالثَّادِقِينَ ، فَمَنْ الْمُتَفِيهِقُونَ ؟ قَالَ : الْمُتَكَبِّرُونَ » (٨٨) .

فبيّن الرسول الكريم لأصحابه دلالة المفردة ، والمقصود منها ، مفسراً إيها ، وتابع اللغويون هذا المنهج ، فعادوا إلى الحديث يبينون أصول مفرداته ، ودلالاتها ، وروى القالي ما ذكره اللغويون حيث نقل قولهم : الثرثارون الذين يكثرون القول ، ولا يكون إلا قولاً باطلاً ، ثم تحدثوا عن وجود هذه المفردة في سياقات لغوية أخرى بدلالات تقرب من هذه الدلالة ، فذكروا أنه يقال : نهر ثرثار إذا كان مأؤه مصوّتاً ، ومطر ثرثار ، وسحاب ثرثار (٨٩) .

واتبع منهج التفسير على هذه الصورة في الأخبار والأشعار

والخطب ، ونجد في كتاب الأمالي للقيالي ، وغيره كثيراً من التفسيرات اللغوية لنصوص عديدة مما يبين اعتماد اللغويين على هذا المنهج في فهم النصوص^(٩٠) .

ويبدو منهج التأويل متشعب الأطراف ، واسع الأرجاء ، فيه من الصعوبة بقدر مافيه من الاتساع ، ذلك أنه يتعدى الدراسة اللغوية للنص ، وهي عمدة منهج التفسير إلى دراسته باتجاهين أحدهما : لغوي ، والآخر : عقلي يوجه اللغة والمراد من النص وجهات تتباين باختلاف المؤول وأفكاره التي ينظر بها إلى النص .

ويتسع هذا المنهج في فهم النصوص ليشمل طريقة أصحاب العقائد في تفسير القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وليضم أولئك النقاد والبلاغيين الذين أرادوا معرفة أسرار البلاغة ودلائل إعجاز النص القرآني ، وجماليات الشعر العربي .

وكان مدار التأويل في مبتدأ الأمر على النص القرآني الكريم، وقد نشأ هذا الاتجاه في النظر إلى القرآن في العصر الأموي على يد الجهم بن صفوان وخلاصة مذهبه : القول بنفي التشبيه وتأويل الآيات التي وردت وفيها ما يشعر بالتشبيه ، كيد الله ووجهه سبحانه وتعالى . ومن أقواله أيضاً : نفي صفات الله كالعلم والقدرة ، وقوله : إن صفاته عين ذاته ، أي إنه ليس قادراً بقدرة غير ذاته ، ولا مريداً بإرادة غير ذاته . وأرجع الجهم الصفات كلها إلى ذاته ، ورأى أن ذلك أدل على التنزيه ، واقتضاه ذلك القول بأن الله لا يرى حقيقة في الآخرة ، ولا يتكلم بحقيقة وإنما كل هذه مجازات^(٩١) ...

وهذه التعاليم انتقلت إلى المعتزلة وتطورت ودعوا إليها ، فقد جاء المعتزلة بعد ذلك وقالوا بخلاصة ما قال به الجهمية مضيفين إلى

ذلك ما أفادوه من الفلسفة التي انتشرت في عصرهم في العراق^(٩٢).

ولا يعني ذلك أن هاتين الفرقتين كانتا الوحيدتين اللتين اتجهتا إلى التأويل ، ولكن فرقاً دينية أخرى كالشيعية وأهل السنة أخذوا أيضاً بالتأويل^(٩٣) ، وإن اختلفت طرائق هذا التأويل لديهم .

فقد ضيق أهل السنة التأويل ، واختلفوا في جوازه ، فمنعه قوم سداً للباب وتمسكاً بظاهر الحديث ، وجوزوه آخرون لمن كان عالماً بعلوم عدتها خمسة عشر علماً ، أحدها اللغة ، والثاني النحو ، والثالث : التصريف ، والرابع : الاشتقاق ، والخامس : المعاني ، والسادس : البيان ، والسابع : البديع ، والثامن : علم المفردات ، والتاسع : علم أصول الدين ، والعاشر : أصول الفقه ، والحادي عشر : أسباب النزول والقصص ، والثاني عشر : الناسخ والمنسوخ ، والثالث عشر : علم الفقه ، والرابع عشر : الأحاديث المبينة لتفسير الجمل والمبهم ، والخامس عشر : علم الموهبة .^(٩٤)

وتوحي هذه القيود بطبيعة التأويل نفسه ، فالناظر فيها يدرك أنه على المؤول أن ينظر إلى النص من وجه لغوي خالص ، ومن وجه آخر خارج عن النص نفسه ، غير أن قاعدته الرئيسة هي اللغة نفسها .

ومما يتوقف عنده الإنسان إدخالهم «الموهبة» ضمن شرائط التأويل ، ذلك أن الذي يؤول النص يحتاجها ، وقد أشار السيوطي إلى سبب ذلك ، وهو يعلم أن قارئه سيعجب من الأمر حيث يقول : «ولعلك تستشكل علم الموهبة وتقول : هذا هو شيء ليس في قدرة الإنسان تحصيله وليس كما ظنت من الإشكال - وقد خطر لي تشبيهه بقولهم في حدة المجتهد : هو فقيه النفس - أي : شديد الفهم لمقاصد الكلام بحيث يقدر على الاستنباط »^(٩٥) .

وندرک التأویل فی القرآن الکریم حین نرى طرائقهم فیہ ،
وقد اعتمدوا فی ذلک - کما قلنا - علی اللغة معیاراً لتأویل
الکلام، فهم أمام نصّ لغوی ، وإيضاح معناه مداره علی اللغة قبل
أی أمر آخر .

من ذلک ما أوّل به ابن قتیبہ قوله تعالى: ﴿قل : لا یعلم من فی
السموات والأرض والغیب إلا الله وما یشعرون أیان یبعثون بل
أدّارک علمهم فی الآخرة بل هم فی شک منها بل هم منها عمون ﴾
(٩٦) . فبدأ بتفسیر المفردة فی النص بذكر بنائها وأصل : «أدّارک» :
تدرّک ، وتفصیل بنائها أنه جعلها علی طريقة الإدغام ، فادغمت
التاء فی الدال ، وأدخلت ألف الوصل لیسلم للدال الأولى السکون .
ومن ثم شرح مفردة أخرى هی «علمهم» ، فذكر أن معناها
حکمهم علی الآخرة ، وحَدّسهم الظنون ، وبين المراد من المعنی
فقال : « وأراد وما یشعرون متى یبعثون إلا بتتابع الظنون فی علم
الآخرة ، فهم یقولون تارة : إنها تكون وتارة : إنها لا تكون ، وإلی
کذا تكون ، وما یعلم غیب ذلک إلا الله تعالى . (٩٧) » .

وقد یلجأ المؤول إلی توجيه اللفظ نحو معنی دون آخر
لیستقیم له المعنی الذی فهمه من النص ، من ذلک ما أوّل به
الشریف المرتضی قوله تعالى : ﴿لو یشاء ربک لجعل الناس أمة
واحدة ، ولا یزالون مختلفین إلا من رحم ربک ولذلك
خلقهم﴾ (٩٨) . فذكر أن قوله تعالى : ﴿ولو شاء ربک﴾ إنما عنی به
المشیئة التي ینضم إلیها الإلجاء ، ولم یعن المشیئة علی سبیل الاختیار .

وعلل هذا التوجيه فی المعنی بأن الله أراد أن ینجزنا عن قدرته
وأنه ممن لا یغالب ، ولا یُعصى مقهوراً ، من حیث کان قادراً علی
إلجاء العبد وإکراههم علی ما أراد منهم (٩٩) .

وتتضح في تضاعيف هذا التأويل الدراسة الأسلوبية التي تحلل النص وفق معايير لغوية وأخرى عقلية تنهج طريق الفكرة التي وقرت في ذهن الناظر إلى النص ، وهذا ما نلاحظه في تفسير الشريف المرتضى تنمة الآية السابقة ذاتها حين يتوقف عند اسم الإشارة «ذلك» فيحمله على الرحمة ، لأن هذا الحمل أولى من حمله على الاختلاف ، وأما الدليل فدليل العقل ، وشهادة اللفظ .

فأما دليل العقل فمن حيث علمنا أنه تعالى كره الاختلاف ، والذهاب عن الدين ، ونهى عنه ، وتوعد عليه ، فكيف يجوز أن يكون شائئاً له ، ومجرىاً بخلق العباد إليه .

وأما شهادة اللفظ فلأن الرحمة أقرب إلى هذه الكناية من الاختلاف وحمل اللفظ على أقرب المذكورين إليها أولى في لسان العرب (١٠٠) .

وكان المعتزلة من أكثر المفسرين تأويلاً ، وأشهر تأويلاتهم التي عرفت عنهم ما فسّروا به آيات الصفات ، ذلك أن المعتزلة ينكرون الصفات الألهية التي دلّ عليها العقل وكذلك الصفات الحسية (١٠١) .

من ذلك ما ذهب إليه الزمخشري في تفسير قوله تعالى : ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ حيث قال : «وجه ربك» ذاته ، والوجه يعبر عن الجملة والذات ، ومساكين مكة يقولون : أين وجه عربي كريم ينقذني من الهوان» (١٠٢) .

ويعدّ التفسير البلاغي للقرآن الكريم من أهم أدوات المعتزلة في التفسير ، وقد جعل الزمخشري البراعة في علم المعاني وعلم البيان أهم العلوم التي على المفسر أن يتسلح بها لفهم النص القرآني الكريم . فعلم التفسير «الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل

ذي علم ... إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعاني وعلم البيان ، وتمهل في ارتيادهما آونة وتعب في التفسير عنهما أزمنة ... بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ»^(١٠٣).

وتتجلى هذه الصورة في تفسيره لقوله تعالى : ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾^(١٠٤) ، حيث قال : «فإن قلت : كيف نفى الريب على سبيل الاستغراق ، وكم من مراتب فيه ؟ قلت : ما نفى أن أحداً^(١٠٥) لا يرتاب فيه وإنما المنفي كونه متعلقاً للريب ومظنة له ، لأنه من وضوح الدلالة وسطوع البرهان بحيث لا ينبغي لمرتاب أن يقع فيه»^(١٠٦).

وإذا كان ما مرّ من التأويل محمولاً في أصله على اللغة ودلالات ألفاظها في المقام الأول ، فإننا نجد نوعاً من التأويل يخرج بالنص القرآني عن معاني المفردات اللغوية إلى معانٍ إشارية ، وهذا ما نجده لدى الصوفية.

ويعدّ التأويل الصوفي للقرآن الكريم نوعاً من التفسير العقلي ، بيد أن الصوفية أنفسهم يختلفون في مدى الاعتماد على العقل وترك النقل . وكان القشيري المتصوف «- ٤٦٥ هـ» أكثرهم اعتدالاً ، وأقربهم إلى فهم النص القرآني فهماً عقلياً من غير بعد عن النقل ، ونفهم من مقدمته «أن هذا اللون من التفسير يعتمد على استبطان خفايا الألفاظ مفردة أو مركبة - دون التوقف عند حدود ظواهرها المألوفة ومعانيها المعجمية ، وإنما ينظر إلى اللفظة القرآنية على أنها ذات جوهر يدقّ على الفهم العادي ، وأهل التجريد وحدهم هم الذين يتاح لهم - بفضل من الله - العلم الذي يكشفون به عن هذا الجوهر»^(١٠٧).

ومن أمثلة هذا النوع من التأويل ما ذكره القشيري في لطائف

الإشارات في قوله تعالى : «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهو فلا عدوان إلا على الظالمين» ^(١٠٨) حيث يقول : «الإشارة من الآية إلى مجاهدات النفوس فإن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك ، أي استوف أحكام الرياضيات حتى لا يبقى للآثار البشرية شيء ، وتسلم النفس والقلب لله ، فلا يكون معارض ولا منازع منك لإبالتوقي وإبالتلقي ، لا بالتدبير ولا بالاختيار - بحال من الأحوال - فإذا استسلمت النفس فلا عدوان إلا على أرباب التقصير ، فأما من قام بحق الأمر تقصى عن عهدة الإلزام» ^(١٠٩) ، فحوّل دلالات الألفاظ إلى إشارات خاصة ، وجعل المجاهدة للنفس لا للعدو.

وكما اشتهر التأويل في القرآن الكريم شاع في الأحاديث النبوية الشريفة ، وخاصة تلك التي فيها ذكر للصفات ، أو فيها ما يوهم بالتشبيه . من ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم «عجب ربكم من شاب ليست له صبوة» ^(١١٠) . وقد توقف ابن فورك «٤٠٦هـ» عند قوله صلى الله عليه وسلم «عجب ربكم» ، وجعله مدار تأويل الحديث ، وكان في ذلك كله يعتمد على اللغة ، ويؤول الحديث وفق ما تقتضيه اللغة من معان ، فقال : «معنى ذلك أن أصل التعجب إذا استعمل في أحدا ، فالمراد أن يدهمه أمر يستعظمه مما لم يعلم ، وذلك مما لا يليق بالله سبحانه» ^(١١١).

ولذلك كان لابد من تأويل الحديث كيلا يتوهم قارئه ، محمول على التشبيه ، ذلك أن «ما يحمله» «التعجب» من المعنى اللغوي يجوز استعماله في صفات المخلوقين ولا يجوز ذلك في صفات الخالق ، وإذا قيل في صفة الله تعالى «عجب» أو «يتعجب» ،

فالمراد به أحد شيئين : أمّا أن يكون يراد به أنه مما عظم قدر ذلك وكبر ، لأن المتعجب معظم لما يتعجب منه ، ولكن الله سبحانه ، ولما كان عالماً بما كان ويكون لم يلقَ به أحد الوجهين الذي يقتضي استدراك عالم ما لم يكن به عالماً ، فبقي أمر التعظيم له والتكبير في القلوب عند أهله ، إذ يراد بذلك الرضا والقبول ، لأجل أن من أعجبه الشيء ، فقد رضيه وقبله ، ولا يصح أن يعجب مما يسخطه ويكرهه . فلما أراد النبي صلى الله عليه وسلم تعظيم أقدار هذه الأفعال في القلوب أخبر عنها باللفظ الذي يقتضي التعظيم حثاً على فعلها ، وترغيباً في المبادرة إليها ، والوجه الثاني أن يراد به النبي صلى الله عليه وسلم وطريقة ذلك : أنه يذكر وليّه وحصيله ، ويكون الخبر عن نفسه ، والمراد به كما قيل : مرضت فلم تعدني» (١١٢).

ومدار التأويل في مثل هذا على العقل الذي يستنبط من اللغة أقصى ما تحتمله من المعاني ، فتحمل الألفاظ على أوجه من المعاني ، غايتها الابتعاد عن ظاهر اللفظ والبحث عن مدلولاته العميقة التي تفهم من إيحائه لامن معناه الوضعي .
ولذلك نسب التأويل إلى الدراية وجعلت له الموهبة شرطاً ، ذلك أن البحث عن أعماق المعاني وإشارات الألفاظ لا يستطيعه إلا من أوتي معرفة باللغة على اختلاف مستوياتها الدلالية والصرفية والصوتية والنحوية ، وامتلك عقلاً واعياً ، وفكراً نافذاً ، يحلل بهما السياق اللغوي ، ويدرك إيحائاته .

وقد كثر التأويل في الشعر كثرت في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، ذلك أن الشعر أداة المفسر في فهم النص القرآني أو الحديث النبوي الشريف ، وكانوا يفزعون إليه ليعرفوا به - وهو ديوان العرب - دلالات الألفاظ وطرائق العرب في كلامها ،

فيفهمون النص جلياً ، قد احتج به الصحابة والتابعون على غريب القرآن ومشكله ، وإن كان بعض الدراسين قد أنكر على النحويين ذلك ، وحجتهم أنهم يجعلون الشعر أصلاً للقرآن الكريم ، وردّ هذا الاحتجاج بأن النحويين يبنون بالشعر الحرف الغريب ، وهذا منهج ابن عباس ، وقد أخذ به ابن الأنباري وبقيّة النحاة^(١١٣) .

وكانوا يستدلون على «المتشابه» في القرآن الكريم بوجوده في كلام العرب وفي أشعارها ، ذلك أن «القرآن نزل بالفاظ العرب ومعانيها ومذاهبها في الإيجاز ، والاختصار والإطالة ، والتوكيد ، والإشارة إلى الشيء ... إلى غير ذلك من أساليبهم .

وقد ذكر ابن قتيبة حديثاً عن الأصمعي استبهاهه قول عمر بن الخطاب : (أيما رجل بايع من غير مشاورة ، فلا يؤمّر واحد منهما تغرة أن يقتلا)^(١١٤) .

وقد يخفي المقصود من الشعر على بعضهم ، ويأتي من بعدهم لينعم النظر فيه ويؤوله ويستنبط معناه . ونقل ابن قتيبة عن الأصمعي أنه قال : سألت «عيسى بن عمر» عن قول «أمية بن أبي الصلت» :

والأرض نوتخها الإله طروقةً للماء حتى كل زئذٍ مستقد

فقال : «لا أعرفه ، وقد سألت عنه فلم أجده من يعرفه» .

واستدلّ بذلك على وجود صياغات لفضية ، ومفردات لغوية متشابهة في شعر العرب وكلامهم ، مما يعني وقوع مثله في القرآن الذي يجري مجرى هذا الكلام والشعر .^(١١٥)

وحملت وفقاً لهذه الطريقة في فهم المعنى أبيات من الشعر على ظاهرها كما أولت واستخلصت منها معانٍ أخرى ، من ذلك ما ذكره المرتضى في أماليه في بيت المتنبي :

ابعد بعدت بياضاً لا بياض له

لأنت أسود في عيني من الظلم^(١١٦).

حيث رأى أن المعنى الظاهر للناس فيه أنه «أراد : لأضياء له ولا نور ولا إشراق ، من حيث كان حلوله محزناً مؤذناً بتقضي الأجل» ، فلم يكتف بهذا المعنى ، ولذلك ذهب إلى أنه يمكن فيه معنى آخر ، وهو أنه «يريد : إنك بياض لا لون بعده ، لأن البياض آخر ألوان الشعر ، فلما نفى أن يكون للشيب بياض كان نفياً لأن يكون بعده ، وإنما سوغ ذلك له أن البياض هو الآتي بعد السواد ، فلما نفى أن يكون للشيب بياض كان نفياً لأن يكون بعده لون»^(١١٧). فلم يرتض المرتضى بظاهر اللفظ ، وهو ما يترأى للناس ، بل حاول أن يحلل اللفظ وينفذ إلى منا وراءه ليستدل على المعنى ، وهذه قيمة الناقد الذي يذهب أبعد مما يذهب إليه بقية الناس.

وسار على منهج التأويل في فهم النص المشتغلون بعلوم العربية كالنحو والبلاغة ، وكانت أغراضهم مختلفة ، وطبيعة دراستهم متباينة ، إلا أن طرائقهم في فهم النص كانت واحدة ، وهي تقوم على التأويل للغوص في أعماق المعاني ، واستجلاء جوهر النص ، ومعرفة أسرار معانيه أو خفايا جماله.

أمّا في «النحو» فلم تكتسب كلمة «التأويل» معنى جديداً يغير معناها في التفسير ، لأن كثيراً من تأويلات النحاة يدور في فلك المعنى أو تأييد أحد المذاهب أو الأصل النحوي لتعزيزه والمحافظة عليه من تلك الشواهد التي تخرمه^(١١٨).

وبعد هذا النوع من البحث النحوي أدخل في باب القياس ، وقد وضع له النحاة قواعد عامة ، بها استدلوا على طريقة النظر إلى التركيب العربي .

ويجري هذا الجرى ما اعتقدوه من أن اللفظ يدل بظاهره على المعنى ، فإن لم يكن كذلك احتاج إلى التقدير ، ويعني هذا أن النحوي يلجأ إلى التقدير عندما لا يدل اللفظ على ظاهر المعنى «لأن التقدير إنما يخالف اللفظ إذا عدل بالشيء عن الموضوع الذي يستحقه ، فأما إذا وقع في الموضع الذي يستحقه فمحال أن يقال : إن النية به غير ذلك»^(١١٩).

فالنحوي يأخذ بالظاهر ، ذلك أن الأخذ به أولى ، فإن «الألفاظ إذا أمكن حملها على ظاهرها فلا يجوز العدول بها عنه»^(١٢٠). ويحتاج العدول عن الظاهر إلى مرجح ، فإنه «متى أمكن حمل الشيء على ظاهره كان أولى ، إذ العدول عن الظاهر إلى غير الظاهر إنما يكون لمرجح»^(١٢١).

ويصطنع النحاة التأويل عندما يخرج الكيم عن أصولهم المقررة أو المستوى الصوابي للتركيب ذاك الذي قرره النحاة من استقراءهم الناقص لكلام العرب ، ويؤيد هذا المنحى لديهم ما قرره أبو حيان في شرح التسهيل حيث يقول : «التأويل إنما يسوغ إذا كانت الجادة على شيء ، ثم جاء شيء يخالف الجادة فيتأول / أما إذا كانت لغة طائفة من العرب لم تتكلم إلا بها فلا تأويل»^(١٢٢).

من ذلك قوله تعالى : ﴿ أَنْ تَنْظُنَّ إِلَّا ظَنًّا ﴾^(١٢٣). ذكر الرضبي أن الاستثناء المفرغ يجيء في جميع معمولات الفعل ، وفي المبتدأ والخبر عدا المفعول معه ، فلا يجيء بعد إلا لا يقال لا تمش إلا وزيدا ، وكذلك عطف النسق ، فلا يقال : ما قام زيد إلا وعمرو^(١٢٤). ويوحى كلامه عن المفعول المطلق أنه يقر بمحيى التفريغ فيه ، ذلك أنه ذكره مع المفعولات التي تجيء فيها التفريغ وأتى له بمثال هو «إِنْ نَظُنَّ إِلَّا ظَنًّا»^(١٢٥). غير أنه عاد في موضع آخر ليجعل ذلك إشكالا «وذلك أن المستثنى المفرغ يجب أن

يستثنى من متعدد مقدّر معرب بإعراب المستثنى مستغرق لذلك الجنس^(١٢٦) .. حتى يدخل فيه المستثنى بيقين ثم يخرج بالاستثناء ، وليس مصدر نظنّ محتملاً مع الظن غيره حتى يخرج الظن من بينه^(١٢٧) .

ولما كان المفعول المطلق في هذا الموضع بمنزلة تكرير العامل ، لأنه مؤكد له لم يصحّ تفريغ الفعل ، فهو مثل قولنا ما ظننت إلا ظننت ، ولذلك كان لابد من التأويل . وحمل على أوجه :

- أن يكون في الكلام حذف نعت المصدر : أي إن نظن إلا ظناً ضعيفاً ، فيصير المصدر مختصاً مؤكداً^(١٢٨) ، وهو ظاهر قول ابن هشام في المغني^(١٢٩) .

- أن يقال : إنه محتمل من حيث توهم المخاطب ، إذ ربما يطلق الإنسان اللفظة ويعني بها ما يجري مجراها كأن تقول : ضربت ، وقد فعلت غير الضرب لما يجري مجراه كالتهديد والشروع في مقدمات الضرب ، فتقول ضربت ضرباً لرفع ذلك التوهم . «فلما كان قولك ضربت محتملاً للضرب وغيره من حيث التوهم صار المستثنى منه فيما ضربت إلا ضرباً كالمعدد الشامل للضرب وغيره من حيث التوهم ، فكأنك قلت ما فعلت شيئاً إلا ضرباً»^(١٣٠) .
- وأصل الكلام عند الزمخشري «نظنّ ظناً» ومعناه : إثبات الظن فحسب ، فأدخل حرفاً نفياً والاستثناء ليفاد إثبات الظن مع نفي ما سواه ، وزيد نفي ما سوى الظن تأكيداً^(١٣١) .
- أن تكون الآية محمولة على التقديم والتأخير ، أي : إن نحن إلا نظنّ ظناً ، «وما اغتره الشيب إلا اغترار» ، وهو قول منسوب إلى المبرد وأبي علي الفارسي وابن يعيش^(١٣٢) ، ورأى الرضي أنه متكلف^(١٣٣) .

وقد يلجأ النحاة إلى التأويل لتصحيح المعنى ، من ذلك ما ذكروه في قوله تعالى : ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾ ، إن النفس لأماراة

بالسوء إلا مارحم ربّي... ﴿١٣٤﴾. فقيل : «إلا ما رحم ربّي»
إلا لبعض الذي رحمه ربّي بالعصمة كالملائكة ، ويجوز أن يكون
«ما رحم» في معنى الزمان ، أي : إلا وقت رحمة ربّي . يعني أنها
أمانة بالسوء في كل وقت وأوان إلا وقت العصمة . ويجوز أن
يكون استثناء منقطعاً ، أي : ولكن رحمة ربّي هي التي تصرف
الإساءة» (١٣٥) .

إنّ أوجه الإعراب التي وجهت إليها الآية دالة على عظم
احتفالهم بالمعنى ، وهو مدار عملهم في توجيهات الإعراب ، ذلك
أنهم يريدون الوصول إليه من خلال حمل النص على أوجه متعددة .
وكان اهتمامهم بالمعنى وفكرة الأصل النحوي أدعى لأن
يميزوا بين تقدير الإعراب وتفسير المعنى ، فقد يقود تفسير المعنى إلى
خطأ إعرابي ، ذلك أن مَنْ لادربة له على فهم كلام النحويين حين
يقدر الإعراب ويفسرون المعنى قد يحمل الكلام على غير وجهه ،
ولذلك نبّه ابن جنّي على ذلك في قوله : «فإذا مرّ بك شيء من
هذا عن أصحابنا فاحفظ نفسك منه ، ولا تسترسل إليه» (١٣٦) ، لأن
من يقدر على الجمع بين تفسير المعنى وتقدير الإعراب حصل على
ما لا غاية وراءه ، (وإن كان تقدير الإعراب مخالفاً لتفسير المعنى
تقبلت المعنى على ما هو عليه ، وصححت تقدير الإعراب حتى
لا يشذ شيء منها عليك ، وإياك أن تسترسل فتفسد ما تؤثّر
إصلاحه » (١٣٧) .

ونذكر الفرق بين تفسير المعنى وتقدير الإعراب من مثال أتى
به ابن جنّي حيث يقول : « ألا تراك تفسّر نحوقولهم : ضربت زيدا
سوطاً أن معناه : ضربت زيدا ضربة بسوط . وهو لاشك -
كذلك ، ولكن طريق إعرابه أنه على حذف المضاف ، أي ضربته
ضربة سوط ، ثم حذفت الضربة على غير حذف المضاف » (١٣٨) .

ولا يتساق المعنى والإعراب في هذا الموضع ذلك أنك «لو ذهبت تتأول ضربته سوطاً على أن تقدير إعرابه : ضربة بسوط ، كما أن معناه كذلك للزمك أن تقدر أنك حذفت الباء ، كما تحذف حرف الجر في نحو قوله : أمرتك الخير ، واستغفر الله ذنباً ، فتحتاج إلى اعتذار من حذف حرف الجر ، وقد غنيت عن ذلك كله بقولك : إنه على حذف المضاف ، أي : ضربة سوط ومعناه ضربة بسوط»^(١٣٩).

ولاحظوا في هذا الموضع أنه قد يختلف تقدير الإعراب في تركيبين لغويين من غير أن يكون بينهما تباين في المعنى ، من ذلك تراكيب التعجب . قال ابن عصفور « فإن قيل : لم صار المتعجب من وصفه على طريقة (ما أفعله) مفعولاً ، وعلى طريقة أفعل به » فاعلا ، مع أن المعنى عندهم واحد ، وإنما الباب أن يختلف الإعراب إذا اختلف المعنى ؟ .

فالجواب أن ذلك من قبيل ما اختلف فيه الإعراب ، والمعنى متفق ، نحو : ما زيد قائماً في اللغة الحجازية ، وما زيد قائم في اللغة التيمية»^(١٤٠).

واستطاع عبد القاهر الجرجاني - على صعيد الدراسة البلاغية الجمالية للتركيب العربي - أن يضع طريقة تستند إلى فكرة التأويل تعين على فهم جمال الصورة الفنية ، فقسّم التشبيه إلى ضربين ، أحدهما ظاهر لا يحتاج تأويلاً ، والآخر يحتاج إلى التأويل . فأما الضرب الأول ، فهو أدخل في الجمع بين شيئين فيما يدخل تحت الحواس ، مثل تشبيه الخلد بالورد ، أو التشبيه من جهة الغريزة والطباع كتشبيه الرجل بالأسد في الشجاعة والذئب في المكر^(١٤١).

وهذه التشبيهات لا تحتاج إلى التأويل لأنها واضحة «فالشبه في هذا كله بين لا يجري فيه التأويل ولا يفتقر إليه في تحصيله ، وأيه

تأول يجري في مشابهة الخد للورد في الحمرة وأنت تراها ههنا كما تراها هناك ؟ وكذلك تعلم الشجاعة في الأسد كما تعلمها في الرجل»^(١٤٢).

أما التشبيه الذي يحصل بضرب من التأول ، فقد جعله الجرجاني على درجات متفاوتة « فمنه ما يقرب مأخذه ويسهل الوصول إليه ويعطي المقادة طوعاً حتى إنه يكاد يداخل الضرب الأول الذي ليس من التأول في شيء»^(١٤٣). ومن أمثلة ذلك قولنا : «حجة كالشمس في الظهور»، واحتاج هذا التشبيه إلى التأول لأن طرقي التشبيه متباعدان ، ويتم الجمع بينهما بمعرفة طريقة التوفيق بينهما ، فنبتدئ بالمشبه به لنجد أن الشمس جسم من الأجسام ، وحقيقة ظهورها ألا يكون دونها حجاب ونحوه يحجب رؤيتها . ونتقل إلى المشبه لنعرف هذه الصفة فيه ، فنجد أن الشبهة نظير الحجاب فيما يدرك بالعقول لأنها تمنع القلب رؤية ما هي شبهة فيه كما يمنع الحجاب العين أن ترى ما هو من ورائه، فتكون الشبهة مثل الحجاب الذي يمنع رؤية الأشياء ، فإن لم تكن في الحجة شبهة. وحصل العلم بمعنى الكلام الذي هو الحجة على صحة ما أدى من الحكم ، قيل : هذا ظاهر كالشمس ، أي : ليس ههنا مانع عن العلم به^(١٤٤).

فالتأول ههنا ليس لإيجاد العلاقة بين طرقي التشبيه عندما يكونان متباعدين ، وهذا لا يتم من خلال ظاهر اللفظ ، وإنما يحتاج فيه الإنسان إلى النظر وإعمال العقل . وما يحتاج إلى العقل من مثل ذلك متفاوت ، فقد يكون التشبيه أدخل قليلاً في الحاجة إلى التفكير من المثال الذي حللناه كقولنا : « ألفاظه كالماء في السلاسة، وكالنسيم في الرقة ، وكالعسل في الحلاوة. يريدون أن

اللفظ لا يستغلق ولا يشتبه معناه ، ولا يصعب الوقوف عليه .. فصارت لذلك كالماء الذي يسوغ في الحلق ، والنسيم الذي يسري في البدن ... فهذا كله تأول وردّ شيء إلى شيء بضرب من التلطف ، وهو أدخل قليلاً في حقيقة التأول ، وأقوى حالاً في الحاجة إليه من تشبيه الحجة بالشمس »^(١٤٥) .

وأما التشبيه الذي لا يدرك من مجرد سماعه ، وتشتد الحاجة فيه إلى التأول فهو التمثيل الذي يحتاج إلى عمل عقلي وروية و «لا يفهمه حق فهمه إلا مَنْ له ذهن ونظر يرتفع به عن طبقة العامة»^(١٤٦) . ومن أمثلة هذا الضرب قول كعب الأشقري للحجاج متحدثاً عن أبناء المهلب : «كانوا كالحلقة المفرغة ، لا يُدري أين طرفاها»^(١٤٧) .

لقد كان التأويل منهجاً عقلياً لا يكفي من الألفاظ بمعانيها الوضعية ، وإنما ينظر إليها في سياق التركيب ، وينفذ إلى أعماقها ، يحاول استخراج ما في معانيها من مخبوء ، وفي علاقتها مع غيرها في التركيب من إحاء ، وكان التأويل إعادة صياغة للنص والكلام ، يقوم بها قارئه أو سامعه ، وتتباين التأويلات وفق طبيعة المؤول وثقافته واتجاهه ، لأنها محاولة لفهم النص أو الكلام ، وهما لغة يفهما السامع أو القارئ بمعايره الخاصة.

الأسلوب والمجاز :

أدرك علماء العربية وعلماء أصول الفقه والبلاغيون حقيقة قدرة المتكلم على التصرف بالتركيب العربي حذفاً وإضماماً وتقديماً وتأخيراً .. إلى غير ذلك من أمور^(١٤٨) ، وقدرة اللغة على التطور والتغير واحتمال الدلالات المتجددة بالاشتقاق والنقل وغيرهما ، ومهارة صانع النص أو الكلام في نقل الدلالات ، واستعارة الألفاظ لتؤذي مقصوده^(١٤٩) .

فكان لابد لهم أن يصوغوا لأنفسهم نظرية في اللغة تقوم على فكرة الأصل الذي يعد معياراً ثابتاً يقوم المتكلم أو صانع النص بالخروج عليه ، فيصبح عمله عدولاً عن هذا الأصل .

وكان مستعمل اللغة يعي القواعد التي تجب مراعاتها في صياغتها واستعمالها ، ثم يتخذ لنفسه أسلوباً في استعمالها يستند إلى هذه القواعد ، ويسمي اللسانيون المعاصرون هذه المسألة «الكفاية اللغوية Competence» ، « فنحن نلاحظ أن كل إنسان يتكلم لغة معينة قادر ، في كل آن ، وبصورة عفوية ، على صياغة وتفهم وإدراك عدد لامتناه من جمل لغته لم يسبق له ، في الظاهر ، لفظ أكثرها أو سماعها من قبل . وهذا الإنسان يتبع ، في الواقع ، قواعد معينة يعود إليها بصورة طبيعية عندما يتكلم لغته . وهذه القواعد بالذات يمتلكها الإنسان في ذاته ، وتتيح له أن يربط المعاني القائمة في ذهنه بمجموعة الإشارات الصوتية التي ينطق بها للتعبير عن المعاني » (١٥٠).

أما الأسلوب الخاص الذي يتبعه المتكلم فيمكن تسميته «الأداء الكلامي» ويعني «الاستعمال الآني للغة ضمن سياق معين» (١٥١) ، وحين نميز بين «الكفاية اللغوية» و «الأداء الكلامي» نكون على وعي من أن الأداء الكلامي لا يخلو من بعض الانحرافات: عن قوانين اللغة ، كما أنه يحتوي ، فيما يحتويه عددا من المظاهر نعدّها طفيلية قياساً إلى تنظيم القواعد الضمني الخاص باللغة» (١٥٢).

ويعني ذلك أن الأداء الكلامي ليس إلا انعكاساً مباشراً للكفاية اللغوية ، وكل أداء كلامي لابد أن يخفي وراءه معرفة ضمنية عائدة على حقيقة عقلية هي «الكفاية اللغوية» بالذات (١٥٣).

ولاحظنا فيما سبق من البحث أن علماءنا على اختلاف

تخصّصاتهم كانوا على دراية بهذه الأمور كلها ، فمازوا بين طبيعة اللغة ، وطبيعة الكلام ، واستطاعوا أن يدركوا أهمية دراسة اللغة بمكوناتها الدلالية والصوتية والتركيبية^(١٥٤) . وكان سعيهم إلى فهم النص القرآني حافزاً لهم على دراسة اللغة في أبحاث واسعة ليس فيها فصل بين واحد من المكونات الثلاثة للغة ، وهذا ما لجأه في كتاب سيبويه وبجاز القرآن لأبي عبيدة ، ومعاني القرآن للأخفش ، ومعاني القرآن للقرّاء.

والحقيقة أن الفصل بين هذه المكونات لم يتم إلا بعد هذه المرحلة الزمنية التي عاش فيها هؤلاء ، فانفصلت علوم العربية ، وصارت أشتاتاً ، واختص كل علم بجانب من الدراسة ، فكان علم النحو ، وعلم البلاغة ، وعلم التفسير ، وعلم اللغة ، وغير ذلك .

وصار لكل علم موضوع و «هو الشيء الذي يسأل فيه عن أحواله التي تعرض لذاته ، فموضوع الفقه هو أفعال المكلفين ، والفقيه يسأل عن أحوالها التي تعرض لها من الفرض والنقل .. وموضوع النحو هو الألفاظ والمعاني ، والنحوي يسأل عن أحوالهما في الدلالة من جهة الأوضاع اللغوية ... وعلى هذا فموضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة ، وصاحبه يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية^(١٥٥) .

بيد أن هذا الفصل بين العلوم الذي قرره ابن الأثير «٦٣٧هـ» لم يكن إلا فصلاً ظاهرياً ، ذلك أن من جعل وكُتبه النظر في النصوص اللغوية ، أياً كان تخصصه لا بد له من آلات لغوية يعتمد عليها في دراسة موضوعه والنظر فيه .

فكانت معرفة فروع العربية هامة لمن يشتغل بالفقه وأصوله ليستطيع استنباط الأحكام ، وذلك نجد في كتب ألفقه كثيراً من

الدراسات اللغوية ، وصار عرفاً لديهم في كتب الأصول وضع مقدمات لغوية تشتمل على دراسة اللغة من حيث نشأتها ودلالة ألفاظها وغير ذلك^(١٥٦) .

وابن الأثير نفسه حين تحدث عن آلات علم البيان وأدواته جعل لهذا العلم آلات تضاف إلى الطبع «الموهبة» ، ومما يحتاجه مؤلف الكلام النثر أو الناظم ليكمل عمله معرفة علم العربية من النحو والتصريف ، ومعرفة ما يحتاج إليه من اللغة ، ومعرفة ألوان من الثقافة كأمثال العرب وأيامهم ... وغير ذلك^(١٥٧) .

ولا ريب أننا ندرك - ونحن نقرأ كتب علمائنا المتقدمين على اختلاف تخصصاتهم ومن سار على نهجهم^(١٥٨) - أن دراستهم للنص أو الكلام لم تكن دراسة معضّاة ، وإنما كانت دراسة شاملة ، فيها وعي لطبيعة اللغة وتراكيبها ودلالاتها .

وعندما ندرس المجاز فإن علينا أن ندرك طبيعة نهجهم في دراسة الأسلوب العربي على أنه طريقة المتكلم في صياغة معانيه ضمن قواعد اللغة وأصولها ، تلك القواعد والأصول التي أتاحت للمتكلم مستوى فردياً يستند إلى مستوى لغوي جماعي ، كما أتاحت للدارس القدرة على فهم التحولات التي طرأت على الكلام قياساً إلى معيار أصيل جماعي ، فكانت دراستهم للمجاز - في حقيقة الأمر - دراسة للأسلوب اللغوي كما تبدّى لدى العرب الذين أخذت عنهم اللغة ، كما كانت دراسة للتحولات الدلالية التي قد تطرأ على ألفاظ اللغة حين توضع في سياقات لغوية مختلفة.

بيد أن الاتجاه إلى التعقيد ، وتضييق الاختصاص لدى المتأخرين^(١٥٩) حول دراسة المجاز إلى مجال ضيق هو دراسة التعبير الدلالي للمفردة في استعمالات تركيبية معينة.

وسوف نلاحظ أن هذا الاتجاه لدى المتأخرين لم يكن بدعاً ، ذلك أن أصوله موجودة لدى العلماء الذين أسسوا لعلم البلاغة كأصحاب التفسير والمعاني واللغويين ، على أن هؤلاء لم يكونوا يفرّدون له بحثاً خاصاً بل كانوا ينشرونه في كلامهم ، ويأتي في تضاعيف حديثهم عن النص وتحليله.

وقد أفادوا في تحليلاتهم وأنظاريهم من وعيهم لطبيعة اللغة والكلام ومبحث نشأة اللغة^(١٦٠) وفكرة الأصل والحقيقة اللغوية^(١٦١) ، فكانت أبحاثهم ذات طابع علمي واضح ، كما أنهم كانوا على وعي بطبيعة فهم النص والكلام ، وطرائق هذا الفهم ، فأتت تحليلاتهم على صورة دراسة أسلوبية لها معاييرها وخصائصها^(١٦٢).

مفهوم المجاز الأسلوبى :

تعدّ كلمة «المجاز» مصطلحاً دخل إلى علوم العربية بطريق «النقل» ، مثله مثل المصطلحات الأخرى التي نقلت من معانيها الأصلية إلى معان جديدة طارئة وفقاً للحاجات الطارئة والحالة المتطورة التي آلت إليها العلوم في المجتمع الإسلامي^(١٦٣).

وكلمة «المجاز» في أصل استعمالها تعني السبّح في الموضع ، فنقول : «جزت الموضع : سرت فيه»^(١٦٤) ، فإذا دخلتها الهمزة ، فصارت «أجزت» تحولت إلى معنى جديد ، فنقول : «أجزت الموضع : أي خلفته وقطعته ، ونقول : أجزته : نفذته»^(١٦٥).

فالكلمة ذات صورتين ، إحداهما بالألف ، والأخرى عارية منها ، فالعارية ترجع إلى مصادر متعددة ، فنقول : «جزت الطريق

وجاز الموضع جوزاً وجووزاً وجوازاً ومجازاً»^(١٦٦). فلفظة المجاز دلت على قطع الطريق أو الموضع ، كذلك دلت المزیدة بالهمزة على المعنى نفسه.

وقد تدل كلمة المجاز على الموضع أيضاً ، فالمجاز والمجازة كما قال الأصمعي «الموضع»^(١٦٧).

ونقول : «وهو مجاز القوم ومجازتهم ، وعبرنا بمجازة النهر ، وهي الجسر»^(١٦٨) ، فدلّت كلمة «المجاز» على الموضع مطلقاً ، وقد تخصص وفق السياق ، فعندما نعني بها موضعاً معيناً ، فإنها تدلّ عليه كما في مجازة النهر.

فالكلمة في أصلها دالة على «الانتقال» ذلك أنها مأخوذة من «جاز يجوز» إذا استن ماضياً ، تقول : «جاز بنا فلان» و «جاز علينا فارس» ، هذا هو الأضل^(١٦٩).

وتطور معنى اللفظة ، وإن حافظت على صلتها بمعناها القديم ، فصرنا نقول : «يجوز أن تفعل كذا» أي : ينفذ ولا يرد ولا يمنع.^(١٧٠)

غير أن ابن فارس يتنبه على معنى اللفظة يحمل في تضاعيفه شيئاً مما آلت إليه اللفظة من المعنى الاصطلاحي المعروف ، فقال : «وتقول : عندنا دراهم وضح»^(١٧١) وازنه وأخرى تجوز جوار الوزنة «أي : إن هذه - وإن لم تكن وزانة - فهي تجوز بمجازها وجوازها لقربها منها»^(١٧٢).

والحقيقة أن المعنى الاصطلاحي للمجاز ليس إلا جمعاً بين معنيي الكلمة ، وهما الانتقال ، وجواز الشيء مجاز الآخر وإن لم يكن مثله .

ويعني ذلك أننا حين نريد التعبير عن معنى ما فإننا قد نعبر عنه بأساليب متباينة لكنها تؤول جميعاً إلى الأصل المعنوي المراد ، وهو الحقيقة التي يراد الوصول إليها بالكلام ، فالجواز على هذا النحو طريقة في التعبير عن المعنى تجوز جواز الصيغة الكلامية الحقيقية لقربها منها ، فقولنا مجاز «أي : إن الكلام الحقيقي يعمضي لسننه لا يعترض عليه ، وقد يكون غيره يجوز جوازه لقربه منه إلا أن فيه من تشبيه واستعارو وكفّ ماليس في الأول ، وذلك كقولك : عطاء فلان مزن ، فهذا تشبيه ، وقد جاز مجاز قوله : عطاؤه كثير واف » ^(١٧٣) . فكلا التعبيرين مقصدهما واحد وإن اختلفت الصيغة التعبيرية عن هذا المقصد ، ولذلك كان الشأن الكبير للبحث عن المقصد ، والأصل المعنوي في علوم العربية وما يمت إليها بسبب كعلم أصول الفقه .

وكانت فكرة التعبير عن المقاصد بصيغ مختلفة ، وبتغيير أحياناً في الدلالة واضحة في ذهن سيبويه ، ذلك أنه قاس بعض الكلام على بعض ، ووجد أن الأصل هو التعبير عن المعنى ، بيد أن بعض المتكلمين يتسعون أحياناً في الكلام ، فيحملون بعضه على بعض ، من ذلك قول سيبويه : «وسمعنا من العرب من يقول ممن يوثق به : اجتمعت أهل اليمامة ، لأنه يقول في كلامه : اجتمعت اليمامة ، يعني أهل اليمامة ، فأنت الفعل في اللفظ إذ جعل في اللفظ لليمامة ، فترك اللفظ يكون على ما يكون عليه في سعة الكلام » ^(١٧٤) .

وقد يأتي المتكلم في تعبيره بصيغ للدلالة على المعنى المراد ، وهذه الصيغ تعدّ نوعاً من التبدّل الذي يطرأ على معنى الألفاظ ، فيجعل هذه الألفاظ في الصيغ الجديدة تغييراً من دلالتها الأصلية لتتسع وتستوعب الدلالة الجديدة ، بيد أنها تبقى دالة على مفهومها

القديم فتجوز مجازه ، وتصبح مقارنة له وإن لم تكن مثله ، وهي الفكرة التي قررها ابن فارس حين تحدث عن التشبيه على أنه نوع من أنواع التعبير عن المعنى بطريقة قريبة من الصيغة المعروفة للتعبير ، وقد ألح سيبويه إلى شيء من هذا ، وحمله على الاتساع في الكلام حيث تحدث عن حرف الجر «في» ، فقال : «وأما في فهي للوعاء ، تقول : هو في الجراب ، وفي الكيس ، وهو في بطن أمه ، وكذلك هو في الغل ، لأنه جعله إذ أدخله فيه كالوعاء له . وكذلك هو في القبة ، وفي الدار . وإن اتسعت في الكلام فهي على هذا وإنما تكون كالمثل يجاء به يقارب الشيء وليس مثله »^(١٧٥).

ولئن كان سيبويه قد دار حول فكرة المجاز ولم يسمها إلا اتساعاً ، لقد فهمها حق فهمها حين جعلها نوعاً من التعبير عن المعنى بصيغة تقارب الأصل وتجوز مجازه .

وكان المبرد «-٢٨٥هـ» يفعل مثله ، لكن تعبيره عن المسألة كان أكثر إبانة ، فجعل مدار حديثه عن الأصل ، وخروج الكلام عليه ، وهو ضرب من الاتساع يلجأ إليه المتكلم ، فقاس قولهم : «فيه عيبان» على قولهم : «الناس في مكان كذا» وقال : «فأما قولهم : فيه عيبان فمشتق من ذا ، لأنه جعله كالوعاء للعييب والكلام يكون له أصل ثم يتسع فيه فيما شاكل أصله »^(١٧٦).

ففكرة سيبويه عن وجود الأصل ، والتعبير عنه بصيغ جديدة تحمل الألفاظ دلالات تستند إلى هذا الأصل انتقلت منه إلى دارسي النصوص اللغوية ، بيد أن الفكرة لم يتهأ لها مصطلحها إلا في فترة لاحقة لسيبويه ، وكان ذلك على يد أبي عبيدة معمر بن المثنى «- ٢١٠هـ»^(١٧٧).

كان أبو عبيدة على دراية واسعة باللغة وأخبار العرب

وعلمهم ، وهو أول من ألف في غريب الحديث ، وإن لم يكن له إتيان الأصمعي ^(١٧٨) . ثم إن أبا عبيدة «كان له - إلى غزارة العلم - مرونة وحرية في فهم اللغة لم تكن عند الأصمعي وأبي زيد ^(١٧٩) . يزداد إلى هذا «أن أبا عبيدة لم يكن راوية وإخبارياً جافاً وحسب ، وإنما كان - إلى وفرة محصوله العلمي - يدرك ما في اللغة والشعر من جمال فني ، ويقف عنده ، ويقارن الصور الشعرية بعضها ببعض ، ثم ينبّه على المعاني الجديدة الخاصة بكل شاعر» ^(١٨٠) . وكان كتابه «بجاء القرآن» محصلة لهذا كله ، فهو محاولة من أبي عبيدة للنظر في النص القرآني نظرة عميقة من خلال لغته وأسلوبه .

ويظهر أن الاتجاه العام كان في عصره يمضي إلى النظر في تحليل التركيب العربي على أنه صيغة كلامية تعبر عن معنى ما ، وتختلف الصيغ باختلاف صانعيها ، ونتهدى إلى مقصودها بمعرفة مدلولات مفرداتها ، ومعرفة ما يقاربها وإن لم يكن مماثلاً لها على رأي سيويه سواء كان ذلك على مستوى الألفاظ المفردة أم على مستوى التركيب . فأقام كتابه على هذا الفهم ، وكثرت لذلك عنده الاستشهادات بالشعر ، وذلك أنه يقيس دلالة الكلام على دلالة آخر ، فيظهر بالقياس موضع الكلمة في القرآن الكريم ودلالاتها .

ومدار الأمر في ذلك على أن القرآن الكريم فيه «مثل ما في الكلام العربي من وجوه الإعراب . ومن الغريب ، والمعاني» ^(١٨١) ، ولما كان السلف والذين أدركوا الوحي مستغنيين عن المسألة عن معانيه ، وعما فيه مما في كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص ^(١٨٢) وجدت الحاجة إلى النظر في الكتاب الكريم على

هـدي من أساليب العرب في خطابها ، وطرائقها في كلامها ،
وسننها في نظم الكلمات وتركيب الجمل ، وصنع النصوص .
وقد أسعفت أبا عبيدة ثقافته اللغوية الواسعة ، وإحساسه
الفني في النظر إلى القرآن الكريم على أنه أسلوب عربي مبین ، فيه
ما في كلام العرب من طرائق القول والتعبير .

فتنبّه لذلك على أن طرائق التعبير في القرآن الكريم لا تخرج
على طرائق تعبير العرب في كلامها ، فاختصر في رسالة كتابه ما في
القرآن الكريم من طرائق التعبير ، مرشداً فيما فعله إلى حقيقة أن
هذه الأساليب التي ذكرها هي خلاصة أساليب العرب ، بها
يتجاوزون الأصل إلى ماوراءه فيأتون بما يقاربه ويمثله وإن لم يكن
مثله .

والحقيقة أن ما بينه أبو عبيدة في هذه الرسالة ليس إلا خروجاً
للكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، ولا يمكن أنخذ من خلال
أوضاع اللغة وحدها ، ذلك أنه لا يحمل عليها ، بل يحتاج إلى
التأويل .

من ذلك قوله : «ومن بحاز ما حذف وفيه مضمير ، قال
«وسل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها» (١٨٣) ، فهذا
محذوف فيه ضميره ، بحازه : وسل أهل القرية ، ومن في
العير» (١٨٤) .

ويبين هذا الأمر تنبه على أن العرب قد تستعمل الأدوات
بمعنى غير ما هو عليه في الأصل ، وهذا ما رأيناه لدى سيبويه
عندما تحدث عن حرف الجر «في» ، فذكر أن من بحاز الأدوات
اللواتي لهن معان في مواضع شتى ، فتجيء الأداة منهن في بعض
المواضع لبعض تلك المعاني ، قال : «أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما

فوقها» ^(١٨٥) ، معناه : فما دونها. وقال : «والأرض بعد ذلك دحاها» ^(١٨٦) ، معناه : مع ذلك ... ^(١٨٧) .

ويلخص فكرته في النهاية ، فيقول : «ففي القرآن ما في الكلام العربي من الغريب والمعاني ، ومن المحتمل من مجاز ما اختصر، ومجاز ماحذف ، ومجاز ماكفّ عن خبره ، ومجاز ماجاء لفظه لفظ الواحد ووقع على الجميع ، ومجاز ماجاء لفظه لفظ الجميع ووقع معناه على الاثنين ... » ^(١٨٩) .

والناظر فيما أثبتته أبو عبيدة يدرك أنه استخلص مما أورده النحاة ، علماء التركيب العربي من مسائل تتصل بأساليب العرب في كلامها ، وكان كتاب سيبويه مجلى هذه المسائل ^(١٩٠) ، فكان ما وضعه صاحب المجاز في رسالة كتابه بياناً منهجياً واضحاً أسس به لعلم الأسلوب العربي ، وأقام كتابه عليه .

ويتضح لنا منهجه في دراسة الأسلوب العربي في مثال نأخذه من الكتاب . قال في تفسير قوله تعالى : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ ^(١٩١) : جاءت على لفظ الاستفهام ، والملائكة لم تستفهم ربها ، وقد قال تبارك وتعالى : «إني جاعل في الأرض خليفة» ، ولكن معناها معنى الإيجاب : أي إنك ستفعل ، وقال جرير ، فأوجب ولم يستفهم ، لعبد الملك بن مروان :

الستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

وتقول وأنت تضرب الغلام على الذنب : ألسنت الفاعل كذا؟ ليس باستفهام ولكن تقرير ^(١٩٢) . وهدته مقايسته بين النص القرآني وأساليب العرب إلى تصور أن النص القرآني له طريقة في التعبير تماثل طرائق العرب ، فجعل هذه الطرائق «مجازاً» أي طريقاً للتعبير عن المعنى .

فلننظر إلى التعبير القرآني عن المعنى ، ولنقارنه بالصيغة الأخرى ، ومن المقارنة نستنتج أن أبا عبيدة عنى بالجاز طريق القول . فقد أورد أبو عبيدة النص القرآني ، وهو الآية الكريمة : ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية﴾ ^(١٩٣) ، ثم حمل الكلام على صياغة أخرى دالة على المعنى مستعملاً طريقة الاستبدال ، أي استبدال المفردات القرآنية بأخرى تبين طريقة استعمالها ومآلها ، فقال : «بجازه: فهلاً كان من القرون من قبلكم ذوو بقية ، أي يبقون» ^(١٩٤) ، ويُبين ذلك توجيهه بعض الآيات على أنها تخرج مخرج طريقة عربية في الكلام ، ويعني هذا أن أسلوب الآية يشبه طريقة أسلوبية عربية ، قال في قوله تعالى : ﴿كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ ^(١٩٥) : «خرج مخرج ما جعلوا الخير عنه والعدد كالخبر عن الآدميين وعلى لفظ عددهم إذا جمعوا وهو في الكلام : كل تلك ، ومجاز عنه كقولهم : كل أولئك ذاهب ، لأنه يرجع الخبر إلى كل ، ولفظه لفظ الواحد والمعنى يقع على الجميع ، وبعضهم يقول: كل أولئك ذاهبون ، لأنه يجعل الخبر للجميع الذي بعد كل» ^(١٩٦) .

ولم يكتف أبو عبيدة بالنظر إلى مجاز التركيب على أنه صورة من صور التعبير العربي بل اهتم أيضاً بالمفردات ، ولاحظ أن لها مجازاً أيضاً ، ويعني بمجاز المفردة ما تدل عليه المفردة القرآنية ، بيد أن النص القرآني عبّر بها عن معنى من المعاني بوضعها في الآية الكريمة قاصداً بها دلالة معينة من بين دلالات كثيرة تحملها المفردة ، وكأنه أعطاه معنى خاصاً دون غيره ، وهو نوع من تخصيص الدلالة بالنص ، من ذلك كلمة «القضاء» ، وتتبع معانيها التي أوردتها أبو عبيدة من خلال النصوص القرآنية نعلم أنه كان يخصص معناها في كل آية من الآيات ، ولم يجعلها لدلالة واحدة عامة في جميعها من ذلك .

• «وقضيها» (١٩٧) : مجازه : أخبرنا (١٩٨) .

- «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه» (١٩٩) ، مجازه : وأمر ربك (٢٠٠) .

وأضاف أبن حجر إلى ذلك بعض التفسيرات لكلمة «القضاء» كما وردت في كتاب «مجاز القرآن» مما ليس موجودا في النسخة المطبوعة حيث قال : «قال أبو عبيدة في قوله ... وفي قوله : ﴿إن ربك يقضي بينهم﴾ (٢٠١) أي : يحكم ، وفي قوله ﴿فققضاهن سبع سموات﴾ (٢٠٢) أي خلقهن» (٢٠٣) .

فخرج بذلك «القضاء» وفق دلالتها في السياق ، وتغن فيما تدل عليه في التركيب ، ولم يحملها على وجه واحد ، فاتفق له بما فعله أن ادرك تغاير الدلالة بتغير سياقها ، وفهم أن السياق معيار تخصيص الدلالة .

وتنبه في المفردات على أمر آخر ، وهو دلالة الصيغة الصرفية على معنى ما على خلاف دلالتها الأصلية ، وهو أسلوب عربي مستعمل . من ذلك صيغة «فعليل» تأتي في معنى «مُفْعَل» أو «مُفْعِل» .

من ذلك قوله تعالى : ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ (٢٠٤) . فقال أبو عبيدة عن كلمة «الحكيم» التي وردت في الآية : «والحكيم : مجازه المحكم المبين الموضح ، والعرب قد تضع «فعليل» في معنى «مُفْعَل» ، وفي آية أخرى «هذا مالدّي عتيد» (٢٠٥) مجازه : مُعَد ، وقال أبو ذؤيب :

إنني غداة إذ ولسم أشعر خليف

أي ولم أشعر أنني مخلف من قولهم : أخلفت الموعد (٢٠٦) .

بيد أن هذه الدلالة التي خرجت إليها الصيغة لم تكن في الكلمة مفردة ، وإنما هي دلالة حصلت في الكلمة وهي داخل السياق اللغوي ، ويدلّ هذا على جعل السياق مدار الحكم على المعنى الذي تدل عليه المفردة أو تخرج إليه .

ولما كان البحث في «مجاز القرآن» قائماً على تصور أفانين كلام العرب ووجودها في القرآن الكريم ، «ففي القرآن ما في الكلام العربي من الغريب والمعاني ...» ^(٢٠٧) ، فإن دراسة النص القرآني تحتل إيضاح المعاني الواردة فيه على سمت ماستعمله العرب في كلامهم ، ففسرت الكلمات في النص القرآني الكريم من خلال مقايستها بالشعر العربي . من ذلك الآية الكريمة «....لاتفرح» . قال أبو عبيدة أي لاتأشر ولا تفرح . قال هذبة :

ولست بمفراح إذا الدهر سرّني ولا جازع من صرّفه المتقلب
وقال ابن أحرر :

ولا ينسني الحدثان عرضي . ولا ألقى من الفرح أزارا
فلجأ إلى تفسير المفردة تفسيراً قائماً على ذكر معناها ، وطريقة استعمالها ^(٢٠٨) .

وصفوة القول : إن أبا عبيدة في «مجاز القرآن» أراد أن يصطنع منهجاً أسلوبياً لفهم القرآن الكريم قائماً على دراسة النص القرآني بقياسه إلى أساليب العرب في كلامها ، فجعل طريقة التعبير في القرآن الكريم «مجازاً» ، وعنى به الطريقة أو الأسلوب الذي يتخذ نص ما في التعبير عن المعنى .

وعندما نتحدث عن دراسة النص القرآني الكريم وفق منهج «المجاز» الذي كان تسمية أطلقها أبو عبيدة فإننا نجد أن هذا العلم

لم يكن إلا رائداً يستشرف الطريق ، ذلك أن من أتى بعده أخذ بمنهجه ، وسار في ركابه ، سواء أكانت تسمية أبي عبيدة مرضياً عنها أم مرفوضة . ويشبه أبو عبيدة في هذا العمل الجاحظ في البلاغة حين ترجع إليه أصولها .

وأول من يطالعنا في هذه الطريق الأخفش الأوسط «- ٢٠٧ هـ»^(٢٠٩) ، فقد عقد باباً في كتابه «معاني القرآن» سماه «هذا باب من المجاز»^(٢١٠) ، وقد جعله في تفسير سورة البقرة بدءاً من الآية رقم «٢٩» .

ويبحث الأخفش في هذا الباب مشكلات أسلوبية يفسر بحلها النص القرآني الكريم ، ويعني بما ذكره طرائق القول التي تخرج على خلاف مقتضى الظاهر ، وقد أفاد في هذا الباب من أبي عبيدة إفادة كبيرة ، فتقاربت النصوص بمعانيها وبكلماتها أحياناً .

وسار على النهج نفسه علماء كثيرون منهم الفراء «- ٢٠٧ هـ»^(٢١١) ، والجاحظ «- ٢٥٥ هـ»^(٢١٢) . وأبو العباس الميرد «- ٢٨٥ هـ»^(٢١٣) ، وابن قتيبة «- ٢٧٦ هـ»^(٢١٤) ، وابن فارس «- ٣٩٥ هـ» .

وكانت الفكرة التي وجهت دراساتهم هي البحث التطبيقي في ظواهر الأسلوب العربي في القرآن والشعر والكلام ، مستفيدين من صنيع أبي عبيدة في «مجاز القرآن» ، وقد فهموا «المجاز» على أنه صيغة للتعبير يصطنعها المدرك لأسرار اللغة ، ومن يقيس على سنن العرب في كلامها .

أصول المجاز الأسلوبي وجمالياته : ويعدّ البحث في أصول المجاز الأسلوبي تمة طبيعية لبحث «اللغة والكلام» ، فقد لاحظنا فيه أن علماء العربية حين أقرّوا منشأ اللغة الاجتماعي كانوا على وعي بأن

هذه النشأة ستؤدي إلى معايير مضبوطة وقواعد عامة توجه اللغة وتجعلها أداة مشتركة بين الناس ، يمكن لأية أداة أن تكون مشتركة ما لم تكن صفاتها وقواعدها معروفة لدى مستعملها.

ولما كانت اللغة غير مطلوبة لذاتها بل هي أداة الاتصال والوعي والتفكير وجد الإنسان نفسه . وهو يستعملها أنه أمام أداة مرنة مطواعة ، يسهل انقيادها لتلائم فردية المستعمل ، ولتحمل مشاعره وأفكاره مما يريد التعبير عنه لنفسه ، وللآخرين - فاستعمل هذه الأداة في حدود ما تسمح به قواعدها وأصولها في صيغ تركيبية أراد لها أن تعبر عنه بطرائقه الخاصة.

وتقبلت اللغة هذا النحو من الاستعمال لما تملكه من خصائص في مفرداتها ، وميزات في تراكيبيها أساسها القدرة على التحول في الدلالة ، ووجود الإعراب الذي ينظم العلاقة بين المفردات. أو وجد بذلك نوعان من الدرس اللغوي ، أحدهما يجعل دراسة المفردات اللغوية في أوضاعها وتحولاتها موضوعاً له ، والاخر يهتم بالبحث في التركيب اللغوي وعناصره وتحولاته .

بيد أن كلا الدارسين كان آخذاً - كما لاحظنا في بحث «نشأة اللغة» وفي بحث «الحقيقة اللغوية» - بفكرة سادت في أبحاث الدارسين ، هي فكرة الأصل ، سواء أكان أصل الوضع أو أصل المعنى .

وليست فكرة الأصل عملاً عقلياً مجرداً ابتدعه الدارسون ابتداء ، وأقحموه في دراسة اللغة ، فقد لاحظنا أنهم اتجهوا هذا الاتجاه لما وجدوه في اللغة العربية من قدرة على التبدل والتغير في الصيغة والدلالة بالاشتقاق والنقل وغير ذلك من مظاهر حيويتها .

كما لاحظوا أن فكرة أصل المعنى ضرورية ، ذلك أن معرفة المقاصد التي يرمي إليها متكلم العربية لا يمكن أن تتم إلا بوضع كلامه في موضعه وقياسه إلى الصيغة الأصلية التي تبنى عليها التراكيب العربية ، فإدراك أي خروج على هذه الصيغة لا يتم إلا بالرجوع إليها والقياس عليها ، لأن العربية ليست مثل بقية اللغات ، فهي لغة معربة تتبدل فيها أماكن الألفاظ في التركيب للدلالة على المعاني دون أن يختل فهم الصيغة .

تلك أهم السمات العامة التي وجهت الدارسين إلى طرائق الدرس اللغوي في أبحاث اللغة العربية ، وهذا ما طبع بميسمه أهم مصادرنا اللغوية من كتاب سيبويه إلى دلائل الإعجاز مروراً بكتب البلاغة والتفسير والأصول .

ولما كان القرآن الكريم مبتدأ هذا الدرس . وكان فهمه ما ه وحصيلته وجدت الحاجة إلى دراسة النص القرآني ، وفهمه بمقايسته بكلام العرب ، وفهمه من خلاله فتهدي الدارسون إلى قواعد للكلام ، ونظم لصوغه بتحليل النص القرآني ، وما وصلهم من شعر العرب .

وأقاموا وفق ما تبينوه من سمات وجدوها في النصوص منهجاً لفهمها يقوم على تفسيرها وتأويلها ، ومعرفة ظاهرها وباطنها ، محتملها ومحملها ، مما أفاد الدرس اللغوي وأعطاه صورته العربية ، ذلك أنه منهج أساسه النص العربي وهدفه فهم هذا النص وعلاقاته .

ولما كان فهم الكلام أو النص يتساند إلى بحث الصيغة الأصلية للكلام أو أصل المعنى ، ومعرفة أصل الوضع اللغوي حيز الباحثون على دراسة ما يعتري هذا الفهم من الشبهات وتأصيل

قواعد عامة يقوم عليها الكلام العربي ، وهو الطريقة التي يتحدث بها العرب ، وتشتمل على ما اصطوفوه من تصرفات في التركيب ودلالات المفردات لتؤدي المعاني المقصودة . فاشتملت أبحاثهم على ما كان أساساً لدراسة المحاز ، وهو طريقة التعبير بوسائل لغوية باستعمال ما في اللغة من مرونة وقدرة على التبدل والتغير .

ودرسوا ما يمكن تسميته مشكلات الكلام أو النص ، معتمدين في ذلك على فكر ثاقب ونباهة واضحة واستقراء واسع ، وقدرة على التفسير والتأويل ، ساعدت في الغوص إلى أعماق الصيغة الكلامية .

ولن نستطيع في هذه الدراسة أن نلّم بكل ما فعله هؤلاء الباحثون ، وإنما نكتفي بإيراد الأمثلة ودراساتها وإيضاح معالم الطريق لنتهدي بها إلى النتائج التي نقصدها ، وما ذلك إلا لاتساع هذا النوع من البحث واشتماله على أفانين درسها آخرون تفصيلاً ، ولإدراكنا أن بعضها يجزئ عن بعض .

وقد أسهم النحاة بنصيب وافر في تأصيل الدراسات الأسلوبية العربية ، وأعطوا المفسرين ، وأصحاب معاني القرآن كأبي عبيدة والفرّاء والأخفش ، ودارسي النص القرآني كابن قتيبة ، والباحثين في كلام العرب كابن فارس . أقول : أعطوا هؤلاء جميعاً مساهمة مهمة بنوا عليها دراساتهم التطبيقية في النصوص اللغوية التي أعملوا فيها بحثهم وتطبيقاتهم .

ولم تكن دراسات النحاة معيناً هاماً هؤلاء فحسب ، بل كانت أيضاً كذلك للبلاغيين الذين متحوا منها الكثير ، وطبعت دراساتهم بطابعها ، ومن أهم هؤلاء دارسوا الإعجاز القرآني ومؤسسوا فكرة النظم ، كالجاحظ والباقلاني وعبد القاهر الجرجاني .

ولذلك فإن أية دراسة للمجاز الأسلوبي لا بد لها من أن تستند في أصولها إلى عمل هؤلاء النحاة بسبب اشتغالهم في أصول هذا الفن اللغوي الجمالي ، على حين كانت دراسات البلاغيين معبرة عن النظرة الجمالية إلى التركيب العربي من خلال معرفة جمال صياغته .

وقد وجهت عمل النحاة والبلاغيين واللغويين - كما لاحظنا - فكرة الأصل التي كانوا يرجعون إليها الصيغة التعبيرية للكلام أو النص ، وعدوا الخروج عليها عدولاً عن الأصل ، وكان سعيهم دائماً للبحث عنه وراء الصيغة التعبيرية في مستواها الظاهري . ولذلك استعملوا أدوات منهجية. كالتأويل لمعرفة هذا الأصل ، وإعادة الصيغة الكلامية إلى مستواها المثالي وتخليصها من العدول الذي اعتراها .

وكان من أهم ما بحثوه في هذا المجال قضية اللفظ والمعنى والمساواة بينهما في التعبير ، وقد انطلقوا في ذلك من معايير واضحة جعلوها أصولاً يبنون عليها قواعدهم ، وكانت أهم هذه الأصول ما يتعلق بفائدة الكلام ، ذلك أنهم بحثوا في الكلام من حيث تتم به الفائدة «وما لفائدة فيه فلا معنى للتكلم به»^(٢١٥) . واقاموا هذه القاعدة على ما في الكلام من معان يراد توصيلها «ألا ترى أنك لو قلت : رجل قائم أو رجل نعال ، لم يكن في هذا الكلام فائدة لأنه لا يستنكر أن يكون في الناس رجل قائماً أو عالماً....»^(٢١٦) .

ويتبع ذلك ما رأوا أنه أصل يجب التمسك به ، وهو دلالة اللفظ على معناه ، وطالبوا من عدل عن هذا الأصل بإقامة الدليل ، فذهبوا إلى أن «الأصل في كل حرف أن يكون دالاً على ما وضع له في الأصل ، فمن تمسك بالأصل فقد تمسك باستصحاب الحال ، ومن عدل عن الأصل بقي مرتهناً بإقامة الدليل»^(٢١٧) .

ولذلك ثار الخلاف بين البصريين والكوفيين حول صيغة التعجب «أفعل به» ، فقال الكوفيون : «أن معنى "أفعل به" في التعجب أمر كلفظه» ^(٢١٨) ، فذهبوا به إلى ظاهر اللفظ معتمدين في ذلك على قاعدة أصولية ترى " أن الألفاظ إذا أمكن حملها على ظاهرها فلا يجوز العدول بها عنه " ^(٢١٩) ، أما البصريون فقد قالوا : «إن معناه التعجب لا الأمر» ^(٢٢٠) ، وإلى هذا أشار سيويه بقوله : «والمعنى أفعل به وما أفعله واحد» ^(٢٢١) ، وعللوا خروجهم على هذا الأصل «بأن هذا الأصل قد ترك في مواضع عديدة ، فليكن متروكاً هنا» ^(٢٢٢) .

ولذلك أرادوا أن تكون الألفاظ معبرة عن معانيها ، وأن تكون المعاني مقسمة على أقدار المستمعين مراعية لمقاماتهم وأحوالهم ، فذهب بشر بن المعتمر إلى أنه : «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ، فيوزان بينها وبين أقدار المستمعين ، ويجعل لكل طبقة كلاماً ، ولكلّ حال مقاما ، حتى يقسم أقدار المعاني ، على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على تلك الحالات» ^(٢٢٣) . ووفقاً لهذا المعيار ذهب ابن الأثير إلى تقسيم الكلام إلى أنواع ، فمنه ما يتصف بالاعتقاد ، وهو أن يكون المعنى المضمّر في العبارة على حسب ما يقتضيه المعبر عنه في منزلته ، ومنه ما يتصف بالتفريط والإفراط ، وهما ضدان ، أحدهما : أن يكون المعنى المضمّر في العبارة دون ما تقتضيه منزلة المعبر عنه ، والآخر : أن يكون المعنى فوق منزلته ^(٢٢٤) .

وكانت مراعاة المقام لدى البلاغيين والنقاد مهمة ، بيد أن ذلك لا ينبغي أن تكون للألفاظ والمعاني حدودها ليحسن الخطاب ، فاشتراط الجاحظ فيه «تخيّر اللفظ في حسن الإفهام» ^(٢٢٥) ، ويعني

ذلك التأنق في اللفظ دون أن يجور هذا على وضوحه ، ولا يتأتى أمر
البلاغة بالإطالة والإسهاب وإلا فقد الكلام صفة البلاغة ، فطالب
المحاضر الأديب بالإيجاز ، وهذا ما عناه بقوله : «الإيجاز هو
البلاغة»^(٢٢٦) ، وهو يقصد طبعاً الإيجاز الموحى ، والمكشّف على
وضوح وظهور ، والمنسكب في الوقت ذاته في وعاء من لغة اللسان
العربي ، عفوية وسليمة على ما تضمنه جواب صُحار عندما سأله
معاوية^(٢٢٦ مكر) : (ما تمدّن البلاغة فيكم ؟ قال : الإيجاز . قال له
معاوية : وما الإيجاز ؟ قال صُحار : أن تجيب فلا تبطئ ، وتقول
فلا تخطئ »^(٢٢٧) .

واحتفل البلاغيون بتقسيمات الكلام وفق صلته بالمعنى ،
وجعلوا البلاغة ثلاثة مذاهب يقصد في استعمالها : المساواة ،
والإشارة ، والتذليل .

فالمساواة : أن يكون اللفظ كالقالب للمعنى لا يفضّل عليه ،
ولا ينقص عنه ، والإشارة : أن يكون اللفظ مشاراً به إلى المعنى
كاللمحة الدالة . والتذليل : إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى
الواحد بعينه^(٢٢٨) .

وتحدثوا عن الإيجاز والإطناب والمساواة ، فامتدحوا في البلاغة
الإيجاز ، وهو أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف
الأوساط ، والإطناب هو أدائه بأكثر من عبارته ، سواء كانت
القلة أو الكثرة راجعة إلى الجمل ، أو إلى غير الجمل^(٢٢٩) .

وبقيت المساواة ، وتعني لديهم جعل كلام الأوساط على
متعارفهم في التأدية للمعاني فيما بينهم ، ويقاس الإيجاز والإطناب
إلى هذه الأوساط المتعارفة التي تساوي ألفاظها معانيها ، وهي التي
قال عنها السكاكي : إنها قسم من الكلام يمكن تسميته «متعارف

الأوساط» ، وهو بسبب في البصرة ولا يحمد منهم ولا يذم (٢٣٠) ،
ولذلك امتدحوا من البلاغة ما يخرج على هذه المساواة ويعدل به
عنها ، ذلك أن المساواة لا تعني غير تأدية المعنى بالألفاظ المتعارف
عليها بمقدار أصل المراد (٢٣١) .

ووفقاً لذلك لم يرتض البصريون ما ذهب إليه الكوفيون حين
فسروا «أفعل به» على أنه باقي على ضيغته ومخناه ، وهو «الأمر» ،
على حين رأى البصريون أن فيه نوعاً من حمل اللفظ على المعنى ،
فهو وإن دل في لفظه على الأمر إلا أن معناه مختلف .

وقد ربطوا هذا التفسير بمسألة جمالية جفلوها عاصلاً لخروج
الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، فقرر ابن النحاس في العليقة
« أن حمل اللفظ على المعنى إنما هو لمسألة معنوية غائضة ، ذلك أن
اللفظ إذا احتيج في فهم معناه إلى إعمال فكر كان أبلغ وأكد بما إذا
لم يكن كذلك ، لأن النفس حينئذ تحتاج في فهم المعنى إلى فكر
وتعب فتكون به أكثر كلفاً وضيقاً مما إذا لم تتعب في تحصيله » (٢٣٢) .
وكان مذهب الكوفيين في هذه المسألة تمسكاً بالظاهر ، على
حين رأى البصريون أن ذلك يغدنا عن طبيعة اللغة التي ليست أداة
بحامدة ، وإنما هي متفاعلة مع الإنسان الذي ينطق بها ، ويحصل
ألفاظها على المعاني التي يريد بها .

لذلك كان التأويل أهم وسيلة امتنع عليها النحاة لردّ الكلام إلى
أصله ، وذلك حين يكون ظاهر اللفظ موحياً بالانحراف عنه ،
وعندما يلجأ النحاة إلى هذه الوسيلة فإنهم يؤكدون فكرة وجود
الأصول ، وفكرة الخروج عليها ، وكان الوصول إلى أصل المعنى
هاديهم في ذلك التأويل ، وقد بين ابن السراج هذه المسألة حين
تحدث عن كلمة «أعمى» في الآية الكريمة : «وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ
أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا » (٢٣٣) ، فبين أوجه دلالة

الكلمة من خلال البحث في قياسها إلى القاعدة ، فرأى أنّ فيها وجهين : «أحدهما : أن يكون من عمى القلب ، وإليه ينسب أكثر الضلال ، فعلى هذا نقول : ما أعماه كما نقول : ما أحققه . الوجه الآخر : أن يكون من عمى العين فيكون قوله : «فهو في الآخرة أعمى » لا يراد به : أنه أعمى من كذا وكذا ، ولكنه فيها أعمى كما كان في الدنيا أعمى ، وهو في الآخرة أضل سبيلاً ، وكل فعل مزيد لا يتعب منه ، نحو قولك : ما أموته لمن مات ، إلا أن تريد : ما أموت قلبه ، فذلك جائز»^(٢٣٤).

وبين بذلك اتساق الكلام مع القاعدة ، وصحح المعنى ، وجعل ما ينبئ ظاهره بالخروج عن الأصل متسقاً مع القاعدة والمعنى في آن واحد .

وفسرت المعاني تبعاً لهذه النظرة إلى الانحراف عن الأصل ، ولم ينظر إلى القاعدة النحوية على أنها أمر ثابت لا يحد عنه ، فتدل الاصطلاحات فيها على ما في الكلام من معنى ، وإنما أولت المعاني وفق ما يقصده المتكلم . من ذلك ما ذكره ابن جني في قول رؤبة :

يارب إن أخطأت أو نسيت هانت لا تنسى ولا تموت

حيث ذكر أن « حقيقة الشرط وجوابه ، أن يكون الثاني مسبباً عن الأول ، قوله : إن زرتني أكرمتك .

فالكرامة مسببة عن الزيارة ، وليس كون الله سبحانه غير ناس ولا مخطئاً أمراً مسبباً عن خطأ رؤبة ، ولا عن إصابته ، إنما تلك صفة له - عز اسمه من صفات نفسه ، لكنه كلام محمول على معناه ، أي أن أخطأت أو نسيت فاعف عني لنقصي وفضلك ، فاكتفى بذكر الكمال والفضل - وهو السبب - من العفو وهو

المسبب» (٢٣٥)، فحمل الكلام على المعنى دون اللفظ ، لأن حمله على المعنى وهو الأصل ، أصبح من حمله على اللفظ . فكانت قضية اللفظ والمعنى من المسائل المهمة التي بحثها علماؤنا في أثناء دراستهم لمقاصد المتكلم أو صانع النص ، وهي أدخل في باب الأصل والانحراف عنه.

• الاتساع :

لا نجد في كتب النحاة واللغويين والبلاغيين مفهوماً محدداً للاتساع ، ذلك أنهم حملوا عليه أية صيغة تركيبية لاتسير وفق الأصول التي قرروها ، كما حملوا عليه أي نوع من العدول عن الدلالات الأصلية للكلام . ويشمل هذا كله الحذف ، وطرائق التعبير عن المعنى بصيغ تركيبية خاصة ، لها دلالاتها وفق طبيعة صياغتها ، وما اعتراها من تغيير أو خروج عن الأصل .

وكانت الحذف من أهم ما علّق عليه النحاة أصولهم لرد الكلام إلى أصله ، فاعتمدوا في ذلك على قياس الكلام المنطوق إلى أصله لمعرفة ما سقط منه ، وكان أصل المعنى أو أصل القاعدة في هذا كله معياراً لهم . وقد فرق ابن هشام بين الحذف كما ينظر إليه النحوي وبين الحذف كما ينظر إليه المفسر أو البياني ، ذلك أن كلاً منهم له طبيعة بحث يجري عليها ، فنصّ على أن «الحذف الذي يلزم النحوي النظر فيه هو ما اقتضته الصناعة ، وذلك بأن يجد خبراً بدون مبتدأ أو بالعكس ، أو شرطاً بدون جزاء أو بالعكس ، أو معطوفاً بدون معطوف عليه ، أو معمولاً بدون عامل» (٢٣٦).

ويعني ذلك أن على النحوي أن يعيد بناء التركيب اللفظي ليتسق مع أصل القاعدة ، وليس عليه أن ينظر في مستتبعات التركيب ، وما يحتمله من المعاني ، فرفض قول النحاة في نحو قوله تعالى : ﴿سراييل تقيكم الحر﴾^(٢٣٧) :

إن التقدير : والبرد . ذلك أن هذا من عمل المفسر لا عمل النحوي^(٢٣٨).

ورفض كذلك تدخل النحوي في صنعة البيانين الذين ينظرون إلى المحذوف نظرة جمالية ، ولذلك لم يقرّهم على قولهم : « يحذف الفاعل لعظمته وحقارة المفعول أو بالعكس للجهل به أو للخوف عليه أو منه ونحو ذلك ، فإنه تطفل منهم على صناعة البيان »^(٢٣٩).

ووضعوا لتقدير المحذوف ومكانه في التركيب قواعد خاصة ، فرأوا أن « القياس أن يقدر الشيء في مكانه الأصلي ، لئلا يخالف الأصل من وجهين : الحذف ووضع الشيء في غير محله »^(٢٤٠) . وقد خالفهم في هذه القاعدة البيانون حين نظروا إلى الحذف على أنه صيغة تعبيرية مفادها تقوية الكلام وتوكيده ، ولذلك لم يراعوا ما قال به النحاة ، وقدروا للمحذوف موضعاً في التركيب متسقاً مع دلالة الحذف التي جرى عليها التركيب^(٢٤١) . ورأى النحويون أن تغيير موضع المقدر الأصلي يكون عند تعذر الأصل أو لغرض معنوي^(٢٤٢).

وراعوا في ذلك أمرين معاً ، هما : أصل القاعدة والمعنى ، ومن مراعاتهم أصل القاعدة قولهم في قراءة الحسن وابن اسحاق لما في الآية الكريمة : «وأما ثمود فهديناهم»^(٢٤٣) بنصب ثمود ، ورأوا أنه وجه ، والرفع أجود منه ، وعللوا للرفع بأن «أما» تطلب الأسماء

وتمتنع من الأفعال ، فهي بمنزلة الصلة للاسم ، فلا يصح : «أما ضربت فعبدا لله» ^(٢٤٤) ، ولذلك وجب تقدير الفعل المحذوف مؤخراً ليتسق التقدير مع القاعدة.

أما مراعاة المعنى فنجد مثاله في «البسمة» ، فقد الزمخشري متعلق «الباء» مؤخراً ، لأن قريشاً كانت تقول : باسم اللات والعزى نفعل كذا ، فيؤخرون أفعالهم عن ذكر ما اتخذوه معبوداً لشأنه بالتقديم ، فوجب على الموحدين أن يعتقد ذلك باسم الله تعالى فإنه الحقيق بذلك ^(٢٤٥) ، ولذلك جعل التقدير : بسم الله أقرأ أو أتلو ، لأن الذي يلي التسمية مقروء ، كما أن المسافر إذا حلّ أو ارتحل فقال : بسم الله والبركات ، كان المعنى : بسم الله أحلّ ، وبسم الله أرتحل ^(٢٤٦) . ويعدّ هذا التقدير تنبيهاً على أن المعتبر خصوص المعنى لا اللفظ ^(٢٤٧) .

على حين ذهب البيانين إلى النظر إلى المعنى دون أصل القاعدة ، فقدروا المفسر في نحو «زيداً رأيته» مؤخراً عنه على خلاف القاعدة النحوية ، وقالوا : لأنه يفيد الاختصاص حينئذ ^(٢٤٨) .

وجعلوا للحذف دلائل كثيرة ، منها : ما يدل العقل على حذفه ، والمقصود الأظهر على تعيينه ، كقوله تعالى : ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ ^(٢٤٩) ، والمقصود الأظهر من هذه الأشياء كلها ^(٢٥٠) . والثاني ما يدل عليه العقل بمجرده : كقوله تعالى : ﴿وجاء ربك﴾ ^(٢٥١) ، تقديره وجاء أمر ربك أو عذاب ربك أو بأس ربك ^(٢٥٢) ، والثالث : ما يدل عليه الوقوع كقوله تعالى ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم﴾ ^(٢٥٣) ، تقديره : وأي شيء أفاء الله على رسوله من أموالهم ، ويدل هذا المحذوف أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم لم يملك رقاب بني النضير ، ولم يكونوا من جملة الفبيء وأن الذي أفاءه الله عليهم إنما كان أموالهم^(٢٥٤). والرابع : ما يدل العقل على حذفه والعادة على تعيينه كقوله تعالى حكاية عن امرأة العزيز ﴿فذلكن الذي لمتني فيه﴾^(٢٥٥) ، دلّ العقل فيه على الحذف لأن اللوم على الأعيان لا يصح ، وإنما يلام الإنسان على كسبه وفعله ، فيحتمل أن يكون المقدّر لمتني في حبه^(٢٥٦).

وتعد هذه الدلائل أدخل في بحث «فهم النص» ، ذلك أن البحث عن الصيغة الأصلية للكلام تحوّل في هذه المواضع إلى عمل عقلي يصل اللغة بالمعنى ، وهذا أقرب إلى ما راعاه البيانون لا النحويون .

ميّزوا بين الحذف والإضمار ، ويفهم من كلام ابن السراج على الإضمار أنه حذف ، بيد أننا نترك ما عمل فيه العامل على حاله في التركيب^(٢٥٧) ، كالمضمر المستعمل إضماره ، ويجوز إذا علمت أن الرجل مستغن عن لفظك بما تضرمه ، فمن ذلك ما يجري في الأمر والنهي ، وهو أن يكون الرجل في حال ضرب ، فتقول : زيدا ، ورأسه ، تريد : اضرب رأسه^(٢٥٨).

أمّا الحذف فهو أن تقيم المذكور مقام المحذوف وتعريه بإعرابه ، ويبقى العامل في هذا الباب بحاله ، وإنما تقيم فيه المضاف إليه مقام المضاف ، أو تجعل الظرف يقوم مقام الاسم^(٢٥٩).

وعرّف «الاتساع» بأنه ضرب من الحذف ، وذهب إلى أنه كثير في كلامهم وأكثر من أن يُحاط به^(٢٦٠). والحقيقة أن الحذف ضرب من الاتساع كما يظهر من كلامهم على «الاتساع».

وقد كان حديثهم عن اتساع الحذف متصلاً بالإيجاز والاختصار ، وكثيراً ما ذكره سيويه عبارة «سعة الكلام» مع

«الاختصار»^(٢٦١) . وكان الاتساع في «الظروف» من أوسع أبواب الاتساع والحذف ، فقد سيبويه للمصدر الذي جاء ظرفاً زمنياً محذوفاً ، كقولنا : مقدم الحاج ، وخفوق النجم جواباً لمن سأل : متى سير عليه؟ وتقدير ذلك : زمن مقدم الحاج ، وجين خفوق النجم، ويكون هذا الكلام على سبيل السعة والاختصار.^(٢٦٢)

وجعلوا من الحذف في التركيب وإقامة المضاف إليه مقام المضاف ، قول الله تعالى ﴿واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها﴾^(٢٦٣) ، فأول سيبويه الآية على حذف المضاف ، فقال : «إنما يريد أهل القرية ، فاختصر ، وعمل الفعل في القرية كما كان عاملاً في الأهل لو كان هاهنا»^(٢٦٤) .

وحملوا على هذا الحذف قول العرب «بنو فلان يطؤون الطريق» ، فقال سيبويه : «يريد أهل الطريق»^(٢٦٥) . وقد جعل البلاغيون هذه الحذوف في المضاف نوعاً من الجواز لأنه نقل عن إعرابها الأصلي إلى غيره^(٢٦٦) .

وقد يكون تقدير المحذوف تصحيحاً للمعنى ، واللفظ لا يهتم به ، فيستعمل الفعل في اللفظ لافي المعنى اتساعاً في الكلام وإيجازاً واختصاراً ، «فمن ذلك أن تقول على قول السائل : كم صيد عليه؟ وكم غير ظرف لما ذكرت لك من الاتساع والإيجاز ، فتقول : صيد عليه يومان . وإنما المعنى صيد عليه الوحش في يومين ، ولكنه اتسع واختصر»^(٢٦٧) .

ولما كان الأمر على هذا النحو ، فإن تقدير أصل المعنى قد يحمل على عدم الرضا بما في ظاهر اللفظ ، فتعاد صياغة العبارة لتقدير مقصد المتكلم وفق ذلك ، مع العلم أن الصناعة النحوية تقبل الصياغة المنطوقة ، وهي التي وقع فيها الحذف ، من ذلك قول

سيبويه : « ونقول على قول السائل : كم ضربة ضرب به ؟ وليس في هذا إضمار شيء سوى كم ، والمفعول : كم ، فتقول : ضرب به ضربتان ... فحري على سعة الكلام والاختصار ، وإن كانت الضربتان لا تضربان ، وإنما كان المعنى : كم ضرب الذي وقع به الضرب من ضربة ، فأجابه على هذا المعنى ولكنه اتسع واختصر^(٢٦٨) ، فالصناعة على جعل «ضربتان» نائباً عن الفاعل ، ولكن المعنى لا يقوم بذلك.

ومن أهم ما ذكره النحويون في باب الحذف ، وعول عليه البلاغيون في كتبهم مبحث حذف «المفعول به» ، وذكر ابن يعيش أن حذفه على ضربين : أحدهما أن يحذف وأن كان الفعل يقتضيه ، فيكون سقوطه لضرب من التخفيف ، وهو في حكم المنطوق به . والثاني : أن تحذفه معرضاً عنه البتة ، ويكون الغرض منه الإخبار بوقوع الفعل من الفاعل من غير تعرض لمن وقع به الفعل ، فيصير من قبيل الأفعال اللازمة^(٢٦٩) . ولا يكون له بذلك مفعول لفظاً وتقديراً ، وهو كقولهم : فلان يحلّ ويعقد ، ويأمر وينهي ، ويضرّ وينفع^(٢٧٠).

والعبرة البلاغية من هذا الحذف إثبات المعنى في نفسه للشيء ، من غير أن تتعرض لحديث المفعول . من ذلك قوله تعالى : ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾^(٢٧١) . المعنى : هل يستوي من له علم ومن لا علم له . من غير أن يقصد النص على معلوم^(٢٧٢).

وانطلق البحث عن المفعول به على هذا النحو مما أصّله النجاة بما وجدوه من فروق بين المعنى حين الاختصار على الفاعل ؟ التركيب ، وحين ذكر المفعول به ، فميزوا بين حالتي المعنى وقالوا :

«إذا قلت : ضرب عبد الله زيداً ، فإن شئت قلت : ضرب عبد الله ، فعرفتني أنه قد كان منه ضرب ، فصار بمنزلة : قام عبد الله ، إلا أنك تعلم أن الضرب قد تعدى إلى مضروب ، وأن قولك : «قام» لم يتعد فاعله ، فإن قلت : ضرب عبد الله زيداً - أعلمتني من ذلك المفعول» ^(٢٧٣)؟ ولذلك كان حذف المفعول مضطرباً في كل موضع كان القصد فيه أن تثبت المعنى في نفسه فعلاً لشيء ، وأن تخبر بأن من شأنه يكون منه ، أو لا يكون إلا منه ، أو لا يكون منه ، فإن الفعل لا يعدى هناك ، لأن تعديته تنقض الغرض وتغير المعنى ^(٢٧٤).

فاتصل على هذا النحو حذف المفعول به بالغرض المعنوي ، وهو غرض بلاغي ، وتقدير المفعول به حاصل في ذلك كله لإعادة تركيب العبارة وفق أصلها المتصور ، وما الحذف إلا عمل مقصود قام به المتكلم ليؤدي هذا الغرض الذي رمى إليه . فتحقق بذلك الغرض من الكلام ، وهو جعل الألفاظ دالة على المعاني بالتصرف والحذف.

وقد جعل هذا الحذف للدلالة على الغرض المعنوي على نوعيه: أحدهما ظاهر جليّ لاصنعة فيه كقولهم : «أصغيت إليه» ، وهم يريدون «أذني» و«أغضيت عليه» ، والمعنى «جفني».

والآخر خفيّ تدخله الصنعة ؛ فيتفنن ويتنوع ، ومنه أن تذكر الفعل وفي نفسك له مفعول مخصوص قد علم مكانه ، أما لذكره أو دليل حال إلا أنك تنسيه نفسك وتخفيه وتوهم أنك لم تذكر ذلك الفعل إلا لأن تثبت معناه من غير أن تعدّيه إلى شيء أو تعرض فيه لمفعول ، ومثاله قول البحري :

شجّو حسّاده وغيظ عداه أن يري مبصر ويسمع واع

والمعنى ، لا محالة : أن يرى مبصراً محاسنه ، ويسمع واع أخباره وأوصافه ، فحذف مفعول يرى ، ويسمع للحصول على معنى شريف وغرض خاص^(٢٧٥).

وقد يكون حذف المفعول به المعلوم المقصود لأجل إثبات الفعل للفاعل وتوفير العناية لذلك ، ومثاله قول عمرو بن معد يكرب :

فلو أن قومي أنطقني رماحهم نطقن ولكن الرماح أجرت

فأجرت : فعل متعد ، ولوعده الشاعر لما عده إلا إلى ضمير المتكلم ، بيد أن تعديته لفظاً تنقضي الغرض من الحذف وهو أن يثبت أنه كان من الرماح إجراراً وحبساً للألسن عن النطق ، ولو ذكره لتوهم السامع أنه لم يعن بأن يثبت للرماح إجراراً ، بل الذي عناه أن يبين أنها أجرت^(٢٧٦).

ولذلك كان الحذف في المفعول به لأحد الأوجه البلاغية التي يتم بها التعبير عن المعاني ، وكان دأب النحاة والبلاغيين مستمراً في البحث عن المحذوف وتقديره واكتشاف الدلائل المعنوية التي يمكن أن يخرج إليها واختصار الكلام وإيجازه على طريق الاتساع بالحذف .

أمّا جوانب الاتساع الأخرى ، تلك التي كانت أساساً لصنع ماسماه علماء التركيب العربي «الجواز» فأهمها أن «الاتساع» قد يحصل في المصادر فينصب المصدر مفعولاً به على التوسع والجواز ، ويعلل هذا بأن الفعل حين يبنى للمجهول يحمل المصدر يحمل نائب الفاعل ، فنقول : ضُربَ ضربٌ شديداً ، ذلك أن جعل المصدر نائباً عن الفاعل فرع على نصبه نصب المفعول به^(٢٧٧).

وتنبّه سيبويه على جوانب أخرى من «الاتساع» في الكلام قاسها على الاتساع في الظرف ، وكلها تؤول إلى ضرب من استعمال اللغة ينحرف عن الأصل فيردّ إليه ، فتقول العرب : أدخل فوه الحجر متسعين في التركيب ، وأصله : أدخل فاه الحجر ، ويشبه هذا قولهم : أدخلت في رأسي القلنسوة ، وأصله : أدخلت في القلنسوة رأسي^(٢٧٨).

وعدّ ابن قتيبة هذا الكلام نوعاً من الكلام المقلوب ، وهو أن يقدم ما يوضحه التأخير ، ويؤخر ما يوضحه التقديم . ومن أمثله في التنزيل قوله تعالى : ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفًا وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾^(٢٧٩) ، أي مخلف رسله وعده ، لأن الإخلاف قد يقع بالوعد كما يقع في الرسل ، فتقول : أخلفت الوعد ، وأخلفت الرسل^(٢٨٠) ، وهو في الشعر كثير^(٢٨١).

وحمل على هذا القلب - وهو من باب الاتساع - قوله تعالى : ﴿وَمِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمِثْلَ الَّذِي يُنْعِقُ﴾ بما لا يسمع إلا دعاء ونداء^(٢٨٢) ، ذلك أن التشبيه لم يأت لتشبيه الكفار بما ينعق ، وإنما شُبِّهوا بالمنعوق به ، فيكون المعنى : مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذي لا يسمع ، فاختصر إيجازاً واتساعاً ، لأن الغنم هي التي لا تسمع ، والعرب تريد الشيء فتحول إلى الشيء من سببه ، فذكر الناعق ودلّ به إلى المنعوق به^(٢٨٣).

بيد أن ابن السراج لم يكتف بما قاله النحاة والمفسرون ، بل ذهب في هذا الاتساع مذهباً آخر ، وقد نظر فيه إلى ما في الكلام من عمل فني ، فأوله ، واستخلص منه الصنعة ، فوقف عند قول الشاعر خدّاش بن زهير :

وتركب خيلاً لا هوادة بينها . وتعصى الرماح بالضياطرة الحمر

وهو البيت الذي توقف عنده ابن قتيبة ، وأتى به شاهداً على «القلب» ، إلا أنه جملة «من المقلوب ما قلب على الغلط»^(٢٨٤) ، ورواه ابن السراج «وتشقى الرماح» ، ولم يرتض جعله على القلب فرأى أن المعنى يحتمل غير ما قالوا ، وحمله على السعة والتمثيل ، فيكون المعنى : قد شقي الرمح بأبدان هؤلاء ، وكقولهم : أتعبت سيفي في رقاب القوم ، إني فعلت به ماذا فعل بمن يجوز عليه التعب تعب^(٢٨٥) .

وهذه النظرة من ابن السراج توحى بما كان ينظر إليه هؤلاء النحاة من دقة إلى الصيغة الكلامية ، فيحملونها على التأويل ، ومهدوا بذلك لمن بعدهم في أبحاث المجاز والاستعارة .

ولذلك فإن كلمة «السعة» و «الاتساع» لم تكن تعني لديهم شيئاً محدداً ، بل إنها تضم في دلالتها كثيراً من طرائق التعبير التي يخرج بها المتكلم على السنن الأصولية ، ويدلنا على هذا ما أشار إليه سيبويه حين جعل قوله : «لك فيه أب» نوعاً من الاتساع ، فقد شبه الرجل في حنانه تجاه المخاطب بالأب وأجراه مجراه^(٢٨٦) ، وجعل الصيغة المجازية من الصيغ التي تعبر عن المعنى الأصلي ، وهو الدلالة على الموضع والمستقر من الأرض ، لكنه قد يستعمله استعمالاً مجازياً فيقول : هو دونك في الشرف ، ويشبه هذا نقل الدلالات من معانيها الأصلية الوضعية إلى معانٍ مجازية كقولنا : أنه لصلب القناة ، وأنه لمن شجرة صالحة^(٢٨٧) . ومدار الأمر في هذه التعبيرات على الاتساع في الكلام^(٢٨٨) .

ولهذا كله فإن ابن جنّي جعل المجاز يقع ويعدل به عن الحقيقة

لمعان ثلاثة ، وهي الاتساع والتوكيد والتشبيه ، فإن عديم هذه الأوصاف البتة ، ويعني ذلك أن الاتساع لا يدل على طريقة واحدة في الكلام بقدر ما يدل على تصرف المتكلم لأغراض معنوية ^(٢٨٩) .

• التضمين :

عدّ ابن جنّي البحث في «التضمين» نوعاً من تصحيح الكلام، ذلك أن العرب قد تستعمل الحروف بعضها مكان بعض . بيد أن بعض الناس يطلقون الكلام في هذه المسألة دون قيد ، فيقولون : إنَّ «إلى» تكون بمعنى «مع» ، ويحتجون لذلك بقول الله سبحانه «من أنصاري إلى الله» ^(٢٩٠) ، أي مع الله . ويقولون : إن «في» تكون بمعنى «على» ويحتجون بقوله عز اسمه «ولأصلبنيكم في جذوع النخل» ^(٢٩١) ، أي عليها ^(٢٩٢) .

غير أن هذا وإن كان غير مدافع ، إلا أنه يؤخذ بحذر خوفاً من إيقاعه في كل موضع ، فإنّ الحرف «يكون» بمعناه في موضع دون موضع ، على حسب الأحوال الداعية إليه والمسوغة له . في كل موضع وعلى كل حال فلا » ^(٢٩٣) .

وجعل بحث التضمين نوعاً من الاتساع الذي يعدّ العرب في كلامها ، ذلك إن الفعل إذا كان بمعنى فعل أحدهما يتعدى بحرف ، والآخر بآخر فإن العرب قد أخذ الحرفين موقع صاحبه إيذاناً بأن هذا الفعل في مـ فلذلك جيء معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه الله عز اسمه : ﴿أحلّ لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائك وأنت لاتقول : رفثت إلى المرأة ، وإنما تقول : رفثت به لكنه لما كان الرفث هنا في معنى الإفضاء، وكنت تعدي

«إلى» كقولك أفضيت إلى المرأة ؛ جئت بـ «إلى» مع الرفع ،
إيداناً وإشعاراً إنه بمعناه (٢٩٤) .

فالمسألة ليست في استعمال حرف مكان حرف لغير سبب ،
ولأنما هي في الفعل الذي حمل معنى آخر ، وقد دلت على معناه
الجديد قرينة لفظية هي حرف الجر الذي تعدى به .

ولا يعني ذكر «التضمين» في الفعل إنه وقف على هذا النوع
من الكلمات ، وإنما يدخل التضمين في أنواع أخرى أيضاً ، من ذلك
أن ابن يعيش قدّر أن تكون أسماء الاستفهام «مَنْ» و «كَمْ»
متضمنة معنى الهمزة «ولا يجوز ظهور الهمزة مع (من) و (كم) لما
تضمننا معنى الهمزة صاراً كالمشتملين عليها ، فظهور الهمزة حينئذٍ
كالتكرار (٢٩٥) .

ولعل بناء الظرف «أمس» لتضمنه لام المعرفة وبها صار
معرفة «والاسم إذا تضمن معنى الحرف بني وكان حقه تسكين
الآخر على ما يقتضيه البناء وإنما التقى في آخره ساكنان وهما السين
والميم فكسرت السين لالتقاء الساكنين» (٢٩٦)

وإذا كان التضمن يدخل الأدوات كما يدخل الأسماء
فدخوله الأفعال أظهر لوجود قرائن لفظية توضحه ، ومنها التعدية
بحرف جر ، ومنها إن الفعل قد يتضمن معنى فعل آخر فيتعدى
تعديته . من ذلك ما ذكره الزمخشري في قوله تعالى : «ولا تمدن
عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا» (٢٩٧) .
حيث يقول : «فإن قلت : علام انتصب «زهرة» قلت : على أحد
أربعة أوجه ... وعلى تضمين متعنا معنى أعطينا وخولنا» (٢٩٨) ،
وهذا التضمين سمح للفعل بأن يتعدى إلى مفعولين بدل تعديه إلى
مفعول واحد .

ولذلك فهم الزمخشري التضمين في الفعل على نحو عام ولم يخصصه بتعديده بحرف من حروف الجر ، فقال : «من شأنهم أنهم يضمنون الفعل معنى فعل آخر فيجرونه مجراه ويستعملونه استعماله مع إرادة معنى التضمين»^(٢٩٩) . وعلى هذا النحو فهم الكفوي التضمين في الفعل فجعله إشراب معنى فعل لفعل ليعامل معاملته^(٣٠٠) .

بيد أن الزمخشري مثله مثل ابن جني تنبه على مسألة هامة في هذا الموضوع ، وهي «إرادة معنى التضمين» فكما إن ابن جني لم يتسمّح في فهم استعمال الحروف بعضها مكان بعض ، بل جعل ذلك موقوفاً على المعنى ، وهو مقصد المتكلم ، فإن الزمخشري أوقفه على الإرادة .

ولما كان مدار التضمين على المعنى فإن على دارسه أن يلاحظ قيمته البلاغية لأن المتكلم أو صانع النص لا يأتي به عبثاً أو يكون مجيئه في كلامه خطأ ، وإنما وقف التضمين على الإرادة يستدعي غرضاً بلاغياً نبّه عليه الزمخشري حيث يذكر أن «الغرض في التضمين إعطاء مجموع معنيين وذلك أقوى من إعطاء معنى ، ألا ترى كيف رجع معنى "ولاتغد عيناك عنهم"^(٣٠١) إلى قولك : ولاتقتحم عيناك مجاوزتين إلى غيرهم . "ولاتأكلوا أموالهم إلى أموالكم"^(٣٠٢) أي ولاتضمّوها إليكم أكلين"^(٣٠٣) .

والحقيقة إن هناك خلافاً بين النحويين والبيانين في مسألة التضمين مردّها إلى طبيعة بحث كل منهم وهو خلاف يبدو وكأنه دفاع من البيانين عن أصول قرروها وقواعد ارتضوها^(٣٠٤) .

فعلى حين يذهب النحاة كما لاحظنا إلى أن التضمين في الفعل يعني إشرابه معنى فعل آخر مما يجعله يأخذ حكمه في التعدي،

ذهب البيانيون إلى النظر في هذا الموضوع بنوع من التحكم فقرروا أنه على حذف العامل الذي يقدّر حالاً هرباً من جعل الفعل الذي ضمن معنى فعل آخر نوعاً من المجاز لأنه بذلك يخرق ماقرروه من أنواع المجاز ، فذكر سعد الدين التفتازاني في حاشية الكشف أن «الفعل المذكور إن كان مستعملاً في معناه الحقيقي فلا دلالة على الفعل الآخر ، وإن كان في معني الفعل الآخر فلا دلالة على معناه الحقيقي ، وإن كان فيهما جميعاً لزم الجمع بين الحقيقة والمجاز . قلنا هو في معناه الحقيقي مع حذف حال مأخوذ من الفعل الآخر بمعونة القرينة اللفظية ، فمعنى يقلب كفيه علي كذا ، نادماً علي كذا ، ولا بدّ من اعتبار الحال ، وإلا لكان مجازاً محضاً لاتضميناً» (٣٠٥).

وهذا ما يمكن أن نسميه تحكيم القاعدة في المثال ، أو حمل الكلام على ما تريده القاعدة مع تعسف في النظر إلى النص ، وقياسه إلى القواعد بإهمال مقاصد المتكلم أو صانع النص . وهذا ما يجا منه النحاة كابن جني ومن سار على نهجه ، والزحخشري الذي فهم القواعد دراسة تحليلية لاكتشاف جوانب الجمال في النص ، لا قواعد يحمل النص عليها ويسرف في تأويله للوصول إلى صحتها .

وقد تحول التضمين لدى بعض البلاغيين إلى نوع من أنواع المجاز ، فجعلوه على صورة تضمين اسم معنى اسم لإفادة معنى الاسمين ، فيعدّي تعديته في بعض المواضع ، كقوله تعالى ﴿حقيق عليّ ألا أقول عليّ الله إلا الحق﴾ (٣٠٦) ، فضمن «حقيق» معنى «حريص» ليفيد أنه محقق يقول الحق وحريص عليه ، ويكون على صورة تضمن فعل معنى فعل لإفادة معنى الفعلين ، فتعديه أيضاً تعديته في بعض المواضع ، مثل قوله تعالى : ﴿لا تشرك بالله﴾ (٣٠٧) ، فضمن لا تشرك معنى لا تعدل ، والعدل : التسوية ، أي لا تسوّر بالله شيئاً في العبادة والمحبة (٣٠٨) . وبذلك لم يعد

هؤلاء يقضيه التقدير البياني واتخذوا إلى «التضمين» سبيل النحاة ، وجعلوا الكلمة تتحول دلالياً من معنى إلى آخر .

التقديم والتأخير :

لبحث التقديم والتأخير أهمية كبرى في دراسة التركيب العربي ، ذلك أنه دراسة للأسلوب نفسه أكثر منه دراسة للتركيب النحوي ، وهو لهذا الأمر مبني لدى العرب علي اتجاه نفسي في تحليل الصيغة اللغوية ، مما يعني اهتماماً واضحاً بما يمكن للغة بتنظيمها داخل النسق من أن تحمله من مشاعر .

ويدخل هذا المبحث فيما يمكن أن نطلق عليه اسم «المتغيرات الأسلوبية» ، وببحث التقديم والتأخير نوع من هذه المتغيرات يتم على مستوى الجملة ، وهو مايسنميه اللسانيون المعاصرون «نحو الجملة Sentence Grammar» (٣٠٩) .

وتختلف اللغات في وجود ظاهرة التقديم والتأخير فيها من حيث القلة أو الكثرة ، ذلك أنها تتمايز فيما تمتلكه مفرداتها داخل السياق من حرية في تغيير مواضعها ، أو ثبات هذه المواضع ، بيد أنه لا توجد لغة من اللغات لا تمتلك هذه الحرية ، لكن واحدة تفضل الأخرى في مدى وجودها وكميته ، فعلى حين تمتلك اللغة العربية حرية واسعة في هذا المجال تقف الإنكليزية أمامها ممتلكة حرية أقل منها (٣١٠) .

ويرجع الفضل فيما تختص به العربية من حرية واسعة في ترتيب مفرداتها إلى ظاهرة الإعراب التي احتفظت بها منذ عهدها الأولى ، وقد فهم النحاة العرب هذه الظاهرة على أنها تسمح

للعربية بصياغة جملها وترتيب مفرداتها من غير موانع معنوية ، لأن سامعها يدرك مايعنيه المتكلم حين يتصرف بالجملة تقدماً وتأخيراً في مفرداتها . ففهم ابن جنّي أن الاعراب «هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ» ^(٣١١) ، ورأى أنه يمكن لسامع الكلام أن يفهم المعاني المقصودة أيّا كان ترتيب المفردات داخل السياق فيفهم قول القائل «أكرم سعيد أباه» و «شكر سعيداً أبوه» على أن الذي قام بالفعل في الجملة الأولى هو «سعيد» وأن «الأب» قد وقع عليه الفعل فهو مفعول به ، وعلى عكس ذلك في الجملة الثانية ، يفرّق بين الفاعل والمفعول به بوساطة رفع أحد الاسمين ونصب الآخر ^(٣١٢) دون أن يؤثر التقديم والتأخير على فهم السامع . وقد أشار إلى شيء من هذا ابن مالك أيضاً حيث جعل الإعراب مبيناً للمعنى الذي يحدث في الكلمة بالتركيب ^(٣١٣) .

وأدت هذه الملاحظة الهامة لدى النحويين العرب إلى ابتكار مفهوم «الرتبة المحفوظة» وعنوا بها دراسة مواقع الكلمات في الجملة بعضها من بعض من ناحية المستوى الصوابي ^(٣١٤) ، ويرجع اهتمامهم بهذه الظاهرة إلى نظرتهم إلى أن الاختلال فيها يؤدي إلى اختلال التركيب ، فهي قرينة لفظية تحدّد معنى الأبواب المرتبة بحسبها ^(٣١٥) ، ولذلك ثبّه الزركشي «النحوي» في كتابه البرهان على ضرورة مراعاة الرتب المحفوظة ببيان مراتب الكلام «فإنّ مرتبة العمدة قبل مرتبة الفضلة ، ومرتبة المبتدأ قبل مرتبة الخبر ، ومرتبة ما يصل إليه بنفسه قبل مرتبة ما يصل إليه بحرف جر» ^(٣١٦) .

ووجد لديهم في مقابل مصطلح «الرتبة المحفوظة» مصطلح آخر هو «الرتبة غير المحفوظة» ، وتعني لديهم حرية المتكلم في تغيير مواضع الكلمات داخل السياق وفق قواعد لغوية مقررة ^(٣١٧) .

وقد جعل هذان المصطلحان التركيب العربي في حالتين :
حالة ثبات لبعض أجزائه ، وحالة حركة لأجزاء أخرى منه ، وتعني
حالة الثبات عدم جواز تقديم بعض أجزاء الجملة على بعضها
الأخرى ، أما حالة الحركة فتسمح بحرية التقديم والتأخير . ويبين هذا
الأمر ماقرره ابن السراج في كتابه «الأصول» حيث عقد باباً سماه
« التقديم والتأخير » ، ووضع فيه أسس حالتي الثبات والحركة في
داخل السياق ، فتحدث عن الأشياء التي لا يجوز تقديمها ، وعن
الأشياء الأخرى التي يجوز تقديمها ، فما يجوز تقديمه هو كل ما عمل
فيه فعل متصرف ، أو كان خيراً لابتداء ، سوى بعض الاستثناءات ،
أما ما لا يجوز تحريكه من موضعه بالتقديم ، فهو ثلاثة عشر شيئاً ،
مثل الصلة على الموصول والمضمر على الظاهر في اللفظ والمعنى ،
إلا ما جاء على شريطة التفسير والصفة وما اتصل بها على
الموصوف ، وجميع توابع الاسم ، حكمها كحكم الصفة (٣١٨) .

وحافظ النحاة وفق مفهومي «الرتبة المحفوظة» و «الرتبة غير
المحفوظة» على أصولهم المقررة ، وتقوم هذه الأصول على وجود
نمط من التركيب الأصلي يقاس عليها الكلام ، يضع المفردات داخل
السياق مواضعها ، ويرجع التصرف بهذه المواضع إليها ، فيتبين
المتأمل ما اعتري الكلام من تغيير وفق هذا المعيار.

ولذلك تحدثوا عما ماسموه تقديم الكلام وهو في المعنى
مؤخر ، وتأخيره وهو في المعنى مقدم (٣١٩) . وكان من معاييرهم في
ذلك إن العامل رتبته التقديم ، ثم تأتي بعده المعمولات (٣٢٠) ،
فالجملة الفعلية - مثلاً - يكون ترتيبها على تقديم الفعل ، ثم يأتي
بعده الفاعل ، ثم المفعول به (٣٢١) ، ولم يجوزوا تقديم الفاعل على
عامله (٣٢٢) ، على حين جازوا حرية الموضع للمفعول به ، فقدموه
على الفاعل والفعل معاً (٣٢٣) .

ووضعوا معياراً لهذا التقديم والتأخير هو أمن اللبس بحيث تحفظ المراتب وفق أصولها إذا وقع في الجملة لبس حال دون تمييز الفاعل من المفعول ، ويكون ذلك عندما لا يبين في الاسمين إعراب كقولنا : «ضرب عيس موسى» فوجب تقديم الفاعل في مثل هذه الجملة حكماً ، أما عندما يؤمن اللبس وإن لم تبين علامات الاعراب ، جاز التقديم والتأخير كقولنا «كسرت الرحي العصا» ، وقد علم إن العصا لا تكسر الرحي ، جاز التقديم والتأخير (٣٢٤)

وحين يخرج الكلام على أصل الترتيب في النسق يعتمد النحوي إلى المعنى وهو الأصل الذي تبنى عليه الجملة ، فيجعل التقديم والتأخير طارئين ، والنية إقامة الكلام على أصله .

فقد يجري تقديم المضمر على الظاهر في اللفظ ، بيد أنه يعاد إلى المعنى ، فإذا هو مقدّم في اللفظ مؤخر في معناه ومرتبته ، من ذلك قولك : «ضرب غلامه زيد» فقدّم المفعول به المتصل بالضمير على الفاعل ، أما أصله فهو : «ضرب زيد غلامه» ، فقدّمت وثبتت التأخير ، ذلك إن مرتبة الفاعل قبل المفعول به ، فحين قدمت المفعول به عن رتبته - وهي التأخير - لزم أن تدرك المعنى والأصل والرتبة لتعرف العبارة (٣٢٥) .

وقد نهج البلاغيون في هذا البحث نهج النحاة ، فاعتمدوا على فكرة الأصل ، وهو الرتبة المحفوظة ، بيد أن اهتمامهم انصبّ على (الرتبة غير المحفوظة) ، لأنها هي التي تمنح المتكلم أو الكاتب أو الشاعر حرية في التعبير (٣٢٦) .

وكان سعي البلاغيين إلى «الرتبة غير المحفوظة» مرده إلى أن هذه الرتبة خروج عن الأصل وعدول عنه ، وتدل نظراتهم إلى هذه

الرتبة على أنها مدار علم البلاغة ، ويدل على ذلك ما صرح به الزمخشري حيث ذكر ما يتعلق ببحث التقديم والتأخير في البلاغة ، فقال : «إنما يقال مقدم ومؤخر للمزال للفقار في مكانه » (٣٢٧) . فميز بين أبحاث النحاة وأبحاث البلاغيين الذين يهتمون بالرتبة غير المحفوظة وهي الخروج عن الأصل لدواع فنية جمالية .

وجعلوا فكرة النحاة القائلة : إن الشيء إذا قدم على غيره يكون في النية مؤخراً حفاظاً على الرتبة ، أحد معايير عملهم في النظر إلى فكرة التقديم والتأخير (٣٢٨) ، ذلك أن هذه النية عند النحاة تعني سعيًا للحفاظ على الأصول المقررة . وأما البلاغي فإنه يحكم على الظاهرة وفق معيار آخر ، وهو النظر إلى التركيب جمالياً ، فرأوا إن التقديم أحياناً لا يكون على نية التأخير (٣٢٩) ، مما يعني توجهاً مسبقاً نحو الخروج عن الأصل لما في ذلك من قيم جمالية .

وكان هاديتهم في ذلك عبارة قالها سيويه ، وهي : «كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم ، وهم يبيانه أعنى وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم » (٣٣٠) ، فتحدثوا عن أصل آخر غير النية في ارجاع الألفاظ في النسق إلى رتبها ، وذكروا أن التقديم لما كان حقه التأخير فقد لا يكون على نية التأخير ، ولكن على أن تنقل الشيء من حكم إلى حكم آخر (٣٣١) ، فيكون التقديم على هذه الصورة مقصوداً في بناء الجملة لمعنى يريد المتكلم ، ويبين هذا الأمر قولنا : «ضربتُ زيداً» و«وزيدا ضربته» فأنت «لم تقدم زيدا على أن يكون مفعولاً منصوباً بالفعل كما كان، ولكن على أن ترفعه بالابتداء، وتشغل الفعل بضميره، وتجعله في موضع الخبر له» (٣٣٢) .

وهذا التقديم لم يجر من المتكلم وفي نيته التأخير والحفاظ على الرتبة ، وإنما قدم المفعول لمعنى ، وهو العناية والاهتمام ، وعلى هذا النحو يمكن فهم كلام سيويه ، وهو فهم لكلام النحويين وتفريع

على أفكارهم وفق ما يقتضيه علم البلاغة من إرادة الخروج عن الأصل ، لأنه عندهم معيار الجمال في الصياغة اللغوية .
ولذلك تختلف الصياغات باختلاف إرادة المعنى على قصد المتكلم ، فيقدم مرتبته التأخير لتحصل هذا القصد ، فإذا أراد أن يعبر عن وقوع فعل ما بإنسان بعينه من غير أن يبالي من أوقعه قدم المفعول به على الفاعل فقال: مثلاً: «ضرب زيدا رجل» ، ويستعمل هذه الصيغة خارجاً بها عن الأصل وهو «ضرب رجل زيدا» ، وذلك للمعنى الذي قصده « وهو الإخبار عن حصول الفعل في المفعول به من غير اهتمام بالفاعل ، لأنه يعلم أن الناس الذين يستمعون إليه يسرون أو يهتمون بحصول الفعل في المفعول به من غير أن يعرفوا فاعله.

وعلى خلاف ذلك . فقد يقع فعل من إنسان لا ينتظر منه أن يفعله كأن يقتل انساناً ما ، فإن أردنا الإخبار عن ذلك قدمنا الفاعل ، فقلنا : «قتل زيد رجلاً» ، ذلك إنما يعني المتكلم في هذه الصياغة ويعني السامعين أن يخبرهم بحصول الفعل من الفاعل ، فقدم الفاعل ، وجرى على الأصل ، لأن الأهمية ليست في وقوع الفعل على من وقع عليه ، بل في حصوله على من وقع منه (٣٣٣) .

ولذلك كان معيار الحفاظ على الأصل في السياق أو الخروج عنه هو الدلالة على معنى ما من المعاني ، وليس ذلك لمعيار آخر . هو الحفاظ على الرتبة كما عند النحاة ، وإنما هو أمر مقصود من المتكلم لتقرير حكم ما .

ويبدو التقديم والتأخير - بذلك - صيغة أسلوبية خاصة لها معناها ، كما إن لها دلالتها ، وخصائص تميزها ، مما يجعلها ظاهرة أسلوبية قد نجدها في العربية على نحو واسع بسبب حرية تركيب

السياق اللغوي ، وحرية رتب الكلمات فيها. بيد أن ذلك ليس يجري على حرية مطلقة^(٣٣٤) ، وإن كان البلاغيون يرون إنها ظاهرة جمالية يمكن الاستفادة منها لتقدير قيمة التركيب من الوجهة الجمالية الخالصة .

الحمل على المعنى :

جعل النحاة أصل مسألة الحمل على المعنى يؤول إلى قضية اللفظ والمعنى ، وذلك أنهم رأوا أن كلام العرب أنواع ، فمنه من طابق اللفظ والمعنى ، وهو الصيغة الأصلية للكلام كقولنا : « جاء زيد » وهو أكثر الكلام ، وأصله ، ولكن بعض الكلام يتنازع فيه اللفظ والمعنى الدلالة ، وصياغة المعنى ، فقد تكون الغلبة للفظ فيغلب حكمه على المعنى ، ويكون ذلك في مسألة التقديم والتأخير نحو « علمت أقام زيداً أم قعد » ، وفي هذه الصيغة لا يجوز لنا تقديم الجملة على « علمت » ، وإن كان ما بعد علمت ليس استفهاماً ، لأن الهمة فيه للتسوية ومعنى الجملة على التقديم ، ومن الكلام ما يقدم فيه المعنى على اللفظ فيغلب حكمه ، نحو الإضافة للجملة الفعلية ، نحو :

علي حين عاتبت المشيب على الصبا^(٣٣٥) .

فأضاف الظرف إلى الفعل ، وقياس الفعل ألا يضاف إليه ، ولكن لوحظ فيه معنى المصدر فصحت الإضافة^(٣٣٦) .

ويعني الحمل على المعنى على هذه الصورة العدول بالكلام عن طريقته إلى طريقة أخرى تصرفاً في الفصاحة وتفناً في العبارة^(٣٣٧) ، وهذا ما يجعلهم يخرجون بالكلام عن أصوله إلى صياغة تنحرف عن الأصل لغرض معنوي خاص .

وقد جعله ابن جنّي أحد أنواع الكلام الذي بُجده في القرآن الكريم وفصيح الكلام منشورا ومنظوماً ، ويّين أنه أنواع عدة كتأنيث المذكر ، وتذكير المؤنث ، وتصوير معنى الواحد في الجماعة ، والجماعة في الواحد ، وفي حمل الثاني على لفظ قد يكون عليه الأول - أصلاً كان ذلك اللفظ أو فرعاً^(٣٣٨) - وتبين من كلام ابن جنّي على هذا الأسلوب أنه واحد من الأساليب العربية في التعبير عن المعنى ، وهو ذو أفانين كثيرة مما جعله يصفه بأنه «غور من العربية بعيد ، ومذهب نازح فسيح»^(٣٣٩) .

وقد يصل الأمر بهذا النوع من الصياغة الكلامية إلى حد الإلغاز ، ذلك أن معرفة مقصد المتكلم يحتاج في فهمه إلى فضل تأمل ، وإعمال ذهن ، وقد أتى الزمخشري في أحاجيه على مثل هذا النوع من الكلام المعدول به عن طريقه ، فيأتي لفظه على معنى والمراد معنى آخر ، ومثل له بقولهم : «نشدتك الله لما فعلت» ، وجعل هذه الصيغة من الكلام المحرف عن وجهه المعدول عن طريقته ، وقد ذهب قائلوه مذهب ما أغربوا به على السامعين من أمثالهم ونوادير ألغازهم وأحاجيهم وملحهم ، ثم بين وجه عدله بأن الإثبات فيه قام مقام النفي ، والفعل مقام الاسم ، أمّا أصله فهو : «ما أطلب منك إلا فعلك»^(٣٤٠) ، ويعني أنه أقيم الفعل في العبارة مقام الاسم ، فأقيم «فعلت» مقام «فعلك»^(٣٤١) .

ويمكن أن نجعل ما ذكره ابن جنّي عن أنواع الحمل على المعنى هادياً لنا في بحثه ، فندرسه عند أشهر باحثيه من لحاة ومفسرين وبلاغيين . ونبتدي بحث هذه الطريقة الكلامية بمسألة التذكير والتأنيث .

فقد يستعمل اسم الإشارة «هذا» ، وهو للمشار إليه المذكر

للإشارة إلى المؤنث ، فيحتاج ذلك إلى التأويل على أن المشار إليه أنزل منزله المذكور ، وإن كان لفظه لفظ المؤنث ، ولذلك أول قوله تعالى : « فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربي » (٣٤٢) ، فحملها الأنخفش على « هذا الشيء الطالع ربي » ، ويعني ذلك تقدير محذوف على أن يبقى اسم الإشارة على أصل وضعه من الدلالة على المذكور (٣٤٣) ، وعلى هذا النحو جرى تأويل دخول اسم الإشارة المذكور في الآية على المؤنث عند ابن جني ، فجعل معنى قوله تعالى : هذا الشخص أو هذا المرئي ونحوه (٣٤٤) .

واتسع الأنخفش في التأويل حفاظاً على أصل المعنى على عادة النحاة ، فأول الآية على أنه ظهرت الشمس وقد كانوا يذكرون الرب في كلامهم ، قال لهم : « هذا ربي » ، وإنما هو مثل ضربه لهم ليعرفوا إذا هو زال أنه لا ينبغي أن يكون مثله إلهاً ، وليدلهم على وحدانية الله (٣٤٥) ، فهو لم يقصد الإشارة إلى الشمس نفسها ، وإنما ذهب الكلام إلى الرب .

ومثل ذلك ما كان من تأويلهم قوله تعالى : ﴿ هذا بصائر من ربكم ﴾ (٣٤٦) ، وقوله تعالى : ﴿ هذا بصائر للناس ﴾ (٣٤٧) . فذهب المفسرون في هاتين الآيتين مذهب أبي عبيدة ، وهو مذهب النحاة ، ونعني به التأويل لتثبيت القاعدة ، وحمل ظاهر الكلام على أصل المعنى ، وقد جعل أبو عبيدة « هذا » مشيراً إلى محذوف هو « القرآن » ، وشرح الآية الأولى بقوله : « هذا القرآن مسائلي عليكم ، فلذلك ذكره » (٣٤٨) ، واستشهد على كلامه بقول الشاعر :

قَبَّلْنَا سَبْعَ وَأَنْتُمْ ثَلَاثَةٌ وَلِلسَّبْعِ أَزْكى مِنْ ثَلَاثٍ وَأَكْثَرُ
وفسره على أنه ذكر « ثلاثة » لأنه ذهب به إلى بطن أمه ، ثم
أنه لأنه ذهب به إلى قبيلة (٣٤٩) .

فالشاعر حمل كلمة «ثلاثة» على معنيين مختلفين ، وحين نحمل الكلمة على معنى المذكر فإننا ندلّ بها عليه ، وإن حملناها على المؤنث دللنا عليه بما يناسبه ، ولذلك قاسم الإشارة جاء مذكراً ، لأن كلمة بصائر ، ليست في الآية على معنى المؤنث ، وإنما هي محمولة على معنى الحجج والبيان والبرهان^(٣٤٩ مكرر) ، فكأنه قال : هذا بيان أو برهان ، فذهب باللفظ إلى معنى المذكر وساغ الإشارة إليه بما يدل على المذكر وساغ الإشارة إليه بما يدل على المذكر . وهذا التأويل هو ما ذهب إليه الطبري الذي قدر كلمة «القرآن» محذوفة^(٣٥٠) ، وهو مذهب القرطبي^(٣٥١) والألوسي في روح المعاني^(٣٥٢) .

ونتبين من كلام أبي عبيدة وابن جنّي أن الحمل على المعنى هو نوع من تحميل اللفظة معنى على خلاف معناها الأصلي بالتذكير أو التانيث ، ويبين ابن جنّي ذلك من خلال شواهد عديدة، منها قول الخطيب :

ثلاثة أنفس وثلاث ذُود

لقد جاز الزمان على عيالي^(٣٥٣)

حيث أوّل تانيث العدد ثلاثة على أن الشاعر حمل كلمة الأنفس التي مفردها نفس على الانسان ، فجعلها مذكراً ، ولذلك نجالف العدد معدوده^(٣٥٤) .

ومن أنواع الحمل على المعنى إطلاق لفظ الواحد وإرادة الجمع ، فقد وردت بعض الصياغات وفيها استعمل لفظ الواحد وأريد الجمع ، كما وردت صياغات أخرى أطلق فيها لفظ الجمع وأريد الواحد والاثنان ، وهو نوع من الافتنان في اللفظ ، والتوسيع في التعبير .

فقد قيل : «هو أحسن الفتیان وأجمله» ، فأفرد الضمير ، لأن

موضع الحديث عن الجمال الذي يتميز به فرد من بين الناس جميعاً ،
ولذلك فإن الواحد يكثر في هذا الموضع ، وذلك لتمييزه من الناس ،
وحمل على ذلك قول ذي الرّمة :

ومية أحسن الثقلين وجهاً وسالفة وأحسنه قدّالا

فأفرد الضمير مع قدرته على الجمع ، لأن ذلك ليس موضع
ضرورة شعرية ، وما فعل هذا إلا جرياً على عادة عربية ، وأسلوب
معروف ، مما يدل على أنه قد قصد إلى ذلك قصداً ليميز حسن
المحبة من الناس ، فكان قصده معنوياً وإفراده الضمير مراداً ^(٣٥٥) .
وقد حملت على هذا الموضع آيات كريمة منها قوله تعالى :
﴿نُخْرِجْكُمْ طِفْلاً﴾ ^(٣٥٦) ، وقد أولها أبو عبيدة على أن «طفلاً»
جاء على لفظ الواحد وأريد به الجمع فهو في «موضع أطفال ،
والعرب تضع لفظ الواحد في معنى الجميع» ^(٣٥٧)

وقد تحمل العرب في مقابل ذلك على المعنى أيضاً فتطلق لفظ
الجمع وتريد به الواحد أو الاثنين . وحملوا على ذلك قوله تعالى :
﴿وإن نَعَفُ عن طائفة منكم نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ ^(٣٥٨)

وأولت الآية على إطلاق لفظ الجمع وإرادة الواحد ، ويدل
على ذلك مناسبتها ، فقد كان رجل من القوم لا يمالئهم على
أقوالهم في النبي صلى الله عليه وسلم ، ويسير بجانبهم ، فسماه
الله جلّ ثناؤه طائفة وهو واحد ^(٣٥٩) ، وذلك لأنه مثل في ذاته
طائفة تقابل الطائفة الأخرى .

والحقيقة أن الحمل على المعنى - كما يقول ابن جني
واسع في هذه اللغة جداً ^(٣٦٠) ، وينحو منحى عديدة لا يتم حصرها ،
وذلك أن تغيير دلالة الألفاظ إلى معان أخرى طريقة أسلوبية واسعة

تحتاج إلى دراسة مفردة ، ويمكن أن يحمل عليها أي تغيير في دلالة لفظة لم تأت في السياق بمعناها الوضعي المعروف ، وهذا ما حمل ابن جني على أن يؤول قول النابغة :

إذا تغنى الحمام الورق هيجني ولو تغزيت عنها أم عمار

ويجعلها من قبيل الحمل على المعنى ، وذلك بتغير دلالة هيجني الذي دلّ هنا على معني ذكرني ، فساغ أن ينصب «أم» ، وذلك من قبيل الاكتفاء بالمسبب الذي هو التهيج عن السبب الذي هو التذكير (٣٦١).

وقد جعل ابن قتيبة هذا النوع من طرائق التعبير من باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه (٣٦٢) ، واحتفل البلاغيون بهذه الطريقة في التعبير ، وجعلوا ما ينضوي تحتها نوعاً من الالتفات الذي يحمل كثيراً من أفكار النحاة عن خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، والحمل على المعنى ، من ذلك تحويل الخطاب من الشاهد إلى الغائب ، وتحويل الخطاب من الغائب إلى الشاهد (٣٦٣) ، وتغيير أزمنا الفعل للتفخيم (٣٦٤) .

ونظروا إلى هذه المسألة بمعيارين ، أحدهما : أن تنويع الخطاب ، وخروج الكلام عن ظاهره إنما هو تفنن في الكلام وانتقال من أسلوب إلى أسلوب تطريه لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه (٣٦٥) ، والثاني : أن هذا الانتقال إنما هو مقصود على العناية بالمعنى المقصود ، وذلك المعنى يتشعب شعباً كثيرة لا تنحصر ، وإنما يؤتى بها على حسب الموضع الذي ترد فيه (٣٦٦) .

غير أن هذا الخلاف في قيمة الالتفات لم يمنعهم من تركيته ، والنظر إليه على أنه خلاصة علم البيان ، وهو الذي تستند إليه البلاغة (٣٦٧) .

عناصر المجاز الأسلوبي وقيّمته :

يرى علماء اللغة المعاصرون أن ما يسمى «علم الأسلوب» «Stylistics»، يمكن أن يطلق على أنواع مختلفة من الدراسات ، بيد أنهم يتفقون جميعاً على أنه علم يتضمن صورة أو أخرى من تحليل تراكيب النصوص تحليلاً لغوياً^(٣٦٨) ، ويهتمون لذلك بما يسمى «النحو التوليدي» ، لأنه يستطيع أن يمنح الدارس القدرة على دراسة التركيب وظواهره من خلال تحليل بنياته السطحية والعميقة، ودراسة دلالاته^(٣٦٩).

ولا تعدو دراسة المجاز الأسلوبي دراسة للتركيب العربي داخل النص ، وتقوم هذه الدراسة كما لاحظنا على التغيرات التي تطرأ على هذا التركيب من تقديم وتأخير ، وحمل على المعنى أو اللفظ ، وتضمين ، واتساع ، مما يغير دلالة التركيب ، ويختلف تقدير هذه الدلالة من دارس إلى آخر ، ذلك أن الثقافة اللغوية ، أو الثقافة العقديّة وغيرهما تتدخلان في هذا الموضوع من وجه أو آخر.

وقد كانت دراسة علماء اللغة والتفسير والبلاغة للتركيب العربي داخل النص القرآني ، أو ذاك الذي يؤلف النصوص الشعرية وغيرها من أجل الدراسات الأسلوبية التي تعتمد على مناهج علمية ، لها أسسها ومعاييرها ونتائجها الموضوعية . فقد اصطفوا لذلك أنواعاً من التحليل تقوم على :

- تحليل المفردة داخل السياق من حيث دلالتها وبنيتها.
- تحليل التركيب من حيث ما اعتراه من تغيير بالتقديم والتأخير والحذف.

- أثر التركيب على المفردات من حيث تغيير دلالاتها الوضعية أو الاتساع أو الحمل على المعنى (٣٧٠).

وكان منهجاً التفسير والتأويل طريقين علميين متضافرين ، وأن كانا في الظاهر مختلفين ، وقد استطاعا أن يبيننا بطرائق مختلفة أحوال النص ، وأن يدرسا من خلال ما سمي أصل المعنى أو أصل القاعدة كثيراً من ظواهر البنية العميقة التي تكمن وراء السطح الظاهري للنص ، وهذا ما قام عليه منهج سيبويه حين درس التركيب العربي ، وأقام الأسس النحوية لمن درس النص القرآني الكريم كأبي عبيدة والأخفش والفراء ومن سار على نهجهم كعبد القاهر الجرجاني .

ولذلك يمكن أن نزعّم أن دراسة «الأسلوب المجازي» في اللغة العربية ، تعني فيما تعنيه الإمام بما يعدّ منهجاً موضوعياً للدراسة النص «الأدبي» الذي كتب بالعربية الفصحى ، ذلك أن النصّ العربي إنما تتجلى قيمته من خلال ما يحتويه من عناصر هذا المجاز ، لأنها تكون صورته الجمالية التي تبتعد به عن الكلام العادي ، وتؤلف مجتمعة القواعد التي يجب ادراكها لإبداع النص أو دراسته وفهمه.

ويعدّ النصّ القرآني الكريم النصّ الأمثل لدراسة الصورة الجمالية في النص العربي ، ولذلك فإن أكثر الدراسات التي بين أيدينا إنما تجعل منه حالة خاصة يتجلى فيها جميع ما في العربية من أساليب جمالية ، فكان نصّاً أدبياً سامياً ، فقد اشتغل على هذه الأساليب جميعاً على حين أخذت منها النصوص الأخرى بعض ظواهرها.

ولذلك تتجلى صورة عناصر الأسلوب المجازي في كتب

الدراسات القرآنية التي حلّلت النصّ القرآني ، مثل كتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة ، ومعاني القرآن للأخفش ، ومعاني القرآن للفرّاء ، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني.

ويُعَدّ كتاب أبي عبيدة أول كتاب في العربية نظّر إلى النصّ القرآني نظرة تحليلية أسلوبية ، فيها من عناصر الموضوعية والعلمية ما يُدهش ، ذلك أنه جعل النصّ مدار عمله ، وبَيّن طبيعة أسلوبه من خلال دراسة مقارنة بأساليب العربية المعروفة ، وقد وضع فيه أبرز عناصر «المجاز الأسلوبى».

وقد تجلّت جميعها في قوله : « ففي القرآن ما في الكلام العربي من الغريب والمعاني ، ومن المحتمل من مجاز ما اختصر ، ومجاز ما حذف ، ومجاز ما كفّ عن خبره ، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد ووقع على الجميع ، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الجميع ووقع معناه على الاثنين ، ومجاز ما جاء لفظه خبر الجميع على لفظ خبر الواحد ، ومجاز ما جاء الجميع في موضع الواحد إذا أشرك بينه وبين آخر مفرد ، ومجاز ما خبرّ عن اثنين أو أكثر من ذلك ، فجعل الخبر للواحد أو للجميع وكفّ عن خبر اثنين أو عن أكثر من ذلك ، فجعل الخبر للأول منهما ، ومجاز ما جاء من لفظ خبر الحيوان والموات على لفظ خبر الناس ... ومجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الغائب ومعناه مخاطبة الشاهد ، ومجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ، ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب ، ومجاز ما يزداد من حروف الزوائد ويقع مجاز الكلام على القائلين ، ومجاز المضمّر استغناء عن اظهاره ، ومجاز المكرر للتوكيد ، ومجاز الجمل استغناء عن كثرة التكرير ، ومجاز المقدّم والمؤخر ، ومجاز ما

يجول من خبره إلى خبر غيره بعد أن يكون من سببه ، فيجعل خبره للذي من سببه ويترك هو » (٣٧١) .

تلك هي صورة «المجاز الأسلوبى» لدى أبى عبيدة ، وهي تعبير عن إدراكه لما أصّله النحاة علماء التركيب العربى في دراساتهم ، فاستطاع أن ينقل نتائج عملهم إلى تطبيق جمالى واسع ، ودرس فيه أسلوب القرآن وفق ما أتاحتها نتائج أبحاث النحاة من قواعد ومسائل . فلم ينظر إلى النحو أو الدراسة اللغوية على أنها قواعد تحفظ وتلقن ، وإنما جعلها دراسة واعية لأسلوب النصّ القرآنى ، فخرج بظواهر أسلوبية بنجدها في كتب النحو معضّاة .

والحقيقة أن أبا عبيدة درس في مجاز القرآن أفانين الكلام العربى ، فتجلى لديه المجاز على صورة دراسة في دلالة المفردات ، كما في الآية الكريمة ﴿ في عيشة راضية ﴾ (٣٧٢) ، فخرجت «راضية» مخرج لفظ صفتها ، والعرب تفعل ذلك إذا كان من السبب في شيء : يقال : نام ليلة ، وإنما ينام فيه (٣٧٣) ، فتحوّلت دلالة المفردة من الدلالة على اسم الفاعل إلى الدلالة على اسم المفعول (٣٧٤) ، وهو ما تنبّه عليه علماء البلاغة من بعد ، فجعلوا ذلك نوعاً من المجاز ، وقد يكون هذا التحول على سبيل التضمين كقوله تعالى : ﴿ أحلّ لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾ (٣٧٥) ، أي الإفضاء إلى نساءكم ، أي النكاح (٣٧٦) ، فضمن معنى الرفث ، وهو الكلام القبيح معنى الإفضاء لإفادة المعنيين فعدها تعديته (٣٧٧) .

ودرس إلى ذلك ظواهر أسلوبية صارت عمدة في دراسات البلاغيين من بعد ، وهي أقرب إلى الدراسة الأسلوبية الشاملة ، ومنها :

— التقديم والتأخير : فقد أوّل بعض الآيات على التقديم

والتأخير ، ومنها قوله تعالى : ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَاهَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ﴾^(٣٧٨) ، جعلها على التقديم والتأخير ، أي ربت . واهتزت^(٣٧٩) .

- الحذف والأضمار : فقدّر في قوله تعالى : ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾^(٣٨٠) ، محذوقاً ، وجعل ذلك من مجاز الحذف ، وذكر أن تقدير المحذوف : هذا بسم الله ، أو بسم الله أول كل شيء ونحو ذلك^(٣٨١) . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾^(٣٨٢) ، وقدّره على الحذف وجعل مجازه : وسل أهل القرية ، ومن في العير^(٣٨٣) .

- الحمل على المعنى والالتفات : وجعل ذلك من مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الغائب ، ومعناها للشاهد ، كقوله تعالى : ﴿أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾^(٣٨٤) ، فمجازه ألم هذا الكتاب ، أو من مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ، ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب ، كقوله تعالى : ﴿وَحَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكَ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾^(٣٨٥) ، وفسر ذلك بأن المقصود «بكم»^(٣٨٦) .

ومن ذلك مجاز ما جاء من لفظ خبر الجميع المشترك بالواحد الفرد على لفظ خبر الواحد ، كقوله تعالى : ﴿أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾^(٣٨٧) ، جاء فعل «السَّمَاوَاتِ» على تقدير الواحد لما أشركن بالأرض^(٣٨٨) .

- التشبيه : يذكر أبو عبيدة التشبيه في شرحه لقوله تعالى : ﴿نِسَاءَ كَمْ حَرَّثَ لَكُمْ﴾^(٣٨٩) ، حيث يقول : كناية ، وتشبيه^(٣٩٠) .

- التمثيل : جعله من أنواع المجاز ، فقال في قوله تعالى : ﴿عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾^(٣٩١) : مجاز الآية مجاز التمثيل لأن ما بنوه

على التقوى أثبت أساساً من البناء الذي بنوه على الكفر والنفاق فهو على شفا جرف ، وهو ما يجرف من سيول الأودية ، فلا يثبت البناء عليه ، (٣٩٢).

واستطاعت دراسة أبي عبيدة أن تكون ذات أثر بين في تابعيه من الدارسين ، فقد شغفهم بما بينه من قواعد الأسلوب العربي ، وبما ساقه من دلائل على جمال النظم في القرآن وإن لم يكن يشير إلى مواضع الجمال . فإنه فسح الطريق لمن جاء بعده لكي يبني على ما أسسه .

وهذا الإعجاب بما في أساليب العرب من جماليات دفع الجاحظ «- ٢٥٥هـ) لأن ينظر نظرة مغيرة لنظرة الرواة في عصره فييدي اعجابه بالأسلوب العربي ، ويهيء لمن يأتي بعده طريق البحث في طبيعة هذه الجماليات ، فعدي عن الاهتمام بالمعاني ، وهي ما كان المفسرون واللغويون والرواة يجعلونها ديدنهم (٣٩٣) ، ورأى أن المعاني مبسطة إلى غير غاية ، ممتدة إلى غير نهاية ، أما الألفاظ فمحصورة محدودة ومقصورة معدودة (٣٩٤) ، وبهذا يتفاضل البلغاء وأصحاب الأساليب ، ذلك أنهم ينسجون من هذه الألفاظ البدائع إن هم فهموا طبيعة الأسلوب.

وانتقلت أفكار أبي عبيدة التي نثرها في كتابه إلى ابن قتيبة «- ٢٧٦هـ» ، فجمع في كتابه تأويل مشكل القرآن ما جاء به أبو عبيدة ، وجعل ذلك كله مجازاً ، وفسره بأنه طريق القول ومأخذه ، وما طريق القول إلا أسلوب العرب الذي يصطنعونه في كلامهم ، وبني كتابه على تفسير ما سماه مجازات العرب في كلامها (٣٩٥) ، وهي التي نزل القرآن الكريم بها (٣٩٦) .

وسار على النهج ذاته ابن فارس «- ٣٩٥هـ» في القرن

المهجري الرابع ، فاصطنع نهج ابن قتيبة في البحث عن سنن العربية في كلامها ، وما هذه السنن إلا ما جعله أبو عبيدة «مجازاً» ، فنقل طريقة أبي عبيدة في تحليل النص القرآني وقسمها على أبواب الكتاب ، ورأى أن سرّ فهم النصّ القرآني لا يتأتى بمعرفة غريب اللغة ووحشي الكلام ، وإنما تنهياً هذه المعرفة لمن أدرك أصول الصياغة اللغوية على أساليب العرب الفصحاء^(٣٩٧) ، فقسم كتابه أبواباً يدرس فيها ما ذكره أبو عبيدة من صفات الأسلوب معضّي في كتابه.

وتصل هذه الدراسات كلها إلى عبد القاهر الجرجاني «٤٧٢هـ» ليبني دراسته في دلائل الإعجاز على ما في أساليب العرب من السمات الأسلوبية ، كالتقديم والتأخير ، والحذف والإيضاار ، والاستعارة ، والكناية ، والمجاز ، في دراسة تتوخى علاقات الألفاظ ، ودراسة أثر هذه الأساليب على المعنى وتحوّلاته بتحوّلها.

ويخبر - مع الأسف - بريق «المجاز الأسلوبي» بعد الجرجاني، لتصبح دراسة الأسلوب العربي اشتاتاً مبعثرة في كتب علم البلاغة لدى المتأخرين ، كالسكاكي والقزويني وغيرهما ، فيتحوّل البناء الضخم إلى أحجار مبعثرة تنتظر إعادة جمعها وبنائها من جديد.

هوامش الفصل الرابع :

- (١) البيان والتبيين ١/١٤٥ .
- (٢) الخصائص ١/٣٣ .
- (٣) سيكولوجية اللغة والمرض العقلي ، ص ٦٦ .
- (٤) البيان والتبيين ١/١٦١ .
- (٥) نفسه ١/١٦٢ .
- (٦) سيكولوجية اللغة والمرض العقلي | ص ٦٨ .
- (٧) النساء ٤٣ .
- (٨) المجاز وأثره في الدرس اللغوي ، ص ١٥ .
- (٩) دلائل الاعجاز ، ص ٢٦١ .
- (١٠) زجر النابح ، ص ٦٤ .
- (١١) زجر النابح ، ص ٦٤ .
- (١٢) الصاحبي ٦٩ .
- (١٣) نفسه .
- (١٤) نفسه ، ص ٧٠ .
- (١٥) يملخ في الباطل ملخاً : أي يمرّ فيه مرأً سهلاً ، اللسان «ملخ»
، ٥٧/٣ . - الصاحبي ٧٣ .
- (١٦) عينان : اسم جبل بأحد ، وهو الجبل الذي أقام عليه الرماة
يوم أحد . وفي حديث عثمان رضي الله عنه ، قال له عبد
الرحمن بن عوف يعرض به : إني لم أفر يوم عينين . اللسان
«عين» ٣٠٨/١٣ .
- (١٧) الآية في سور عديدة ، منها البقرة ، الآية ٤٣ .
- (١٨) الصاحبي ٧٤ .

- (١٩) الصاحبي ٧٤ . والغمرات جمع غمرة وهي الشدة ، اللسان «عمر» ٢٩/٥ .
- (٢٠) ٧٥ . واللج : السيف ، وقفي : قفائي . أساس البلاغة ٤٠٤ . واللسان (الجج) ٣٥٤/٢ .
- (٢١) الصاحبي ٧٠ .
- (٢٢) أسرار البلاغة ١١٨ .
- (٢٣) نفسه .
- (٢٤) نفسه ١٢٠ .
- (٢٥) دلائل الاعجاز ص : ٥٥ و ١٠٦ و ١٤٦ و ٣٦٢ . والمجاز والدرس اللغوي ص : ١٧ .
- (٢٦) ديوانه ٣ / ٣٦٩ .
- (٢٧) أسرار البلاغة ١٢٠ .
- (٢٨) المجاز والدرس اللغوي ١٨ .
- (٢٩) المستصفي ١ / ٣٣٩ .
- (٣٠) الأنعام ١٤١ . أريد بالحق ما كان يتصدق به المساكين يوم الحصاد ، وكان ذلك واجباً حتى يسجحه افتراس العُشُر ونصف العُشُر . وذلك على أن الآية مكّية والزكاة إنما فرضت بالمدينة . وقيل مدنية ، والحق هو الزكاة المفروضة . ومعناه واعزموا على ابتاء الحق واقصدوه . واهتموا به يوم الحصاد حتى لاتؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإبتاء .
- (٣١) الكشف للزخشي ٥٦/٢ .
- (٣٢) المستصفي ١ / ٣٣٩ - ٣٤٠ .
- (٣٣) الزمر ٦٧ .
- (٣٤) المستصفي ١ / ٣٤٠ .
- (٣٥) الكشف ٣ / ٤١٨ .
- (٣٦) نفسه ٣ / ٤٠٩ .

- (٣٧) الكشف ٣/ ٤٠٨ .
- (٣٨) المستصفى ١/ ٣٤٠ .
- (٣٩) شرح المفصل ١/ ١٢٥ .
- (٤٠) البيان والتبيين ١/ ١١٦ .
- (٤١) نفسه ١/ ٧٦ .
- (٤٢) نفسه . ١/ ٧٧ .
- (٤٣) وهذا العمل أقرب ما يكون إلى مفهوم البنية السطحية والبنية العميقة لدى الدارسين والمحدثين .
- (٤٤) الإتيان للسيوطي ٢/ ٣١ وشرح الجلال المحلي ١/ ٢٣٥ - غاية الوصول شرح لب الأصول ، ص : ٣٧ وعلم أصول الفقه لعبد الوهاب بخلاف ١٢٣ .
- (٤٥) شرح الجلال المحلي ١/ ٢٣٩ - ٢٤٠ وعلم أصول الفقه ١٤٦ .
- (٤٦) شرح الجلال المحلي ١/ ٢٣٥ ، والإتيان ٢/ ٣٦ . وغاية الأصول ص ٣٧ .
- (٤٧) علم أصول الفقه ص ١٤٨ .
- (٤٨) يوسف ٨١ .
- (٤٩) الإتيان ٢/ ٣٦ .
- (٥٠) شرح الجلال المحلي ١/ ٢٣٩ .
- (٥١) حاشية البناي ١/ ٢٣٩ .
- (٥٢) الإسراء ٢٣ .
- (٥٣) شرح الجلال المحلي ١/ ٢٤٣ - ٢٤٤ .
- (٥٤) أنظر صلة الجرحاني بالدراسات الأصولية في بغية الوعاة ٢/ ١٠٦ ، وفي مقدمة دلائل الإعجاز ، تحقيق د. رضوان الداية وأخيه ، ص ٧ .
- (٥٥) دلائل الإعجاز ص ٢٦٢ .

- (٥٦) نفسه ، وانظر تصوّر الزمخشري لمفهوم «بجاز المجاز» في أساس البلاغة ، مادة «دعو» .
- (٥٧) نفسه .
- (٥٨) نفسه .
- (٥٩) نفسه ص ٢٦٣ .
- (٦٠) الصاحبي ٣١٢ ، والبرهان ٢ / ١٤٦ .
- (٦١) الصاحبي ص ٣١٢ .
- (٦٢) نفسه ، ٣١٣ .
- (٦٣) المقاييس ٤ / ١٤٦ - ١٤٨ .
- (٦٤) نفسه ٤ / ١٨٤ - ١٤٩ .
- (٦٥) الصاحبي ٣١٢ - ٣١٤ .
- (٦٦) نفسه ٣١٤ .
- (٦٧) المقاييس ٤ / ٥٠٤ .
- (٦٨) البرهان ٢ / ١٤٧ .
- (٦٩) نفسه .
- (٧٠) نفسه .
- (٧١) نفسه .
- (٧٢) نفسه .
- (٧٣) الصاحبي ٣١٤ .
- (٧٤) المقاييس ١ / ١٥٩ ، واللسان (أول) ١ / ٣٣ ، وأسرار البلاغة ، ص ٧٩ .
- (٧٥) البرهان ٢ / ١٤٨ ، والنهاية في غريب الخديث والآثر ١ / ٨٠ ، واللسان «أول» ١ / ٣٣ .
- (٧٦) لسان العرب (أول) ١ / ٣٣ ، والبرهان ٢ / ٤٨ ، وحاشية البنان ٢ / ٥٢ .
- (٧٧) أسرار البلاغة ص ٧٩ .

- (٧٨) الإتقان ١٧٣/٢ .
- (٧٩) هذا مذهب أبي عبيدة وطائفة معه ، كما ذكر السيوطي في
الاتقان ٢ : ١٧٣ .
- (٨٠) البرهان ١٤٩/٢ .
- (٨١) ذكر ابن تيمية ذلك في كتابه « موافقة صريح المعقول
وصحيح المنقول » . وملخص أرائه في الموضوع نقلناه من
التأويل النحوي في القرآن الكريم ١ / ١٠ .
- (٨٢) اللسان «أول» ٣٣/١ .
- (٨٣) البرهان ١٤٩/٢ .
- (٨٤) تفسير القرطبي ٤/١٥ - ١٦ .
- (٨٥) البرهان ١٥٠/٢ .
- (٨٦) نفسه .
- (٨٧) الاتقان ١٧٣/٢ .
- (٨٨) الزخرف ٢٦ .
- (٨٩) معاني القرآن للفراء ٣/٢٠ .
- (٩٠) الأمالي ٢/٣٠٠ .
- (٩١) نفسه .
- (٩٢) - انظر على سبيل المثال - الأمالي : ١٢/١ - ٣٨/١ -
٤٢/١ ، وشرح أشعار الهدالين للسكري ، وتفسير أرجوزة
أبي نواس لابن جني .
- (٩٣) ضحى الاسلام ٤/١٠ .
- (٩٤) نفسه .
- (٩٥) التأويل النحوي في القرآن الكريم ص ٢٥ : والبرهان ص ١٥٠ .
- ١٥١ .
- (٩٦) التحبير في علم التفسير ١٥١ - ١٥٢ .
- (٩٧) نفسه . ص ١٥٣ .

- (٩٨) النمل ٦٥ - ٦٦ .
- (٩٩) تأويل مشكل القرآن ص ٣٥٤ .
- (١٠٠) هود ١١٨ .
- (١٠١) أمالي المرتضى ١/٧٠ .
- (١٠٢) نفسه ١/٧٠ - ٧١ .
- (١٠٣) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال . الكشاف ٤/٤٦ .
- (١٠٤) الرحمن ٢٧ .
- (١٠٥) الكشاف ٤/٢٧ .
- (١٠٦) مقدمة الكشاف ١/١٦ .
- (١٠٧) البقرة الآية ٢ .
- (١٠٨) حمل السيد الشريف الجرجاني «لا» في هذا الموضع على الزيادة ، لأن إثباتها يفسد المعنى ، انظر حاشيته على الكشاف ١/١١٣ .
- (١٠٩) الكشاف ١/١١٣ - ١١٤ .
- (١١٠) مقدمة محقق لطائف الاشارات ١/٢٢٠ .
- (١١١) البقرة ١٩٣ .
- (١١٢) لطائف الاشارات ١/١٦١ .
- (١١٣) مشكل الحديث وبيانه لابن فورك ص ١٩١ ونجد فيه تخريج الحديث
- (١١٤) نفسه . ص ١٩٢ .
- (١١٥) نفسه . ص ١٩٢ - ١٩٣ .
- (١١٦) الالتقان ١/١٢١ .
- (١١٧) تأويل مشكل القرآن ص ٨٦ .
- (١١٨) في اللسان « غر » ١٣/٥ : التفرقة مصدر غرقة : إذا ألقيت في الغر ، وهو من التفرير ، كالتجلة من التعليل ونقل عن الأزهرى قوله في شرح هذا الأثر : لا يبايع الرجل إلا بعد

مشاورة الملائكة من أشرف الناس واتفاقهم ، ثم قال : ومن بايع رجلاً من غير اتفاق من الملائكة لم يؤمر واحد منهما بغرة . بمكر المؤمر منهما ، لئلا يقتلا أو أحدهما ، ونصب تغراً لأنه مفعول به ، وإن شئت مفعول من أجله وقوله : أن يقتلا : أي حذار أن يقتلا ، وكراهة أن يقتلا .

- (١١٩) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٩٣ - ٩٤ .
 (١٢٠) أمالي المرتضى ١ / ٩٣ ، والمتنبي يخاطب في البيت «الشيب» .
 (١٢١) نفسه . ٩٤ / ١
 (١٢٢) التأويل النحوي في القرآن الكريم ١ / ١٣ .
 (١٢٣) الانصاف ، المسألة (٩) ١ / ٧٠ .
 (١٢٤) نفسه المسألة (٢٨) ١ / ٢٤٣ .
 (١٢٥) البحر المحيط ١ / ٢٥٨ .
 (١٢٦) الاقواح للسيوطي ، ص ٢٩ .
 (١٢٧) الجاثية ٣٢ .
 (١٢٨) شرح الرضي على الكافية ١ / ٢٣٥ .
 (١٢٩) نفسه .
 (١٣٠) مثاله : ماضربني إلا زيد ، والتقدير ماضربني أحد إلا زيد .
 والمفرغ في الحقيقة هو الفعل قبل إلا ، لأنه لم يشتغل .
 منه فعل في المستثنى . انظر شرح الرضي على الكافية ١ / ٢٣٤ .
 (١٣١) شرح الرضي على الكافية ١ / ٢٣٦ .
 (١٣٢) التأويل النحوي في القرآن الكريم ٢ / ١١٨٨ .
 (١٣٣) المغني ٢ / ٦٩٥ .
 (١٣٤) شرح الرضي على الكافية ١ / ٢٣٦ .
 (١٣٥) الكشف ٣ / ٥١٤ .
 (١٣٦) البحر المحيط ٨ / ١٢٤ ؛ ١٤٨ ، ٢١٢ .

- (١٣٧) شرح الرضي على الكافية ٢٣٦/١ .
- (١٣٨) يوسف ٥٣ .
- (١٣٩) الكشف ٢ / ٣٢٧ وانظر معاني القرآن للفراء ٤٨/٢ .
- (١٤٠) الخصائص ٢٨٣/١ .
- (١٤١) نفسه ٢٨٤/١ .
- (١٤٢) نفسه .
- (١٤٣) الخصائص ٢٨٤/١ ، قال المحقق في قوله : «استغفر الله ذنباً»
يريد قول الشاعر :
استغفر الله ذنباً لست محصيه
- رب العباد إليه الوجه والعمل
- (١٤٤) الأشباه والنظائر للسيوطي ٤٠٢/١ .
- (١٤٥) أسرار البلاغة ، ص ٧٠ - ٧٢ ، وفي الأصل « في النكر » .
وله وجه ، فالتكر : الدعاء والمطبة .
- (١٤٦) نفسه ص ٧٢ .
- (١٤٧) نفسه ص ٧٣ .
- (١٤٨) أسرار البلاغة ص ٧٢ - ٧٣ .
- (١٤٩) نفسه ص ٧٣ - ٧٤ .
- (١٥٠) نفسه ص ٧٤ - ٧٥ .
- (١٥١) نفسه ص ٧٤ .
- (١٥٢) انظر اللغة والكلام في الفصل الأول .
- (١٥٣) انظر مظاهر حيوية اللغة في الفصل الثاني .
- (١٥٤) مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة ، د. ميشال زكريا
ص ٣٠ .
- (١٥٥) نفسه .
- (١٥٦) نفسه .
- (١٥٧) نفسه .

- (١٥٨) انظر مكونات اللغة عند اللسانيين والمحدثين في المرجع السابق، ص ٣١ - ٣٢ . وانظر الفصل الأول «اللغة وحدها» و«اللغة والكلام».
- (١٥٩) المثل السائد ١ / ٧ - ٨ .
- (١٦٠) انظر على سبيل التمثيل فهرس الفوائد اللغوية في كتاب «الرسالة» للإمام الشافعي «- ٢٠٤ هـ» ، ص ٦٥٩ . والمقدمات اللغوية في إرشاد الفحول للشكواني .
- (١٦١) المثل السائر ١ / ٩ - ١٠
- (١٦٢) منهم ابن فارس «٣٩٥ هـ» ، وابن جنّي «٣٩٢ هـ» ، وعبد القاهر الجرجاني «٤٧٢ هـ» .
- (١٦٣) يعد من أبرزهم السكاكي صاحب مفتاح العلوم ، ومن سار على نهجه ، كالخطيب القزويني ، ومن شرح تلخيصه .
- (١٦٤) انظر الفصل الأول ، حيث أبحاث نشأة اللغة واللغة والكلام .
- (١٦٥) انظر الفصل الثاني الحقيقة اللغوية .
- (١٦٦) «فهم النص والكلام» : الفصل الثاني .
- (١٦٧) النقل : الفصل الأول
- (١٦٨) المقاييس ١/٤٩٤ ، واللسان «جوز» ٥ / ٣٢٦ .
- (١٦٩) المقاييس ١/٤٩٤ ، واللسان «نقد» ٣ / ٥١٥ / وفيه أنفدت القوم إذا خرقتهم ومشيت في وسطهم ، فإن جزتهم حتى تخلفهم قلت : نفذتهم «بلا ألف» أنفذهم ، قال : ويقال فيها بالألف .
- (١٧٠) اللسان «جوز» ٥ / ٣٢٦ .
- (١٧١) اللسان ٣/٣٢٦ .
- (١٧٢) أساس البلاغة ص ٦٩ .
- (١٧٣) الصاحي ٣٢٢ .
- (١٧٤) نفسه .

- (١٧٥) في اللسان «وضح ٦٣٥/٢ ، ودرهم وضح : نقيّ أبيض على النسب ، والوضح الدرهم الصحيح .
- (١٧٦) الصاحبي ٣٢٢ .
- (١٧٧) نفسه .
- (١٧٨) الكتاب ٥٣/١ .
- (١٧٩) الكتاب ٢٢٦/٤ .
- (١٨٠) المقتضب ٤٦/١ .
- (١٨١) انظر ترجمة أبي عبيدة في الزهر ٤٠٢/٢ - ٤٠٣ ، وفي مقدمة محقق «بجاز القرآن» ، ص ١٢ - ١٣ .
- (١٨٢) الزهر ٤٠٢ / ٢ - ٤٠٣ .
- (١٨٣) بجاز القرآن ص ١٣ .
- (١٨٤) نفسه ، ص ١٥ .
- (١٨٥) بجاز القرآن ٨/١ .
- (١٨٦) نفسه .
- (١٨٧) يوسف ٨٢ .
- (١٨٨) بجاز القرآن ٨/١ .
- (١٨٩) سورة البقرة ٢٦ .
- (١٩٠) سورة النازعات ٣٠ .
- (١٩١) بجاز القرآن ١٤/١ .
- (١٩٢) بجاز القرآن ص : ١٨ .
- (١٩٣) انظر «اللغة والكلام» في الفصل الأول .
- (١٩٤) البقرة ٣٠ .
- (١٩٥) بجاز القرآن ٣٥/١ - ٣٦ .
- (١٩٦) هود ١١٦ .
- (١٩٧) بجاز القرآن ٣٠٠/١ .
- (١٩٨) سورة بني اسرائيل «الامراء» ٣٦ .

- (١٩٩) مجاز القرآن ١ / ٣٣٠ .
- (٢٠٠) سورة بني اسرائيل «الاسراء» ٤
- (٢٠١) مجاز القرآن ١ / ٣٧٠ .
- (٢٠٢) سورة بني اسرائيل «الاسراء» ٢٣ .
- (٢٠٣) مجاز القرآن ١ / ٣٧٤ .
- (٢٠٤) النمل ٧٨ .
- (٢٠٥) فصلت ١٢ .
- (٢٠٦) تفسير الطبري ٨ / ٢٩٥ ، ويجعل ابن قتيبة معنى «القضاء»
في ذلك كله راجعاً إلى أصل واحد هو «الحتم» . انظر تاريل
مشكل القرآن ، ص ٤٤١ - ٤٤٢ .
- (٢٠٧) يونس ١ .
- (٢٠٨) قى ٢٣ .
- (٢٠٩) مجاز القرآن ١ / ٢٧٢ - ٢٧٣ .
- (٢١٠) مجاز القرآن ١ / ١٨ .
- (٢١١) نفسه ١١١ / ٢ .
- (٢١٢) انظر الخلاف في سنة وفاته في مقدمة كتابه «معاني القرآن»
التي صنعها المحقق ١١ / ١ .
- (٢١٣) معاني القرآن ١ / ٢١٧ .
- (٢١٤) معاني القرآن للقراء ٣ / ٢٧٠ و ١٨٢ / ٣ ، ومقدمة محقق
معاني القرآن للأخفش ١ / ٩٤ .
- (٢١٥) الحيوان ٥ / ٢٣ ، ٣٥ و ٥ / ٢٨ .
- (٢١٦) المقتضب ٤ / ٨٦ .
- (٢١٧) تأويل مشكل القرآن ٢٠ .
- (٢١٨) الأصول لابن السراج ١ / ٥٩ .
- (٢١٩) نفسه .
- (٢٢٠) الانصاف ، المسألة « ٨٨ » ٢ / ٦٣٤ .

- (٢٢١) الاشباه والنظائر ١/١٤٠
- (٢٢٢) الكتاب ٤ / ٩٧ ، والأصول لابن السراج ١ / ١٠١ .
- (٢٢٣) الاشباه والنظائر ١/١٤٠ .
- (٢٢٤) البيان والتبيين ١/١٣٨ .
- (٢٢٥) المثل السائر ٢/٣١٦ .
- (٢٢٦) البيان والتبيين ١ / ٩٦ .
- (٢٢٧) نفسه ١/١١٥ - ١١٦ .
- (٢٢٨) مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ . ص ٣٦
- (٢٢٩) البيان والتبيين ١ / ٩٦ .
- (٢٣٠) قانون البلاغة ص : ٤٤ .
- (٢٣١) الإيضاح ١/٢٨٠ .
- (٢٣٢) نفسه .
- (٢٣٣) نفسه ١/٢٨١ .
- (٢٣٤) الاشباه والنظائر ١/١٤٠ .
- (٢٣٥) الإسراء ٧٢ .
- (٢٣٦) الأصول ١/١٠٥ .
- (٢٣٧) الخصائص ٣/١٧٥ .
- (٢٣٨) المغني ٢/٧٢٤ .
- (٢٣٩) النحل ٨١ .
- (٢٤٠) المغني ٢/٧٢٥ .
- (٢٤١) نفسه .
- (٢٤٢) نفسه ٢/٦٧٨ .
- (٢٤٣) المغني ٢/٦٧٨ .
- (٢٤٤) فصلت ١٧ .
- (٢٤٥) معاني القرآن للقرآء ٣/١٤ . ومغني اللبيب ٢/٦٧٨ .
- (٢٤٦) المغني ٢/٦٧٨ .

- (٢٤٧) الكشف ٢٦/١ .
- (٢٤٨) حاشية السيد على الكشف ٢٦/١ .
- (٢٤٩) المغني ٦٧٨/٢ .
- (٢٥٠) المائدة ٣ .
- (٢٥١) الإشارة إلى الإيجاز ، ص ٣ .
- (٢٥٢) الفجر ٢٢ .
- (٢٥٣) نفسه ، ص ٤ ، وانظر تأويلاً آخر للآية في الكشف ٢٥٣/٤ .
- (٢٥٤) الحشر ٦ .
- (٢٥٥) الإشارة إلى الإيجاز ، ص ٤ ، وانظر الكشف ٨٢/٤ .
- (٢٥٦) يوسف ٣٢ .
- (٢٥٧) الإشارة إلى الإيجاز ، ص ٥ .
- (٢٥٨) الأصول ٢٥٥/٢ .
- (٢٥٩) نفسه ٢٤٧/٢ .
- (٢٦٠) نفسه ٢٥٥/٢ .
- (٢٦١) نفسه .
- (٢٦٢) مثال ذلك ما جاء في الكتاب ٢١١/١ و ٢٢٢/١ .
- (٢٦٣) الكتاب ٢٢٢/١ .
- (٢٦٤) يوسف ٨٢ .
- (٢٦٥) الكتاب ٢١٢/١ ، والأصول ٢٥٥/٢ ، ومعاني القرآن للفرّاء ٦١/١ .
- (٢٦٦) الكتاب ٢١٣/١ .
- (٢٦٧) الإيضاح للقرظيني ٤٥٤/٢ .
- (٢٦٨) الكتاب ٢١١/١ .
- (٢٦٩) نفسه ٢٣٠/١ .
- (٢٧٠) شرح المفصل ٣٩/٢ .

- (٢٧١) نهاية الإيجاز ، ص ٣٣٧ .
- (٢٧٢) الرمز ٩ .
- (٢٧٣) نهاية الإيجاز ، ص ٣٣٨ . ودلائل الإعجاز ، ص ١٥٤ .
- (٢٧٤) المقتضب ١١٦/٣ ، ودلائل الإعجاز ص ١٥٣ .
- (٢٧٥) دلائل الإعجاز ص ١٥٥ ، ونهاية الإيجاز ، ص ٣٣٨ .
- (٢٧٦) دلائل الإعجاز ص ١٥٥ - ١٥٦ .
- (٢٧٧) دلائل الإعجاز ص ١٥٦ - ١٥٧ .
- (٢٧٨) الأشباه والنظائر ٣١/١ .
- (٢٧٩) الكتاب ١٨١/١ .
- (٢٨٠) ابراهيم ٤٧ .
- (٢٨١) تأويل مشكل القرآن ، ص ١٩٣ .
- (٢٨٢) انظر شواهد في الكتاب ١٨١/١ ، وفي تأويل مشكل القرآن ص ١٩٣ وما بعدها .
- (٢٨٣) البقرة ١٧١ .
- (٢٨٤) الكتاب ٢١٢/١ ، ومحاز القرآن ٤٦٣/١ ، تأويل مشكل القرآن ص ١٩٩ .
- (٢٨٥) تأويل مشكل القرآن ص ١٩٨ .
- (٢٨٦) الأصول ٤٦٥/٣ .
- (٢٨٧) الكتاب ٣٨٩/١ - ٣٩٠ .
- (٢٨٨) نفسه ٤٠٩/١ - ٤١٠ .
- (٢٨٩) نفسه .
- (٢٩٠) الخصائص ٤٢٢/٢ .
- (٢٩١) الصف ١٤ .
- (٢٩٢) طه ٧١ .
- (٢٩٣) الخصائص ٣٠٧/٢ .
- (٢٩٤) الخصائص ٣٠٨/٢ .

- (٢٩٥) الخصائص ٣٠٨/٢ ، والآية من سورة البقرة ١٨٧.
- (٢٩٦) الأشباه والنظائر ٢٢٠/٢ - ٢٢١.
- (٢٩٧) شرح المفصل ١٠٦/٤.
- (٢٩٨) نفسه .
- (٢٩٩) طه ١٣١ .
- (٣٠٠) الكشاف ٥٥٩/٢ . وانظر قول ابن النحاس في التعليقة في
الأشباه والنظائر ٢٢٨/٢.
- (٣٠١) الأشباه والنظائر ٢١٩/٢.
- (٣٠٢) الكليات ٢٤/٢.
- (٣٠٣) الكهف ٢٨ .
- (٣٠٤) النساء ٢ .
- (٣٠٥) الأشباه والنظائر ٢١٩/٢.
- (٣٠٦) انظر دراسة وافية للتضمنين والخلاف بين النحاة والبيانين في
بحث التضمنين للأستاذ : صلاح الدين الزعبلاري ، مجلة مجمع
اللغة العربية بدمشق ، مج ٥٥ ج ١ .
- (٣٠٧) الأشباه والنظائر ٢٢٠/١.
- (٣٠٨) الأعراف ١٠٥.
- (٣٠٩) لقمان ١٣ .
- (٣١٠) الإشارة إلى الإيجاز ، ص ٥٤ - ٥٥.
- (٣١١) الدراسة الإحصائية للأسلوب ، بحث في المفهوم والإجراء ،
سعد مصلوح ، مجلة عالم الفكر ، ص ٩٩.
- (٣١٢) generative syntccx , Jhon Lyons , P ١٢٩
- (٣١٣) الخصائص ٣٥/١.
- (٣١٤) نفسه .
- (٣١٥) الأشباه والنظائر ١٦٢/٢.
- (٣١٦) نظام الجملة ، د. مصطفى حطّار ٤٩٨/٢ ، واللغة العربية ، د.

- تمام حسان ، ص ٢٠٧ .
- (٣١٧) واللغة العربية ، د. تمام حسان ، ص ٢٠٧ .
- (٣١٨) البرهان ٣١٠/١ .
- (٣١٩) نظام الجملة ، د. مصطفى حطل ٤٩٨/٢ .
- (٣٢٠) الأصول ٢٢٢/٢ .
- (٣٢١) الصاحي ٤١٢ .
- (٣٢٢) الإنصاف ، المسألة «٢٨» ٢٣٦/١ .
- (٣٢٣) الأصول ٢٣٨/٢ .
- (٣٢٤) المختضب ١٢٨/٤ ، والجمل للزجاجي ص ٣٧ ، والأصول ٢٢٨/٢ .
- (٣٢٥) الأصول ٢٣٨/٢ ، و ٢٢٨/٢ .
- (٣٢٦) نفسه ٢٤٥/٢ .
- (٣٢٧) نفسه ٢٣٨/٢ .
- (٣٢٨) نظام الجملة ، ص ٤٩٨/٢ .
- (٣٢٩) المطول على التلخيص لبعد التفتازاني ، ص ٩١ .
- (٣٣٠) نهاية الإيجاز ، ص ٣٩٨ .
- (٣٣١) نفسه .
- (٣٣٢) الكتاب ٣٤/١ .
- (٣٣٣) نهاية الإيجاز ، ص ٣٩٨ .
- (٣٣٤) دلائل الإعجاز ص ١٠٧ .
- (٣٣٥) دلائل الإعجاز ص ١٠٧ - ١٠٨ .
- (٣٣٦) ذهب الدكتور تمام حسان إلى أن البلاغيين يدرسون ظاهرة التقديم والتأخير على أنها دراسة لإسلوب التركيب تتم في مجال حرية الرتبة حرية مطلقة . انظر : اللغة العربية منهاها ومعناها ، ص ٢٠٧ . « الخصائص » ٣٥/١ .
- (٣٣٧) صدر بيت للناطقة الذياني ، وعجزه : «وقلت ألما أصبح

- والشيب وازع» . الكتاب ٣٦٩/١ ، وشرح المفصل ١٦/٣ ،
والمعني برقم ٩١٤ .
- (٣٣٨) انظر هذه المسألة في البحر المحيط ٤٧/١ .
- (٣٣٩) الأشباه والنظائر ٤١٥/١ .
- (٣٤٠) الخصائص ٤١١/٢ .
- (٣٤١) الخصائص .
- (٣٤٢) الأحاجي النحوية ٥١ - ٥٢ .
- (٣٤٣) الأشباه والنظائر ٤١٥/١ .
- (٣٤٤) الأنعام ٧٨ .
- (٣٤٥) معاني القرآن للأخفش ٤٩٦/٢ .
- (٣٤٦) الخصائص ٤١٢/٢ .
- (٣٤٧) معاني القرآن ٤٩٦/٢ .
- (٣٤٨) الأعراف ٢٠٣ .
- (٣٤٩) الجاثية ٢٠ .
- (٣٥٠) مجاز القرآن ٢٣٧/١ .
- (٣٥١) مجاز القرآن ٢٣٧/١ .
- (٣٥٢) مجاز القرآن ٢٣٧/١ .
- (٣٥٣) تفسير الطبري ١٠٩/٩ .
- (٣٥٤) تفسير القرطبي ٣٥٣/٧ .
- (٣٥٥) روح المعاني ١٥٠/٩ .
- (٣٥٦) الذود من الأبل : ما بين الثلاثة إلى العشرة ، ويعني بثلاثة
الأنفس : نفسه وزوجه وابنته مليكة ، وبالذود عن ثلاثاً من
النوق كان يقوم بها على عياله ، فقد إحداها أنظر الخصائص
٤١٢/٢ .
- (٣٥٧) الخصائص ٤١٢/٢ .
- (٣٥٨) الخصائص ٤١٦/٢ .

- (٣٥٩) الحج ٥ .
- (٣٦٠) مجاز القرآن ٤٤/٢ - ٤٥ ، وتأويل مشكل القرآن ، ص ٢٨٤ ، والبرهان ١/٢٣٤ و ١/٢٣٣ .
- (٣٦١) التوبة ٦٦ .
- (٣٦٢) الصاحي ٣٤٩ .
- (٣٦٣) الخصائص ٤٢٣/٢ .
- (٣٦٤) الخصائص ٤٢٥/٢ .
- (٣٦٥) تأويل مشكل القرآن ، ص ٢٧٥ .
- (٣٦٦) الصاحي ٣٥٦ - ٣٥٧ ، والبديع لابن المعتز ، ص ٥٨ ، والمثل الثائر ٤/٢ .
- (٣٦٧) المثل الثائر ١٣/٢ .
- (٣٦٨) نفسه ٤/٢ .
- (٣٦٩) نفسه ٥/٢ .
- (٣٧٠) نفسه ٤/٢ .
- (٣٧١) Generative Grammar and Stylistics . Analysis . J . P Thorne, P ١٨٥ .
- (٣٧٢) P ١٨٥ - ١٨٦
- (٣٧٣) وهذا نفسه موضوع علم الأسلوب (Stylistisc) لدى الغربيين. انظر :
- (٣٧٤) *A D ictionary Literary Tirms, J. A. Cuddon, P ٦٦٣*
- (٣٧٥) مجاز القرآن ١٨/١ - ١٩ . وانظر امثلة ذلك كله في = مجاز القرآن ٨/١ - ١٦ .
- (٣٧٦) الحاقة ٢١ .
- (٣٧٧) مجاز القرآن ٢٦٨/٢ .
- (٣٧٨) نفسه ١٢/١ .

- (٣٧٩) البقرة ١٨٧.
- (٣٨٠) مجاز القرآن ٦٧/١.
- (٣٨١) الإشارة إلى الإيجاز ، ص ٥٥.
- (٣٨٢) الحج ٥ .
- (٣٨٣) مجاز القرآن ١٢/١ .
- (٣٨٤) هود ٤١.
- (٣٨٥) مجاز القرآن ١٢/١ .
- (٣٨٦) يوسف ٨٢.
- (٣٨٧) مجاز القرآن ٨/١ .
- (٣٨٨) البقرة ١ - ٢ .
- (٣٨٩) يونس ٢٢.
- (٣٩٠) مجاز القرآن ١١/١.
- (٣٩١) الأنبياء ٣٠ .
- (٣٩٢) مجاز القرآن ١٠/١.
- (٣٩٣) البقرة ٢٢٣.
- (٣٩٤) مجاز القرآن ٧٣/١.
- (٣٩٥) التوبة ١٠٩.
- (٣٩٦) مجاز القرآن ٢٦٩.

(٣٩٧) الحيوان ٤٦/١ - ٣٤٣/١ - ١٦٤/٤ - ١٦٤/٦.

(٣٩٨) البيان والتبيين ٧٦/١.

(٣٩٩) تأويل مشكل القرآن ، ص ٢٠.

(٤٠٠) نفسه ص ٢١.

(٤٠١) الصاحبي ٣٤٨.

الفصل الخامس

المجاز اللغوي

من المجاز الأسلوبى إلى المجاز اللغوى :

كان انتقال الدرس اللغوى من البحث في المجاز الأسلوبى إلى المجاز اللغوى صورة لطبيعة النهج العام الذى سار عليه اللغويون العرب ، وتتمثل فيه الأسس العامة التى قام عليها تطور هذا النهج ، ذلك لأنه بدأ بدراسة النص وتحليله والإفادة من هذا التحليل في وضع القواعد ، واتجه من بعد إلى هذه القواعد ، فجعلها معايير راسخة يؤلف وفقها الكلام ، أو يقاس عليها النص المكتوب .

ولاريب أن طبيعة بداية الدرس اللغوى العربى كانت وراء هذه الصورة من التطور ، فقد كان على المفسرين أن يفهموا النصّ القرآنى ليفهموه ، وأدّى هذا الأمر إلى وجود حاجة إلى تحليل النص وجعله أساس الدرس اللغوى ، فلما اتسع نطاق البحث ، وصارت الدراسة اللغوية شعباً بقى المنهج التحليلي الذى ارتضاه المفسرون أساساً يعتمد في استنباط الأحكام ، ووضع القواعد .

وقد أسهم في هذا التوجه علماء متباينون في تخصصهم ، منهم المفسر واللغوى والنحوى ، وإن يكن التفسير قد ظلّ متجهاً إلى النص في تحليله لأنه موضوع بحثه فإن سائر اللغويين والنحويين قد أبدوا كلفاً بالقواعد وأتبعوا النصوص لما أرسلوا دعائمه منها .

ولم تكن دراسات الأجيال اللاحقة من العلماء إلا تباعاً لما أسّس المتقدمون ، فراحوا يجمعون الشذرات التي نثرت في مؤلفاتهم، ويضمون بعضها إلى بعض ، ويستعملونها في الحدود التي صارت معايير لعلومهم ، مستعينين على ذلك بما وصل إليهم من معارف أصبحت معقدة ، وأصول أضحت معروفة ، وثقافات باتت تفد إلى الذهن العربي .

والحقيقة أن دراسة تطور البحث في المجال لم تكن بمبعدة عن هذا التوجه في دراسة اللغة ، ذلك أن البحث في المجال يعدّ واحداً من أهم الأبحاث التي قامت عليها دراسة اللغة العربية ، فهو دراسة لطبيعة التفكير اللغوي عند العرب ، وبحث في الأسلوب العربي الذي يصطنع المتكلم أو الكاتب ، فكان له شقان يقوم عليهما ، أولهما : استعماله في النصوص اللغوية التي نقلت إلينا ، وفيها صورة بيّنة لأساليب العرب في كلامهم ، والثاني : دراسي يتجلى في الأبحاث التي قامت على دراسة هذا الأسلوب ، وقد تعاورها المفسرون والنحاة والأدباء والبلاغيون ، فتحصلت لهم على اختلاف مشاربهم معايير هامة توضح طبيعة استعمال العرب للغتهم .

وكان اهتمام المفسرين واللغويين والنحاة بدلالة النص ودلالات مفرداته ووظائفها وبيناتها معينا لا ينضب للبلاغيين ، فأقاموا دراساتهم على ما وصل إليهم من اشارات وتحليلات في كتب متقدمي هؤلاء العلماء ، فقد أسّس المتقدمون لعلوم اللغة بصورها المختلفة بما كانوا يجرونه من تحليل للنصوص ، وهم على ذكر من طبيعة اللغة القائمة على اللفظ والمعنى .

فلم يغفلوا في دراساتهم البحث في جانب من هذين الجانبين، وكانوا يحكمون المعنى ، وهم بصدد دراسة التركيب ، فكثرت

لذلك اصطلاحات القوم في علم اللغة ، وإن تأمل ماكثر دورانه على الألسنة يوضح اعتناءهم بوضع اللغة في موضعها ، وهو كونها أداة للإفصاح ، وإفهام الآخرين وفهم المتلقين لما يصطنعه المتكلم في كلامه من أساليب ، فكثرت استعمالهم النحو ، والبلاغة ، والفصاحة والبيان والتبيين والكلام ، والمعنى ، والدلالة .

ومازوا - لذلك - بين متكلم وآخر ، وكان معيارهم في هذا الأمر النظر الفاحص لجمال الكلام ، فلم يعتدوا بالإفهام وحده - وإنما لجؤوا إلى معايير تؤول إلى فكرة الحفاظ على اللغة نقية من شوائب العجمة واللحن ، فنبهوا - كما فعل الجاحظ - إلى معيار للإفهام يقوم على معرفة بأساليب العرب في كلامها ، وضرورة الإفهام وفق هذه المعايير لاللغات الملحونة أو المعدولة من جهتها^(١).

وكان ذلك حافزا لهم للاتكاء على النصوص السليمة صياغةً، المفهومة معنى ، فاهتم سيبويه في مفتتح خطابه في الكتاب بأنواع الكلام ، ومثله فعل الجاحظ^(٢) وابن قتيبة^(٣) ، فأبانوا عن عناية كبيرة بسلامة التركيب ووضوح معناه ، وملاءمته لحال المتكلم .

ولابدّ لكشف تحول المجاز من العناية بالأسلوب ، وفهمه على أنه صورة لكلام العرب ، إلى العناية بالقاعدة والاستشهاد من البحث في آراء هؤلاء العلماء المنشورة في كتبهم ، ومن معرفة طريقة نظرهم إلى المجاز اللغوي الذي يقوم على تبدل دلالة المفردة داخل السياق من معنى وضعني إلى آخر مجازي .

وكانت طبيعة البحث في هذه الدراسة الأسلوبية تتبدل وفق الاتجاه الذي يصطنعه الدارس ، فتغلب عليها الطبيعة اللغوية أو الجمالية ، وكان هذا شأن سيبويه وابن قتيبة وابن فارس ، أصحاب

نظرية الاعجاز ، كالرّماني والباقلاني والجرجاني ، كما كان شأن أولئك النقاد الذين أفرغوا جهدهم في دراسة النصوص الشرعية ، كابن المعتز وعبد العزيز الجرجاني والآمدي ، وهو شأن البلاغيين أيضاً كالجاحظ والجرجاني والسكاكي .

وتكمن صعوبة البحث في هذه الدراسات في أنها تمتد عبر عصور طويلة متتابة ، وقد أخذ فيها اللاحق عن السابق ، وأضاف إليه ، وفرّع على مسأله ، أو اتجه بالبحث إتجاهاً جديداً ، فتبدّت في عمله أساليب محدثة ، وأفكار طريفة تحمل على المتابعة والنقاش ، ولكننا سوف نتهدّى من مكن هذه الصعوبة إلى ما يكون عامّاً مشتركاً ، فيه انظار متطورة تؤول إلى قواعد ارتضاها أغلب الباحثين ، وما كانت معارضة بعضهم إياها إلا زيادة في إيضاها ، وتبياناً لما غمض منها ، وقد أثارت هذه المعارضات ردوداً إبانته ما أوجز منها ، وأتمت ماكان منها ناشئاً عن طريق تصل به إلى الغاية .

وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي «- ١٧٥ هـ» رأس العلماء الذين أثروا هذا النوع من الدرس اللغوي ، وقد نقل عنه سيبويه في كتابه إشارات مهمة أبانت عن مسائل من هذا الباب ، وإن يكن الخليل ومن بعده سيبويه والفراء وأبو عبيدة لم يتهدوا إلى المصطلح البلاغي فإنهم أقاموا أسس هذه الدراسة .

ومن التوجيهات التي ذكرها الخليل مما هو أدخل في باب المجاز ، توجيهه تنزيل غير العاقل منزلة العاقل . فقد روى عنه سيبويه قوله : «وأما " كلّ في فلك يسبحون » و « رأيتهم لي ساجدين » و « يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم » ، فزعم - يعني الخليل - أنه بمنزلة مايقع ويسمع لما ذكرهم بالسجود ، وصار النمل بتلك المنزلة

حيث حدثت عنه كما تحدّث عن الأناسي . وكذلك في «فلك يسبحون» ، لأنها جعلت في طاعتها ... بمنزلة من يعقل من المخلوقين ويبصر الأمور .

قال النابغة الجعدي :

شربتُ بها والديك يدعو صياحه إذا ما بنو نَحش دَنُوا فتصوبُوا

فجاز هذا حيث صارت هذه الأشياء عندهم - يعني العرب - تؤمر وتطيع وتفهم الكلام وتعيه بمنزلة الآدميين .^(٥)

ويدل هذا التحليل على فهم عميق لطبيعة الاستعارة المكنية ، وقد جرى تحليلها في الآيات الكريمة مما يوحى بنمط من التحليل سوف يتمسك به المتأخرون صدد حديثهم عن الاستعارات وتحليلها.

و لم يتوقف جهد الخليل عند هذا النوع من الاستعارة ، فقد مهد أيضاً للاستعارة التبعية في زمن الفعل ، وذلك في قوله تعالى . (ولئن أرسلنا ریحاً فرأوه مصفرةً لظلوا من بعده يكفرون) ^(١) ، فذكر الخليل في بيانه أن (معناه ليظلن) ^(٢) ، وهو من التجوز بالماضي عن المستقبل تشبيهاً له في التحقيق ، وذلك في الشرط وجوابه وفي غيرهما ^(٣) وقد اختلف المتأخرون في هذا النوع من التجوز فعده بعضهم من المجاز المرسل ، وحيث ينظر في العلاقة من أي الأنواع ، هل هي فيما إذا عبّر بالماضي عن المستقبل ، وكذا عكسه التضاد أو المجاورة ؟ وعده آخرون من الاستعارة التبعية لأنه بتشبيه غير الحاصل في تحقق الوقوع بالحاصل ، وبتشبيه غير الحاصل

في كونه نصب العين واجب المشاهدة ، فيستعار أحد المصدرين
للآخر ثم الفعل للفعل. ^(٤).

ولم يكن سيبويه بأقل من الخليل إسهاماً في هذا الباب ، فقد
تهدى في تحليلاته للنصوص إلى ما سُمي من بعد المجاز المرسل ،
والاستعارة ، والتجوز في الحروف والمجاز بالحذف ، وكان
مصطلحه الذي كرره كثيراً ، وهو «سعة الكلام» النواة التي أنبتت
دوحة المجاز ، وقد تطور هذا المصطلح ليؤول إلى «المجاز» في
كتابات اللاحقين ^(٥).

فهم سيبويه الكلام على أنه صيغة لغوية يصطنعها المتكلم ،
وقد تجري هذه الصيغة وفق معايير اللغة وقواعدها التركيبية ، ويعني
ذلك جريانها على قواعد النحو العربي ، وقد تخرج على هذه
المعايير والقواعد مما يفسدها ويحيلها ، ولم تكن دراسته لكلام
العرب تقوم على هذا الجانب الصوري وحده ، وإنما كان يمزج
اللفظ بالمعنى ، فيرى فيهما جانبي اللغة لا تستوي إلا بهما معاً ،
ويعني اللفظ لديه الصورة التعبيرية ، ويدلّ المعنى على الدلالة التي
تخرج إليهما هذه الصورة .

وقد قسم الكلام تبعاً لذلك إلى أنواع ، فمنه مستقيم حسن ،
ومحال ، ومستقيم كذب ، ومستقيم قبيح ، وما هو محال كذب ^(٦).

وتعينا هذه التقسيمات في هذا المقام ، لأنها تعدّ المدخل إلى
فهم طبيعة تحليل سيبويه للتحليل العربي من حيث الدلالة ، وأهم
هذه الأنواع التي ذكرها سيبويه لدينا نوع الكلام الذي سماه
(المستقيم الكذب) ، ومثل له بقوله : (حملت الجبل ، وشربت ماء
البحر) ^(٧) ، وقد ميّزه بهذه التسمية عن نوع آخر هو (المحال
الكذب) ، ذلك أنه صيغ ضياغة غير متناقضة من حيث الدلالة ، فلم

ينقض آخره أوله ، بيد أن دلالاته لا يصح تصديقها عقلاً ، لأن
مفاجأة السامع بهاتين الجملتين تقفه على أمرهما ، فهما تركيبان
مستقيمان ، لكنهما غير مصدقين .

ويتبادر إلى الذهن أن سيبويه لم يُرد في هذا الموضع بالكذب
المعنى الخلفي ، وإنما أراد التخيل الفني ، ولا يكون ذلك بفهم أن
مدعي الكلام قد وقع منه الادعاء فعلاً ، وإنما على وجه من التأويل
والصرف عن الظاهر ^(٨) ، وكان قبل التأويل مما لا يجوز العقل ،
وتمنعه العادة ، وهو مما سمة المتأخرون «المبالغة» ^(٩) .

ونتوقف - تأييداً للفكرة - عند ظاهرة أخرى أشارت إليها
كلمات سيبويه ، وهي وصف هذا الكلام بأنه «كذب» ، وهي
ظاهرة ألح عليها معارضو المجاز في اللغة ، فقد «احتج من منع المجاز
بأن قال : إن المجاز كذب» ^(١٠) ، ولذلك لا يجوز أن نقول عن
الأسماء التي نقلها الله تعالى عن مواضعها في القرآن الكريم : إنها
بجاز «والله تعالى ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبعدان عن
الكذب» ^(١١) .

فيكون سيبويه بتسمية المجاز كذباً قد أوحى لمن بعده بأن
يحملوا هذا النوع من الكلام على مالا يصدق العقل ، وأنه لا بد من
تأويل الكلام للوصول إلى غايته ومعرفة مقاصد المتكلمين ، لأنه
نوع من التخيل ، وليس محمولاً على الحقيقة .

ووجه سيبويه كثيراً من آيات الذكر الحكيم ومن العبارات
المنقولة عن العرب توجيهها مجازياً ، وهو - وإن لم يسم ذلك مجازاً
- كان على وعي بطبيعة هذه العبارات التي خرجت من معناها
الأصلي ، فحق لها بالرد إليه أن تفهم هذا الفهم ، وكانت تحليلات
سيبويه لهذه الآيات والعبارات هادياً للمتأخرين الذين نقلوها بعدما
لفت سيبويه إليها الأنظار ، ورددوا توجيهه إياها .

فقد حمل سيبويه قوله تعالى ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ ^(١٢) على الاتساع الذي هو مآل كل مجاز، وفسّر الآية بأن الله تعالى : ﴿وَإِنَّمَا يَرِيدُ أَهْلَ الْقَرْيَةِ فَاخْتَصِرْ وَعَمِلِ الْفَعْلَ فِي الْقَرْيَةِ كَمَا كَانَ عَامِلًا فِي الْأَهْلِ لَوْ كَانَ هَاهُنَا وَمِثْلُهُ﴾ بل مكر الليل والنهار ^(١٣) .. ومثل ذلك من كلامهم : بنو فلان تطوؤهم الطريق ، وإنما يطوؤهم أهل الطريق ^(١٤) .

وقد أبان سيبويه في تحليله الآية عن فكرة الأصل ، وردّ إليه صورة التركيب ، وجعل الآية معاً حمل على غير هذا الأصل الحقيقي ، فكان حق الفعل «اسأل» أن يعمل في «الأهل» لا في «القرية» ولا في «العير» من حيث إنهما قرية وعير ، والعلاقة في الموضعين واضحة ، فهي في القرية «المكانية» ، وفي العير «المجاورة أو المصاحبة» . وأوقع الفعل فيهما على غير ماحقه أن يقع عليه ، ومثال هذا أن تقول : أسعدت المدينة ، وأنت تريد أهل المدينة ^(١٥) ، وهذا النوع من المجاز العقلي ، فالجواز العقلي ، وأن كان أصله في الإسناد «الفاعلية» ، تقاس إليه النسبة الإيقاعية «المفعولية» والنسبة الإضافية ، بأن يضاف الشيء إلى غير ماحقه أن يضاف إليه ، كمكر الليل والنهار ، وقد صرح صاحب الكتاب بقوله ^(١٦) : «فالليل والنهار لا يمكن أن يكونا ، ولكن المكر فيهما» ^(١٧) ، والمثال الذي رواه عن العرب : «بنو فلان تطوؤهم الطريق» أسند فيه الفعل إلى غير ماحقه أن يسند إليه ، فالواطئ حقيقة هو أهل الطريق لا الطريق ، والعلاقة هنا «المكانية» ^(١٨) .

وخرّج سيبويه على هذا النحو أمثلة أخرى ، وجعلها من باب الاتساع والاختصار ، ومن ذلك قولهم : «صدنا قنوين» ، وإنما يريد صدنا بقنوين ، أو صدنا وحش قنوين ، وإنما قنوان اسم أرض ^(١٩) .

وهذا مجاز عقلي أوقع فيه الفعل « صدنا » على غير ماحقه أن يوقع عليه ، فالمصيد هو الوحش ، والعلاقة ههنا هي المجاورة أو المكانية .

ويشير سيبويه في الكتاب إشارة سريعة إلى بعض أنواع المجاز الحكمي ، فأصبحت إشارته مدار فهم اللاحقين لمثل هذا التركيب ، فقد توقف عند بيت الخنساء :

ترنعت ما رنعت حتى إذا ذكرت
فإنما هي إقبال وإدبار
وجوز قولها - وهي العربية سليقة - على سعة الكلام ، ذلك أنها رفعت فجعلت الآخر هو الأول ؛ وقال : « فجعلها الإقبال والإدبار ، فجاز على سعة الكلام ، كقولك : نهارك صائم ، وليلك قائم » (٢٠) .

وأوضح الجرجاني ما أوجزه سيبويه حيث ساق الشاهد على أنه مما طريق المجاز فيه الحكم ، وعلل هذا الأمر بأن الخنساء « لم ترد بالإقبال والإدبار غير معناهما ، فتكون قد تجوزت في نفس الكلمة ، وإنما تجوزت في أن جعلتها لكثرة ما تقبل وتُدبر ، ولغلبة ذاك عليها واتصاله منها ، وأنه لم يكن لها حال غيرهما ، كأنها قد تجشمت من الإقبال والإدبار » (٢١) .

وتبين نصوص سيبويه أنه لم يكن يعني بالبحث عن الشواهد التي تظهر قاعدة ما ، وهو يحلل التركيب الذي وجهه توجيهها مجازياً ، وإنما كان معنياً بأقوال العرب وكلامهم ، وهو صورة اللغة المنطوقة ، وبأحوال هذا الكلام ، وتغيرات تركيبه ، وما يبنى على تغير التركيب من تبدل في الدلالة ، فيكون الكلام خارجاً على الأصل ، أو يتجاوز فيكون أدخل في المجاز ، وهو الاتساع بمفهوم وكانت إشارات سيبويه إلى هذا التغير الدلالي أدعى لأن تتمثل في

وهذا مجاز عقلي أوقع فيه الفعل « صدنا » على غير ماحقه أن يوقع عليه ، فالمصيد هو الوحش ، والعلاقة ههنا هي المجاورة أو المكانية .

ويشير سيبويه في الكتاب إشارة سريعة إلى بعض أنواع المجاز الحكمي ، فأصبحت إشارته مدار فهم اللاحقين لمثل هذا التركيب ، فقد توقف عند بيت الخنساء :

ترعُ ما رتعت حتى إذا ذكرت فإنما هي إقبال وإدبارٌ

وجوز قولها - وهي العربية سليقة - على سعة الكلام ، ذلك أنها رفعت فجعلت الآخر هو الأول ، وقال : « فجعلها الإقبال والإدبار ، فجاز على سعة الكلام ، كقولك : نهارك صائم ، وليلك قائم » (٢٠) .

وأوضح الجرجاني ما أوجزه سيبويه حيث ساق الشاهد على أنه مما طريق المجاز فيه الحكم ، وعلل هذا الأمر بأن الخنساء « لم ترد بالإقبال والإدبار غير معانها ، فتكون قد تجوزت في نفس الكلمة ، وإنما تجوزت في أن جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر ، ولغلبة ذاك عليها واتصاله منها ، وأنه لم يكن لها حال غيرهما ، كأنها قد تجشمت من الإقبال والإدبار » (٢١) .

وتبين نصوص سيبويه أنه لم يكن يعني بالبحث عن الشواهد التي تظهر قاعدة ما ، وهو يحلل التركيب الذي وجهه توجيهاً مجازياً ، وإنما كان معنياً بأقوال العرب وكلامهم ، وهو صورة اللغة المنطوقة ، وبأحوال هذا الكلام ، وتغيرات تركيبه ، وما يبني على تغير التركيب من تبدل في الدلالة ، فيكون الكلام خارجاً على الأصل ، أو يتجاوزده فيكون أدخل في المجاز ، وهو الاتساع بمفهوم وكانت إشارات سيبويه إلى هذا التغير الدلالي أدعى لأن تتمثل في

اللبس، فقد «يكون العبد تاجراً فيربح أو يوضع»، وهذا مما يعمّي المعنى، فلا يفهم السامع مقصود المتكلم، وهو أن العبد قام بالتجارة فربح، فيكون الكلام جارياً على الحقيقة، وأنه قد بيع مالكة من بيعه، فتؤول العبارة إلى المجاز، وينص في هذا الموضع على فكرة التجوز، حيث يذكر أن المعنى الثاني للعبارة هو المعنى الذي يكون «متجوزاً فيه»^(٢٧)، فقابل ذلك بين الحقيقة والمجاز، ووضح يده على جوهر الفكرة ومصطلحها في آن معاً.

وما كان ذلك غاية الأمر في هذا النص، فإن كلام الفراء فيه يجوز حمله على تلك القاعدة التي نص عليها الأصوليون والبلاغيون المتأخرون، وهي قاعدة «القرينة»، فلم يميزوا النقل من الحقيقة إلى المجاز في كلام عار عنها، واشترطوا «أن تعين اللفظ المجازي للدلالة على المعنى المجازي لا يكون وضعاً، لأن دلالة إنما تكون بقرينة»^(٢٨)، فلا يدل اللفظ بذلك على معنى بنفسه، وإنما يحتاج في هذه الدلالة إلى «القرينة» التي تعين دلالة المجازية، فيخرج عن معناه الوضعي إليها ثقة من أن السامع لابد ملتفت إلى قرائن الكلام التي تعينه على فهم المعنى وتوجيه الدلالة.

ويتجلى ذلك لدى الفراء في النص السابق، في الموضع الذي لم يجر فيه القول: «قد خسر عبدك»، وذلك حين نص على اللبس إذا انعدمت القرينة من الكلام، «لأنه قد يكون العبد تاجراً فيربح أو يوضع، فلا يعلم معناه إذا ربح هو من معناه إذا كان متجوزاً فيه»^(٢٩).

وكان هذا الإدراك لطبيعة المجاز العقلي، ومكان القرينة فيه ادعى لأن يكون صاحبه كثير التمهّك في المفردات ذاتها، وقد دخلت في نسيج النص، فبحث في دلالاتها، وفتش عن الصورة

العميقة لمعناها داخل النص ، فوصل إلى فكرة الأصل الذي قام عليه الجاز ، وهو الحقيقة التي يستند إليها ، وأشار بذلك إلى مقولة مستوي الكلام ، مستوي الحقيقة ، ومستوي الخروج على خلاف مقتضى الظاهر معتمداً في ذلك منهجاً تحليلياً خالصاً ينهي عن المقصود ، ويدل على الصورة التي يخرج بها الكلام إلى دلالاته المختلفة ، ووسيلة البحث في ذلك مبدأ القياس الذي يتساند إلى قياس الكلام بعضه إلى بعض ، وتظهر فيه الفكرة جلية تفصح عن نفسها .

ويتضح ذلك ويبين في تحليل الفراء الآية الكريمة : ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ﴾^(٣١) ، فكان تحليله يمضي على سنن الفكرة المجازية المبينة على وجود الأصل ، وأن معاينة الخروج على هذا الأصل تكشف طريقة التعبير في الآية ، فوضع احتمالاً للتأويل يظهر ذلك ، فألت «لو جعلت العاصم في تأويل معصوم ، كأنك قلت : لا معصوم اليوم من أمر الله لجاز رفع «من» ، ولاتنكرون أن يخرج المفعول على فاعل »^(٣٢)

فتحول اسم الفاعل إلى دلالة اسم المفعول ، وتغير تقدير المعنى في الجملة ، ذلك أن شبه الجملة حلت محل نائب الفاعل ، ويمكن تقدير المستويات التي أشار إليها الفراء على النحو الآتي : لا عاصم اليوم من أمر الله ، هو الطريقة التعبيرية التي صور بها المعنى ، لكن تحت هذه الصورة التعبيرية يكمن أصل ينسب عن التحول الذي أصاب الكلمة ، فالمعنى العميق لها هو : لا معصوم اليوم من أمر الله . وهذا ليس إلا أسلوباً عربياً معروفاً ، فقد استعملت هذه الطريقة في تصوير المعنى المقصود في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ من ماء دافق ﴾^(٣٣) ، «فمناء» = والله أعلم =

مدفوق ، وقوله تعالى : ﴿ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ ^(٣٣) ، معناه مرضية ، وليس هذا فحسب ، قال الشاعر :

دع المكارم لاترحل ليغيتها واقعد فإتاك أنت الطاعم الكاسي

/معناه : المكسوّ . تستدل على ذلك أنك تقول : "رضيت هذه العيشة ، ولا تقول : رضيت ، ودقق الماء ، ولا تقول : دقق . وتقول : كُسي العريان ، ولا تقول : كسا" ^(٣٤) .

فتمثلت لنا صورة التعبير هذه ، وكأنها طريقة كلام ، وقد اخذ بها العرب وتجلت في مواضع من القرآن ، وفي شواهد من الشعر ، وكأنني بهذه الأمثلة أضحت قرينة دالة على طبيعة هذا الاستعمال الكلامي .

وقد جعل ذلك من باب المجاز المرسل ، وجعلت العلاقة فيه من إطلاق اسم الفاعل على اسم المفعول ^(٣٥) . بيد أن الفراء لم يتخذ من اللفظة متكأ ليتوقف عندها ، وإنما أدخلها في سياق التركيب ، وهذا ما أراده حين أول «عاصم» بمعنى «معصوم» ، وذهب إلى رّفد هذا التأويل بما يُحمل عليه ، فجعل «من» مرفوعة ، وإن كان مدار التأويل في الآية على اللفظة المفردة ، ذلك أن المجاز وقع في اللفظة نفسها لافي إسنادها ^(٣٦) . والحقيقة ان حصر التأويل في الكلمة بمعزل عن سياقها كان من عمل المتأخرين ، وقد بين صاحب البرهان ذلك حين أشار إلى هذا الأمر ، فبين إن اللبس الذي يوقع فيه مآله إلى أنهم قد يشيرون إلى احد اصول هذا التركيب حين يرجعون اسم الفاعل إلى الفعل «كأنهم قدبروا أنهم قالوا : رضيت عيشته ، فبالوا : عيشة راضية» ^(٣٧) .

ويعني ذلك أن سبب الخلط بين المجاز المرسل والمجاز العقلي الواقع في الإسناد ليس إلا الأصل الذي صدر عنه التركيب ، وهو

الأصل الفعلي ، غير أنني أزعـم أن الفراء لم يكن يعنيه هذا التأويل ، وهذا ما يبينه حين يجعل أصول التركيب تتدرج على نحو آخر ، ومن ثم تتصور بصورة اسم الفاعل ، فتخرج إلى المعنى المجازي ، وهو أقرب إلى طبيعة التأويلات اللغوية المطردة ، فرأى أن العبارة قد بدأت بالفعل ، وهو: رُضيت العيشة ، بالبناء للمجهول ، وهو الأصل الحقيقي المنطوق به ، وإلى ذلك أشار بقوله : «تستدل على ذلك أنك تقول: رُضيت هذه العيشة ، ولا تقول: رُضيت ، ودُفق الماء ، ولا تقول: دُفق ،» (٣٨).

وانتقلت العبارة من بعد إلى اسم المفعول ، ف قيل عيشة مَرْضِيَّة ، وماء مدفوق ... وبقيت في هذه الصورة معبرة عن الأصل الأول بسبب دلالة اسم المفعول على المبني للمجهول ، ومن ثم خرجت إلى المجاز العقلي حين جاءت في صيغة اسم الفاعل ، فقال تعالى : «لاعاصمُ اليوم من أمر الله» ، وإنما أصله «معصوم» على أنه الحقيقة والأصل ، وقيل عيشة راضية على أنها «مرضية» ، وكيف يعصم أحد من أمر الله ، والله هو العاصم والفاعل الحقيقي، كيف ترضى العيشة ، والراضي صاحبها ؟

وهذا العدول إلى اسم المفعول ليس إلا مرتبة من مراتب العدول عن الأصل الأول ، وهو الفعل المبني للمجهول ، ولذلك وقع المتأخرون في الاضطراب ، حين جعلوا وكدهم المفردة نفسها ، وتحول الدلالة فيها بمعزل عن سياقها ، ويصور صاحب البرهان هذا الاضطراب حين يقول : (وأما قوله تعالى : « في عيشة راضية » ، ف قيل : على النسب ، أي ذات رضا ، وقيل بمعنى « مرضية » ، وكلاهما مجاز أفراد لا مجاز إسناد ، لأن المجاز في لفظ « راضية » لا في إسنادها ، ولكنهم كأنهم قدروا أنهم قالوا « رُضيت عيشته » ، فقالوا : عيشة راضية» (٣٩).

وهذا الخلاف في تبين أصل التركيب وحقيقته يظهر رأي
الفراء ، ويبين عن ذهن وقاد كان في منجاة من الاضطراب ،
ومتسق مع طبيعة اللغة وقواعد التحول الدلالي فيها .

وقد تهذى إلى ذلك كله بوعي لمستويات اللغة وانتقالها من
الحقيقة إلى المجاز ، وجعل تحليله متسانداً إلى معايير التفكير اللغوي
القائمة على فكرة القياس والنظر إلى اللغة على أنها بنيان موحد
يفسر بعضه بعضاً ، ويجزئ الجزء منه عن الآخر ، ويجمع مفرداته
خيط ينتظم به عقدها ، ويعقل شاردتها ، وهو الاشتقاق الذي
تؤول إليه صورة المفردة ، وهذا ما فعله في تحليل الآية الكريمة
«لأعاصم اليوم من أمر الله» ، وما جاء في ثنيات التحليل من أمثلة
وشواهد وإشارات .

وليس النص الذي درسناه فرداً بين نصوص «معاني القرآن» ،
وإنما هو صورة بينة للنهج الذي أخذ الفراء به نفسه ، وهو بصدد
دراسة القرآن الكريم وتحليل آياته ، ففي كثير من مواضع الكتاب
يعمل الفراء ذهنه ، ويوجه الآيات هذا التوجيه ، وما يختلف نص
عن آخر إلا في شواهد تكثر أو تقل ، أو إشارات تغمض أو تتضح ،
ولكنها جميعاً تمضي على سنن واحد ^(٤٠) .

ولا ريب أن الفراء قد وضع يده على جوهر المجاز المرسل
كما وضعها على حقيقة المجاز المركب ، فلاحظ أن السياق يحتمل
تأويل المفردة لتدل على غير الظاهر منها ، والحكم في ذلك للسياق
لا للمعجم ، فأبان عن منهجه التحليلي ، ونظر إلى المفردات في
علاقاتها ومواقعها ، وأظهر أنه كان على وعي بطبيعة العلاقة التي
تنظم الدلالات في التركيب ، ذلك أن التأويل لا يتم بغير العلاقة بين
المعنى الحقيقي والمعنى المجازي وليست هذه العلاقة إلا صورة عقلية

تقوم على تقري النص واستنباط دلالاته ، فقد أشار الفراء إلى المجاز المرسل ، وبين بعض علاقاته بما وجه به قوله تعالى : ﴿ يتلون آيات الله أناء الليل وهم يسجدون ﴾^(٤١) ، وفسره بأن « السجود في هذا الموضع اسم للصلاة لا للسجود ، لأن التلاوة لا تكون في السجود ولا في الركوع »^(٤٢).

لو نزع كلام الفراء من كتابه لتهيأ للناظر فيه أن قائله ليس إلا أحد المتأخرين ، أولئك الذين ضبطوا قواعد المجاز وعلاقاته ، فقد أشار في هذا النص إلى أمرين ، هما : الدلالة المجازية لكلمة السجود وذلك حين خرجت الكلمة عن معناها الوضعي الشرعي إلى معنى مجازي ، والقرينة المانعة من إرادة المعنى الوضعي الشرعي للسجود ، وهي أن التلاوة لا تكون في السجود أو الركوع فوجب صرف اللفظ عن ظاهره لتسلم دلالاته على المعنى .

ولم يعد المتأخرون ما أخذ به الفراء نفسه في تحليل هذه الآية ، ولا خلاف في ذلك بين علماء الأصول^(٤٣) ، وعلماء البلاغة^(٤٤).

وكان الفراء - وهو بصدد تحليل النص القرآني - يشير أشارات واضحة إلى نوع آخر من المجاز اللغوي هو « الاستعارة » ، وهي أبرز أنواع المجاز ، وتدلل إشارته على فهم واسع لهذا المجاز ودراية بالعلاقة بين المستعار له والمستعار منه ، وقد أشار في بعض المواضع إلى فكرة المعنى الأصلي والمعنى المجازي ملاحظاً الفرق بينهما ، مؤكداً فكرة سيبويه حول « الاتساع » في اللغة^(٤٥).

وهو في ذلك كله يقيم تحليله على ما يكشف عنه النص نفسه ويتجلى نهجه في المقارنات المعنوية التي كان يجرى بها بين ألفاظ النص ، ويتضح الأمر حين نتابعه في تحليل آية من آيات القرآن الكريم ظهر فيها منهجه بوضوح .

من ذلك تحليله الآية الكريمة ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴿٤٦﴾.

ويتخذ في سبيل تحليل هذه الآية طريقاً إلى المعنى بتحليل اللفظة في سياقها ، ويتدئ ذلك بسؤال يعرض ، وبه ولج إلى التحليل ، ونبه إلى ما في كلمة «عدوان» من دلالة جديدة اقتضاها السياق ، فسامع الآية أو قارئها لابد ملاحظ أن هذه الكلمة تنطق بغير معناها الظاهري ، وأنها خرجت إلى دلالة أخرى غير التي دلت عليها في أصل وضعها لذلك ليس بدعاً أن يقول ، «أرأيت قوله : "فلا عدوان إلا على الظالمين" أعدوان هو ، وقد أباحه الله لهم؟»^(٤٧) ، وتأتي إجابة الفراء لتبين إشارته إلى الأصل الوضعي للكلمة ، فكان جوابه : «قلنا ليس بعدوان في المعنى»^(٤٨) ، ويعني ذلك أنه ليس العدوان الذي نعرفه ، وهو المعنى الأصلي للكلمة ، «إنما هو لفظ على مثل ما سبق قبله ، ألا ترى أنه قال : «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، فالعدوان في اللفظ ظلم في المعنى»^(٤٩) ، وفرق بذلك بين اللفظ والمعنى ، ورأى أن اللفظ قد يجعل السامع أو القارئ يظن أن الكلمة باقية على أصل معناها ، ولكن اللفظ تغير معناه ، وصار دالاً على معنى آخر ، وهو تحول في دلالة اللفظ ، أو قل هو انتقال بالمعنى الأصلي إلى معنى مجازي مع وجود صلة بين المعنيين ، ذلك أن «العدوان الذي أباحه الله وأمر به المسلمين إنما هو قصاص ، فلا يكون القصاص ظلماً ، وأن كان لفظه واحداً»^(٥٠).

ولا يجوز في هذا الموضع إرادة المعنى الأصلي المعروف بسبب هذه القرينة ، وقد اكتشفها الفراء بمحاكمة عقلية تؤول إلى ما في النص من معنى ، فكان بذلك أمام استعارة «تصريحية» واضحة

الملاح بين فيها أصل المعنى اللغوي ، وعلاقته بالمعنى المجازي ،
والقرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلي .

ويكشف هذا التحليل جانباً آخر من نظرة الفراء إلى
الاستعارة ، وهو أنه ينظر إليها على أنها تغير في معنى الكلمة يوحى
به السياق ، ولا تعني انتقال الدلالة ، فانتقال الدلالة قد يوحى
بالتخلي عن المعنى الأصلي ، وتلبس المفردة لمعنى جديد ، أمّا تغير
المعنى في السياق ، فإنه يشف عن هذا المعنى ، لأن أول ما يترأى
للإنسان هو المعنى الظاهري ، وحين يرجع البصر كرتين في النص
يجد أن ما التبس عليه في البداية قد فاء إلى دلالة اتجه إليها سياق
النص (٥١) .

كان هذا المنهج التحليلي رائد هذه الفترة في فهم النص ، ولم
يكن من تفاوت بين المفسرين والنحاة واللغويين في هذا الأمر إلا
اتباع طريقة في التحليل تتسق وموضوع الدرس ، ولذلك يمكننا
الاطمئنان إلى هذا المنهج كانت له قواعده التي تصح دراستها
بصورة مفردة ، ويخرج دارسها بطريقة لفهم النص تتجاوز في بعض
جوانبها الدراسات اللسانية الحديثة ، ذلك أن هذه الدراسات -
وإن ادّعت الشمولية - تظل في موضوع اللغة التي تبحثها ،
والنصوص التي تدرسها . أمّا النص العربي ، فهو في أمس الحاجة
إلى منهج أساسه طبيعة اللغة العربية ، ولا نملك مثل هذا المنهج إلا
إذا أقمنا قواعده على جمع شتات طريقة القدامى في التحليل النصي .

ولم يكن أبو عبيدة فرداً في دراسة القرآن الكريم ، وإنما هو
جزء من منظومة علمية ، ولا يفترق عن الدارسين الآخرين إلا في
كونه شغف بالمصطلح الذي رأى فيه صيغة تختزل مفاهيم عديدة ،

وفي أنه لم يكن معنياً بإثبات صحة مصطلح «المجاز» ، ولكن كتابه يبقى واحداً من أهم الكتب التي عنيت بالنظرية وقواعدها - كما رأينا - فقد أسس في مفتتح كتابه لها ، وجعل متن الكتاب تطبيقاً لحمل قواعدها .

أما الفراء ، فلم يكن يعني بالمصطلح كثيراً ، وإن يكن قد فهمه مثل سيبويه ، وكانت عنايته بالنص نفسه تبين عنه ، وتكشف دلالاته ، فجاء في سياق تحليله للآيات الكريمة بكثير من ظواهر المجاز ، وكان تحليله أساساً لفهم مفرداتها وفق اتجاهات المجاز المتنوعة .

وإذا كان سيبويه والفراء وأبو عبيدة قد ساروا على الطريق ذاته ، وأبانت طرائق دروسهم عن فكر واحد يوجه دراساتهم فإن ذلك يعني أنهم قد صدروا عن معين واحد ، وما كان إلا ذلك الروح التحليلي الذي أظلّ الدراسات التفسيرية القرآنية منذ بدايتها ، وقد أدت إليها إرادة نفر من الصحابة رضوان الله عليهم فهم نصوص القرآن الكريم بتأسيس قواعد المنهج التحليلي ، وهو المنهج الذي يقوم على استنباط دلالة المفردات داخل نصوصها .

فان قيل : ألم يكن هناك سابق ولاحق في هذا الدرس ؟ فإننا نقول : ان طبيعة البحث اللغوي التحليلي لا يمكن تصويرها على هذا النحو ، ولكننا نجد أن أساسها يقوم على المنهج التحليلي نفسه ، ومن ثم وجود دارسين ، يضيف كل منهم بطريقته ملامح جديدة إلى هذا المنهج ، فقد أضاف الخليل وسيبويه ما يفيد في فهم التركيب ، وبعض دلالات المفردات ، وزاد الفراء على ذلك ، ووضع أبو عبيدة مصطلحه ، وأساس نظرية أسلوبية معتمداً على ما تقدمه من دراسات تحليلية للنصوص العربية ، وكان الخليل وسيبويه أكثر

شمولية واتساعاً من الفراء وأبي عبيدة ، وذلك أنهما لم ينظروا إلى نصّ واحد ، وإنما جعلوا وكدهما النظر في نصوص اللغة لاستنباط قواعد عامة ، أما الفراء وأبو عبيدة ، فقد أفادا من هذه القواعد العامة لفهم النصّ القرآني .

ويمكن القول : أن المنهج التحليلي لدى الفراء وأبي عبيدة قد استند إلى ما وصله من نتائج تحليل نصوص اللغة تحليلاً لغوياً ونحوياً ، وقد جرى ذلك على أيدي مجموعة من العلماء المتقدمين بدءاً من محللي نصوص القرآن من الصحابة إلى الخليل وسيبويه ، ولم يكن هذا المنهج يعني بالمفردات أو التراكيب ، وإنما كانى يعنى بالأسلوب ، ويفهم النصّ وتوجيهه ، بيد أن ذلك لم يمنع من أن تتكون للفراء نظرات تحليلية لغوية عميقة ابانت عن فهم عميق لقضية المجاز اللغوي الذي يقع في المفردة أفاد فيها مما قاله مجاهد ، والخليل ، وسيبويه ، ولم يمنع كذلك من أن يتجه أبو عبيدة إلى تقعيد هذه الظواهر اللغوية والتركيبية فيما سماه «المجاز» لتكون دراسته نظرية تجمع شتات منهج التحليل إلى عصره ، وتحوله إلى قواعد منهجية أسلوبية صارمة .

وقد أعان على ذلك كله وجود النصّ اللغوي الذي يحتاج إلى التحليل ، وإيمان العلم بأن هذا النصّ مُعْجَزٌ ، وأنه يحتوي أسراراً كثيرة ، ولذلك لم يكن هؤلاء العلماء يعنون «بانتاج النصّ» بقدر عنايتهم بالنصّ اللغوي الذي وجدوه مهياً بين أيديهم ، سواء كان ذلك النصّ القرآني أم نصوص الحديث النبوي الشريف أم النصوص الشعرية والنثرية التي أثرت عن العرب .

وسوف يكون العلماء الذين جاؤوا بعد هذه الفترة ، وهم علماء القرنين الثالث والرابع الهجريين بصورة خاصة معنيين بوضع

القواعد الأولى لإنتاج الخطاب اللغوي الصحيح شعراً ونثراً ،
وأسسوا بذلك منهجاً واضحاً لعلماء البلاغة الذين جاؤوا بعد هذه
الفترة ليفتقوا الكلام ويفرعوا عليه ، ويضعوا له قواعده وأساليبه .

وقد بقي المنهج التحليلي رائد القوم عند النظر في النصوص ،
ومآلهم حين الحكم عليها ، أو تبيان مواقع الإجادة والضعف فيها ،
وساد هذا المنهج في شتى علوم العربية كالبلاغة والنقد واللغة .

ويمكن أن نقسم ما انتهت إليه دراسة الجواز بعد الفراء وأبي
عبيدة إلى ثلاثة اتجاهات عامة . أولها الاتجاه اللغوي البلاغي الذي
أرسى دعائمه الجاحظ « - ٢٥٥ هـ » ، وقد تفرّع عن هذا الاتجاه ،
الاتجاه اللغوي الخالص ، ونجده لدى ابن قتيبة وابن فارس ، وابن
جنّي ، واتجاه ينزع منزعاً بلاغياً ، وهو ماخذ به أولئك البلاغيون
والنقاد وبعض مفسري القرآن المشتغلين بعلوم اللغة كالزمنخشري .

والحقيقة أننا لانستطيع عزل الاتجاه البلاغي عن الاتجاه
اللغوي ، ولذلك قلنا : إنه اتجاه ينزع منزعاً بلاغياً ، ذلك أن جميع
المشتغلين بعلوم البلاغة منذ الجاحظ لم يكونوا بمعزل عن اللغة
وعلموها ، ثم إن هناك اتجاهات ثالثة له قواعده وأصوله ، وكان يصدر
عن طبيعة في البحث متميزة ، ونعني به اتجاه علماء أصول الفقه .

إن هذه الاتجاهات الثلاثة كانت متضافرة يستند أحدها إلى
الآخر ، ويؤسس بعضها آراءه وقواعده على قواعد بعضها الآخر .
وآرائه ، وكانت هذه الطبيعة في البحث هي التي أدت إلى مفهوم
الجواز الذي نعرفه ، وهو المفهوم الذي اكتمل لدى السكاكي ، ومن
دار في فلكه .

لقد كان الجاحظ ذا مكانة خاصة في تاريخ البلاغة العربية ،
ويجمع الباحثون المعاصرون والقدامى على أنه السابق المتفوق في
علومها ، بل هو منشئها ، وأول من أرساها على قواعدها
الأساسية ، فما أتى به في كتبه لم يتوفر لأحد قبله ^(٥١) .

ومن أهم ما يمكن أن نجده في أبحاثه ما كان يوليه للغة من مكانه الخاصة ، وقد عدّ دلالتها أكمل أنواع الدلالات وأكثرها تعبيراً عن حاجات الإنسان ، فتمنّلت من وجوده منزلة الضرورة والحدّ المميز له عن سائر المخلوقات^(٥٣) .

وعني الجاحظ في مؤلفاته بكثير مما تحصل لديه من دراسات السابقين ، فلمّ شبع هذه الدراسات وأبان عن طريقة جديدة سوف تكون هادياً للباحثين من بعده ، وأساساً يبنون عليه القواعد ويؤصلون الأصول .

ولاندّعني أن الجاحظ كان ذا منهج واضح في تأليفه ، وإما يسعى القارئ وراء ما يريده بين السطور ، وفي الأفكار المتناثرة ، ويحتاج إلى أن يدقق النظر أحياناً في العبارة ، يتقرّى ما يريده الجاحظ منها ، ولعل ذلك راجع إلى الأسلوب الذي اختاره الجاحظ للتعبير به عن أفكاره ، وهو أسلوب مبني على إيهام أو ازدواج معنوي : معني صريح ظاهر ، سهل الإدراك ، واضح الدلالة ، ومعني خفي ، بعيد الغور ، صعب المنال والتتبع . ولا تقتصر هذه المزوجة على الصياغة اللفظية وحدها ، وإنما تتعداها إلى تنشئة المعاني وتحريرها أيضاً ، ولئن كان ذلك يرجع إلى البراعة والاقتدار ، فإنه عائد إلى أسلوب المتكلمين في صياغة كلامهم كذلك^(٥٤) .

ويتجلى لنا ذلك في تعليقه على بعض العبارات ، فقد علق على عبارة : «ليس له صديق في السر ولا عدو في العلانية» بقوله : «وهذا كلام ليس يعرف معناه ، إلا الراسخون في هذه الصنعة»^(٥٥) . وقال مرة عند حديثه عن «الإشارة» : «ولولا أن تفسر هذه الكلمة يدخل في باب صناعة الكلام ، لفسرتها لكم»^(٥٦) . بيد أن دارس كتبه يتهدى إلى ما يريد بجمع الأفكار المفرقة ، والسعي وراء الإشارات المبعثرة .

ومن هذه الأفكار المفرقة إشارته إلى أن الفعل اللغوي مهما كان الحيز الذي يتنزل فيه ، وبغض النظر عن مقاصد منجزه وغاياته ، يقوم على ثلاثة عناصر رئيسية ، تمثل الحد الأدنى للبيان اللغوي ، وهي المتكلم والسامع والكلام ، والحقيقة أنه لا توجد في مؤلفاته صياغة نظرية مباشرة لهذه الفكرة ، لكن تحليلاته اللغوية ومقاييسه البلاغية تقوم على ما بين هذه العناصر من تلاحم وتفاعل^(٥٧) . ويعد تفتنه إلى هذا الجانب أمراً محموداً ، ولا ينقص من قيمته إن كان مبتدعاً فيه ، مخترعاً أو متبعاً متأثراً بأرسطو^(٥٨) .

وتبين هذه الفكرة أساساً من أسس ظاهرة التواصل ، وقد جرى الحديث عن تحليلها إلى مكوناتها الأساسية في حقة مقدمة من هذا القرن في نطاق ما أطلق عليه «نظرية التواصل» ، وهي نظرية «تهتم بكل أشكال الخطاب مهما كانت «السنة» المستعملة و «القناة» المختارة . ويقوم مخططها القاعدي على العناصر الثلاثة التي ذكرناها^(٥٩) مع العلم أن الخطاب أو الكلام ينقسم بصفة آلية إلى قسمين : الكلام ذاته وموضوعه ، فيصبح التقسيم الثلاثي رباعياً^(٦٠) .

وتعزى هذه النظرة المحدثه لرومان ياكبسن «R . J akpbson» الذي استطاع توظيفها للتقدم بالأبحاث الشعرية والأسلوبية والخروج بها من المأزق الذي تردت فيه لتحديد أدبية الأدب ، ذلك أن جلّ الأبحاث قبله كانت تعتمد لتحديد الأدبية على خصائص الخطاب ذاته ومقابلته بالخطاب العادي الذي تتجرد فيه اللغة من كل بعد فني ، أو يكون البعد الفني في الدرجة «الصفر» . وقد لاقى مطبقو هذا النهج عنتاً ، وصادفوا إشكالات كبيرة شككتهم في فعاليته وقدرته ، فجاءت «نظرية التواصل» لتعيد

صياغة المشكلة بصورة جديدة ، فتولي اهتماماً للشبكة المعقدة التي تقوم عليها عملية التخاطب ، وتؤكد أن ظروف المقال غير اللغوية كالمتكلم والسامع لهما قيمة كبيرة في تحديد خصائص الخطاب ^(٦١)

وقد لاحظ الدارسون المحدثون أهمية البحث في طبيعة منهج الجاحظ ، واحتفلوا كثيراً بنظرية التواصل لديه كما تبذت في طبيعة فهمه الخاص لوظائف الكلام ، فرأوا أن «وظيفة "الفهم والإفهام" أو "البيان والتبيين" ليس من الصعب إثبات أنها الوظيفة المسيطرة على تفكيره البياني ، ففي آثاره مجموعة من القرائن تشهد بأنها سَدَى كل فعل مهما حُمِلَ من مقاصد وأنيط به غايات ، والكلام خلواً منها ضربٌ من اللغو وباب من أبواب العي والحصر ، وأبرز القرائن وأقربها مأخذاً العنوان الذي اختاره لأشد كتبه صلة بالمباحث اللغوية والبلاغية خاصة أنه يرادف في كثير من المواطن بين "البيان والتبيين" و "الإفهام والتفهم" ^(٦٢) . ونجده يذكر ذلك صدد حديثه عن قوله تعالى : ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾ ^(٦٣) ، حيث يقول : «لأن مدار الأمر على البيان والتبيين ، وعلى الإفهام والتفهم» ^(٦٤) .

ويتجلى لنا الأمر أكثر حين نعود إلى حديثه عن البيان ، وقد أظهر فيه فكرته عن التواصل اللغوي ، وجعل أمر الخطاب اللغوي قسمة بين المتكلم والسامع ، فيقول : «والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير ، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ، ويهجم على محصولة كائناً ما كان ذلك البيان ، ومن أي جنس كان الدليل ، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجزي القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام ، فبأي شيء بلغت الإفهام ، وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع» ^(٦٥)

وقد تحولت هذه الوظيفة إلى غاية يجري وراءها المتكلم ، سواء أكان كلامه مما يجري على ألسنة الناس ، أو كان كلاماً بليغاً له خصائصه الفنية المتميزة ، وأظهرت بعض تعريفات البلاغة هذا الجانب ، وأبدى الجاحظ بتعليقه عليها إعجابه بها مما يؤكد منزلة هذه الوظيفة في نطاق تصويره اللغوي الكلي^(٦٦) ، فقال : « وكان عبد الرحمن بن اسحاق القاضي يروي عن جده إبراهيم بن سلمة ، قال : سمعت أبا مسلم يقول : سمعت الإمام إبراهيم بن محمد يقول : يكفي من حفظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إلهام الناطق ، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع . قال أبو عثمان : أمّا أنا فاستحسن هذا القول جداً »^(٦٧) . وقد احتفل الجاحظ تبعاً لذلك احتفالاً بأمرين ، أحدهما صوغ الكلام ومعايسره ، ومبدأ الاختيار اللغوي ، وكلا الأمرين يقومان على أن المتكلم أو صانع النصّ يقوم عمله اللغوي على مبدأ عقلي واضح ، فهو لا يلقي كلامه على عواهنه ، ولا يأتي به عفواً ، وإنما هو مدقق فيما يقول ، واع لما يصوغ .

أمّا مسألة صياغة الكلام فتبتدى لنا في قسميه ، الشعر والنثر ، فقد ذهب الجاحظ إلى قضية نقدية هامة هي مسألة التلاؤم داخل النص الشعري ، وفسر تبعاً لهذه الفكرة قول خلف :

وبعض قريض القوم أولاد علة ،

بأن دعا إلى التلاؤم بين ألفاظ البيت من الشعر ، والبعد عن التنافر ، وذهب إلى أنه « إذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مريضاً موافقاً كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة »^(٦٨) .

ولم يتوقف عند هذه الظاهرة وحدها ، بل كان أكثر إيغالاً
في الفكرة حين ذهب إلى القول :

«وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المتخرج ،
فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً ، وسبك سبكاً واحداً ، فهو
يجري على اللسان كما يجري الدهان » (٦٩).

وكانت نظريته إلى النص الثري مبعثها إفهام السامع مقصد
القائل من غير إطالة أو إكثار ، فالكلام من هذه الوجهة مراتب
«وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر
لفظه» (٧٠).

ويقع مبدأ الاختيار في صلب هذا الموضوع ، فكانت دعوة
الجاحظ إلى تخيير المعنى الشريف للفظ البليغ مع صحة الطبع «فإذا
كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً ، وكان صحيح الطبع ، بعيداً من
الاستكراه ، ومنزهاً عن الاختلال ، مصوناً عن التكلف ، صنع في
القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة . ومتى فصلت الكلمة على
هذه الشريطة ، ونفذت من قائلها على هذه الصفة أصبحها الله من
التوفيق ومنحها من التأييد ، مالا يمنع معه من تعظيمها صدور
الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهالة» (٧١).

ويكون بذلك المنهج العام الذي سار عليه سابقو الجاحظ قد
أتى عليه حين من الدهر انقلب فيه إلى منهج جديد ، فلم يعد
الجاحظ مكتفياً بما كان يحلله من النصوص اللغوية ، وقانعاً أن
يستنبط منه الدلالات ، وإنما اتجه إلى وضع تصور لإبداع النص
والكلام مستنداً في ذلك إلى النصوص اللغوية التي وصلت إليه ،
فحللها واستنبط أحكام ألفاظها ومفرداتها ، ومن ثم اتخذ لنفسه
نهجاً جديداً يقوم على وضع نظرية في الإبداع الفني اللغوي.

وكان اعتماده مبدأ التحليل وجهاً من أوجه الطريقة التي اتبعها، ويهدف به إلى إيضاح الجوانب الدلالية في لغة النص، وإبراز مظاهره الجمالية ليتزود المبدع من ذلك بزيادة كثير، فيصنع ما صنعه المبدعون الآخرون.

واستطاع في جانبي عمله التحليلي والنظري أن يدخل إلى أعماق النصوص، وأن يستنبط دلالة مفرداتها، وأن يضع أولى التصورات لفكرة المجاز اللغوي، وأبرز ما في شقي منهجه التحليلي والنظري طبيعة الفهم الجديد للتحويل الدلالي من المعاني الأصلية والوضعية إلى المعاني المجازية في المفردات التي تولف النص، وانتقل بذلك من مجرد الدوران حول الفكرة إلى طرحها وإبانة جوانبها النظرية، فأسس بهذه الطرائق لفكرة تجريد الأفكار من النصوص وإظهار القواعد البلاغية منها، وتحوّل الدرس المجازي على يديه من وصف النص إلى وضع القاعدة المجردة، ذلك أن سياق درس المجاز اللغوي عند الجاحظ لا يشذ عن سياق دراسة وسائل إنتاج الكلام أو النص، فجاءت إشارات إلى المجاز، وتعريف الاستعارة في نسق واحد مع عملية إنتاج الخطاب. وصحيفة بشر بن المعتمر التي أوردها الجاحظ تحتوي العناصر الأساسية لنظرية الإبداع في الفن والأدب^(٧٢)، وهي خير شاهد على عناية الجاحظ بهذه الفكرة، ونعني بها فكرة إبداع النص لا الوقوف عند تحليله، وإن كانت الصحيفة قد قامت على أسس عامة على المبدع الأخذ بها، وأهمها مفهوم «المشكلة» بين اللفظ والمعنى^(٧٣)، فإنها أدت ما رمى إليه الجاحظ، وهو التحويل من التحليل إلى وضع نظرية إبداعية.

وتتأتى لنا معرفة ذلك كله من متابعة دراسات الجاحظ اللغوية

والبلاغية والنقدية ، وقد نثرها في كتابيه البيان والتبيين ، والحيوان ، وفي رسائله . وتبين هذه الدراسات وعي الجاحظ للواقع اللغوي في المجتمع وأسباب تعدد المفردات الدالة على مدلول واحد ، ونعني به ذلك المجتمع الذي تكون بعد الفتوحات الإسلامية ، فرأى أن أهل «الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ، ولذلك تجد الاختلاف في ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر»^(٧٤) . ويدل ذلك على وعي الجاحظ بضرورة دراسة الواقع اللغوي ، وما يمكن أن يتصف به ، ذلك الواقع الذي بدأت تظهر عليه ملامح لغوية خاصة قد تبتعد في دلالاتها عن الدقة ، ويُعدّ هذا تسامحاً من الناس الذين كوّنوا مجتمعهم اللغوي الخاص ، أو ما يمكن تسميته بالاستخفاف ، فقد «يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها ، وغيرها أحقّ بذلك منها»^(٧٥) ، ويؤدي هذا الاستعمال إلى أن تخرج اللغة على خلاف الأصول المعروفة ، والدلالات المأثورة «إلا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة ، وكذلك ذكر المطر ، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام ، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث»^(٧٦) .

فإذا كان شأن العامة أن يفعلوا ذلك بلهل ، فما بال الخاصة يفعلون ؟ لا ريب أن هذا كان بسبب هذا المجتمع اللغوي الجديد الذي بدأ يضرب بجرائه ، وراح يؤسس لنفسه صورة مستقلة . ولا يمكننا أن نرجع هذا الاستخفاف الذي أشار إليه الجاحظ إلى مبدأ الاجتياز ، فذلك يقع من المتكلم بوعي وإرادة ، وهذا نوع من تغيير اجتماعي عام صار إليه المجتمع اللغوي ، ويعمل الجاحظ ذلك بتغيير

الأعراف الاجتماعية ، وتبدل المعايير في كل أمر ، منها التبدل الذي يطرأ على اللغة ، فالعامة «ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما ، وتستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالاً ، وتدع ما هو أظهر وأكثر ، ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ، ولم يسر ما هو أجود منه وكذلك المثل السائر ... ألا ترى أن العامة ابن القرية عندها أشهر في الخطابة من سحبان وائل ..»^(٧٧).

أمّا في مقابل ذلك فتجد صورة أخرى تنم على مبدأ الاختيار اللغوي ، وهو اختيار لا يستطيعه إلا من أوتي حظاً من الذكاء والمقدرة اللغوية ، فكان واصل بن عطاء أحد أولئك الذين كانوا على دراية بمواقع الكلم ، وبدلالاتها ، فأخفى لغة الرّاء القبيحة في لسانه باجتناب الكلمات التي تقع فيها راءٍ للدلالة على المعاني المقصودة^(٧٨) ، ولا يعني ذلك استخفافاً فردياً من ابن عطاء كما تفعل العامة ، وإنما هو اتساع في الرواية ، وحصافة في الاختيار اللغوي ، فجاء الجاحظ بهذين المثالين متتابعين ، ليبين لقرائه الفرق بين الاستخفاف العامّي والاختيار الخاص ، ومن غير ما ريب أن هذا الاختبار لا يعدو كونه ذا صلة بالمبدأ العام الذي يبني الجاحظ عليه طريقة «الاتصال اللغوي» ، وهو مبدأ «الفهم والإفهام» . ذلك أن العيب النطقي الذي قد يعرض للسان يمنع هذا الاتصال أو يعيقه ، فكان لابد لتحقيق مبدأ «الفهم والإفهام» من أن يتضح الكلام ، ويتجاوز المشكلات النطقية ، وليعرف المتكلم عيبه بين الجاحظ أهم هذه المشكلات ، كاللغة^(٧٩) والتمتمة^(٨٠) والفأفة^(٨١) ، والحُبسة^(٨٢) . وقد تؤدي بعض هذه المشكلات إلى عدم وضوح المعنى المقصود كالحكمة ، «فإذا قالوا في لسانه حكمة فألما يذهبون إلى نقصان آلة المنطق وعجز أداة اللفظ حتى لا تعرف معانيه إلا بالاستدلال»^(٨٣).

ولما كان الأمر على هذه الصورة فإن الجاحظ لم يتوان في بيان أسباب أخرى قد تعرض للمتكلم فلا يبين عن معانيه ولا يفصح عن مقاصده إن وقع فيها ، فذكر عن أبي داود بن حريز قوله : «تلخيص الكلام رفق ، والاستعانة بالغريب عجز ، والتشادق من غير أهل البادية بغض ، والنظر في عيون الناس عي ، ومسّ اللحية هلك ، والخروج مما بنى عليه أول الكلام إسهاب »^(٨٠) .

وتأتي للجاحظ بذلك مركّب سهل يتستّمه ، لأنه وجد في كلام أبي داود ما يعينه على المسلك ، ويلحب له الطريق ، ولذلك فإن تأديده المعاني بالألفاظ الدالة ، وبالكلام المختصر ، والمفردات المأنوسة ، وعدم التناقص في القول يجمع في داخله إرادة الجاحظ إيصال المعاني بأخصر طريق وأوضح سبيل .

ويحتاج من يسلك هذا الدرب - وهو الخطيب - إلى قدرات لغوية لاتتأتى إلا بالدربة والتجربة ، وحفظ الكلام وروايته وضبط اللغة وفق قواعدها ، ومهارة اختيار الألفاظ الدالة على المعاني ، ذلك أن رأس الخطابة «الطبع ، وعمودها الدرب ، وجناحها رواية الكلام ، وحليها الإعراب ، وبهاؤها تخيّر الألفاظ ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه »^(٨١) . فيتعد بهذه المعايير عن العامة في المجتمع اللغوي المحدث ، وتكون له ميزات خاصة ، يضبط الكلام، ويتخيّر الألفاظ ، فتتحصل له قدرة الإفهام .

ويثير الجاحظ وفق هذه المعايير قضية تقع في صلب الإفهام ، وهي قضية المفردة ذاتها ، ويضع لها معاييرها في الكلام من حيث دلالتها ، فالتكلم الذي يبين عما يريد بالكلام يتخير الألفاظ التي تظهر المعاني دون أن يكون فيها لبس أو غموض ، فقد «قال ثمامة : قلت لجعفر بن يحيى ما البيان ؟ قال : أن يكون الاسم يحيط بمعناك ،

ويجلي عن مغزاك وتخرجه عن الشركة ، ولا تستعين عليه بالفكرة ،
والذي لا بد له منه أن يكون سليماً من التكلف ، بعيداً عن الصنعة ،
بريئاً من التعقّد ، غنياً عن التأويل » ^(٨٢) .

فيحسن اختيار الألفاظ المؤدية للمعنى المراد الموضحة
للمقصود ، التي تتفرد بالمعنى الواحد دون أن تكون من الألفاظ
المشتركة الملبسة ، ووضوحها يجعلها سهلة الفهم ، على أن تقع في
مكانها في الكلام بغير تكلف أو تعقيد . وتأدية المراد باللفظ دون
حاجة إلى التأويل من أولى غايات المتكلم المبين الذي يسعى إلى
الاتصال اللغوي الصحيح ، وقد جمع الأصمعي ذلك كله في عبارة
مختصرة ، فأبان عن المراد ، وما قول جعفر بن يحيى - كما ذكر
الجاحظ - إلا تأويل لقول الأصمعي : «البليغ من طبق المفصل ،
وأغناك عن المفسر» ^(٨٣) .

ولا يتم الحكم علي اللفظ إلا داخل السياق الكلامي ، على
أن يكون الكلام موجزاً في موضع الإيجاز ، كما يقولون في إصابة
عين المعنى بالكلام الموجز : «فلان يفلّ المحرّ ، ويصيب
المفصل» ^(٨٤) ، أو مطولاً في موضع الإطالة ، يؤدي المعنى بطريقة
مباشرة أو بالوحي والإشارة والكناية ، وهذا أبو داود بن حريز
ينشد الجاحظ بيتاً له في صفة خطباء إباد ، فيقول :

يَرْمُونَ بِالْخُطْبِ الطَّوَالَ وَتَارَةً وَخِي الْمَلَاظِ خَيْفَةَ الرِّقَبَاءِ

ويعلق الجاحظ على ذلك بقوله : «فذكرَ المبسوطَ في
موضعه ، والمحدوف في موضعه ، والموجز ، والكناية والوحي باللحظ
ودلالة الإشارة» ^(٨٥) .

فصار المتكلم بذلك يسعى إلى وسائط لغوية عديدة ،
وصياغات متباينة ليؤدي المعنى على أفضل صورة ، فهناك من

يستمتع ليفهم «والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل ، إلا أن المفهم أفضل من المتفهم ، وكذلك المعلم والمتعلم» ^(٨٦) .

وكان تمسك الجاحظ بالوظيفة «الإفهامية» على أنها الغاية القصوى لكل مستويات اللغة قد أنتج من وجهة مبدئية ^(٨٧) وعامة الإلحاح ، على أن تكون دلالة اللفظ على المعنى دلالة صريحة ^(٨٨) ، ففضل الكلام الذي يغنيك قليله عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه ^(٨٩) ، ولا يعني ذلك لديه ابتدال المتكلم للألفاظ ، فليس ما يمنع المتكلم - حسب الجاحظ - أن تكون ألفاظه رشيقة عذبة ، وفخمة سهلة ، وأن تكون معانيه ظاهرة مكشوفة ، وقرينة معروفة ، بل إن متكلماً هذا شأنه لتحقيق بالمنزلة الأولى ... فكأن في ثلاث منازل ، فإن أولى الثلاث : أن يكون لفظك رشيقة عذبة وفخمة سهلاً ، ويكون هناك ظاهراً مكشوفاً ، وقريناً معروفاً ، أما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت ، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت» ^(٩٠) .

ويضاف إلى ماقلناه عن نظرة الجاحظ إلى نظرية الاتصال اللغوي ، موقفه من قضية اللفظ والمعنى ، ذلك أن هذا الموقف يكشف عن فهمه لمسألة الجواز ، فقد ألح الجاحظ على فكرة هامة هي مسألة المطابقة بين اللفظ والمعنى ، فنقل عن الأصمعي قوله : «البليغ هو من طبق المفضل ، وأغنناك عن المفسر» ^(٩١) ، وفسر هذا الكلام بخبر عن أعرابي وصف أعرابياً بالإيجاز والإصابة ، فقال : «كان والله يضع الهناء مواضع النقب» ^(٩٢) ، وقد أعلى من قيمة البلغاء الذين يأتون في كلامهم بالألفاظ المفهمة والكلام الموجر ، مع العناية بالمطابقة بين اللفظ والمعنى ، فتمدح ثمانية بن أشرس ، لأنه «كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف» ^(٩٣) ، ولم يكن ذلك وحده قاعدة تقديمه ، فقد «كان

لفظه في وزن إشارته ، ومعناه في طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك » (٩٤) .

وتعني المطابقة وفق تصور الجاحظ أن تكون الأسماء على أقدار المعاني ، لازيادة فيها ولا نقصان ، ذلك أن «من علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقاً ، وتلك الحال له وفقاً ، ويكون الاسم له لافاضلاً ولا مفضولاً ، ولا مقصراً ، ولا مشتركاً ، ولا مضمناً» (٩٥) .

ونفهم من ذلك كله أن الجاحظ يريد من المتكلم أن يتخير الألفاظ المطابقة للمعاني ، فتأتي على أقدارها ، ويفهم منها ما أراده المتكلم دون زيادة أو نقصان ، وليس يمكن أن يطرأ إلى الذهن بأن يكون اللفظ مشتركاً أو مضمناً ، ولا يكون هناك لفظ آخر يصح أن يفضل ما استعمله المتكلم في كلامه ، وكأن المتكلم في هذا الموضع متأمل ناظر ، وقد وضع بين يديه ألفاظ اللغة ، فتخير ما يطابق معانيها ، ولفظها لتأتي على قدر المعاني المقصودة بلا إبهام .

كانت هذه الأفكار أساساً لتفكير الجاحظ ونظرتة إلى الجاز ، وهذه هذا إلى أن يرى في الجاز اللغوي أنه ليس قيمة في ذاته ، ولكنه طريقة في التعبير يؤخذ بها بقدر ماتؤدي المعاني ، لا بقدر ما تجعلها غامضة توقع السامع في اللبس ، وذلك أن نظرتة إلى الجاز كان مبعتها ما آلت إليه تفسيرات القرآن الكريم ، وما اكتنف هذا العلم من تداخل مع القصص ، وقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين المفسرين رابطاً إليهم بذكر القصصين ، وخصص لهم فصلاً كاملاً (٩٦) ، ويمكن أن نفهم موقف الجاحظ من الجاز من حديثه عن هؤلاء المفسرين القصصين ، وبصورة خاصة ما ذكره عن القصصين موسى ابن سيار الأسواري ، فذكر أنه كان من أعاجيب الدنيا ،

وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس في مجلسه المشهور به ، فتقعد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ، ويفسرهما للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس ، فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدري بأي لسان هو أبين ^(٩٧) .

وكان هذا الرجل على ما يظهر من كلام الجاحظ عليه ذا قدرة فائقة في التفريغ وحمل الكلام على وجوهه ، فقد قصص على الناس ستاً وثلاثين سنة «فابتدأ لهم في تفسير سورة البقرة ، فما ختم القرآن حتى مات» ^(٩٨) ، ولأريب أنه كان بارعاً في توجيه دلالة المفردات ، وكان مبعداً في التأويل ، يدخل في تفسيره الأحاديث ، ويمزج بين القرآن والقصص «لأنه كان حافظاً للسير ، ولوجوه التأويلات ، فكان ربما فسر آية واحدة في عدة أساليب ، كأن الآية ذكر فيها يوم بدر ، وكان هو يحفظ مما يجوز أن يلحق في ذلك من الأحاديث كثيراً ، وكان يقص في فنون من القصص ، ويجعل للقرآن نصيباً من ذلك» ^(٩٩) .

ويظهر أن الجاحظ كان عارفاً بما يمكن أن تؤدي إليه مثل هذه التفسيرات من شطط في حمل الكلام على غير ظاهره ، وقد أبلغه هذا إلى عرض بعض أفكار المفسرين ، والمصادر التي اعتمدها في تفسيراتهم ، وكيف أن بعضها يرجع إلى اعتقادات بدائية ، كرواية الحجر وقدرة الأشياء على النطق في الزمن الأول ، كما جاء في شعر الأمية بن أبي الصلت ^(١٠٠) ، وقد انتقلت مثل هذه الاعتقادات إلى أهل الكتاب ، فاستعملوها في شعرهم كذكر عدي بن ربيعة ، وكان نصرانياً ديانياً ، وترجمانياً ، وصاحب كتب . شأن آدم ، وكيف أغواه ، وكيف دخل في الحية ، وأن الحية

كانت في صورة جمل فمسحها الله عقوبة لها حين طاعت عدوه على وليه (١٠١) .

وجود مثل هذه الأفكار في الأحاديث ، والأشعار تدل على انتقالها عبر العصور إلى المفسرين ، وهذا ما حمل الجاحظ على أن يظن «أن كثيراً مما يحكى عن كعب (١٠٢) أنه قال : مكتوب في التوراة أنه إنما قال : " نحمد في الكتب " ، وهو إنما يعني كتب الأنبياء ، والذي يتوارثونه من كتب سليمان ، وما في كتبهم من مثل كتب إشعياء وغيره » (١٠٣) ، وقد انتقلت مثل هذه التفسيرات إلى المسلمين ، فحملوا بعض الآيات عليها ، فقد روي عن مقاتل أنه يقول : «إن الصخور كانت لينة ، وإن قدم إبراهيم عليه السلام أثرت في تلك الصخرة كتأثير أقدام الناس في ذلك الزمان ، إلا أن الله تعالى توفى تلك الآثار ، وعفى عليها ، ومسحها ومحاهها ، وترك أثر مقام إبراهيم صلى الله عليه وسلم » (١٠٤) . وكان ذلك كله أدعى لأن يجعل الجاحظ يتمسك بالعقل ، ويسعى إلى إقامة الحجة ، وينظر في الأمر ملياً ، فكان يقول : «إنه لولا مكان المتكلمين هلكت العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة هلكت العوام من جميع النحل » (١٠٥) .

ولما كانت هذه التفسيرات تبتعد بالنص القرآني عن ظاهره ، وتعمق في تأويله متخذة من القصص حينا ، ومن المجاز حينا آخر ، مركبا لها فإن الجاحظ رفض هذا الإغراء المجازي ، وتمسك بصريح اللفظ ، وطامن من المغالاة في التأويل ، فرأى أنه (إذا كان اللفظ عاماً لم يكن لأحد أن يقصد به إلا شيء بعينه ، إلا أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم ، قال ذلك مع تلاوة الآية ، أو يكون جبريل عليه السلام قال ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، إن الله تبارك وتعالى لا يضم ولا ينوي ، ولا يخص ولا يعم بالقصد ، وإنما الدلالة في نية الكلام نفسه ، فصورة الكلام هو الإرادة ، وهو القصد

وليس بينه وبين الله تعالى آخر كالذي يكون من الناس» (١٠٦) .
فأدّى بهذا النصّ ما يختصر نظرتّه إلى طريقة فهم القرآن الكريم ، وطريقة فهم كلام الناس ، فكلام الله تعالى يفهم من صورته وفق قواعد اللغة ومعاييرها وطرائق متكلميه ، ومسالك الدلالة فيها عدا ما خصص أو عمم من الرسول صلى الله عليه وسلم أو جبريل ، أمّا كلام الناس فهم أحرار في فهمه وفي ما يريدون وفي تحريف دلالاته كما ينبغي ناقلوه .

فلا غرابة أن يعتمد الجاحظ في مؤلفاته إلى عدم الإغراق في قضية الجحاز ، والإشارة إليها على أنها القيمة الفضلى ، لا يحد عنها ، ولا فضيلة للكلام تاريخياً منها ، فكان فهمه الجحاز على هذا النحو متسقاً مع طرائق المتقدمين اللذين مروا بنا ، كالخليل وسيبويه والفرّاء وأبي عبيدة ، اللذين لاحظوا أن الجحاز طريقة في القول ، ووسيلة من وسائل المتكلم يصوغ بها الكلام .

بيد أن الجاحظ لم يكن يخطط في ذلك خبط عشواء ، فهو - وإن أخذ هذا النهج من اللغويين الذين أسسوا مناهج التفكير اللغوي العربي - جعل ذلك كله متسقاً مع طبيعة تفكيره الخاصة . ويحملنا على هذا القول ما كان من أمره حين حكّم العقل في النظر إلى التفسير بالمأثور ، ولم يرتض أن يقبل الروايات على صورتها ، بل دقق فيها ، واكتشف بعض خباياها ، وأعادها إلى أصولها التاريخية القديمة.

ولاجرم أنه كان ينشر هذه الأفكار التي يعتقدها في كتابه ، وتحتاج إلى من يلمّ أطرافها ، ويؤلف بينها ، ليصل إلى طبيعة تفكير الجاحظ ، ولانستطيع أن نغض الطرف عن أفكاره في مسائل بعيدة عن اللغة ، وردت في كتبه من غير أن نفيد منها شيئاً من منهج الجاحظ في النظر إلى الأشياء ، وقد تحولت بنظرتّه المدققة من أجزاء

حسية إلى مركب مجرد ، ، فتقاس نظيرته إلى اللغة بنظيرته إلى هذه الأشياء لنكشف عن طبيعة التفكير لديه بصورة عامة.

وتقع فكرة «المنزلة بين المنزلتين» في صلب تفكيره حين نتقري نظيرته إلى بعض الظواهر ، فهو يرى أن لكل شيء مقداراً معلوماً ، مازاد عليه أو نقص منه بان ، فالغيث يطلب لذلك «طلب الغيث على قدر الحاجة ، لأن الفاضل ضار»^(١٠٧) ، وكذلك يلاحظ أن النهي قد وقع على كل شيء جاوز المقدار ، ووقع اسم العمي على كل شيء قصر عن المقدار^(١٠٨) ، والإفراط في الجواز وفق هذا التصور العام للأشياء زيادة على المقدار ، والفاضل منه ضار . وتبين هذا الأمر حين نربط بين كلامه على مسألة المقدار ، ورأيه في اللفظ والمعنى ، فهو - كما لاحظنا - يرى ضرورة المطابقة بينهما ، فلا يكون الاسم للمعنى فاضلاً أو مفضولاً ، أو مقصراً . ومثلاً أو مضمناً^(١٠٩) ، ولما كان الجواز فيه من التوسع والزيادة في المعنى^(١١٠) ، فإنه - لاريب - زيادة على مقدار بذاته ، ولذلك ليس من الصالح أن يفرض مستعمل اللغة فيه .

والحقيقة أن هذا التفسير لنصوص الجاحظ له مايسوغه في طريقة جمعه بين النصوص المتباعدة ظاهرياً ، وكما تتبدى للناظر المتعجل ، وقد أسهمت العنوانات التي وضعت للنصوص في تمزيق بعضها ، على حين أراد الجاحظ أن تكون وحدة لها أجزاءها . فنقل عن (النظام) قوله في نار المصباح بـ «أن نار المصباح لم تأكل شيئاً من الدهن ولم تشربه ، وأن النار لا تأكل ولا تشرب ، ولكن الدهن ينقص على قدر ما يخرج منه من الدخان والنار الكافيين اللذين كانا فيه ، وإذا خرج كل شيء فهو بطلانه»^(١١١).

وأردف هذا الكلام بحديث عن الجواز ، وهو يصور لنا بهذا

الانتقال طبيعة نظرته إليه ، والأسس التي يفهمه وفقها ، فيقول :
« وقد يقولون ذلك أيضاً على المثل ، وعلى الاشتقاق ، وعلى
التشبيه »^(١١٢)

فالنار تنقص من الدهن على قدر ما يخرج منه من الدخان
والنار الكافيين اللذين كانا فيه ، وأكل ماليس معهوداً أكله تنقص
من الشيء بقدر معلوم ، حتى إذا اخرجت النار كل شيء من
الدخان والنار الكافيين في هذا الشيء فإنها تلغيه ، وتعدمه . ويعدّ
هذا التفسير لفناء الشيء المحترق تدريجياً أمراً أقرب إلى النظرة
العلمية المتسقة مع معارف ذلك العصر ، وحادثة الاحتراق حادثة
واقعية حقيقية ، وهي موجودة في الواقع الخارجي ، وقد جعلها
الجاحظ أصل تفسير المعنى المجازي ، وأوجد علاقة بين الواقع
المحسوس المعبر عنه باللغة ، وبين التعبير المجازي الذي يستند في أصله
إلى هذا الواقع المحسوس .

فهناك في تفكير الجاحظ - على ما يبدو - ثلاثة مستويات
للتعبير المجازي ، أولها الواقع الخارجي ، وثانيها تسمية أجزائه
ووصفه باللغة ، وثالثها التعبير عنه بغير اسمه الحقيقي ، مما يخرج
الكلمة التي استبدلنا بها الاسم الأول عن معناها إلى معنى مجازي .

ونتبين هذا الأمر في النص الذي نقله عن «النظام» في مسألة
كمون النار ، فالنص في مجمله تفسير «فيزيائي» علمي لمسألة
الاحتراق ونقص الشيء المحترق تدريجياً ، وقد صيغت هذه الحادثة ،
ووصفت باللغة ، ولكن ظاهرة تنقص النار من الشيء حيناً بعد
حين باستخراج ما فيه من دخان ونار أثارت لدى الجاحظ فكرة
جديدة عن التعبير باللغة ، فوجد أننا حين نعبر عن تنقص الأشياء
حولنا باستعمال كلمة «النقص» نكون عبرنا عن الواقع تعبيراً
حقيقياً علمياً ، ولكن حين نعبر عن ذلك بكلمة أخرى يكون

التعبير مجازياً ، فنطلق على «التنقص» اسم «الأكل» ، أما الحادثة الطبيعية الواقعة في العالم الخارجي فلا نطلق عليها مثل هذه التعبيرات ، ولذلك صحح «النظام» الفكرة ، وجعل فناء دهن المصباح التدريجي يسمى «تنقصاً» ، وتهكم من تسمية الحادثة «أكلاً» ، أما الجاحظ فقد أضاف إلى هذا تصويره لقضية الجحاز ، فوجد أن «الأكل» لفظ مجازي حين نعني به «التنقص» ، وفصل - بذلك - التعبير بالحقيقة عن التعبير بالمجاز من خلال كلمة «الأكل»^(١١٣) .

وقد حلل دلالات هذه الكلمة بالأمثلة ، فوجد أنها تدل على معنى حقيقي هو «الأكل» المعروف حين يقول : «أكله الأسد»^(١١٤) ، ولكنها تدل دلالة مجازية إن أردنا بها معنى «التنقص»^(١١٥) ، كما في الآية الكريمة «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالِ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا»^(١١٦) ، وتدل أيضاً دلالة مجازية أخرى حين لانعني بها الأكل الحقيقي أيضاً ، كأن نقول : «أكله الأسود» ونعني بذلك «النهش واللدغ والعض»^(١١٧) .

فندرك من الأمثلة أن أكل الشيء إنقاص له ، فتكون الصلة بين معنيي الكلمتين صلة مشابهة ، ولكننا حين نجعل النهش واللدغ والعض أكلاً فإننا أمام نوع جديد من العلاقة ، فبينهما مشابهة بعيدة ، ذلك أنهما جميعاً يقعان بالفم ، وهذا نوع من تشقيق المعاني ، وإيجاد الصلة بين المتباعدين ، ولما يقع الأمر في غير هذا الموقع ، فنجعل «الغيبة» مثل أكل لحم الميت ، فإن هذا يعد تمثيلاً لهذه الحالة المنهي عنها ، ولذلك سُمي الجاحظ هذا النوع من المجاز «المثل ، والاشتقاق ، والتشبيه»^(١١٨) .

ويقوم هذا كله على الكلمة المفردة في السياق اللغوي ، وذلك بجعل دلالتها طوع المتكلم ، وهو الذي يلمح مافيه من

المعاني المختزنة ، فيقارب بين بعض هذه المعاني ، وبين الموقف اللغوي ، ويطرح المعاني الأخرى ، فتتحول اللفظة إلى نوع خاص من الدلالة ، وكأنها في غير مكانها الطبيعي ، وذلك أن دلالتها الحقيقية التي تدل على المسميات الخارجية معروفة ، وقد جسيء بها لتدل على حالة خاصة جديدة ، فكأنها استعيرت للدلالة على هذه الحالة ، ووضعت في هذا السياق للمماثلة والمثابة والأصل الذي يجمع بين دلالتها الحقيقية والدلالة الجديدة التي يستشف منها في السياق الجديد ، ولذلك ليست الاستعارة هذه من أوضاع اللغة ، وإنما هي من فعل المتكلم ، وقد خبر اللغة ، وعرف دلالات ألفاظها ، فمزج بين الدلالات ليخرج بألوان جديدة منها ، مثله مثل الرسام الخبير بالألوان ، يمزج حارّها بباردها لتأتي له صيغة لونية تعبيرية جديدة .

فكان المجاز اللغوي لدى الجاحظ على هذه الصورة أيضاً ، وقد تمثّل في ذهنه حين قرر ضرورة المطابقة بين اللفظ والمعنى ، ولكن المتكلم قد يتحول إلى أمر جديد ، هو أنه لا يستعمل للمعنى اللفظ المعتاد ، بل يأتي بلفظ آخر فيه شيء من الدلالة على المعنى المعتاد ، بل يأتي بلفظ آخر فيه شيء من الدلالة على المعنى المعتاد ، وفيه دلالات أخرى ، فتتسع دلالة اللفظ ، وتتسع المعاني في السياق ، ولهذا ارتضى أن يسمي المجاز أيضاً «الاتساع»^(١١٩) ، وكان بهذه التسمية على ذكر من طبيعة العلاقة بين المعاني ، وبين الألفاظ الدالة عليها .

وتنكشف لنا حقيقة هذه النظرة مما نفهمه من كلام الجاحظ حول كلمة «الأكل» ، فإذا كان ذوبان الوهن تنقصاً له ، والأكل تنقص للطعام المأكول ، فلا ريب أن صانع الكلام أو النص يستطيع أن يكون سياقاً جديداً حين يجعل إذابة النار للدهن أكلاً له تشبيهاً

وتمثيلاً واشتقاقاً ، فتنزع كلمة «التنقص» من الكلام ، وتستعار كلمة «الأكل» لتحل محلها ، وتبقى فيها دلالاتها السابقة ، ويميز جانب من هذه الدلالات هو «التنقص» ، فإذا بالكلمة ، وقد اتسعت دلالاتها ، وإن كانت في غير سياقها المعتاد ، وإنما هي مستعارة من مكانها المعروف إلى سياق جديد .

وعلى هذا كان تعريف الجاحظ الاستعارة ، وقد أوجز تعريفها ، ولكنه أقام ذلك على قاعدة أننا نقيم مكان اسم الشيء الحقيقي اسماً لغيره حين يصحّ ذلك الاستبدال ، فعرفها بأنها «تسمية الشيء باسم غيره ، إذا قام مقامه» (١٢٠) .

وقد احتفل عبد القاهر الجرجاني بهذه المسألة احتفالاً ، وأبان غامضها ، وكأنني به يتأثر الجاحظ في كلامه ، ويفهمه بالطريقة التي يستحق أن يفهم بها ، فقد جعل الاستعارة أن موضوعها على أنك تثبت بها معنى لا يعرف السامع ذلك المعنى من اللفظ ، ولكنه يعرفه من معنى اللفظ (١٢١) ، وأتى على ذلك بمثال هو : «رأيت أسداً» ، فحين تقول هذه العبارة يكون الغرض منها أن تثبت للرجل أنه مساو للأسد في شجاعته وجرأته ، وشدة بطشه وإقدامه ، وفي أن الذعر لا يخامرهم ، والخوف لا يعرض له ، والسامع لا يعقل هذا المعنى من لفظ «أسد» ، ولكنه يعقله من معناه «وهو أنه يعلم أنه لا معنى لجعله «أسداً» مع العلم بأنه «رجل» ، إلا أنك أردت أنه بلغ من شدة مشابهته للأسد ومساواته إياه مبلغاً يتوهم معه أنه أسد بالحقيقة» (١٢٢) .

ورفض الجرجاني تبعاً لذلك ما كان قد ذكره بعض العلماء من تعريف للاستعارة على أنها «تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على سبيل النقل» (١٢٣) ، ومن ذلك أيضاً تعريف

القاضي أبي الحسن الجرجاني الاستعارة بقوله : «الاستعارة ما اكتفى فيه بالاسم المستعار عن الأصلي ، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها» (١٢٤) .

ورأى أن ذلك لا يصح ، لأن الاستعارة ليست تعني نقل اسم عن شيء إلى شيء ، ولكنها ادعاء معنى الاسم لشيء (١٢٥) .

فتبقى الكلمة المستعارة على معناها الأصلي ، ولم تتغير دلالتها ، وإنما وضعت في غير سياقها لتبرز معنى موجوداً فيها أصلاً دون غيره من المعاني ، وما ذلك إلا لضرورة إيضاح معنى لطيف وغامض «ومن شأن ما غمض من المعاني ولطف أن يصعب تصويره على الوجه الذي هو عليه لعامة الناس ، فيقع لذلك في العبارات التي يعبر بها عنه ما يوهم الخطأ» (١٢٦) .

فكانت الاستعارة وفق هذا التصور لاتعني نقل الدلالة ، وإنما تسمية الشيء باسم غيره عندما يصح أن يقوم هذا الاسم مقام الاسم السابق ، وما ذلك إلا لإشاعة تصور معنوي لدى السامع ، ولذلك حلل الجاحظ الجواز الاستعاري في قول الشاعر (١٢٧) :

يأدار قد غيرها بلاها	كأنما بقلم محاهها
أخبرتها عمران من بناها	وكره منساها على مغناها
وطفقت سحابة تغشاها	تبكي على عراصها عينها

ورأى أن هذا الجواز يقوم على تسمية شيء باسم غيره لدلالة معنوية من غير أن يعني ذلك تبديلاً في دلالة هذا الاسم ، وما ذلك إلا للتعبير عن معنى غامض لا يؤديه اللفظ الأصلي ، فحلل هذا الجواز بقوله : (قوله : أخبرها عمران من بناها ، يقول : عمرها بالخراب ، وأصل العمران مأخوذ من العمر ، وهو البقاء ، فإذا بقي

الرجل في داره فقد عمّرها»^(١٢٨) ، ولكن هذا المعنى لو نظر إليه من خلال اللفظ نفسه - كما لاحظ الجرجاني - لما دلّ على المقصود ، وفهمنا من العبارة تناقضاً وقع فيها ، فبقاء باني الدار فيها قد أضر بها . والحقيقة أن المعنى المقصود - كما رأى الجاحظ - هو أن الشاعر يقول : «إن مدة بقاءه فيها أبلت منها ، لأن الأيام مؤثرة في الأشياء بالنقص والبلى ، فلما بقي الخراب فيها وقام مقام العمران في غيرها سمي بالعمران»^(١٢٩) ، فلم تتحول في هذا التحليل كلمة «العمران» عن معناها ، وهو البقاء ، وإنما وضعت في سياق جديد ، فاشاعت معنى خاصاً للبقاء .

وتتضح الصورة أكثر في تحليل الجاحظ الآية الكريمة «هذا نزلهم يوم الدين»^(١٣٠) ، فقد رأى أن العذاب لا يكون نزلاً ، و«لكن لما قام العذاب لهم في موضع النعيم لغيرهم سمي باسمه»^(١٣١) ، فاحتفظت الكلمة المستعارة بمعناها ، ولكنها أضفت على معنى السياق دلالة جديدة بسبب هذا المعنى الذي تحمله .

وقد فهم الجرجاني ذلك على أن الأصل في الاستعارة المعنى ، وأنه المستعار في الحقيقة «وأن قولنا : استعير له اسم الأسد إشارة إلى أنه استعير له معناه ، وأنه جعل إياه»^(١٣٢) . ولما كانت الاستعارة للمعنى ليضفي تصوراً دلالياً جديداً للسياق بامتزاجه مع معنى السياق الحقيقي السابق كان ذلك نوعاً من الاتساع في هذا المعنى الأصلي ، وعدولاً باللفظ عن الظاهر^(١٣٣) .

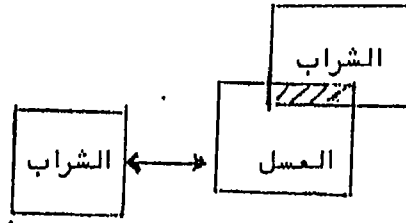
ولم يكن المجاز الاستعاري آخر أبحاث الجاحظ المجازية ، فقد أشار أيضاً إلى المجاز اللغوي الآخر ، وهو ما سمي بعد المجاز المرسل ، وكان له تصور طريف يحسن بنا النظر إليه وفق الروح والمعايير التي نظرياً بها إلى آرائه في المجاز الاستعاري وأصوله لديه ، وقد قدمنا

الحديث عن المجاز الاستعاري عند الجاحظ على المجاز المرسل لإدراكنا أن الجاحظ قد فصل القول في هذا المجاز فتبدت فيما فعل أسس نظريته إلى المجاز بصورة عامة، فكان تقديمه في البحث تأصيلاً لبحث المجاز عامة لدى الجاحظ .

وقد كتب الجاحظ نصاً في الحيوان جمع فيه على قصره أفكاراً عديدة ، ويمكن أن نتخذ منه أساساً لنظرية المجاز لديه ، ذلك أنه أشار فيه إلى أهم قواعد هذه النظرية ، بيد أن هذا النص واحد من النصوص الجاحظية التي لا يتأتى لنا فهمها إلا إذا وضعناها في سياق الدراسات اللغوية العربية ومناهجها في النظر إلى اللغة ، وفي موقعها من نظرات الجاحظ نفسه .

وقد جعل منطلق النص قوله تعالى : ﴿يُخْرِجُ مِنْ بَطْنِهَا شَرَابٌ﴾^(١٣٣) ، وجرّد كلمة «شراب» من هذا النص ، وذلك وفق طريقة الباحثين اللغويين العرب الذين كانوا يقيمون أنظارهم الدلالية على النص ، ويفهمون اللفظة داخل سياقها ، وكان هذا المنهج سبيل المفسرين واللغويين والنحويين المتقدمين جميعاً ، فكانت الدلالة لديهم أبرز جوانب الدراسات النصية العربية .^(١٣٤)

وقرّر الجاحظ أن المقصود بالشراب في الآية «العسل» . ولاحظ أن في هذه الكلمة دلالة جديدة ، «فالعسل ليس بشراب ، وإنما هو شيء يحول بالماء شراباً ، أو بالماء نبيذاً»^(١٣٥) ، وكانت هذه الدلالة من فعل مُنْزَل النص ، وهو الله تعالى ، وقد حول دلالة «الشراب» الوضعية إلى دلالة جديدة هي «العسل» ، ولذلك سُمّي العسل شراباً ، فهو الذي يأتي منه الشراب ، فعلاقة المعنى الوضعي للكلمة بالمعنى المجازي علاقة تبادلية ، فتحل كلمة محل أخرى لعلاقة تربط بين المعنيين ، ويمكن تمثيل هذه العلاقة بين المعنيين على النحو الآتي :



فكلمة الشرب لم تتخل عن معناها الأصلي ، فالشرب في الآية أصله «العسل»، والأشربة أنواع ، تتكون من مواد مذابة هي أصلها ، وهذا الشرب أصله العسل ، فهناك صلة وشيجة بين العسل والشرب ، لأن العسل يتحول بالمزج إلى شرب ، ووساطة المزج الماء ، فإنه «يحول بالماء شراباً ، أو بالماء نبيذا»^(١٦٣) ، وساغ لذلك تسمية العسل شراباً « إذ كان يجيء منه الشرب »^(١٦٧) ، وكأن الكلمة هنا دلت على أصل المادة التي صنعت معناها ، فنتصور المعنى على الصورة الآتية : الشرب مادة تشرب ، ومادة صنعها العسل الممزوج بالماء ، ويحمل تسميات متعددة ، فإن مزج بالماء فحسب ، فهو الشرب ، وإن مزج بالماء وغلي وخمر فهو النبيذ ، ولكن مستعمل اللغة قد يضع كلمة الشرب في سياق يريد بها العسل نفسه ، ذلك أنه يعني أن هناك علاقة بين المعنيين ، وهو أن العسل سيكون شراباً حين يمزج بالماء باعتبار ماسيكون .

ونلمح في هذا التفسير أمراً آخر ، فليست العبرة في الآية إخراج العسل من بطون النحل فقط ، وإنما إخراجه ليكون نافعاً للإنسان ، فيتحول هذا العسل إلى شرب ينفعه ، وهذه هي العبرة في تسمية العسل شراباً ، وهذا جار مجرى كلام العرب ، فهم يستعملون الكلمة ، ولها صلة بشيء يقصدونه ، فيجمعون بين معان متعددة ، وكأن الكلمة تصبح في هذا السياق منشورة الدلالة أمام السامع ، وقد حملت زيادة على معناها المعروف دلالات غير غريبة عنه ، ذلك أنها متصلة بها ، وهذا ليس من اللغة في شيء ، وإنما هو تصرف من المتكلم وافتنان منه في استعمال اللغة ، ونلمح ذلك حين يفرق الجاحظ بين اللغة والكلام في النص ، فيجعل هذا التصرف

كلاماً ، فقد «جاء في كلام العرب أن يقولوا : جاءت السماء اليوم بأمر عظيم» (١٣٨) . وليس هذا وقفاً على الكلام العادي اليومي ، وإنما هو داخل أيضاً في سياق الفن الشعري ، فقد قال الشاعر :

« إذا سقط السما بأرض قوم رعيناه ، وإن كانوا غضابها

فزعموا أنهم يرعون السماء ، وأن السماء تسقط » (١٣٩) ، وهذا الزعم يعني البعد عن الحقيقة ، فالسما في ذهن المتكلم ، والعرف اللغوي تأتي منها الأمطار ، والمطر سبب إنبات العشب ، والعشب يُرعى . إن المجاز وفق هذا التصور لا يفصل الكلمة عن دلالتها الأصلية أو «الوضعية» ، وإنما يربط بين هذه الدلالة ، ومعان أخرى ، فكان اللغة قد تحولت إلى تمثيل حقيقي للواقع ، فكما أن الواقع المحسوس لا يمكن فصل جزء فيه عن آخر ، أو ظاهرة طبيعية عن أخرى ، فكذلك الكلمات ، لاتعزل دلالة بعضها عن دلالة بعضها الآخر ، وإنما تتداخل الدلالات فيما بينها ، معبرة عن تداخل المسميات وارتباط بعضها ببعض .

ولفهم هذا التصرف اللغوي الذي أجراه المتكلم قاعدة تستند إلى اللغة ، ففرق الجاحظ بين الكلام ، وفيه دلالة خاصة للكلمات ، وبين اللغة بدلالات ألفاظها الوضعية ، وبين ذلك من خلال كلمة «نخرج» في سياق الآية ، فهذه الكلمة دلت على معناها الوضعي ، وقد جاءت مطابقة في دلالتها لما هو في الواقع الحسي ، وأشار الجاحظ إلى ذلك بالمقابلة بين هذا الواقع ، وبين اللغة ، فقال : « ومتى خرج العسل من جهة بطونها ، فقد نخرج في اللغة من بطونها وأجوافها » (١٤٠) . وإذا ما قابلنا بين زعم المتكلمين عن سقوط السماء ، وبين خروج العسل من بطون النحل حقيقة ، فإننا نخرج بنتيجة هي أن السقوط هنا متخيل ليس له معادل واقعي ، على

حين نجد الخروج حقيقة ، لأنه يعادل شيئاً جرى بتمامه في الواقع .
فمعيار الحقيقة والمجاز وفق هذا التصور يقوم على مدى
انطباق الاسم على المسمى ، أو عدم دلالة عليه دلالة تامة ، أو
بمعنى آخر : اشتغال الاسم على دلالة الأصلية وما يتصل بها
دلالات ، وكأن الكلمة في السياق أمّا أن تذلل على دلالة واحدة
محددة فهي حقيقة . وإما أن تشف عن دلالات متعددة أدى إليها
امتزاجها بدلالات الكلمات المجاورة ، فأوحت بعلاقات مع معان
متعددة كما لمسماها علاقة بسميات مختلفة ، ولذلك لانستطيع أن
نسمي المجاز تبعاً لتصور الجاحظ المخراًف (١٤١) .

فهو ينظر إليه على أنه استشفاف لدلالة الألفاظ ضمن
السياق ، وعلاقة بين اللغة والواقع ، فلا تبعد اللغة عن الحياة ،
وتصبح لها بذلك طبيعة منعزلة عما حولها ، وإنما تعود بها هذه
النظرة إلى أصولها الأولى حين بدأت أداة للتفاهم بين الناس ،
وسيلة لتعرف الأشياء المحيطة بالإنسان .

ولانملك أن نحمل الألفاظ دائماً على معناها الوضعي ، وإنما
يجب أن ننظر إلى ما وراء الدلالة اللفظية ، أي إلى المعنى — وفق
تعبير الجرجاني كما مرّ سابقاً — ذلك أن « من حمل اللغة على هذا
المركب لم يفهم عن العرب قليلاً ولا كثيراً » (١٤٢) .

والحقيقة أن فكرة الاتساع بالمعنى الوضعي الذي لا تدل عليه
الكلمة في السياق دلالة لازمة وراء هذا التوجه في تفسير كلام
الجاحظ ، ففكرة الاتساع لا تعني إلغاء هذه الدلالة الوضعية ، وإنما
الانطلاق منه إلى دائرة أكبر وأشمل ، والمتكلم والمستمع في فهم
ذلك مشترك ، فبالإتساع يتم التعبير عن المعاني التي لا تستطيع
الكلمات بمعانيها الوضعية التعبير عنها ، وهو حالة اضطرارية ،

ولكنها مقيدة بمعنى الكلمات الوضعية التي لم يتخلل المتكلم عنها ،
 فيستطيع السامع فهم «الرسالة» اللغوية ، لأنه على ذكر من
 ارتباطات معنى الكلمة بالواقع ، ومن ارتباطه بالسياق اللغوي .
 وهذا شيء مكتسب في الإنسان ، يتعرفه ويفهمه بحكم العادات
 اللغوية التي يكتسبها ، وللعرب طريقة في صياغة التركيب ، وفي
 التعبير بالألفاظ ، تقوم على استعمال المعاني الوضعية أو الاتساع
 بها لتشمل صلة مسماها بغيره في الواقع ، وبهذا النوع من
 الاستعمال «وبأشباهه اتسعت» ^(١٤٢) العرب في كلامها ، ودليل
 ذلك أن الله تعالى «خاطب بهذا الكلام أهل تهامة ، وهذا
 وضواحي كنانة» ^(١٤٣) .

ويؤكد هذا ماذهب إليه الجاحظ في نوع من أنواع الجواز ،
 سماه «الجواز القائم» ، ولا بد لفهم هذا النوع من الجواز من أن نضع
 كلام الجاحظ عليه في سياقه ، فذلك يبين لنا مقصده منه ،
 ومايشتمل عليه من أفكار .

ولاريب أن ماعناه الجاحظ بالجواز القائم أدخل في نظرته
 العامة إلى النص وطرائق فهمه ، وإلى مستويات اللغة كما فهمها .
 فقد ساق لنا الحديث عنه ، وهو بصدد الكلام على بعض القضايا
 ذات الصلة بالتفسير من جهة ، وبالإلحاح على التحلي عن الثقافة
 الجاهلية من جهة أخرى ، ونفهم من ذلك إلحاح الجاحظ على أن
 فهم النصوص يجب أن تكون له معايير الخاصة ، ومن أهمها
 التدقيق في الرواية ، وفهم الكلام في سياقه ، وعدم التسرع في
 استنباط الأحكام .

فقد تصلنا نصوص وردت إن الرسول صلى الله عليه وسلم ،

وهي النصوص التي لانستطيع إلا أن نأخذها كما وردت لعدم وجود ما يوجه معناها إلى غير ما يعبر عنه ظاهرها ، من ذلك الحديث المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قول ابن مسعود وأبي هريرة : «لاتسموا العنب الكرم ، فإن الكرم هو الرجل المسلم»^(١٤٤) .

بيد أن هناك أحاديث شريفة أخرى وقف عندها الجاحظ ، ونقل طريقة في فهمها وفق سياقها وما أحاط بها من ملابسات يرجع بعضها إلى مناسبة قولها ، ويرجع بعضها الآخر إلى اعتقاد ديني قديم ، كاليهودية والنصرانية ، ويفهم المقصود منها بمقارنتها بهذه الاعتقادات لافهمها وفق تفسير مغلوط ، وقد ذكر الجاحظ وجها متقبلا لعبد الرحمن بن مهدي « - ١٩٨ هـ » في تفسير قوله صلى الله عليه وسلم «لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله حيث ذكر أن القوم قالوا : «وما يهلكنا إلا الدهر»^(١٤٥) ، فلما قال القوم ذلك ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : «ذلك الله» ، يعني أن الذي أهلك القرون هو الله عز وجل ، فتوهم منه المتوهم أنه إنما أوقع الكلام على الدهر»^(١٤٦) ، فكان التفسير تصوراً للواقع الذي قيل فيه الكلام ، ومراعاة لمناسبة القول .

وفسر بعضهم قوله صلى الله عليه وسلم لحسان : «قل ومعك روح القدس» فقالوا : قال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان قل ومعك جبريل ، لأن روح القدس أيضاً من أسماء جبريل»^(١٤٧) ، ولم يرتض الجاحظ هذا التفسير ، وغلط القائلين به ، واستشهد على ذلك بقول موسى : «ليت أن روح الله مع كل أحد» ، وهو يريد العصمة والتوفيق ، وأضاف إلى هذا شواهد

أخرى من أقوال النصارى واليهود ومن القرآن الكريم ^(١٤٨) ،
ليبطل هذا التفسير .

وجاء في هذا السياق كله حديثه عن «الجزاز القائم» ، فذكر
أن الحسن سمع رجلاً يقول : «طلع سهيل وبرد الليل» ، فكره ذلك
وقال : إن سهيلاً لم يأت بجر ولا برد قط ^(١٤٩) ، وعلق على هذا
بأن لهذا الكلام مجازاً ومذهباً على كره الحسن له ^(١٥٠) ، بمعنى أن
الكلام يحمل في الإسلام على الجزاز لأعلى الحقيقة ، وذلك بعد تبدل
طبيعة التفكير في ظواهر الطبيعية ، وإرجاع ما يراه الإنسان منها إلى
الله تعالى .

وكذلك «كره مالك بن انس أن يقول الرجل للغير
والسحابة : ما أحلقها للمطر !» ^(١٥١) ، وعلق على هذا القول بأن
قال : « وهذا مجازه قائم » ^(١٥٢) .

ورأى أن هناك سبباً لكره مثل هذا الكلام ، فـ «كأنهم من
خوفهم عليهم العود في شيء من أمر الجاهلية احتاطوا في أمورهم ،
فمنعواهم من الكلام الذي فيه أدنى متعلق» ^(١٥٣) .

وإذا ما قرن هذا الكلام في تفسير سبب كره هذه الأقوال إلى
ما فعله المفسرون بالأحاديث النبوية ، وجدنا أن الجاحظ يريد أن
يقول : إن تفسير النص لا يمكن أن يتم دون أن تعرف ملابساته من
مناسبة قيل فيها أو حمل على نظيره من النصوص أو معرفة سبب
قوله أو سياقه التاريخي ، فلا تحمل الكلمة على الحقيقة أو المجاز إلا
بالنظر إلى هذه الملابسات ، ولا يحكم عليها بتغير الدلالة قبل معرفة
السبب في تغير هذه الدلالة .

ونفهم من هذا أيضاً أن الجاحظ يلاحظ تغير المستوى اللغوي
بتغير الثقافة ، فالثقافة السائدة قبل الإسلام غيرها بعده ، وما كان

يحكم عليه بالحقيقة صار مجازاً بعد ذلك ، وهو «المجاز القائم» ، ويمكن تفسيره بأنه المجاز الجاري على السنة الناس بفعل الثقافة التي ورثوها ، فلم تتغير الألفاظ ولا طريقة التعبير عن الشيء لديهم ، ولكن تغيرت طريقة تفسيرهم لهذا الكلام ، فحمل على المجاز على حين كان يحمل على الحقيقة .

وكان علماء الإسلام ينبهون إلى هذا الشيء أسوة بالرسول صلى الله عليه وسلم حين لم يرتض أن يسمى العنب الكرم ، ذلك أنه يريد تغيير دلالات الألفاظ لتتسق مع الثقافة الإسلامية التي يريد زرعها في النفوس ، فطفق يغير الدلالات اللغوية بنزع ما تبقى من الثقافة الجاهلية ، وقد كانت اللغة أهم حامل لهذه الثقافة .

وهذا ما يؤكده الجاحظ حين ذكر أنهم «رووا أن ابن عباس قال : لا تقولوا والذي نحائمه على فمي ، وإنما يحتم الله عز وجل على فم الكافر ، وكره قولهم : قوس قزح . وقال : قرح شيطان»^(١٥٤) ، وتفطن الجاحظ إلى المراد من قولهم «قوس قزح» ، فذكر أنهم «إنما ذهبوا إلى التعريب والتلوين»^(١٥٥) ، ولكن ذلك مرفوض في الإسلام لأنه جزء من ثقافة الجاهلية ، فنص على أن ابن عباس «كره ما كانوا عليه من عادات الجاهلية»^(١٥٦) ، وما هذه العادات إلا العادات اللغوية التي تخفي وراءها مفهوماً ثقافياً موروثاً. فليس «المجاز القائم» لدى الجاحظ صورة من المجاز المعروف لدينا في كتب البلاغة ، وإنما هو مفهوم لمسألة حضارية تبين عن فهم ثقافي واسع للتغير الذي طرأ على اللغة بسبب التغير الثقافي في البيئة العربية .

وصنوة القول : إن المجاز لدى الجاحظ لم يكن مقصداً لديه ، ولكنه كان جزءاً من بحث شامل في طبيعة اللغة والدلالة والثقافة

المتغيرة ، ولم يكن الجاحظ ، وهو بصدد الحديث عن المجاز معيّنًا به لذاته بقدر ما كان يعني بوضع الأمور في نصابها ، وبإلحاح طريق أمام دارسي النص العربي ، وكان في كل ذلك متجهًا إلى مسألة شغلت ذهنه كثيرا ، وهي مسألة الفهم والإفهام ، فدرس من خلاله طرائق الإبداع ، ووسائله ، وأضاف إلى ذلك منهجًا في فهم النص والكلام .

المجاز اللغوي بعد الجاحظ

أسس الجاحظ في بحث المجاز قواعد ، وعمق البحث التحليلي الذي استطاع أن يهيء للعقل العربي أسباب التعمق في ظواهر اللغة وأن يطلعه على خبايا النص ، ولا يعني ذلك أنه كان واحة في صحراء ، وعلمنا لاسبق له ، وإنما - كما لاحظنا - امتداد لما سبق ، وفرع على شجرة باسقة تضرب في الأرض ، وتعلو إلى السماء .

ولكن الجاحظ كان له الأثر الكبير بما وضعه من تصورات ، وما استنبطه من أفكار في لاحقيه ، ذلك أنهم عولوا كثيرا على أفكاره ، وأضافوا إليه ، وهم على يقين أنها كانت الأساس الذي يبنى عليه .

ويؤكد هذا ماقلناه من أن الفكر اللغوي العربي بصورة خاصة ، والفكر العربي بكل اتجاهاته بصورة عامة منهج أصيل ، له جذوره العميقة ، وتفرعاته الكثيرة ، بيد أنه يعود دائما إلى الأصول الواحدة .

ولم تكن العلوم الناشئة كعلم الكلام ، وعلم النقد ، وعلم البلاغة ، وعلم المنطق ، وعلم الأصول وغيرها وما فيها من مذاهب

عالة على هذا الفكر ، وإنما كانت مثرية له ، وقد أدت إليها دواعي تطوره .

وإن دراسة أفكار أي علم من أعلام هذه العلوم لا تكتمل إن لم يوضع داخل النسق الفكري العام الذي جاءت منه ، وأدت إليه ، وقد قرّر ذلك ابن فارس حيث ذكر في رسالة كتابه الصحابي مابين طريقته في النظر إلى اللغة ، فقال : «والذي جمعناه في مؤلفنا هذا مفرّق في أصناف العلماء المتقدمين رضي الله عنهم وجزاهم عنا أفضل الجزاء ، وإنما لنا فيه اختصار مبسوط ، أو بسط مختصر ، أو شرح مشكل ، أو جمع متفرّق» (١٥٨) .

وقد كان العلماء الذين جاؤوا بعد الجاحظ قد جمعوا علوم العربية التي وصلت إليهم ، وأضافوا إليها ما حصلوه من ثقافات الأمم الأخرى التي تزودوا بها ، فجاءت دراساتهم دالة على وعيهم بقيمة «الأسلوب» وبطرائق بحثه ، فكانت هذه الدراسات بحق دراسات أسلوبية عميقة .

ولم يكن أي منهم بعيداً عن المنهج العام الذي ساد الدراسات العربية ، وهو المنهج التحليلي فجاءت دراساتهم وصفية تحليلية على تفاوت مدى القدرة على التحليل ، فكان ابن فارس يختصر التحليل ليأتي بأمثلة غزيرة على موضوع البحث ، على حين كان ابن قتيبة وابن جني مجليين في هذا الأمر ، وسوف ندرس فيما يأتي أهم نتائج أبحاث هؤلاء العلماء الذين يكونون مرحلة لاحقة للجاحظ ، لها معاييرها ومناهجها ، فتأتي دراستنا لهم تبياناً للمنهج اللغوي في دراسة المجاز .

• المجاز اللغوي لدى المفسرين اللغويين واللغويين :

منحت دراسة أبي عبيدة لأسلوب القرآن الكريم ، ومقارنته بالأسلوب العربي كل دارس بعده معايير بيّنة لدراسة أسلوبية ذات

قواعد وطرائق ، وكان مصطلح «البحر» الذي عبّر به عن طرائق صوغ من الكلام العربي دليلاً يهدي هؤلاء الدارسين إلى طريق السداد .

وقد لاحظنا أن أبا عبيدة لم يكن بدعاً ، وإنما كان يتقفى أثر دارسي النص القرآني ، وكان هؤلاء على ذكر من طبيعة الصلة بين النص القرآني الكريم وبين النصوص العربية الأخرى ، فكان عمر ابن الخطاب وعبد الله بن عباس يتهديان إلى دلالات النص بشعر العرب ، وعلى طريقيهما سار المفسرون ، فامتلات المصنفات بالشعر العربي ، وأمثال العرب وكلامهم ، وفيها يقاس النص على النص ، كما حفلت المعاجم العربية بالنصوص القرآنية إلى جانب الأحاديث النبوية الشريفة مقرونة بنصوص الشعر ، فصارت معاجمنا العربية أقرب إلى المعاجم الأسلوبية أكثر منها إلى المعجمات اللغوية الخالصة ، ويصح القول نفسه على كتب النحو ، فكانت السمة العامة التي تطبع مصنفاتنا اللغوية هي الأسلوبية ، وهذا ما يجعلنا نعيد كل دراسة لغوية إلى الأصل الذي صدرت عنه ، وهو القرآن الكريم الذي كان منطلق كل بحث لغوي ، ولما كان القرآن الكريم نصاً توجهت إليه الدراسات ، فإن طبيعة منشأ البحث اللغوي كانت الدراسة النصية ، مما جعل كل تفرغ على هذه الدراسة يؤول إليها في نهاية المطاف .

بيد أن ذلك لم يمنع من أن تكون لهذه الطوابع العامة سمات خاصة ، ومعالماً بارزة تضيء مناهج البحث ، وتضيف إليها بين الحين والآخر ما يعلو الصرح وينضجه ، وقد تدخلت في ذلك عوامل متعددة ، منها ما يؤول إلى طبيعة البحث اللغوي الذي كان يتقبل الإضافات ، وكانت هذه الإضافات تولد أفكاراً جديدة متفرغة على ما هو كائن ، ومنه ما يرد إلى العوامل الخارجية ،

كالظروف الاجتماعية والفكرية التي كانت تتحول بفعل ما استجدّ في المجتمع العربي من أمور ثقافية طارئة أو تغيرات اجتماعية بدلت وجه المجتمع العربي ، وأدخلت في نسيجه عناصر جديدة أثرت حضارته ، وأثرت في نمط تفكيره .

وكان أبو عبيدة - وفق هذا الاتجاه - واحداً من الاعلام الذين وضعوا يدهم على جوهر موضوع اللغة حين لاحظ تكامل «النصّ العربي»، فحلل النصّ القرآني ، على أنه النص العربي الأمثل الذي تتجلى فيه معايير الأسلوب العربي . وانتحى الجاحظ على هدي من دراسات السابقين منحى آخر حين رصد طبيعة الدلالة ، وقرّر مبادئ لاتصال اللغوي ، وانتهج طريقة إبداع النصّ، مراعيًا معايير اللغوية الجمالية .

وكان لتوسع المجتمع العربي ، ودخول عناصر جديدة فيه أثر بين في وجود الشعوب التي أثارت الجاحظ ، وحفزته للدفاع عن الأسلوب العربي المبين في البيان والتبيين والحيوان ، كما حملت ابن قتيبة على أن يتأثر خطأ الجاحظ ، فيصنف تأويل مشكل القرآن ، وقد دحض فيه اتهامات المشككين بالنصّ القرآني ورد تحريضهم حول عربية أسلوبه ، وكان ذلك مبتدأ عرض ملامح هذا لأسلوب من خلال النصّ القرآني الكريم .

ولم يكن عمل ابن قتيبة تفسيراً بقدر ما كان دراسة معيارية ، ونعني بذلك أنها قامت على منهج واضح للقواعد ، وهذا ما يجعل منها دراسة منهجية لاتعني بإيضاح معاني الآيات الكريمة وفق تسلسلها في المصحف الشريف - وهو ما كان يعني به المفسرون - وإنما اتخذ من النصّ القرآني وحدة تامة ، وجعل منه بكامله موضوع بحث ، وكان هذا منهج اللغويين والنحاة الذين نهجوا

ذات السبيل ، فأخذوا من النص القرآني تراكيبه التي توضح وظائف المفردات ودلالاتها في التركيب العربي .

تساند منهج ابن قتيبة إلى أربعة عناصر ، أولهما الدفاع عن الأسلوب القرآني ورد اتهامات المشككين والمعارضين ، والثاني : إيضاح أهم طرائق الأسلوب القرآني اللغوي ، والثالث : تحليل نصي للقرآن الكريم ، والرابع : دراسة دلالية لبعض مفردات القرآن الكريم ، وفيها دراسة لبعض الدلالات المشكلة .

وقد اتضحت منذ البداية معالم طريقة ابن قتيبة حيث كشف في رسالة الكتاب فكرته عن النص القرآني الكريم ، ففيها يقرر أن القرآن تنزيل من لدن عزيز حكيم ، وأنه معجز في تأليفه ، فهو عجيب النظم ، لا تملّ تلاوته ، ولا يكره سماعه ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا تنقطع فوائده ونسخ به سالف الكتب .^(١٥٩)

ثم يضيف إلى هذا كله من فضائل القرآن الكريم جمعه الكثير من معانيه في القليل من لفظه^(١٦٠) . والحقيقة أنه وضع يده بذلك .. على جوهر التعبير القرآني ، وهو اتساع دلالة المفردات في النص القرآني الكريم ، وتحميل اللفظة في النظم معاني كثيرة ، وجعله مساحة دلالة التركيب أوسع مما يصوغه الناس من التراكيب .

وكان مصداق هذا لديه قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أوتيت جوامع الكلم »^(١٦١) ، وقد فسّر ذلك بأنه أوتي القرآن الكريم ، وما جمع الله عز وجل بلطفه من المعاني الجمّة في الألفاظ القليلة . وقد كان كلام الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك ، أي : إنه كان كثير المعاني قليل الألفاظ .^(١٦٢)

ويدل هذا على أن القرآن الكريم وكلامه صلى الله عليه

وسلم كانا يتصفان بالإيجاز وقلة عدد الألفاظ ^(١٦٣)، ولايتأتى ذلك إلا باتساع الدلالة في المفردات والتراكيب، فاللفظة والتراكيب القرآنيان، وإن كانا مختصرين، إلا إنهما يحملان من المعاني الجَمَّ الواسع، ويتضح الأمر حين نقرأ تحليل ابن قتيبة لبعض آيات القرآن الكريم، حيث أبان عن قدرة هذه التراكيب على جمع المعاني الكثيرة في القليل من الألفاظ.

وقد ذكر ابن قتيبة أمثلة ذلك، منها قوله تعالى حيث ذكر الأرض: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ ^(١٦٤)، فقد جمع في كلمتي «الماء» و «المرعى» في هذا النص كثيراً من الدلالات، ذلك أن الكلمة هنا لا تفسر بدلالاتها المباشرة، وإنما تتسع هذه الدلالة لتجمع كل ما يتصل بها، فهي أقرب إلى اللفظة الموحية التي تثير في الذهن كل ما يمكن أن يتخيله الإنسان، ويمكن أن تثير هاتان الكلمتان صورة مدلولات متعددة مما يخرجها الله تعالى من الأرض من قوت ومتاع للأنعام، من العشب والشجر، والحب والتمر والخطب، والعصف ^(١٦٥)، واللباس، والنار والملح، لأن النار من الميدان، والملح من الماء ^(١٦٥ مكرر).

وتتسع دلالة التركيب كما تتسع دلالة المفردة، ومثال ذلك قوله تعالى بذكر جنات الأرض: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ، وَنُفِضَ بِعُضْبِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ ^(١٦٦) فدل بهذه الآية ﴿عَلَى نَفْسِهِ وَلُطْفَةٍ وَوَحْدَانِيَةٍ، وَهَدَى لِلْحِجَةِ عَلَى مَنْ ضَلَّ عَنْهُ﴾ ^(١٦٦ مكرر). وتعلل هذه الدلالة بما في واقع الحال من مظاهر توحى بها «لأنه لو كان ظهور الثمرة بالماء والتربة لوجب في القياس ألا تختلف الطعوم، ولا يقع التفاضل في الجنس الواحد إذا نبت في مغرس واحد، وسقي بماء واحد، ولكنه صنع اللطيف الخبير» ^(١٦٧).

وقد يقع في وهم بعضهم أن يحمل التركيب والفاظه على الدلالة الظاهرة من غير اتساع، ويجعل الفائدة منه بذلك قليلة،

وهذا ليس من شأن من يفهم أسلوب القرآن على أنه الأسلوب الذي يوسع من الدلالة ، فقد « قال قوم بقصور العلم وسوء النظر في قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ ﴾ »^(١٦٨) ، وما في هذا الكلام من الفائدة »^(١٦٩) .

وتجلى في رد ابن قتيبة على هذا القول إظهار قيمة النص ، والإبانة عن المخبوء من المعاني وراء ألفاظه ، ذلك أن قارئه يجب أن يفهم منه ما يوحى به من دلالات ، فقد « أراد عز وجل أن يعرفنا لطفه للفتية ، وحفظه لإياهم في المهجر ، واختباره لهم أصلح المواضع للرقود ، فأعلمنا أنه بوأهم كهفاً في مَقْنَأَةِ الْجَبَلِ مستقبلاً بنات نعش ، فالشمس تزور عنه وتستدبره طالعة وجارية وغاربة ، ولا تدخل عليهم فتؤذيهم بحرّها وتلفحهم بسمومها ، وتغيّر ألوانهم ، وتبلي ثيابهم ، وأنهم كانوا في فجوة من الكهف - أي متسع منه - ينالهم فيه نسيم الريح وبردها ، وينفي عنهم غمة الغار وكربه »^(١٧٠) .

فلم يكف ابن قتيبة بظاهر المعنى - كما لاح للمشككين - وإنما وسّع دلالات الألفاظ وأخذ بما توحى به من المعاني ، فأضفى على التركيب صيغة دلالية جديدة تختصر المدلول في ألفاظ ، فيها من الإيجاء غير المباشر أكثر من الدلالة المباشرة .

وكانت هذه الفكرة مدار عمل ابن قتيبة في كتابه من بعد ، فقد افاض في مسألة الاتساع الدلالي ووضع القواعد الأساسية لنظرية أسلوبية عربية ، فكان ذلك مفتتح بحثه ، حيث ربط ما بين معرفة فصل القرآن الكريم وكثرة النظر واتساع العلم وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب ، مُرجعاً هذا الافتتان إلى خاصية في اللغة العربية تتميز بها دون غيرها من اللغات « فإنه ليس في جميع

الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان واتساع المجال ما أوتيته العرب
حصيص من الله» (١٧١).

ودرس من بعد طبيعة العربية وخصائص أساليبها ، فابتدأ من
الجزئيات ، حيث قرر أن ألفاظ العرب مبنية على ثمانية وعشرين
حرفاً (١٧٢) هي أساس أصوات اللغة بالمعايير المعاصرة ، وما يوضح
هذا التفسير ربطه بين الأحرف واللسان ومخارج الأحرف (١٧٣).

ثم بين مامتاز به اللغة العربية في صياغتها ومباني مفرداتها
رابطاً ذلك كله بالدلالة ، فوصل ما بين الإعراب والمعنى ، فهو
الذي يُعد «فارقاً بين الكلامين المتكافئين ، والمعنيين المختلفين» .
ويتضح ذلك بأمثلة عديدة ساقها من الكلام العادي ، والقرآن
الكرم ، والحديث النبوي الشريف (١٧٤).

وانتقل من مستوى التركيب إلى مستوى المفردة ، فدرس أثر
البناء على المعنى ، وكيف تفرق العرب بين المعنيين بحركة البناء ،
كما فرقوا بين «رجل لُعنة» و «رجل لعنة» ، فبديل المعنى بتبدل
الحركة ، وقلب المفردة على وجوهها من حيث تغيير حرف في
الكلمة فيتقارب المعنيان مثل تقارب اللفظين (١٧٥) ، ومن حيث
الاشتقاق ، فقد «يكتنف الشيء معان ، فيُشتق لكل معنى منها
اسم من اسم ذلك الشيء ، كاشتقاقهم من البطن للخميص :
مبطن» (١٧٦).

ولاحظ أن العرب قد وضعت لنفسها قواعدها الخاصة في
شعرها ، وقد سار الشعراء في نظمهم وفق هذه القواعد لا يخرجون
عليها غالباً ، وما ذلك إلا لأن هذا الشعر قد وصل إلى مرتبة
الكتاب لديهم ، فهو «الذي أقامه الله تعالى مقام الكتاب لغيرها
وجعله لعلومها مستودعاً ، ولآدابها حافظاً : ولأنسابها

مقيداً.... (١٧٧) .

غير أن ذلك لم يمنع الشاعر من أن يخرج على السنن الموروثة ، وأن يزول عن القواعد المعهودة ، فتلاحظ طريقته ، وينبّه عليها ، «فيقولون له : ساندت ، وأقويت ، وأكفأت ، وأوطأت» (١٧٨) .

وكان بحثه هذا مدخلاً إل دراسة «الأساليب العربية» ، ويمكن أن يفهم حديثه عن الشعر في هذا الاتجاه ، فهو يرى أن للشعر قواعد مؤسسة ، والعرف السائد حفظ هذه القواعد ، ولذلك كان الشاعر ينبّه حين الخروج عليها ، وكذلك اللغة له أساليبها في التعبير ، وقد حفظها كل جيل عمّن سلف ، وهذه الأساليب هي «المجازات» في الكلام ومعناها : طرق القول وماأخذ (١٧٩) ، فهي أساليب يفهم النص العربي بمعرفتها ، ولا تتأبى عبارة عن فهم العربي حين توضع في سياق هذه الأساليب ، ولذلك تصعب ترجمة القرآن الكريم ، لأنه نزل بها ، ذلك انه يمكن أن ينقل معنى الآية المنزلة بالأسلوب العربي ، ولكن يصعب إيجاد مرادف ينطبق على المفردة العربية أو يؤدي دلالة التركيب العربي المصوغ بأساليب العرب في كلامها (١٨٠) .

وقد جمع ابن قتيبة هذه الأساليب تحت عنوان «المجاز» ، ويعني ذلك إدراكاً منه أنها تجاوز لدلالة التركيب الأصلي المعروف ، كذلك للمعاني الوضعية للمفردات إلى دلالة جديدة ومعان أخرى .

فكان مفهوم المجاز لديه بصورته العامة ، هو ذاته الذي لمسنه عند أبي عبيدة ، فهو يقوم على دراسة المجاز على أنه أسلوب التعبير ، وإن اختلف منهج البحث لديهما ، فأبو عبيدة يحلل نصّاً ، أمّا ابن قتيبة فإنه يضع ملامح نظرية لدراسة النص القرآني ، والبحث في النصوص العربية الأخرى ، ولذلك أفاد ابن قتيبة من أبي عبيدة

المصطلح ، وأفاد منه الربط بين أسلوب القرآن ، وأساليب العرب في كلامها .

بيد أن ابن قتيبة لاحظ أمراً آخر ، وهو بصدد وضع النظرية ، وهو أن «محازات العرب في كلامها» ليست بـ«تسميات» ، فأتجه إلى وضع المصطلحات التي تبين أساليب المحاز ، فأخذ من منهج أبي عبيدة ومقدمته لكتابته «محاز القرآن»^(١٨١) ، وأضاف إليها مصطلحات قد تكون أكثر دقة في تبيان المطلوب من الكلام .

ونتبين الأمر حين نقرأ ما فرعه على مصطلح «المحاز» ، فرأى أن في محازات العرب «الاستعارة والتمثيل ، والقلب ، والتقديم ، والتأخير ، والحذف ، والتكرار ، والإخفاء ، والإظهار ، والتعريض ، والإفصاح ، والكناية ، والإيضاح ، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع ، ومخاطبة الجميع خطاب الواحد ، والواحد والجميع خطاب الاثنين ، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم ، ولفظ العموم لمعنى الخصوص»^(١٨٢) .

وحقيقة الأمر أن ابن قتيبة تأسى أبا عبيدة ، وأفاد من طرائقه في بحث المحاز الأسلوبى ، ولكنه توقف عند عناصر هذا المحاز ، وحللها ، وبين طرائقها ، فأعطى فكرة أبي عبيدة عن المحاز الأسلوبى ملامحها ، وتركها لمن يأتي بعده ، ليضع لها صيغتها النهائية .

وكان لتفريغ ابن قتيبة المحاز الأسلوبى أثر في تبيان عناصر هذا المحاز ، وفي تنظيم دراسته ، ومعرفة خبايا كل عنصر فيه . وقد توقف عند فكرة المحاز ، فأوضحها ، وأبان عن سر فهم النص من خلالها ، وتدل دراسته لمفهوم المحاز على وعي به ، وفهم لطبيعته ، ذلك أنه دليل إلى فهم النصوض ، وعدم الغلط في تأويلها ، «فمن جهته غلط كثير من الناس في التأويل»^(١٨٣) ، ولا أدل على ذلك من انشعاب النصارى إلى الحل ، ولو جملوا النص على المحاز لكانوا

عرفوا حقيقته ، وابتعدوا عن التشبيه ^(١٨٤) ، وهذا ماوقع فيه بعض المسلمين حين حملوا الكلام على ظاهره ، فتأولوا النص ، وخرجوا به إلى غير المقصود منه ^(١٨٥) . وكما نحى بعضهم الجواز جانباً ، فلم يعتدوا به ، أسرف آخرون في حمل النصوص عليه ، فحملوا قول الله وكلامه إلى الجواز ، ورأوا : «أنه ليس قولاً ولا كلاماً على الحقيقة ، وإنما هو إيجاد للمعاني ، وصرفوه في كثير من القرآن إلى " الجواز " كقول القائل : قال الحائط فمال ، وقال برأسك إليّ ، يريد بذلك الميل خاصة» ^(١٨٦) .

وقد قرر ابن قتيبة وفقاً لما رآه من هذين الموقفين المتعارضين أنه «قد تبين لمن قد عرف اللغة أن "القول" يقع فيه الجواز ،... وتبين له أيضاً أن أفعال الجواز لا تخرج منها المصادر ولا تؤكد بال تكرار ، فتقول : «أراد الحائط أن يسقط ، ولا تقول : أراد الحائط أن يسقط إرادة شديدة» ^(١٨٧) .

ورد قول الطاعنين على القرآن بالجواز ، زاعمين أنه كذب ، ورأي أنه «لو كان الجواز كذباً ، وكل فعل ينسب إل غير الحيوان باطلاً ، كان أكثر كلامنا فاسداً ، لأننا نقول : نبت البقل ، وطالت الشجرة ، وأينعت الثمرة ،... وتقول : كان الفعل منك في وقت كذا وكذا ، والفعل لم يكن ، وإنما كون» ^(١٨٨) .

وأدت هذه المجادلة بين ابن قتيبة وخصومه إلى أن ينتقل ببحث الجواز من العموم إلى الخصوص ، فدرس تحت اسم «الجواز» بعض أنواعه التي استقرت مصطلحاتها من بعد ، وما دراسة ابن قتيبة للمجاز في القول والكلام ، وبحشه في إسناد الفعل إلى غير فاعله الحقيقي إلا نحوض في جوهر الجواز اللغوي والعقلي «الحكمي» اللذين أبان عنهما عبد القاهر الجرجاني في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة .

وقد سيطرت فكرة التحول الدلالي على ذهن ابن قتيبة ، فأعاد إليها في تحليلاته كل صورة من المجاز ، واعتمد في ذلك على مفهوم الأصل اللغوي ، وأفاد في هذا كله من فكرة أبي عبيدة عن المجاز ، ومن تحليل الجاحظ للنصوص ، فأخذ أبي عبيدة معايير التحول الدلالي ، وأفاد من الجاحظ فكرة الاستشفاف المعنوي ، ويمكن أن نسمي هذه الفكرة : «الطيف الدلالي» ، ونعني بذلك تصويراً لفكرة الانتساع ، فالكلمة المستعملة في السياق تتسع دلالتها الوضعية لتشمل مدلولات كثيرة حولها ، ويبقى معناها الوضعي على أصله ، لكن هذا المعنى - كما لاحظنا في دراستنا للجاحظ - ليس مفرداً ، وإنما يتصل بمعان حوله كاتصال مدلول الكلمة في الواقع بمدلولات عديدة حوله ، وذهن الإنسان قادر بتجربته المكتسبة أن يكتشف العلاقات بين ما هو قائم في الواقع ، ولذلك يمكن للألفاظ أن تتسع دلالتها لتوحي بمعان أخرى غير معناها الأصلي ، لأن الكلمة رمز للمسمى ، والمسمى يمكن أن يتسع وأن تظهر من خلاله علاقاته بغيره من المسميات ، وكذلك الكلمة تتسع لتشمل مسميات عدة يحدد السياق بعضها ، وهذا جزء من مفهوم الدلالة المعاصرة الذي يسعى إلى حصر دلالة المفردة من خلال معرفة ماتوحي به الكلمة لسامعها ، وحصر الدلالة يعني تعيين صفات المسمى التي قد تتبادر إلى الذهن ^(١٨٩) .

وحين نحصر هذه الصفات نكون قد اقتربنا أكثر من دلالة الكلمة ، وميزناها عن غيرها ، ولما كانت هذه الصفات المحصورة جزءاً من الدلالة أمكن أن تتسع الكلمة لتدل على واحدة منها في السياق ، ويبقى السياق بذلك معياراً لتوجيه الدلالة ، وهذا ما كان من شأن تحليل الجاحظ وابن قتيبة للنص ولغته ، فقد كانا يسعيان

إلى جعل المجاز صورة من صور الاتساع الدلالي ، فتحولت المفردة لديهما من دلالتها الوضعية لتكشف عن دلالات أخرى مرتبطة بها .
والحقيقة أن واضع معيار المجاز اللغوي أبو عبيدة ، وقد جاء ذلك صدد حديثه عن أساليب العرب في مجازاتها ، فقد ذكر نوعاً من أنواع المجاز هو مجاز «ما يحوّل عن خبره إلى خبر غيره بعد أن يكون من سببه ، فيجعل خبره للذي من سببه ، ويترك هو» (١٩٠) .
ويدل كلام أبي عبيدة على فهم لطبيعة المجاز اللغوي ، ولكنه لم يجد له مصطلحاً يضمه ، فشرح فكرته ، وهذا ما اصطنعه سيبويه في كتابه حين لم يكن لديه مصطلح ، فأفاد الفكرة دون جمعها في مصطلح .

ويبين معيار أبي عبيدة أن اللفظ يحول من معناه إلى معنى غيره لعلاقة بين المعنيين فيصبح دالاً على المعنى الجديد ، ويهمل في السياق معناه الوضعي .

وتخلى الجاحظ وابن قتيبة عن المعيار في دراسة «المجاز المرسل» ، واتجهوا إلى تطبيق الفكرة على النص ، وقد فهمها على أنها العلاقة بين المسميات التي تؤدي إلى العلاقة بين دلالات الألفاظ ، وهي - كما رأينا - رموز المسميات .

ومبتدأ ذلك كله أمران : الواقع ، والأصل ، وفالواقع مرجع علاقات الأشياء ، والأصل مرجع اللفظ ، وتبدل صورة الواقع بتبين العلاقة بين أشياءه يعكس تحولا في دلالة اللفظ عن الأصل إلى دلالات جديدة .

وخير ما يدل على الفكرة تحليل ابن قتيبة لما جاء في التوراة ، ففيها «أن الله برّك اليوم السابع وطهره من أجل أنه استراح فيه من خلقته التي خلق» (١٩١) . فحلل كلمة الاستراحة وفق تداعيات

الذهن ، ذلك أن أصل معناها أن تكون في معاناة شيء ينصبك ويتعبك فتستريح » ^(١٩٢) . هذا شأن الواقع كما يراه الانسان ، ولكن الاستراحة في الواقع تتصل بالفراغ من التعب ، فينتقل الواقع إلى مفهوم آخر ينضوي في عمل الاستراحة وهو الفراغ ، « تقول في الكلام : استرحنا من حاجتك وأمرنا بها . تريد فرغنا ، والفراغ أيضاً يكون من الناس بعد شغل » ^(١٩٣) ، وينتقل الواقع ليضم حالة أخرى هي « القصد » ، فالفراغ للأمر قصد له ، تقول « لس فرغت لك أي قصدت قصدك » ^(١٩٤) ، فأصبحت الكلمة تحتوي داخلها تفرغات دلالية كل واحد منها يشتمل على الآخر ، مما يجعل الأصل محتوياً لها جميعاً ، وحين نتوسع في النظر إلى الواقع نتوسع كذلك في دلالة الأصل ، ويظهر طيف الكلمة الدلالي ، فالاستراحة تجمع تحتها الفراغ الذي يجمع تحته القصد . إن الاستراحة يمكن أن تدل على الراحة مما يتعب وينصب ، ويمكن أن تدل على الفراغ ، ويمكن أن تدل على القصد وفق السياق الذي يوسع الدلالة أو يضيقها .

ولا يخرج مفهوم الاستعارة عند ابن قتيبة عن مفهوم « المجاز المرسل » ، وقد توسع في فهم الجاحظ لها ، فأبان عن بعض متعلقاتها ، وفصل فيما اقتضبه الجاحظ اقتضاباً ، ورأى أن العرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة ، إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى ، أو مجازاً لها ، أو مشاكلاً » ^(١٩٥) .

وقد قرر ابن قتيبة في هذا التعريف المسألة ذاتها ، وهي علاقة المسميات في الواقع ، ومدى قدرة الانسان على أن يصل بينها ، فإن كانت المسميات مما يتصل بعضها ببعض أو يجاور بعضها بعضاً أو يشاكل أمكن لنا أن نستعير اللفظة من دلالتها الأصلية إلى

دالاتها الفرعية ، وتبدو الاستعارة وفق هذا التصور نقيضاً للمجاز المرسل ، فإذا قام المجاز المرسل على التفريع ؛ أو كما يسميه الجاحظ «الاشتقاق»^(١٩٦) فإن الاستعارة تقوم وفق هذا المعيار على سلوك الطريق المعاكس . فتدل بفروع الدلالة على دلالة جديدة . ويتضح الأمر إذا أخذنا المجاز المشهور «له علي يد»^(١٩٧) ، فنحن هنا لم نقصد اليد الحقيقية ، وإنما قصدنا «المعروف» ، فاشتقنا من اليد دلالات فرعية ، فاليد يمكن أن تتصل في الواقع بأمر عديدة منها : القوة ، والمعروف ، والقدرة ، وغير ذلك مما يمكن أن يتداعى إلى الذهن ، لكن علاقات اللفظة مع السياق يمكن أن توجه دالاتها إلى المقصود من هذه المشتقات ، فيكون سبيلنا إلى معرفة المقصود تحليل علاقة المسمى في الواقع بما حوله من أشياء أو بما يتعلق به .

أما في الاستعارة فإننا نأخذ من المتعلقات واحداً ونجعلها بديل الأصل ، لأن هذه المتعلقات في الواقع يراها الانسان ، ولذلك ريسط ابن قتيبة بين المسميات ، ووسّع مفهوم الجاحظ بأن جعل ما يمكن أن يحل محل الكلمة الأصلية مما له صلة بالمسمى أصلاً .

وهذا المفهوم الاستعاري مفهوم معنوي أكثر منه مفهوماً لفظياً ، فرحم الله عبد القاهر حين أدرك هذه المسألة على حقيقتها^(١٩٨) ، ولا ريب أنه مفهوم معقد ، ذلك أن تجارب الانسان متفاوتة والقدرة على ادراك الجاور والمشاكل مختلفة ، وهذا ما يجعل الاستعارة من أصعب أنواع الدلالة باللفظ ، لأن المطلوب إدراك علاقات المسميات في الواقع ، ومن ثم إدراك علاقات الأسماء .

ونبين الأمر من الأمثلة التي ساقها ابن قتيبة للدلالة على مفهوم الاستعارة ، من ذلك ما ساقه من قول العرب «ضحكت الأرض»^(١٩٩) ، ويدلون بذلك على أنها أنبتت ذلك أنها «تهدى من حس النبات ، وتفتق الزهر ، كما يفسر الضاحك عن الفجر» .

ولذلك قيل لطلع النخل إذا انفتق عنه كافوره : الضحك ، لأنه يبدو منه للناظر كيباض الشجر ، ويقال : ضحكت الطلعة ، ويقال : النور يضاحك الشمس ، لأنه يدور معها ^(٢٠٠) .

فالإثبات هو الكلمة الأصلية التي تجمع تحتها اشتقاقات دلالية متعددة ، منها جمال النبات وحسنه ، وتفتق نوره ، وهذا ما يراه الانسان في الواقع بتجربته ، فيحس أمامه بالبهجة فيتصل ذهنه بالضحك ، وهو تعبير عن الفرحة ، وهذه التدايعات كلها فروع للأصل ، وحين نختار منها واحداً فإننا نجعل الفرع محل الأصل ، ويتم فهم الكلام من خلال العرف الاجتماعي ، وهذا ما ملح إليه ابن قتيبة حين نقل العرب أنهم يقولون لطلع النخل إذا انفتق عنه كافوره : الضحك ، فلم يتم اختيار الكلمة بدون ارتباط بما ساد المجتمع من فهم للواقع ، وهذا ما يجعل الاستعارة متصلة بثقافة المجتمع وبيئته ، فلاتفهم إلا في هذا المجال ، ويمكن أن نرد عدم احتفال الناس باستعارات أبي تمام إلى ما قلناه - لأنه أدرك من الواقع ارتباطات لم يعهدها مجتمعه ، فلما نقل هذه الارتباطات إلى الأسماء بدت بعيدة في ذهن المتلقين ، فنشزوا عنها ، وقرعوا مبدعها ^(٢٠١) ، وكلما أغرق المتكلم في البعد عن ارتباطات الواقع إلى التجريد الذهني كان فهم الاستعارة أصعب ^(٢٠٢) .

وارتباط الاستعارة بثقافة المجتمع يحملنا على النظر في الأسطورة ، ذلك أنها جزء مكين من هذه الثقافة في العصر القديم ، ويمكن أن نفهم الاستعارات التي لانهفل بها الآن على أنها وعي من الإنسان لواقعه بطريقة تخصه ، ودراستها يمكن أن تؤدي إلى اكتشاف كثير من الغموض حول هذا الوعي .

وقد أشار ابن قتيبة إلى هذا المفهوم - وهو بصدد حديثه عن

المجاز - فرأى أن العرب تسمى الأرض أمّا «لأنها مبتدا الخلق ، وإليها مرجعهم ، ومنها أقواتهم ، وفيها كفايتهم ، وقال أمية بن أبي الصلت :

والأرض معقلنا وكانت أمّا فيها مقابرنا وفيها نولد

وقال يذكرها :

منها خلقنا وكانت أمّا خلقت ونحن أنناؤها لو أننا شكرُ
هي القرار لما نبغي بها بدلا ما أرحم الأرض إلا أننا كُفّرُ (٢٠٣)

فلننظر تداعيات هذه الاستعارة لتبين كيف تمت وفق تصور الجاحظ وابن قتيبة . إن الحديث عن الأرض ، وهي الكلمة الأصلية ، لكنها في ذهن الإنسان ترتبط بالخلق ، والمرجع ، والقوت ، والكفاية ، وهذا كله مرتبط بالأمومة ، فتفرع الأصل إلى هذه الفروع ، وتفرعت الفروع إلى الأمومة ، فأخذت كلمة الأمومة التي تضم المعاني المشتقة كلها لتحل محل الكلمة الأصلية وهي الأرض » (٢٠٤)

كان هذا سياق الاستعارة كما فهمها الجاحظ وابن قتيبة ، بيد أن الجاحظ استطاع أن يمتلك ناصية الأمر ، فيميز بين أمثلة «المجاز المرسل» و «الاستعارة» ، وهذا ما لم يفعله ابن قتيبة ، لأن انشغاله بالدلالة المفرعة جعله يخلط بين طريقي البحث عن الدلالة ، الطريق من الأصل إلى الفرع ، والطريق الآخر من الفرع إلى الأصل ، ولذلك جمع تحت مفهوم الاستعارة ما هو مفهوم استعاري ،

وما هو مفهوم المجاز المرسل ، وقد أدى ذلك الجمع إلى تأثير فيمن يلي من الدارسين - فانقسموا في ذلك قسمين ، أحدهما أخذ بالتفريق بين المفهومين ، وأخذ الآخر بالجمع بينهما كما فعل الشريف الرضي في مجازات القرآن (٢٠٥) .

وصفوة القول أن ابن قتيبة استطاع أن يدرك مفهوم السابقين للمجاز ، وأن يضيف إليه تصوراً منهجياً وقدرة تحليلية أبانت كثيراً من غموضه ، ولاريب أن أثر ابن قتيبة كان كبيراً ، لأنه فيما اصطنعه من منهج نظيري للمجاز الأسلوبى ، وما بحثه من فروع هذا المجاز ، وبصورة خاصة المجاز المرسل والعقلي والاستعارة سيحمل الدارسين الذين اطلعوا على أبحاثه على السير قدماً في هذا الطريق ، فميزوا بين عناصر الأسلوب ، وعمقوا البحث في قضاياها الرئيسة ، فتبدت للمجاز صورة أخرى على أيديهم ، وبدأت تفتح أفكاره ، وتصبح موضوع بحث لدى علماء أصول الفقه ومتأخري البلاغيين .

أما ابن جني فقد كان البحث عن خصائص العربية وأصواتها وكلماتها وتراكيبها مدار بحثه ، ولذلك درس ماله صلة بهذه الخصائص ، وكان هذا نقلة كبيرة من دراسة نص واحد هو القرآن الكريم إلى دراسة النصوص العربية من الشعر والنثر إضافة إلى النص القرآني الكريم .

واتساع موضوع الدراسة يعني أن القواعد التي وصل إليها النحاة والمفسرون واللغويون السابقون أصبحت منهجاً دراسياً له معايير ، وله طرائقه ، وإن الناظر في كتاب الخصائص لابن جني ليدش من هذا الاتساع في أفق التفكير الذي وصل إليه علماء اللغة في القرن الرابع الهجري ، وهو القرن الذي عاش فيه ابن جني وابن فارس .

وكانت إشارات ابن جني إلى ما في الكلمة العربية من قدرة على التبدل الدلالي، وما فيها من اتساع داخل النسق أساس سيبني عليه الدارسون اللاحقون، وبصورة خاصة عبد القاهر الجرجاني. وكانت دراسته المجاز اللغوي جزءاً من دراسة دلالة المفردة ضمن السياق، فحدّ المجاز على أنه ما غاير الحقيقة التي هي «ما أقر في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة»، فجعله ما كان ضمه ذلك^(٢٠٦)، وهذا يعني أنه ما لم يقرّ على أصل وضعه في اللغة، فأقام دراسة المجاز على فكرة تقسيم اللغة إلى حقيقة ومجاز، وأدخل قضية الاستعمال جزءاً من مفهوم هذه الثنائية، فالمستعمل، أي «المتكلم» هو الذي يميز باستعماله بينهما، فما ورد لديه على أصل وضعه فهو قارّ على الحقيقة، وما كان خلاف ذلك فهو المجاز.

وميّز بين الخطاب «الفني» والخطاب العادي بمسألة المجاز، فجعل للكلام مستويين، مستوى عادي ومستوى فني، والخطاب العادي يجري في الكلام على الحقيقة، أمّا الخطاب الفني فعدول عن الحقيقة إلى المجاز «وإنما يقع المجاز ويُعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة، وهي الاتساع، والتوكيد، والتشبيه، فان عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة. حتى إنه إن احتيج إليه في شعر أو سجع أو اتساع استعمال استعمال بقية تلك الأسماء»^(٢٠٧).

وقد بنى على هذه القواعد مفهوم المجاز، ويمكن فهم المجاز لديه بمعرفة دلالة الاصطلاحات التي تدلّ عليه، فقد جعل معيار المجاز قائماً على الاتساع، والتشبيه والتوكيد، وكانت هذه نظرية الجاحظ إلى المجاز^(٢٠٨)، وكذلك نظرية ابن قتيبة^(٢٠٩)، بيد أن ابن جني فسر هذه المفاهيم، وبنى عليها تصوره لمسألة المجاز.

وساق ابن جني لتأكيد فكرته أمثلة عديدة ، منها قول
الشاعر «عبيد الله بن عبد الله بن مسعود» (٢٠٩)

تغلغل حبّ عثمة في فؤادي فبادية مع الخافي يسير

وقد وقع الجواز في البيت في قول الشاعر: «تغلغل حب
عثمة»، وجاء ذلك على سبيل الاتساع والتشبيه والتوكيد ، أمّا
الاتساع فقد وقع «لما وصف الحب بالتغلغل» ، فوصف بالتغلغل
«ماليس في أصل اللغة أن يوصف بالتغلغل» ، ومثل هذا الوصف
يقع للجواهر دون الأحداث ، لأن المتغلغل «في الشيء لا بد أن
يتجاوز مكاناً إلى آخر» ، وذلك تفريغ مكان وشغل مكان ،
وهذه أوصاف تخصّ في الحقيقة الأعيان لا الأحداث « (٢١٠) .

وأحلّ بذلك مصطلح الجوهر والعرض محل الأصل والفرع
الذي ساد التفكير اللغوي والبلاغي العربي ، وبقي إلى العصور
التأخرة ، لكن المؤدى واحد في كلتا التسميتين ، ويعني هذا أن
المسألة تقوم على الاختيار الذي يقوم به المتكلم من خلال معرفته
بارتباط دلالات الكلمات .

ذلك أن مقابلة بين الجوهر والعرض ، أو الأصل والفرع ،
يمكن لها أن تدلنا على الطريق الذي سلكه ابن جني للبحث في
الجواز ، فالجوهر المقصود من أنحص صفاته التغلغل في الشيء
والدخول فيه ، وهو الأصل ، وهذا موجود في الواقع المعيش ، ويراه
الإنسان في الماء والسوائل الأخرى ، والهواء ، والأشياء الأخرى التي
تدخل في المسارب وتملأ الفراغات ، والحب يدخل القلب ، ويملأ
الفراغ فيه ، فاجتمعت للإنسان صفات مافي الواقع وقرنها بما يحسه

في نفسه ، فاستعمل صفة التغلغل للحب . وهذا ما يشبه تحليل الجاحظ للمجاز حين قرن بين النار التي تنقص الدهن ، وبين الأكل . (٢١١)

ونتبين الطريقة حين نعثر على تحليل للمجاز في موضع آخر من الخصائص حيث حلل الآية الكريمة ﴿والسماوات مطويات بيمينه﴾ (٢١٣) ، فذهب إلى أنه يمكن حمل اليمين هنا على معنى الجارحة ، فيكون ذلك باباً من المجاز والتشبيه ، ويعني ذلك أن السماوات حصلت «تحت قدرته حصول ما تحيط اليد به في يمين القابض عليه ، وذكرت اليمين هنا دون الشمال لأنها أقوى اليدين» (٢١٤) .

فهناك دلالات تمثيل يقع عليه التأمل حين ينظر إلى الدلالة في المجاز ، وهذا هو الاتساع ، فالقابض بيده على الشيء يضعه تحت قدرته ، فمثل تصرف الله بالسماوات بتصرف القابض على الشيء يتحكم به كيف يشاء . ويدل ذلك على اليد لم تخرج عن دلالتها الوضعية إلى دلالة أخرى ، لكنها أوحى بالمعنى في سياق التمثيل .

وهذا فهم للواقع واستعمال له بطريقة جديدة ، ليس فيه مقارنة بين جزئياته ، وهي مرحلة في استعمال الدلالة أعلى من مرحلة المقارنة بين الجزئيات ، ذلك أننا حين نوسع دلالة المفردة لتشمل ماحولها من جزئيات الواقع ، ونختار من هذه الجزئيات ما هو أقرب إلى الدلالة المقصودة ، نكون قد بقينا في أسر الواقع ، والإنسان يتعدى هذه المرحلة حين يستعمل الواقع ليفسر به الدلالة على الأمور المعنوية التي يحس بها ، فالتمثيل هنا هو توسيع دلالة المفردة لوضعها في سياق التفكير المشتغل على الواقع والمجردات معاً ، ولذلك سمي ابن جني هذه الحالة جوهرًا وعرضًا مستغنياً عن الأصل

والفرع ، ذلك أن الجوهر هو المسميات في الواقع مما يحسّه الإنسان ،
والعرض أحداث تعرض له من الأشياء المعنوية أو الظواهر التي تشبه
ظواهر الواقع كزيارة «الرحمة» في أسماء الجهات في قوله تعالى :
﴿وَأَدْخُلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾^(٢١٥) ، فكأنه زاد في أسماء الجهات والمحال
اسما هو الرحمة «^(٢١٦) ، اتساعا في الكلام .

وحين يستعمل المتكلم الواقع ليدل به على المجردات
والمعنويات ، فإنه يؤكد فكرته ، ويبينها . ذلك أن الواقع المحسوس
أول المعرفة ، وهو الذي يستدل به الإنسان على الأشياء ،
فالمحسوسات أرسخ في النفس ، وحين يقارب الإنسان بينه وبين
المحسوسات تستبين له الأمور ، وتنجلي على حقيقتها ، ولذلك
كان التمثيل للمعاني يقوم على أن «أنس النفوس موقوف على أن
تخرجها من خفي إلى جلي ، وتأتيها بصريح بعد مكثي ، وأن تردّها
في الشيء تعلمها إياه إلى شيء هي بشأنه أعلم ، وثقتها به في
المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ، وعما يعلم
بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، ومعلوم أن العلم الأول
أتى النفس أولا من طريق الحواس والطباع ثم من جهة النظر
والروية «^(٢١٧) ، ولذلك كان المعول في التمثيل توكيد المعنى في
النفس^(٢١٨) .

ولما كان الأمر كذلك كان تمثيل المعنى يوضع الكلمة المجازية
في سياق تمثيلي تشبيهي عام مؤدياً إلى الفكرة المطلوبة ، ومؤكداً لها
في النفس ، وهذا ما تسعى إليه الجاحظ حين حمل المجاز على
الاشتقاق والاتساع والتشبيه^(٢١٩) .

ومن الملاحظ أن ابن جني كان في أمثله يخلط بين الاستعارة
والمجاز المرسل ، ذلك أنه يقدم لنا صورة المجاز دون تدقيق في

الفروق بين الاصطلاحات - لأنه كان في معرض الحديث عن المجاز من حيث مفهومه .

وقد أضاف إلى ذلك كله موضوعاً مهماً في البلاغة العربية مما له صلة بالمجاز ، ونعني به موضوع القرينة ، فجعل السياق قائماً على المجازية بالقرينة التي تعين المقصود منه ، ولاحظ أننا لا يمكن - إن أردنا الدلالة المجازية أن نعرّي القول من القرينة ، لأنه لا يتسنى لنا أن نحمل اللفظة على المجاز من غير الدليل على مجازيتها وإلا تحول المقال إلى التعجرف من غير إيضاح ولا بيان^(٢٢٠) .

أمّا ابن فارس فقد سار على النهج الذي سار عليه سابقوه ، حيث وضع في كتابه الصاخي قواعد دراسة الأسلوب العربي ، وقد أقام هذه الدراسة كما فعل ابن جني على النصوص التي وصلت إليه ، ولم يكن في ذلك معتمداً على النصّ القرآني وحده .

لكن طريقة ابن فارس في البحث تعتمد أساليب المعجميين الذين يهتمون بمشدد الشواهد والأمثلة ، فاكثف بتعليقات سريعة على الشواهد ، ولم تكن لديه تلك النزعة التحليلية التي سادت لدى اللغويين والبلاغيين أمثال ابن جني وعبد القاهر الجرجاني .

غير أننا ندعم فكرتنا عن المجاز وطريقة العرب في فهمه بما قاله ابن فارس فيه ، وقد جاء بحثه في المجاز من خلال القسمة المعهودة بين الحقيقة والمجاز ، فحدّ المجاز بدءاً من حدّ الحقيقة وترك للقارئ أن يفهم مقصوده منه ، ورأى أن الحقيقة هي «الكلام الموضوع موضعه الذي ليس باستعارة ، ولا تقديم فيه ولا تأخير»^(٢٢١) . فجمع في حده بين تعريف المجاز اللغوي ، والمجاز الأسلوبي ، فالمجاز في التركيب هو الصيغة الأصلية التي يقوم عليها التركيب العربي ، أمّا المجاز في اللغة فهو الاستعارة والتمثيل ، وميز

بذلك بين قسـمي الجـاز «الاستعارة والتمثيل» ، والحقيقة أنه لم يشرح كثيراً مفهومه للاستعارة ، وإنما ذكر أن العرب «تعبير الشيء ما ليس له» ، وأتى بأمثلة على الاستعارة ، منها قول العرب : «مرّ بين سمع الأرض وبصرها» ^(٢٢٣) ، وهذا يعني أنه أكد فكرة قسمة الجـاز إلى الاستعارة والتمثيل ، وخرج على ما كان اللغويون قد نهجوه من الجمع في دراساتهم وأمثلتهم بين القسمين .

وقد جعل الجـاز نوعاً من خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، فرأى أن من سنن العرب «مخالفة ظاهر اللفظ معناه» ، لأنه أورد هذه الفكرة في سياق بحثه في الجـاز ، وجعل مخالفة ظاهر اللفظ معناه أمراً يؤول إلى أساليب العرب ^(٢٢٤) ، وهذا فهم من ابن فارس لفكرة العدول التي نصّ عليها ابن جني .

أمّا فكرته عن الجـاز فتخلط بين التشبيه والاستعارة والتمثيل ، وجاء ذلك في مثال يجمع أنواع الجـاز ، فذكر مفرداته القائمة على الجـاز والاستعارة ، وأشار بسرعة إلى المقصود من الكلام ، فأتى يقول النابغة :

الم تر أنّ الله أعطاك سورة ترى كل ملكٍ دونها يعذبذب
بأنك شمس والمثلوك كواكب إذا طلعت لم يهد منهم كوكب

وقال : «فالجـاز هنا عند ذكر «السورة» ، وإنما هي من البناء. ثم قال : «يتذبذب» ، والتذبذب يكون لذباب الثوب ، وهو ما يتبدل منه فيضطرب ، ثم شبهه بالشمس وشبههم بالكواكب» ^(٢٢٥)
أمّا الجـاز فهو في كلمة «السورة» ، وهذا يعني أنها تلحق بالجـاز بضطرب من التأويل الذي يقيس الدلالات كما فعل سابقوه ، وأما الاستعارة فهي في «يتذبذب» ، وأضاف إلى ذلك التشبيه .

ولا يختلف ابن فارس عمن سبقوه في نظرتهم إلى المجاز ، إلا أنه فهم من المجاز دخول التشبيه فيه على أنه صيغة مجازية خاصة ، وهو مما حمل بعض البلاغيين المتأخرين على أن يعدّوا التشبيه أحد أنواع المجاز ، لأن المتشابهين «يتشابهان بالمقاربة على المساحة والاصطلاح لا على الحقيقة»^(٢٢٦) .

وقد استطاع اللغويون بما امتلكوه من مناهج لغوية ورثوها ، وبما أضافوه إلى علم اللغة من معايير أن يوضحوا مفهوم المجاز الذي أتى به الجاحظ ، وأن يطوروا فيه لينقلوه إلى من بعدهم .

مفهوم المجاز لدى الأصوليين :

يتبع مفهوم المجاز لدى الأصوليين ما قرّ في أذهانهم من حدود العلم الذي يشتغلون به ، ولاريب أن معرفة هذه الحدود تدني الدارس من نظرته إلى ما يتصل بالنص ، وهو موضوع بحثهم ، ومما يعيرهم التي ارتضوها إلا قواعد تنظم دراسته ، وتهيء لاستنباط الأحكام منه .

وإذا كان الفقه يعني العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية^(٢٢٧) ، فإن أصول الفقه «هي المناهج التي تحد وتبين الطريق الذي يلتزمه الفقيه في استخراج الأحكام من أدلتها ، ويرتب الأدلة من حيث قوتها ، فيقدم القرآن على السنة ، والسنة على القياس ، وسائر الأدلة التي لا تقوم على النصوص مباشرة»^(٢٢٨) .

وترشدنا معرفة موضوع علم أصول الفقه إلى معرفة قواعده ومعاييره ، وقد نصّ الأصوليون على أن موضوع علم الأصول بيان

طرق الاستنباط^(٢٢٨) ، ويعني ذلك أنه يرد على الأدلة مثله مثل الفقه ، بيد أنه يرد «على الأدلة من حيث طريق الاستنباط منها وبيان مراتب حجيتها»^(٢٢٩) ، ومما يبحثه علم الأصول لبيان ذلك أنه يبين الظني والقطعي ، والمنهاج الذي يرسم عند تعارض ظواهر النصوص ، ثم يبين تفاوت دلالة العبارات المختلفة ، فيبين مرتبة الخاص من العام .

ولما كان علم أصول الفقه يقوم على وضع المعايير التي تستنبط بها الأحكام من الأدلة ، وأهمها النصوص «القرآن والسنة» ، فإن ترتيب موضوعات علم أصول الفقه يقوم في أساسه على فهم لطبيعة هذا العلم ، وقد تجلّى ذلك في ترتيب موضوعات كتب الأصوليين ، وكان كتاب المعتمد لأبي الحسين البصري أحد هذه الكتب ، بل هو أحد أربعة الكتب التي قيل : إنها قواعد هذا العلم وأركانها^(٢٣٠) . وقد سلك في ترتيبه منهاجاً يقدم لنا بنية علم أصول الفقه ، وإن كان بعض المؤلفين يسلكون مسلكاً آخر في ترتيب أبواب كتبهم المؤلفة في هذا العلم^(٢٣١) .

أوجب صاحب المعتمد «تقديم أقسام الكلام ، وذكر الحقيقة منه والجهل وأحكامهما وما يفصل به بينهما على الأوامر والنواهي ليصح أن نتكلم في أن الأمر إذا استعمل في الوجوب كان حقيقة»^(٢٣٢) . فدراسة الحقيقة والجهل لدى الأصوليين لم تكن دراسة لذاتها ، بل إنها أحد المعايير التي يستعملها الأصولي لبيان طرائق استنباط الأحكام من الأدلة ، ويتصل الأمر بتفسير النصوص^(٢٣٣) ، ولذلك يبحث الأصوليون في أنواع الدلالة ، دلالة اللفظ على المعنى ، كما استخلصوها بالاستقراء من كلام العرب^(٢٣٤) ، فبالنصوص الإسلامية هي نصوص عربية ، ولا بد لفهمها والاستنباط منها من أن يكون المستنبط عليماً باللسان العربي ، مدركاً للثقافة المرامي العبارات فيه ، وطرق الأداء من تعبير بالحقيقة أحياناً وتعبير بالجهل

أخرى ، ومدى الدلالة في كل طريق من طرق الأداء ، لأن هذه المعرفة لها مداها في فهم النصوص ، وتبين الأحكام منها^(٢٣٥) .
وقسم الأصوليون دلالة الألفاظ أقساماً متعددة ، فنظروا إلى اللفظ من حيث دلالاته على المعنى الوضعي الأصلي ، وفيه ثلاثة أصناف : خاص ، وعام ، ومشترك ، ومن حيث دلالاته على المعنى الذي استعمل فيه ضمن سياق معين ، وفيه صنفان : حقيقة وبجاز ، ومن حيث وضوح معناه أو غموضه ، وفيه صنفان : محكم ومتشابه ، ومن حيث طريق دلالاته على المراد منه ، فقسموه وفق ذلك أربعة أقسام^(٢٣٦) ، فكانت قسمة اللفظ إلى حقيقة وبجاز لديهم متصلة بأمرين ، أحدهما : الاستعمال ، والثاني : السياق ، وكلاهما توجه خاص من المتكلم للدلالة باللفظ .

وقد أرجع الأصوليون مسألة الحقيقة والجهاز إلى قضية «الوضع» ، وكان ذلك مدار خلاف كثير بينهم ، فتوقفوا عن قضية «الوضع» و «الاستعمال» ، وهي الحالة التي لا يكون فيها لللفظ دلالة خاصة ، وقد أسموا هذه الحالة «الوضع الأول» ، وفيها يخلو اللفظ من وضعي الحقيقة والجهاز ، ومن ذلك «اللفظ في أول الوضع قبل استعماله فيما وضع له» ، أو في غيره ، لأن شرط تحقق كل واحد من الحقيقة والجهاز الاستعمال ، فحيث انتفى الاستعمال انتفيا^(٢٣٧) .

ويدل ذلك على أن اللفظ لا يحمل دلالاته بذاته ، ولكن المتكلم هو الذي يحمله هذه الدلالة ، فيوجهه إلى الدلالة الحقيقية على المسميات ، وهو أصل الوضع ، أو يحمله على دلالة أخرى ، وهو الجواز .
وأعطى كثير من الأصوليين المتكلم - وفق هذا التصور - الحرية في صنع الجازات ، فلما كان المتكلم قادراً على توجيه اللفظ بكلامه وفق ما يريد من دلالات حسن لذلك أن يمح حرية في

استعمال الألفاظ بدلالاتها الوضعية أو المجازية ، وقد برزت لديهم تبعاً لذلك فكرة طريفة هي «لازمنية» الحقيقة ، و«زمنية» المجاز ، بمعنى أن الحقيقة ثابتة ، أما المجاز فمتغير ، ودليل القائلين بهذا أن الحقيقة يقاس عليها ، والمجاز لا يقاس عليه ، ومن أمثلتهم على ذلك «الضرب» ، فحين يوجد يقال : ضرب ، فهو ضارب ، ويطلق هذا الاسم على كل ضارب ، إذ هو حقيقة ، ولا عبرة هنا بالزمن ، فيطلق على من كان في زمن واضح اللغة ، وعلى من يأتي بعده ، أما المجاز فمحدود بالزمن الذي تعارف الناس فيه على صيغته ، وارتضوا معناه الذي لا يخرج عن أعرافهم ، فلا يقال مثلاً : أسأل البساط ، وأسأل الحصير ، وأسأل الثوب بمعنى صاحبه ، قياساً على « وأسأل أهل القرية »^(٢٣٨) ، ذلك أن هذه العبارة المجازية مرهونة بزمنها وظروف قولها ، فلا يجوز القياس عليها .

وكان هذا الأمر داعياً إلى النظر في أسبقية كل من المجاز أو الحقيقة ، وقد علل بعض علماء الأصول رفضهم للمجاز بأن الحقيقة والمجاز وجداً معاً في زمن واحد ، ذلك أنه «ليس في لغة العرب تقديم وتأخير ، بل كل زمان قدّر أن العرب قد نطقت فيه بالحقيقة ، فقد نطقت فيه بالمجاز»^(٢٣٩) ، فالأسماء لا تبدل على مدلولاتها بذاتها ، إذ لا مناسبة بين الاسم والمسمى ، ولذلك يجوز تغيير الأسماء ، وهذا التغيير يجعل الحقيقة غير لازمة ، فقد يتغير الاسم ويتحول وفق معايير اجتماعية أو دينية أو غير ذلك ، وحين يستقر الاسم على المسمى تبرز هذه الدواعي ثانياً فتغيره ، ولما كان الأمر كذلك فإن إطلاق الحقيقة على قسم من الألفاظ وإطلاق المجاز على قسم آخر لا داعي إليه ، ذلك أن كليهما موجود بوجود المجتمع اللغوي الذي يغير الأسماء وفقاً لآرائه في المسميات ، كما فعل الناس

بالفضلة حين سموها غائطاً وعذرة ، والعذرة فناء الدار ، والغائط :
الموضع المظلم من الأرض ، كانوا يرتادونه عند قضاء الحاجة .

لكن إطلاق المسألة من الناحية النظرية يقنع لأول وهلة ، غير
أن فسادها يظهر للمدقق فيها ، ذلك أن العبرة ليست في تغير اللفظ
وتحوله عن دلالته باستمرار ، مما يجعلنا لانميز بين الحقيقة والجهاز ،
وإنما العبرة في هذا التحول نفسه ، فحين نرى تحولاً دلاليّاً في لفظ
ما فإننا نستطيع أن نعرف أسبابه ، ونبين علله الممتدة في عناصر
مختلفة ، كالزمان الذي تحول فيه ، والظروف التي أدت إلى تحوله ،
ويبقى الموضوع الأهم ، وهو وجود هذا التحول ، أمّا الاعتداد
بجهلنا بتاريخه فلا عبرة فيه ، والجهل بالتاريخ لا يدل على عدم
التقديم والتأخير (٢٤٠) .

وتتصل فكرة زمنية الجواز بمسألة مهمة هي مسألة الابتكار ،
ذلك أنه لما كان الجواز متصلاً بزمته وبظروفه ، فإن دارسه لا يشترط
سماع جزئيات أنواعه بحسب العلاقات ، ولو كان هذا الشرط
حقيقة «لتوقف أهل العربية في التجوّز على النقل ويعدّون اختراع
الجواز فضلاً ، ولذلك لم يدنووا الجوازيات تدوينهم الحقائق ، ولو
كانت جزئيات الجواز نقليّة لدنوها أيضاً» (٢٤١) .

وقد نظر علماء الأصول إلى مسألة الجواز وفق اتجاهات متباينة،
فمنهم من ارتضى قسمة الألفاظ إلى حقيقة وجهاز ، ومنهم من ردّ
ذلك التقسيم وعارضه ، وكان لكل طريقتة في النظر إلى هذا الأمر،
فتباينت بذلك الآراء ضمن الراضين والمعارضين في آن واحد ، وقد
وجّه هذا دراساتهم النظرية في سبل شتى ، واستندوا في ذلك إلى
قدرتهم العقلية ، وما يمتلكونه من تجربة في التحليل والتجريد
والاستنتاج .

فقد ذهب مؤيدو الجواز إلى أنه «كل كلام تجوز به عن موضوعه الأصلي إلى غير موضوعه الأصلي لنوع مقارنة بينهما في الذات أو في المعنى . أمّا المقارنة في المعنى فكوصف الشجاعة والبلادة ، وأما في الذات فكتسمية المطر سماء ، وتسمية الفضة غائطاً ،...» (٢٤٢).

وقد جمع هذا الحد بين اللفظ المفرد والتركيب حين جعل الجواز كلاماً (٢٤٣) . ونظر إليهما بمعيار الأصل وتجاوزه ، فالجواز تجوز من المتكلم رخص به لنفسه لكي يتحول عن الموضوع الأصلي «المسمى» إلى غير هذا الموضوع ، لما يحدث في ذات المتكلم من المقارنة بين الموضوعين ، وهذا الحد يجمع الجواز «المرسل» والاستعارة ، ذلك أن كليهما ابتعاد عن الموضوع الأصلي للكلام إلى موضوع آخر .

بيد أن هذا التعريف على ما فيه من عيوب ، يبين موقف الأصوليين من الجواز ، وهو القائم على وجود معنى حقيقي ، وآخر مجازي للكلام ، وهذا ماشار إليه السيوطي حين فسر ما جاء في الحد ، فأكد فكرة وجود الحقيقة مقدمة على الجواز ، «فإن الجواز لا يعقل إلا إذا كانت الحقيقة موجودة» (٢٤٤) .

لكن قول السيوطي في هذا الأمر ليس القول الفصل ، فهو واحد من اتجاهين ، أمّا الاتجاه الثاني فيرى أن الجواز ليس في حاجته إلى حقيقة ، فقد اشترط من أخذ بالفصل بين الحقيقة والجواز استعمال اللفظ في الموضوع له ولو مرة ، وذهب آخرون إلى أنه لا يستلزم ذلك ، وكانت حجتهم في هذا كلمة «الرحمن» ، فهو مجاز لغة أو عرفاً ولا حقيقة ، لأنه لا يطلق إلا على الله تعالى ، ولا يتحقق معناه الحقيقي ، فإنه ذو الرحمة ، والرحمة رقة القلب ،

ولا قلب له سبحانه ، ورأوا أنه إن أطلق على غير الله تعالى فإنه يكون تعنتاً ^(٢٤٥) .

وأدى إلى هذا الخلاف استقرارهم على أن المجاز هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له ، ورأى بعضهم أن اللفظ يجوز أن يستعمل في غير ما وضع له ، ولا يستعمل فيما وضع له أصلاً ، وقد كان رأي من أخذ بملازمة الحقيقة للمجاز يقوم على ضرورة الملازمة ، وإلا كان الوضع عبثاً ، وهو محال ، وأقاموا ذلك على قاعدة الاستعمال ، لأن اللفظ لا يفيد ما لم يستعمل ، وفائدة الوضع إنما هي إعادة المعاني المركبة ، وإذا لم يستعمل لم يقع في التركيب ، فانتفت فائدته ^(٢٤٦) .

وقامت فكرة المجاز لدى القائلين به منهم على قاعدة العلاقة ، ورأوا أنه لا بد من العلاقة في كل مجاز فيما بينه وبين الحقيقة ، «والعلاقة هي اتصال للمعنى المستعمل فيه بالموضوع له» ^(٢٤٧) .

وميزوا بين أنواع العلاقات ، فجعلوها في قسمين كبيرين ، هما : «العلاقة باعتبار الصورة» ، كما في المجاز «المرسل» ، و «العلاقة باعتبار المعنى» ، كما في الاستعارة .

وتتميز الاستعارة في أن العلاقة فيها بين المعنى المستعمل فيه اللفظ ، والمعنى الموضوع له علاقة مشابهة ، وتعني هذه العلاقة الاشتراك في معنى مطلقاً ، ولكن بشرط أن تكون ظاهرة الثبوت لمحله والانتفاء عن غيره ^(٢٤٨) . وهنا يجب النظر في دلالة الاسم المستعار على معان متعددة ، والأخذ بالدلالة التي تثبت عند الناس ، ويتدخل في ذلك العرف الاجتماعي اللغوي ، فيعين المعنى المقصود . فكلية الأسد تدل على معان مختلفة كالتشجاعة ، والأبخر ، وحين نصف رجلاً بأنه أسد ، فإننا ننتقي الدلالة المشهورة بين الناس ، وهي الشجاعة دون الأبخر .

وفسروا «الاشتراك» في علاقة المشابهة بأنه اشتراك في الكيف، ولذلك يدرج تحت مفهوم العلاقة ما يسمى «المشاكلة الكلامية»^(٢٤٩)، ويعني ذلك «إطلاق اسم على مسمى يشاكلة بطريقة ما لأدنى تعلق، كأن تطلق كلمة الإنسان على الصورة المنقوشة، وتتسع هذه المشاكلة لتتضم المطابقة والمناسبة والتضاد المنزل منزلة التناسب لتهكم، نحو: «فبشرهم بعذاب أليم»^(٢٥٠).

والمقارنة بين ما جاء به الأصوليون، وما مرّ بنا من مفهوم الجواز لدى الجاحظ وابن قتيبة يحملنا على الاعتقاد بتقارب المفهومين من حيث توسيع دلالة اللفظ ليدل على معان كثيرة، وأما عمل المتكلم فهو اختيار المعنى من الدلالات التي تتبادر إلى الذهن، ويقوم هذا الاختيار على قواعد الدلالة التي ارتضاها المجتمع اللغوي، مما يصل هذه المسألة بموضوع آخر هو «لازمية الجواز».

أما اتصال معنى اللفظ المستعمل فيه بالموضوع له اتصالا «باعتبار الصورة» وهو الجواز المرسل، فيكون أمّا في اللفظ، وذلك في الجواز «بالزيادة والنقصان»، وفي «المشاكلة البديعية»، وهي الصحبة الحقيقية أو التقديرية^(٢٥١)، وقد اعترض بعضهم على جعل «الصحبة» نوعاً من العلاقة، ذلك أن المصاحبة في الذكر تمكن في كل لفظين، فيجوز استعمال أحدهما في معنى الآخر، لذلك فهذه المصاحبة غير معدودة في تعداد أنواع العلاقات، ومما يمنع جعلها من العلاقات المأخوذ بها أنها ترد بعد الاستعمال، والعلاقة يجب تحققها قبله^(٢٥٢).

ورأى بعضهم أن «المصاحبة» ليست علاقة في الذكر، بل هي مجاورة في الخيال، وذهب آخرون إلى أنها «التشبيه الادعائي»، ولكن اشترطوا لذلك وجود الحقيقة قبل الجواز، فيذكر اللفظ بمعناه المجازي بعد ذكره بمعناه الحقيقي، كقول الشاعر:

قالوا اقترح شيئاً نجذ لك طبخه قلت : اطبخوا لي جبّة وقميصاً
فلا يجوز ابتداء القول : اطبخوا لي جبة وقميصاً ، بل يجب
ذكر الحقيقة أولاً ومن ثم إيراد المجاز ^(٢٥٦) .

وأضافوا إلى هذه العلاقة علاقات أخرى عديدة ، واختلف في
عددها ، فقد أعادوا هذه العلاقات إلى كليات وفق توسيع دلالة
اللفظ ، وحين تتسع الدلالة فإن المعنى الحقيقي والمعنى المجازي
يتصلان ، فيقع السبب موقع المسبب ^(٢٥٧) ، وقد يقع المسبب
محلّه ^(٢٥٨) ، وقد يطلق اسم الكل على الجزء ^(٢٥٩) ، وقد يطلق اسم
الجزء على الكل ^(٢٦٠) ، وقد يطلق اسم الملزوم على اللازم ^(٢٦١) ،
ومن العلاقات العموم ، الخصوص ، الحالية ، المحلية ، المجاورة ،
الكون فيه ، الأول إليه ^(٢٦٢) ، الخ ، وقد اختلف في عدد هذه
العلاقات ، فجعلها بعضهم خمساً وعشرين ، وجعلهم آخرون اثنتي
عشرة وعدّها آخرون خمساً ، وقيل : هي أربع ، وحصروها في
اثنتين ، وهما : المشابهة والمجاورة ، وهذا ما يؤدي إلى «الاستعارة»
و «المجاز المرسل» ^(٢٦٣) .

إن القواعد الدقيقة التي وضعها علماء أصول الفقه لاستنباط
الأحكام كانت مدار عملهم فيما بحثوه من قضايا اللغة والدلالة ،
ولم يكونوا يلتفتون إلا إلى الدقة في استنباط هذه الأحكام ، ولذلك
لم يعبروا كثيراً بدراسة الاستعارة ومواضعها وأنواعها ، وإنما كان
وكدهم معرفة الدلالة للوصول إلى المعنى ، وجاءت مقاييسهم
للمجاز مضبوطة ، فيها الكثير من القواعد ، والقليل من التحليل
اللغوي للنص ، وقد نقلوا بقواعدهم هذه دراسة اللغة بصورة عامة ،
ودراسة المجاز بوجه خاص إلى المعايير والقواعد ، وأرسوا دعائم

النظر إلى المعيار قبل النظر إلى النص ، وإن كانت المعايير مستنبطة من النصوص ، إلا أن القواعد أضحت مجردة عن النص ، وصارت تقدّم على النظر فيه ، ولم يبق هناك استقرار جديد للنصوص ، لأن القواعد المضبوطة صارت تتحكم في هذا الاستقرار ، والحقيقة أنّ هذا يصحّ في مجالات الدراسات الأصولية ، لكنه لا يتفق والدراسات اللغوية ، لأن هذه الدراسات تبتغي من الدارس ألا يحكم القاعدة في النص بقدر ما يجعل النص حياً يؤدي لدراسه مافيه من معايير وقواعد.

قواعد المجاز :

ظلت قواعد المجاز في كتب اللغة والنحو والتفسير والأدب ملاحظات وإشارات إلى أن أضحت واضحة الملامح ، لها صيغتها النهائية ، وقد أسهم في وضع هذه الصيغة بلاغيون ونقاد وفلاسفة عديدون ، مستفيدين مما وصل إلى أيديهم من دراسات عديدة ، وجهود كبيرة ، قام بها علماء اللغة وغيرهم على مر العصور . وقد استطاع الفلاسفة أن يصوغوا فكرة المجاز ، وأن يبينوا ماكان البلاغيون القدامى قد وصلوا إليه ، من أن هناك مستويين في الكلام ، أحدهما : الكلام العادي الذي يجري به الخطاب بين الناس ، والثاني ، المستوى الأدبي^(٢٦٤) ، وحاول الفارابي أن يبين لنا طبيعة الانتقال من مستوى الخطاب العادي إلى مستوى الخطاب الأدبي من خلال تصوره لنشأة اللغة وتطورها ، فقسم تاريخ اللغة إلى أطوار ، وأولها «استقرار الألفاظ على المعاني» : وبه صارت الألفاظ علامات للمعاني ، وفيه انقسمت الألفاظ أنواعا «فصارت واحد واحد لواحد ، وكثير لواحد ، أو واحد لكثير ، وصارت رابطة على المعاني التي جعلت دالة على ذواتها»^(٢٦٥).

وقد جعل الفارابي بذلك اللفظ الذي يدل على معنى واحد ، والألفاظ المشتركة ، والمتزادفة في طور النشأة الأولى ، وألغى بفكرته هذه مشكلات الترادف والاشتراك ، وكأنه لا يريد البحث في طبيعة نشأتها (٢٦٦) .

أمّا الطور الثاني فهو طور النسخ والتجوّز في العبارة بالألفاظ «فعبر بالمعنى بغير اسمه الذي جعل أولاً ، وجعل الاسم الذي كان لمعنى راتباً له ، دالاً على ذاته ، عبارة عن شيء آخر متى كان له به تعلق ، ولو كان يسيراً ، أمّا لشبه بعيد وإما لغير ذلك ، من غير أن يجعل للثاني دالاً على ذاته ، فيحدث حينئذ الاستعارات والمجازات والتجرد بلفظ معنى ما عن التصريح بلفظ المعنى الذي يتلوه متى كان الثاني يفهم من الأول إذا كان سبيلها أن تقرن بالمعاني الأول متى كانت تفهم الأخيرة من فهم الأولى » (٢٦٧) .

فصارت الألفاظ تتسع ، وتعبر عن مدالوت غير التي وضعت علامات لها ، وذلك دون أن تفقد دلالاتها الأولى ، وهي الفكرة التي ألح عليها الجاحظ ، وابن قتيبة ، وجعلها مدار النهج الذي صاغها به فكرة المجاز .

وقد كان هذا التحول من اللغة العلامية إلى اللغة المجازية في حقيقته انتقالاً إلى اللغة الأدبية ، وهي اللغة التي تقوم على الاستعارة والكناية والتمثيل ، فجرى بذلك التوسع في العبارة «بتكثير الألفاظ وتبديل بعضها ببعض وترتيبها وتحسينها ، فيبتدئ حين ذلك في أن تحدث الخطيبية أولاً ثم الشعرية قليلاً » (٢٦٨) .

وقد أصبح الشعر يعني الأسلوب المجازي ، وهذا الفهم لا يختص به الفارابي ، وإنما كان جزءاً من تفكير الفلاسفة المسلمين الذين ذهبوا إلى أن القول الشعري هو قول مغير ، ويعني ذلك «أنه

إذا غيّر القول الحقيقي سمي شعراً أو قولاً شعرياً ، ووجد له فعل الشعر» (٢٦٩) .

ويظهر ذلك القاعدة الأساسية التي قام عليها تفكير البلاغيين أيضاً ، وهو وجود قول حقيقي وهو الخطاب العادي ، وقول شعري ، وهو القول المغير بدخول المجاز إليه ، وهذا ما حمل البلاغيين على أن يجعلوا من ثنائية الحقيقة والمجاز أساس بحثهم في المجاز ، فاشتهر على ألسنتهم ضرورة وجود الحقيقة قاعدة يستند إليها المجاز ، وأنه لا بد لكل مجاز من حقيقة (٢٧٠) .

وفكرة القول المغير من الحقيقة إلى المجاز كانت وراء فكرة أخرى هي «العدول» ، فقد عبّر البلاغيون عن هذا التغير بهذا المصطلح ، وقد اتخذ الجرجاني قاعدة لبحثه البلاغي ، ورأى أن مما يرجع فيه الحسن إلى اللفظ دون النظم «الكناية والاستعارة والتمثيل الكائن على حد الاستعارة» ، وكذلك «كل ما كان فيه على الجملة مجاز واتساع وعدول باللفظ عن الظاهر ، فما من ضرب من هذه الضروب إلا وهو إذا وقع على الصواب وعلى ما ينبغي ، أوجب الفضل والمزية» (٢٧١) .

وأما النظر في طبيعة المجاز فإن البلاغيين قد بحثوها بتفصيل واسع ، وقد اختلفت فيها وجهات نظرهم ، ولذلك لجأوا إلى تعريف المجاز ليبينوا من خلال الحد نظرهم إليه ، فرأى عبد القاهر الجرجاني أن المجاز «كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها للملاحظة بين الثاني والأول ، وإن شئت قلت : كل كلمة جرت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له من غير أن تستأنف فيها وضعاً للملاحظة بين ما تجوز بها إليه وبين أصلها الذي وضعت له في وضع واضعها» (٢٧٢) .

وفيفيد التعريف ان المبتدأ في هذا النوع من المجاز المفرد لا الجملة، لأن عبد القاهر قد مَوَّز بين المجاز الذي يقع في المفرد ، والمجاز الذي يقع في التركيب^(٢٧٣) ، واستند في مجاز المفرد إلى مسألة الوضع ، وهو المعنى الأصلي للكلمة ، وبين أن دلالة المفردة دلالة مجازية قائمة على إرادة المتكلم ، فهي لا تدل بوضعها على المجاز ، وشرط ذلك ألا يكون المجاز قائماً على نسخ المعنى الوضعي لإحلال المعنى المجازي محله ، فاللفظة بقيت على دلالتها الوضعية ، ويتم المجاز حين تكون هناك ملاحظة بين معنييها الحقيقي والمجازي ، ومصطلح الملاحظة هذا غامض ، لذلك يشرحه عبد القاهر بأن الكلمة المجازية «تستند في الجملة إلى غير هذا الذي تريده بها الآن»^(٢٧٤) ، لكن هذا بالاستناد لا يكون ظاهراً في جميع الأحوال ، فهو يقوى ويضعف . ويعني هذا الاستناد أن المعنى المقصود من الكلمة في السياق يلاحظ دون أن يكون بيناً ، وكأن الكلمة تشف عن المقصود منها ، وهذا معيار التمييز بين أنواع الاستعارة نفسها^(٢٧٥) ، فوضع عبد القاهر في تعريفه تصوره لفكرة المجاز ، ولم يميز فيه بين الاستعارة والمجاز «المرسل» ، ولكن التمييز بينهما يقع في مستتبعات التعريف ، وفي مدى قدرة الكلمة المجازية على أن تشف عن المعنى المقصود .

وقد أوضح الجرجاني فكرته في تحليله لمثالين : أحدهما الاستعارة ، والآخر للمجاز المرسل . فأما الاستعارة فإنه رأى أنك إذا قلت : «رأيت أسداً» ، وأنت تريد «رجلاً شبيهاً بالأسد» ، «لم يشته عليك الأمر في حاجة الثاني إلى الأول ، إذ لا يتصور أن يقع الأسد للرجل على هذا المعنى الذي أردته على التشبيه على حد المبالغة وإيهام أن معنى من الأسد حصل فيه إلا بعد أن تجعل كونه للسمع إزاء غينيك»^(٢٧٦) . فمعنى الليث يستند بوضوح إلى معنى

«رجل» ، ولاتستطيع أن تجعل جزءاً من معاني كلمة الأسد تحصل في الرجل من غير أن يقع تداخل بين الرجل والأسد ، فيصبح الرجل اسماً للسبع ، وتقوم الفكرة على مسألة الأصل والفرع ، فأصل الكلام «الرجل» وفرعه «الأسد» ، ولذلك لا يمكن أن يكون في العقل تصور فرع من غير أن يستند إلى أصل^(٢٧٧). ويمكن تخيل المسألة على أنها تغير في الدلالة بالتدريج ، فأصل الكلام وحقيقته : رأيت رجلاً شجاعاً ، وفرغه وهو الجواز الاستعاري : رأيت أسداً ، وتم الصلة بين المعاني بتحليل الدلالات ، فالرجل : ذكر ، قوي ، شجاع ، مهيب ، والأسد يتحلى بهذه الصفات أيضاً ، فارتبطت دلالة الشجاعة في كلمة الرجل بدلالة الشجاعة في الأسد ، وساغ لذلك أن تحمل الكلمة التي تحمل هذه الدلالة محل الكلمة الأصلية ، وهي الرجل ، وهذا ما عناه الجرجاني بقوله : «لا يتصور أن يقع الأسد للرجل على هذا المعنى الذي أردته على التشبيه ... إلا بعد أن تجعل كونه للسبع إزاء عينيك» .

وحدة هذا النوع من الاستعارة ، فجعلها تقع في الأسم على أن ينقل «عن مسماه الأصلي إلى شيء آخر ثابت معلوم ، فتجربته عليه وتجعله متناولاً له تناول الصفة مثلاً للموصوف ، وذلك قولك : رأيت أسداً ، وأنت تعني رجلاً شجاعاً ، ورنيت لنا ظيية ، وأنت تعني امرأة ، وأبديت نورا ، تعني هدى وبياناً وحجة ، وما شاكل ذلك»^(٢٧٨).

ويتصف هذا النوع من الاستعارة بالوضوح ، فالنقل فيه يتم من المسمى الأصلي إلى شيء آخر معروف ، «أن معك في هذا ذاتا ينص عليها ، وترى مكانها في النفس إذا لم تجد ذكرها في اللفظ»^(٢٧٩) ، فهناك ذات الأسد ، وذات الرجل ، ويتم لقاء هاتين الذاتين في دلالة مشتركة ، وهي الشجاعة .

وقد سمى المتأخرون هذا النوع من الاستعارة «التحقيقية»^(٢٨٠) أو «الحقيقية»^(٢٨١) ، وهذه القسمة تتأني للاستعارة من حيث ذاتها (٢٨٢) . وقيدت الاستعارة بالتحقيقية «لتحقق معناها حساً أو عقلاً ، أي التي تتناول أمراً معلوماً يمكن أن ينص عليه ويشار إليه إشارة حسية أو عقلية .. أما الحسي فقولك : «رأيت أسداً» ، وأنت تريد رجلاً شجاعاً ... وأما العقلي ، فكقولك : أهديت نوراً ، وأنت تريد حجة »^(٢٨٣) .

أما النوع الثاني من الاستعارة ، فقد حدّه عبد القاهر الجرجاني فوضع تصوراً له ، ويقوم على «أن يؤخذ الاسم عن حقيقته ، ويوضع موضعاً لا يبين فيه شيء يشار إليه ، فيقال هذا هو المراد بالاسم ، والذي استعير له ، وجعل خليفة لاسمه الأصلي ، ونائباً منابه»^(٢٨٤) ، ومثل له بقول لبّيد :

وغداة ربح قد كشفت وقرّة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

ورأى أن هذا النوع من الاستعارة ليس فيها مشار إليه كما في النوع الأول «يمكن أن تجري اليد عليه كإجراء الأسد والسيف على الرجل في قولك : انبرى لي أسد يزأر ، وسللت سيفاً على العدو لايفلّ »^(٢٨٥) . ولكن يفهم من الكلام أنك «أردت أن تجعل الشمال كذي اليد من الأحياء»^(٢٨٦) ، ورأى المتأخرون أن هذه الاستعارة «خيالية» ، ووصفوها بأنها «وهمية» ، «فهي تستعير لفظاً دالاً على حقيقة خيالية تقدّرها في الوهم ، ثم تردفها بذكر المستعار له ، إيضاحاً وتعريفاً لحالها»^(٢٨٧) ، وسماها آخرون «تخييلية»^(٢٨٨) .

بيد أن الجرجاني كان معنياً في الاستعارة بأمر آخر غير

التقسيم والتبويب ، فهو إلى إيضاح مفهوم الاستعارة أكثر قرباً منه إلى تبيان أقسامها ، ولذلك كان يعول على فهم طبيعتها ، مفرقاً بين أنواعها بطريقة التدرّج من الضعف إلى القوة ، لأن الاستعارة تتميز أنواعها - في رأيه - بمعيار وضوح الأصل وعدم وضوحه حين تذكر الكلمة المستعارة ، فالذي يحملنا على انتقاء المعنى من فروع دلالات الأصل «أن يرى معنى الكلمة المستعارة موجوداً في المستعار له من حيث عموم جنسه على الحقيقة» ^(٢٨٩) ، ويظهر هذا أن الكلمة المستعارة تحمل دلالات كثيرة ، وبعض دلالاتها موجود في المستعار له، وكل جنس فيه مراتب في الفضيلة والنقص، ولذلك فإن الاستعارة تتم بأن تستعير «لفظ الأفضل لما هو دونه، ومثاله استعارة الطيران لغير ذي الجناح إذا أردت السرعة ..» ^(٢٩٠) .

وقد تكون الاستعارة وفق طريقة ثانية ، فربما كان الشبه بين المستعار له والمستعار «مأخوذاً من صفة هي موجودة في كل واحد من المستعار له والمستعار منه على الحقيقة وذلك قولك : رأيت شمساً ، تريد إنساناً يتهلّل وجهه كالشمس» ^(٢٩١) . والمعول في هذه الاستعارات على قضية الجنس ، ذلك أن استعارة الجناح للفارس مثلاً يجعل الاستعارة واقعة في جنس واحد ، أمّا استعارة الشمس لوجه الإنسان فقد وقعت بين جنسين مختلفين» ^(٢٩٢) .

أمّا الصميم الخالص من الاستعارة فهو الذي يكون الشبه فيه مأخوذاً من الصور العقلية ، كقوله تعالى : «اتبعوا النور الذي أنزل معه» ^(٢٩٣) ، «فأنت لا تشك في أنه ليس بين النور والحجة ما بين طيران الطائر وجري الفرس من الإشتراك في عموم الجنس ، لأن النور صفة من صفات الأجسام محسوسة والحجة كلام» ^(٢٩٤) . تلك صورة الاستعارة من حيث ذاتها ، وقد تجلّت فيها مقدرة عهد القاهر على استجلاء طبيعة الدلالة في الاستعارة على أنها اتساع في

المعنى ، فهو يجعل الكلمة المستعارة فرعاً من فروع الأصل ، وهي الطريقة التي أسست عليها الاستعارة عند المتقدمين .

النقل والاستعارة:

استقر في الأذهان أن الاستعارة نوع من النقل ، ولكن الاختلاف في هذا الأمر مرده إلى طبيعة النقل الذي جرى في الاستعارة ، وتعد هذه المسألة هامة جداً ، لأنها تبين طبيعة النظر إلى الاستعارة.

ومن الواجب في هذا المقام التفريق بين فكرتين تتعلقان بالاستعارة ، قد تشبهان وتتداخلان ، وهما مسألتا «النقل» و «الاستبدال» ، ويرجع هذا الاشتباه في التمييز بين الفكرتين إلى ما فهم من كلام أرسطو على الاستعارة ، فقد حدها على أنها : «نقل اسم شيء إلى شيء آخر»^(٢٩٥) ، ويمكن أن تعني كلمة (نقل) في تعريف أرسطو السابق (الاستبدال Substitution) أي استبدال لفظ بلفظ ، وقد تعني كذلك نقل المعنى من تعبير إلى آخر^(٢٩٥ مكرر).

وبعني هذا أننا أمام ثلاث أفكار تعبر عن طبيعة الاستعارة ، هي «نقل اللفظ» من معنى إلى معنى ؛ و «نقل المعنى» من لفظ إلى لفظ ، و «الاستبدال» ، وكل من هذه الدلالات تفسر عن الأخرى ، لأن كل واحدة منها لها اتجاهها وقواعدها .

وقد سادت هذه الدلالات في تراثنا ، فقد ذهب علماءنا إلى أن الاستعارة تقوم على «نقل اللفظ» من دلالة إلى أخرى ، ولعل أول من تحدث بذلك الرماني النحوي «- ٣٨٦ هـ» ، وقد عرف الاستعارة بأنها «تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة»^(٢٩٦) ، وميز وفق ذلك بين الاستعارة

والتشبيه بأن الاستعارة لا بد لها من مستعار ، ومستعار له ، ومستعار منه ، وتتم الاستعارة بنقل اللفظ «فاللفظ المستعار قد نقل عن أصل إلى فرع للبيان»^(٢٩٧) ، ويجري الأمر على الجمع بين شيئين بمعنى مشترك ، فيكسب أحدهما الآخر بياناً ، وهذا ما يكون عليه التشبيه ، لكن الاستعارة تتم بنقل اللفظ ، أما التشبيه فيتم الجمع فيه بين المعنيين بالأداة^(٢٩٨) .

أما الطريقة الثانية في النقل ، فهي نقل المعنى لا اللفظ ، وقد عبّر عنه عبد القاهر الجرجاني ، حيث ذكر أن موضوع الاستعارة «على أن تثبت بها معنى لا يعرف السامع ذلك المعنى من اللفظ ، ولكنه يعرفه من معنى اللفظ»^(٢٩٩) ، ونعرف ذلك من المثال المشهور «رأيت أسداً» ، فأنت هنا تثبت للرجل ما يتصف به الأسد من بطش وإقدام وجرأة وشجاعة ، وأن الخوف لا يخامره ، والسامع في حقيقة الأمر لا يعقل هذا من اللفظ ، وإنما يعقله من المعنى ، «وهو أنه يعلم أنه لا معنى لجعله أسداً مع العلم بأنه «رجل» ، إلا أنك أردت أنه بلغ من شدة مشابهته للأسد ومساواته إياه مبلغاً يتوهم معه أنه أسد بالحقيقة»^(٣٠٠) .

فكان المعمول ههنا على نقل المعنى لا نقل اللفظ ، لأن الاستعارة تقع في المعنى ، فيعار المعنى أولاً ثم يعار اللفظ ، وهذا معيار التفريق بين المجاز «المرسل» الذي تكون العلاقة فيه سببية مثل تسمية «المطر» سماء ، و«اللبت» غيثاً ، و«المزادة» راوية ، وبين الاستعارة ، لأن هذا نقل اللفظ عما وضع له في اللغة إلى المعنى المجازي^(٣٠١) .

وهناك نوع من الاستعارة ، وهو الاستعارة «التخييلية» ، وهو نوع لا يصح فيه حديث النقل ، لأنها «تقوم على إضمار

التشبيه في النفس ، فلا يصّرُح بشيء من أركانه ، ويدل عليه بأن
يثبت للمشبه أمر مختصّ بالمشبه به من غير أن يكون هناك أمر ثابت
حسباً أو عقلاً أجري عليه ذلك الأمر»^(٣٠٢) ، كقول الشاعر :

وخداة ربح قد كسّلت وقرّة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

ولاحلاف في أن «اليد» استعارة ، غير أننا لانستطيع الزعم
أن لفظ «اليد» قد نقل عن شيء إلى شيء ، لأن المعنى ليس على
أنه شبه شيئاً ، فيصح الزعم أنه نقل لفظ اليد إليه «ولأنما المعنى على
أنه أراد أن يثبت للشمال في تصريفها «الغداة» على طبيعتها ، شبه
الإنسان قد أخذ الشيء بيده يقلبه ويصرفه كيف يريد ، فلما أثبت
لها مثل فعل الإنسان باليد استعار لها اليد^(٣٠٣).

ولما كان لا يصح تقدير النقل في لفظ اليد فإنه كذلك لا يصح
أن تجعل الاستعارة من صفة اللفظ ، ولذلك قرر الجرجاني «أن
الاستعارة إنما هي ادعاء معنى الاسم للشيء لانقل الاسم عن
الشيء»^(٣٠٤).

أمّا الاستبدال في الاستعارة فإنه صورة مختلفة عن النقل ،
ولعل أول من ذكر هذا النوع من الطرائق في الاستعارة الجاحظ ،
حيث لاحظ أن الاستعارة تقوم على الاستبدال ، فحدّثها بأنها
«تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه»^(٣٠٥) ، ويدل على تميز
الاستبدال عن «النقل» ما ذكره الجرجاني من أن المعيار في الاستعارة
ادعاء معنى الاسم للشيء لانقل الاسم عن الشيء ، ففكرة الجاحظ
تقوم - كما لاحظنا - على توسيع الدلالة ، وحين تتسع دلالة
اللفظ الأصلي يصح أن نحمل كلمة محل أخرى ، وقد سوغ
الجرجاني فكرة النقل في الاستعارة على أن يكون نقلاً في المعنى ،

لأن الفكرة لا تقوم على التصرف في دلالات الألفاظ بنقلها ، وإنما تقوم على توسيع الدلالة .

فيتم بالاستعارة إيجاد صلة بين المعنيين ، وحين يصحّ ذلك يصبح أن يحل اللفظ محل اللفظ لأنه يكون لائقاً بالشئ الذي استعيرت له المعاني ، ومناسباً لمعناه ^(٣٠٦) .

أما المجاز الذي يسمى «المرسل» ، وهو ما كانت العلاقة فيه قائمة على غير علاقة التشبيه وهو ما ليس استعارة فقد بحثه عبد القاهر الجرجاني ، وبين طبيعته من خلال تحليل الأمثلة ، وجعل المجاز قائماً على مفهوم الاستناد الذي كان مدار تحليله للاستعارة ، ولكن الفرق بين استناد الاستعارة إلى المعنى الأصلي ، واستناد المجاز إليه أنه يقوى في الاستعارة ويضعف في المجاز ، وقد يظن ظان أنه لا استناد في المجاز بسبب ضعفه في بعض الأمثلة ، مما يحمله على أن يعتقد أن الكلمة قد استؤنف بها وضع جديد ، وأصبح لغة مفردة ، لأنهم قد يوقعون اللفظة على ما ليس بينه وبين المعنى الحقيقي التباس واختصاص ^(٣٠٧) .

ومثال ذلك استعمال كلمة «اليد» في معنى «النعمة» تارة ، ومعنى «القوة» تارة أخرى ، فإن استعملت في معنى «النعمة» فإنها تقع في كلام يشار فيه إلى مصدر تلك النعمة وإلى المولى لها ، ولاتستعمل حيث تراد النعمة مجردة من إضافة لها إلى المنعم أو تلويح به ، ويدل هذا على أن الكلمة لم ينسخ معناها الأصلي لأنه «محال أن تكون اليد اسماً للنعمة هكذا على الإطلاق ثم لاتقع موقع النعمة» ^(٣٠٨) .

وإذا استعملت هذه الكلمة في معنى «القوة» فإنها تكون بذلك أقرب إلى معناها الأصلي ، ذلك أن استعمالها بهذا المعنى

يأتي في سياق المثل الصريح ، كقولهم «فلان طويل اليد» ، ويراد به «فضل القوة» ، أو يأتي في سياق التلويح بالمثل ، كقوله تعالى : ﴿السَّمَاوَاتِ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ﴾ (٣٠٩) .

ولا يصحّ إذا جاءت في سياق المثل الصريح أن يوضع معناها في مكانها ، فتجعل القدرة موضع اليد ، لأن هذا إحالة في الكلام ، وكذلك لو جاءت في سياق التلويح بالمثل ، ويتم تحليل هذا النوع من المجاز بتوسيع دلالة العبارة كلها ليصحّ توسيع دلالة اللفظة المجازية . من ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : «المؤمنون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يندّ علي من هم سواهم» ، فيكون المعنى : «هم عون على سواهم» ، لكن «اليد» هنا ليست في معنى «العون» على الحقيقة (٣١٠) ، وإنما المعنى أن «مثلهم مع كثرتهم في وجوب الاتفاق بينهم مثل اليد الواحدة» فكما لا يتصور أن يخلد بعض أجزاء اليد بعضاً ، وأن يختلف بها الجهة في التصرف ، كذلك سبيل المسلمين في تعاضده على المشركين ، لأن كلمة التوحيد جامعة لهم ، فلذلك كانوا كنفس واحدة « (٣١١) ، وهذا لا يمكن أن تؤديه كلمة «اليد» وحدها منفردة ، فيظن أنها نقلت من معنى إلى معنى على حد وضع الاسم أو استئناف وضعه (٣١٢) ، ولذلك كان لا بد من التأول في العبارة لتصح الدلالة على سبيل المثل والتشبيه (٣١٣) .

فأقام الجرجاني - وفق هذا التصور - المجاز على التوسيع في الدلالة ، لا على النقل من معنى إلى معنى ، فالكلمة باقية على معناها الأصلي ، لكن الدلالة توسعت ، واحتجنا لفهم معناها إلى وضعها في سياق التمثيل .

وهذا ماذهب إليه ابن الأثير حيث عوّل في تقسيم المجاز على

فكرة التوسع مدخلا التشبيه في المجاز ، فذكر «أن المجاز ينقسم قسمين: توسع في الكلام ، وتشبيه ، والتشبيه ضربان : تشبيه تام ، وتشبيه محذوف ، فالتشبيه التام : أن يذكر المشبه به ، والتشبيه المحذوف : أن يذكر المشبه دون المشبه به ، ويسمى استعارة»^(٣١٤) ، وقد فسر ابن حمزة العلوي مسألة المجاز - وفق هذا التصور - فجعله بكل فروعه يؤول إلى مسألة التوسع^(٣١٥) .

المجاز العقلي :

احتفل عبد القاهر الجرجاني بالمجاز العقلي احتفالاً ، وصرف من أجله صفحات عديدة ، دلت على قدرته العقلية على تشقيق المعاني والإفادة مما حصله من علوم اللغة ، وقامت فكرة هذا المجاز لديه على مسألة التمييز بين الحقيقة والمجاز ، بيد أن هذا النوع من المجاز يقع في الجملة ، ولا يقع في المفردات . ومهد لهذا مجاز بأصول تتعلق بدلالة الجملة ، وتتساند هذه الأصول إلى مسألة «الإثبات والنفي» ، وهي المسألة التي جعلت الفائدة تقع في الجملة ولا تقع في المفردات .

ويعمل جعل مدار الأمر في هذا المجاز على الإثبات والنفي بأن أول معاني الكلام ، وهو الإخبار ينقسم إلى هذين الحكمين ، ويقتضي الإثبات أو النفي مثبتاً ومثبتاً له ، أو منفيّاً ومنفيّاً عنه ، كقولنا ضرب زيد ، أو زيد ضارب ، ففي المثالين أثبتنا الضرب فعلاً أو وصفاً^(٣١٦) . ويتم الإثبات بطريقتين مختلفتين - كما لاحظنا - «ومعنى ذلك أنك تثبت الشيء للشيء مرة من جهة أخرى من جهة غير تلك الأولى ، وتفسيره أنك تقول : ضرب زيد ، فتثبت الضرب فعلاً لزيد ، وتقول : مرض زيد ، فتثبت

المرض وصفاً له»^(٣١٧) ، وعكس ذلك شأن النفسي ، كقولنا :
ماضرب زيد ، وما مرض .

وبعني هذا كله البحث في الجملة من حيث إفادة الحكم فيها .
ولذلك يمكن الفصل بين الحقيقة والمجاز في الجملة من خلال
مسألتين ، ((إحدهما : أن تنظر إلى ما وقع بها من الإثبات ، أهو
في حقه وموضعه ، أم قد زال عن الموضع الذي ينبغي أن يكون فيه؟
والثانية : أن تنظر إلى المعنى المثبت ، أعني ما وقع عليه الإثبات ،
كالحياء في قولك : «أحيا الله زيدا» ، والشيب في قولك : أشاب الله
رأسي» ، أثبت هو على الحقيقة ، أم قد عدل به عنها ؟))^(٣١٨) .

ولذلك يجوز الحكم على الجملة بأنها مجاز عندما يكون
الشيء الذي أثبت له الفعل «مما لا يدعي أحد من المحققين والمبطلين
أنه مما يصح أن يكون له تأثير في وجود المعنى الذي أثبت له وذلك
نحو قول الرجل : محبتك جاءت بي إليك .. أو أنه يكون قد علم
من اعتقاد المتكلم أن لا يثبت الفعل إلا للقادر ، وأنه ممن لا يعتقد
الاعتقادات الفاسدة ، كنحو ما قاله المشركون وظنوه من ثبوت
الهلاك فعلاً للدهر»^(٣١٩) ، فالحكم المستفاد من الجملة يكون
بإسناد الفعل إلى فاعله الحقيقي ، أو إلى غير فاعله الحقيقي ، وهذا
تصور لدلالة الجملة دون دلالة المفردات ، لأن المفردات لا تأتي
لتحكم بحكم أو لتثبت أو تنفي ، ولذلك فإن النظر إلى الإثبات في
الجملة متلقى من العقل^(٣٢٠) . وقد صور الجرجاني بهذه الأفكار
مسألة عاجلها من سبقه بوجه من الأوجه ، لكنهم لم يضعوها
نظرية شاملة ، وقد استطاع الجرجاني أن يضع القواعد لهذا النوع
من المجاز .

القريفة والعلاقات :

احتلت القريفة في قواعد المجاز مكانة هامة ، ذلك أن التفريق

بين الحقيقة والمجاز قائم في الأساس على مسألة القرائن ، فالقرينة هي التي تحمل على فهم الكلام على أنه يراد به غير ظاهره (٣٢١) ، ولذلك وضعوا للاستعارة شرط القرينة التي تجعل السامع قادراً على فهمها بوضوح ، وقسموها أقساماً ، فمنها ما يكون معنى واحداً ، كقولك : رأيت أسداً يرمي ، ومنها ما يكون أكثر من معنى ، كقول بعض العرب :

فإن تعافوا العذل والإيماناً فإن في إيماننا نيراناً

أي سيوفاً تلمع كأنها شعل النيران . ومنها ما يكون معاني مربوطة بعضها ببعض ، كقول البحري :

وصاعقة من نصله تنكفي بها على رؤس الأقران خمس سحائب
وعنى بـ «خمس سحائب» : أنامل الممدوح (٣٢٢) .

وكذلك وضعت للمجاز «المرسل» قرائن تحدد مفهومه ، وهي قرائن لفظية ، كالفاء في قوله تعالى ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾ (٣٢٣) ، وقد استعملت قرأت مكان أردت القراءة لكون القراءة مسببة عن إرادتها استعمالاً مجازياً بقرينة الفاء في فاستعذ ، والسنة المستفيضة بتقديم الاستعادة (٣٢٤) .

ولاحظ البلاغيون العلاقات بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي ، فأشار الجرجاني إلى العلاقة ، وبين بعض أنواعها ، فنص على العلاقة السببية والجزئية وعلاقة ما كان (٣٢٥) والمحلية (٣٢٦) ، ولكن البلاغيين المتأخريين فرعوا على قضية العلاقة ، وجعلوها جزءاً من مسألة المجاز ، فبين السكاكي أن معنى المجاز «أن تعدّي الكلمة عن مفهومها الأصلي بمعونة القرينة إلى غيره لملاحظة بينهما ونوع تعلق» (٣٢٧) . وساق عدداً من العلاقات التي تصورها (٣٢٨) ، معتمداً على ما أشار إليه الجرجاني .

وقد تحولت مسألة المجاز وفق هذا الاتجاه إلى تفريعات وقواعد، فلم يبق الأخذ بالنص وكد الدارسين بقدر ما كانت مسألة التفرغ والحدود أساس عملهم ، ولما صارت البلاغة قواعد وابتعدت عن النص احتاجت إلى من يطبق القواعد على النصوص ، ولكن البلاغة عند المتأخرين تحولت إلى قيد ثقيل همّ دارسها البحث عن جزئيات في النص تؤيد القاعدة وتنصرها ، ولم يبق مهتماً في البحث داخله عن العلاقات الحقيقية بين الألفاظ والنظر إلى اللغة على أنها حيّة توحى ألفاظها بدلالاتها داخل السياق ، فحددت الدلالات بالعلاقات ، ولم يبق في وسع صانع النص أن يخرج عما وضع له .

ولقائل أن يقول : إن هذه القواعد في بلاغة المتأخرين تقعيد وتفرغ على ماصنعة السابقون .. ولكننا نجد أن السابقين لم يكونوا يعتمدون القاعدة بقدر اعتمادهم على المنهج الذي ارتضوه ، وهو منهج التحليل ، وفهم المفردات داخل سياقها الذي بين أيديهم ، وهذا المنهج كان يفسر كثيراً من الظواهر المستجدة في النصوص ، ولذلك فإنهم كانوا يطورون في منهج البحث وفق ما يمتلكون من ثقافة ومن قدرة ، ولم يكن همهم وضع القاعدة أو تلخيصها أو شرحها بمعزل عن النص ، إلى أن صارت معايير البلاغة أقرب إلى معايير الأصوليين منها إلى معايير التحليل النصي .

هوامش الفصل الخامس :

- (١) - النصوص كلها مأخوذة من مادة (عق) من معجم العين
٧٠ / ١ .
- (٢) - نفسه ٧١ / ١ .
- (٣) - البيان والتبيين ١ / ١٦٢ .
- (٤) - الكتاب ١ / ٢٥ - ٢٩ .
- (٥) - الحيوان ١ / ١٨٠ .
- (٦) - تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ٨٦ - ٩٧ .
- (٧) - الكتاب ٣ / ٤٧ - ٤٨ ، والآيات على التسلسل : الأنبياء ٣٣ ، يوسف ٤ ، النمل ١٨ .
- (٨) - سورة الروم ٥١ .
- (٩) - الإشارة إلى الإيجاز ، ص ٢٦ .
- (١٠) - نفسه .
- (١١) - حاشية حسن العطار ، ص ٣٠ - ٣١ .
- (١٢) - المجاز في اللغة والقرآن الكريم ٢ / ١٠٥٧ .
- (١٣) - الكتاب ١ / ٢٥ .
- (١٤) - نفسه ١ / ٢٦ .
- (١٥) - المجاز في اللغة والقرآن الكريم ١ / ٨ .
- (١٦) - شروح التلخيص ٤ / ٣٥٧ - ٣٥٨ .
- (١٧) - الأحكام لابن حزم ١ / ٣٥٢ ، والبرهان ٢ / ٢٥٥ .
- (١٨) - نفسه .
- (١٩) - يوسف ٨٢ .
- (٢٠) - الكتاب ١ / ٢١٢ .

- (٢١) مباح ٣٣ .
- (٢٢) - المجاز في اللغة والقرآن الكريم ١ / ١٠ .
- (٢٣) - نفسه .
- (٢٤) - الكتاب ١ / ١٧٦ .
- (٢٥) - المجاز في اللغة والقرآن الكريم ١ / ١٠ .
- (٢٦) - الكتاب ١ / ٢١٣ .
- (٢٧) - نفسه ١ / ٢٣٦ - ٢٣٧ .
- (٢٨) - دلائل الإعجاز ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ .
- (٢٩) - البقرة ١٦ .
- (٣٠) - معاني القرآن ١ / ١٤ .
- (٣١) - محمد ٢١ .
- (٣٢) - معاني القرآن ١ / ١٤ .
- (٣٣) - نفسه ١٥ .
- (٣٤) - نفسه .
- (٣٥) - المطول للسعد ٣٢١ .
- (٣٦) - معاني القرآن ٢ / ١٥ .
- (٣٧) - هود ٤٣ .
- (٣٨) - معاني القرآن ٢ / ١٥ .
- (٣٩) - الطارق ٦ .
- (٤٠) - القارعة ٧ .
- (٤١) - معاني القرآن ٢ / ١٥ - ١٦ .
- (٤٢) - علوم البلاغة ، مصطفى المراغي ، ص ٢٣٢ .
- (٤٣) - البرهان للزركشي ٢ / ٢٥٨ .
- (٤٤) - نفسه .
- (٤٥) - معاني القرآن ٢ / ١٦ .
- (٤٦) - البرهان للزركشي ٢ / ٢٥٨ .

- (٤٧) - معاني القرآن ٢ / ٧٣ ، و ١٧٠ / ٢ ، و ٣٦٣ / ٢ ، و ٩٥ / ٣ .
- (٤٨) - آل عمران ١١٣ .
- (٤٩) - معاني القرآن ٢ / ٢٣١ .
- (٥٠) - إرشاد الفحول ، ص ٢٣ ، والبرهان ٢ / ٢٦٣ .
- (٥١) - المجاز في اللغة والقرآن الكريم ١ / ٣١ .
- (٥٢) - البقرة ١٩٣ .
- (٥٣) - معاني القرآن ١ / ١١٦ - ١١٧ .
- (٥٤) - معاني القرآن ١ / ١١٦ - ١١٧ .
- (٥٥) - معاني القرآن ١ / ١١٦ - ١١٧ .
- (٥٦) - معاني القرآن ١ / ١١٧ .
- (٥٧) - يُعدّ هذا الفهم للاستعارة واحداً من تفسيرات الاستعارة التي ذهب إليها المعاصرون ، وينصّ على أن الاستعارة تشير إلى معالجة خاصة لمجموعه لغوية يتم بموجبها حملها على معنى آخر أو تحويلها إليه ، فيتركّم بالمعنى الثاني كما يتكلّم بالمعنى الأول .
- (٥٨) انظر : ١ ; P . Metaphor , Terence Hawkes .
- (٥٩) - التفكير البلاغي عند العرب ، تأليف : حمادي صمود ، ص ١٣٧ .
- (٦٠) - الحيوان ٧ / ٥٧ - ٥٨ ، والتفكير البلاغي عند العرب ، ص ١٦٤ و ١٧٥ .
- (٦١) - النظريات اللسانية والبلاغية عند العرب ، د. محمد الصغير بناني ، ص ٦٣ .
- (٦٢) - البيان والتبيين ١ / ٣٤٠ .
- (٦٣) - البيان والتبيين ١ / ٧٨ ، والنظريات اللسانية والبلاغية عند العرب ، ص ٦٥ .
- (٦٤) - التفكير البلاغي عند العرب ، ص ١٨٢ .
- (٦٥) - نفسه ص ١٨٣ .
- (٦٦) - وهي : المتكلم ، والسامع ، والكلام .

- (٢) - التفكير البلاغي عند العرب ، ص ١٨٢ .
- (٣) - التفكير البلاغي عند العرب ، ص ١٨٣ - ١٨٤ .
- (٤) - التفكير البلاغي عند العرب ، ص ١٩٤ ، وانظر تفصيلات أوسع
للفكرة في فصل «نظرية الكلام» في كتاب : النظريات اللسانية
والبلاغية عند العرب ، د. محمد الصغير بناني ، ص ٦٨ وما بعدها .
- (٥) - ابراهيم ٤ .
- (٦) - البيان والتبيين ١/١١ .
- (٧) - البيان والتبيين ١/٧٦ .
- (٨) - التفكير البلاغي عند العرب ، ص ١٩٦ .
- (٩) - البيان والتبيين ١/٨٦ - ٨٧ .
- (١٠) - البيان والتبيين ١/٦٧ - ٦٨ وأولاد العلات : أولاد أب واحد من
امهات مختلفات .
- (١١) - البيان والتبيين ١/٦٨ .
- (١٢) - البيان والتبيين ١/٨٣ .
- (١٣) - البيان والتبيين .
- (١٤) - النظريات اللسانية والبلاغية عند العرب ، ص ١٦٣ .
- (١٥) - البيان والتبيين ١/١٣٥ - ١٣٨ .
- (١٦) - البيان والتبيين ١/١٨ .
- (١٧) - البيان والتبيين ١/٢٠ .
- (١٨) - نفسه .
- (١٩) - البيان والتبيين ١/٢ - ٢١ .
- (٢٠) - البيان والتبيين ١/١٤ .
- (٢١) - البيان والتبيين ١/٣٤ .
- (٢٢) - البيان والتبيين ١/٣٧ .
- (٢٣) - البيان والتبيين ١/٣٧ .
- (٢٤) - البيان والتبيين ١/٣٩ .

- (٩٠) - البيان والتبيين ١ / ٤٠ .
- (٩١) - البيان والتبيين ١ / ٤٤ .
- (٩٢) - البيان والتبيين ١ / ٤٤ .
- (٩٣) - البيان والتبيين ١ / ١٠٦ .
- (٩٤) - البيان والتبيين ١ / ١٠٦ .
- (٩٥) - البيان والتبيين ١ / ١٠٧ .
- (٩٦) - البيان والتبيين ١ / ٤٤ .
- (٩٧) - البيان والتبيين ١ / ١١ - ١٢ .
- (٩٨) - نعي بالوجه المبدئية: الصورة العامة ، ذلك أن الاعتماد على الطاقة التصريحية ليس أمراً مطرداً يلتزمه للتكلم في كل الأحوال ، فلكل مقام مقال . التفكير البلاغي عن العرب ، ص ٢٧٧ .
- (٩٩) - المرجع السابق .
- (١٠٠) - البيان والتبيين ١ / ٨٣ .
- (١٠١) - التفكير البلاغي عند العرب ، ص ٢٧٧ .
- (١٠٢) - البيان والتبيين ١ / ١٣٦ .
- (١٠٣) - البيان والتبيين ١ / ١٠٦ .
- (١٠٤) - البيان والتبيين ١ / ١٠٧ .
- (١٠٥) - نفسه ١ / ١١١ .
- (١٠٦) - البيان والتبيين ، وانظر كذلك استحصانه هذه الصفة في ١ / ١١٥ .
- (١٠٧) - البيان والتبيين ١ / ٩٢ - ٩٣ .
- (١٠٨) - البيان والتبيين ١ / ٣٦٧ .
- (١٠٩) - البيان والتبيين ١ / ٣٦٨ .
- (١١٠) - نفسه .
- (١١١) - البيان والتبيين ١ / ٣٦٨ - ٣٦٩ .
- (١١٢) - الحيوان ٤ / ١٩٦ .
- (١١٣) - الحيوان ٤ / ١٩٧ .

- (١١٤) - كعب الأخبار .
- (١١٥) - الحيوان ٤/٢٠٢ .
- (١١٦) - نفسه ٤/٢٠٦ .
- (١١٧) - نفسه .
- (١١٨) - نفسه ١/١٨٠ .
- (١١٩) - البيان والتبيين ١/٢٢٨ .
- (١٢٠) - البيان والتبيين ١/٢٠٢ .
- (١٢١) - البيان والتبيين ١/٩٢ - ٩٣ .
- (١٢٢) - الحيوان ٥/٤٢٣ .
- (١٢٣) - نفسه ٥/٢٣ .
- (١٢٤) - الحيوان ٥/٢٣ .
- (١٢٥) - نفسه ٥/٢٠ - ٢٣ .
- (١٢٦) - نفسه ٥/٢٧ .
- (١٢٧) - نفسه ٥/٢٣ .
- (١٢٨) - نفسه ٥/٢٧ .
- (١٢٩) - نفسه .
- (١٣٠) - الحيوان ٥/٢٣ .
- (١٣١) - نفسه ٥/٤٢٦ .
- (١٣٢) - البيان والتبيين ١/٢٥٣ . وقد رأى د. مسلم أبو العدوس أن الجاحظ وضع شرطاً مسبقاً في قوله «إذا قام مقامه» ولم يبين علاقة الاستعارة بالتشبيه . انظر النظرية الاستدلالية للاستعارة ص ٢٩ .
- (١٣٣) - دلائل الإعجاز ٤٣١ .
- (١٣٤) - نفسه ٤٣٢ .
- (١٣٥) - هو تعريف الرماني . انظر «النكت في إعجاز القرآن» - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٧٩ .
- (١٣٦) - الوساطة ٤٠ .

- (١٣٧) - دلائل الإعجاز ، ص ٤٣٤ .
- (١٣٨) - نفسه ص ٤٣٥ .
- (١٣٩) - البيان والتبيين ١ / ١٥٢ .
- (١٤٠) - البيان والتبيين ١ / ١٥٢ .
- (١٤١) - نفسه .
- (١٤٢) - الواقعة ٥٦ .
- (١٤٣) - نفسه ، ص ١٥٣ .
- (١٤٤) - دلائل الإعجاز ٤٣٧ .
- (١٤٥) - نفسه ٤٣١ .
- (١٤٦) - النحل ٦٩ .
- (١٤٧) - انظر حيوية اللغة في النص .
- (١٤٨) - الحيوان ٤٢٥/٥ .
- (١٤٩) - نفسه .
- (١٥٠) - نفسه .
- (١٥١) - الحيوان ٤٢٥/٥ .
- (١٥٢) - الحيوان ٤٢٥/٥ .
- (١٥٣) - الحيوان ٤٢٥/٥ .
- (١٥٤) - يرى الباحثون المعاصرون الغربيون ، وتبعهم في ذلك بعض المعاصرين العرب ، أن المحاز المخرواف في الدلالة ، أو اغتصاب ، أو جنون ، أو شذوذ ، أو انقلاب ، ولكن ذلك كله لا يؤدي معنى المحاز على حقيقته ، وتظل لذلك هذه الاصطلاحات أقرب إلى الكلام الشعري ، والكلام المجازي منه إلى تصوير حقيقة المحاز . انظر : النظريات اللسانية والبلاغية عند العرب / ص ٢٨٣ .
- (١٥٥) - الحيوان ٤٢٦/٥ .
- (١٥٦) - نفسه .
- (١٥٧) - نفسه .

- (١٥٨) - نفسه ١/٣٤٠ .
- (١٥٩) - الجائبة ٢٤
- (١٦٠) - الحيوان ١/٣٤٠ .
- (١٦١) - الحيوان ١/٣٤٠ .
- (١٦٢) - الحيوان ١/٣٤٠ .
- (١٦٣) - الحيوان ١/٣٤١ .
- (١٦٤) - نفسه .
- (١٦٥) - نفسه .
- (١٦٦) - نفسه .
- (١٦٧) - الحيوان ١/٣٤١ .
- (١٦٨) - الحيوان ١/٣٤١ .
- (١٦٩) - الحيوان ١/٣٤١ .
- (١٧٠) - الصاحبي ٥ .
- (١٧١) - تأويل مشكل القرآن ٣ .
- (١٧٢) - نفسه ٣ .
- (١٧٣) - نفسه ٤ . وفيه تخريج الحديث .
- (١٧٤) - اللسان : «جمع» ، ٨/٥٣ - ٥٤ .
- (١٧٥) - البيان والتهيين ٢/٢٨ .
- (١٧٦) - النازعات ٣١ .
- (١٧٧) - العصف : ورق الزرع ، وما يؤكل منه ، اللسان : عصف ، ٩/٢٤٧ .
- (١٧٨) - تأويل مشكل القرآن ٥ .
- (١٧٩) - الرعد ٤ .
- (١٨٠) - تأويل مشكل القرآن ٥ .
- (١٨١) - تأويل مشكل القرآن ٥ .
- (١٨٢) - الكهف ١٧ .

- (١٨٣) - تأويل مشكل القرآن : ٩ .
- (١٨٤) - تأويل مشكل القرآن : ١٢ .
- (١٨٥) - - تأويل مشكل القرآن : ص ١٤ .
- (١٨٦) - تأويل مشكل القرآن : ص ١٤ .
- (١٨٧) - تأويل مشكل القرآن : ١٤ - ١٥ .
- (١٨٨) - تأويل مشكل القرآن : ١٦ .
- (١٨٩) - تأويل مشكل القرآن : ١٧ .
- (١٩٠) - تأويل مشكل القرآن : ١٧ - ١٨ .
- (١٩١) - تأويل مشكل القرآن : ١٨ .
- (١٩٢) - تأويل مشكل القرآن : ٢٠ .
- (١٩٣) - تأويل مشكل القرآن : ص ٢١ .
- (١٩٤) - مجاز القرآن ١ / ١٨ - ١٩ .
- (١٩٥) - تأويل مشكل القرآن : ص ٢٠ .
- (١٩٦) - تأويل مشكل القرآن : ١٠٣ .
- (١٩٧) - تأويل مشكل القرآن : ١٠٣ - ١٠٤ .
- (١٩٨) - تأويل مشكل القرآن : ١٠٥ .
- (١٩٩) - تأويل مشكل القرآن : ١٠٦ .
- (٢٠٠) - تأويل مشكل القرآن : ١٠٩ = ١١١ .
- (٢٠١) - تأويل مشكل القرآن : ١٢٢ .
- (٢٠٢) - (Semantics) , by ; Manfred Bierwisch . In New Horizons in - Linguistics . P ١٦٩ .
- (٢٠٣) - مجاز القرآن ١ / ١٩ .
- (٢٠٤) - تأويل مشكل القرآن : ١٠٤ .
- (٢٠٥) - تأويل مشكل القرآن : ١٠٤ .
- (٢٠٦) - تأويل مشكل القرآن : ١٠٥ .
- (٢٠٧) - تأويل مشكل القرآن : ١٠٥ .

(٢٠٨) - تأويل مشكل القرآن : ١٣٥ . فسر د. يوسف مسلم أو العدوس هذا التعريف بأنه ينطبق على الجاز كلفظ لا سيما المرسل الذي من علاقاته السببية والمجاورة ، كما يرى أن ابن قتيبة يعتمد في الاستعارة على فكرة النقل . انظر : النظرية الاستبدالية للاستعارة ، ص ٣٦ .

(٢٠٩) - الحيوان ٣٢/٥ .

(٢١٠) - أسرار البلاغة ، ص ٢٨٢ .

(٢١١) - أسرار البلاغة ص ٢٨٢ .

(٢١٢) - تأويل مشكل القرآن : ١٣٥ .

(٢١٣) - تأويل مشكل القرآن : ١٣٦ - ١٣٧ .

(٢١٤) - انظر هذه المسألة في الموازنة للأمدي ، الجزء الثالث ، القسم الأول ، ص ١٣٧ .

(٢١٥) - بين ما كس بذلك أن الاستعارة تتجاوز الاختصار على كلمة واحدة ، وهي لا تعكس في الاستبدال ، ولكنها تحصل من التفاعل أو التوتر بين بؤرة الاستعارة (Focus of metaphor) والإطار المحيط به (The Frame of Metaphor) ، وهذا التفاعل يعتمد على نوع من التداخل الحيوي بين طرفيهما ، المستعار منه ، والمستعار له ، وتسمى هذه النظرية : نظرية التفاعل في الاستعارة . انظر : النظرية الاستبدالية للاستعارة ، ص ٤٧ .

(٢١٦) - تأويل مشكل القرآن : ص ١٠٤ .

(٢١٧) - تعد هذه الصيغة « كانت أمنا » استعارة ، لأن هذا النوع من التشبيه لا يصح معه الأداة ، فلا يصح أن نقول : الأرض مثل أمنا ، والشاعر يقصد ما تقدمه الأرض من وسائل الحياة وأسباب المعيشة ، وما تمدحه من المثوى بعد الموت ، فلامعنى لوجود وجه الشبه هذا بين الأم والأرض . انظر : أسرار البلاغية للجرجاني ، ص ٢٥٨ .

(٢١٨) - مجازات القرآن للشريف الرضي ، انظر على سبيل التمثيل ، ص ٣٠٢ .

(٢١٩) - الخصائص ٤٤٤/٢ .

(٢٢٠) - انظر مفهوم الجاز عند الجاحظ في : من الجاز الأسلوبى إلى الجاز

اللغوي .

- (٢٢١) - انظر مفهوم الحجاز عند ابن قتيبة في الحجاز اللغوي بعد الجاحظ .
- (٢٢٢) - الخصائص ٢ / ٤٤٦ ، ح ٤ .
- (٢٢٣) - نفسه .
- (٢٢٤) - الحيوان ٥ / ٢٣ .
- (٢٢٥) - الزمر ٦٧ .
- (٢٢٦) - الخصائص ٣ / ٢٥٢ .
- (٢٢٧) - الأنبياء ٧٥ .
- (٢٢٨) - الخصائص ٢ / ٤٤٥ .
- (٢٢٩) - أسرار البلاغة : ١٠٢ .
- (٢٣٠) - نفسه ٩٨ .
- (٢٣١) - انظر تحليل الجاحظ للمفهوم الحجاز .
- (٢٣٢) - الخصائص ٢ / ٤٤٤ .
- (٢٣٣) - الصاحبي ٣٢١ .
- (٢٣٤) - نفسه ٤٣٢ .
- (٢٣٥) - الصاحبي ٤٢٤ .
- (٢٣٦) - نفسه ٣٢٣ .
- (٢٣٧) - العمدة ١ / ٢٦٨ .
- (٢٣٨) - أصول الفقه : محمد أبو زهرة ٤ .
- (٢٣٩) - أصول الفقه : محمد أبو زهرة ٥ .
- (٢٤٠) - أصول الفقه : محمد أبو زهرة ٦ .
- (٢٤١) - أصول الفقه : محمد أبو زهرة ٦ .
- (٢٤٢) - بنية العقل العربي ، محمد عابد الجاهري ٤٥ .
- (٢٤٣) - نفسه ٥٥ .
- (٢٤٤) - المعتمد ٨ .
- (٢٤٥) - أصول الفقه : محمد أبو زهرة ١٠٦ .

- (٢٤٦) - بنية العقل العربي ٥٨ .
- (٢٤٧) - أصول الفقه ، محمد أبو زهرة ١٠٧ .
- (٢٤٨) - بنية العقل العربي ٥٨ - ٦٠ .
- (٢٤٩) - المزهري للسيوطي ١ / ٣٦٧ .
- (٢٥٠) - نفسه ١ / ٣٦٤ .
- (٢٥١) - المزهري ١ / ٣٦٥ .
- (٢٥٢) - نفسه ١ / ٣٦٥ - ٣٦٦ .
- (٢٥٣) - فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت ، ١ / ٢٠٣ - ٢٠٤ .
- (٢٥٤) - المزهري ١ / ٣٦٥ .
- (٢٥٥) - لم يهتم الأصوليون كثيراً ببحث المجاز في المركب ، وأقاموا قواعدهم على المجاز في المفرد ، وناقشوا مسألة المجاز العقلي من خلال آراء علماء البلاغة فيه ، انظر فواتح الرحموت ، ١ / ٢٠٨ - ٢٠٩ ، وإرشاد الفحول للشوكاني ٢٦ .
- (٢٥٦) - المزهري ١ / ٢٦٥ ، وقوله هذا المذهب مذهب الشافعية ، أما الحقيقة فيرون أن المجاز طريقة من طرق القول ، مثله مثل الحقيقة ، بنية العقل العربي ، ص ٥٩ .
- (٢٥٧) - فواتح الرحموت ١ / ٢٠٨ .
- (٢٥٨) - إرشاد الفحول ٢٦ .
- (٢٥٩) - نفسه ٢٣ .
- (٢٦٠) - انظر مفهوم المشكلة عند النحاة ، وفي الأساليب العربية في : المجاز وأثره في الدرس اللغوي ، ص ٢١٣ .
- (٢٦١) - إرشاد الفحول ٢٣ ، والآية في النص هي الآية ١١ من سورة آل عمران .
- (٢٦٢) - نفسه .
- (٢٦٣) - فواتح الرحموت ١ / ٢٠٧ .
- (٢٦٤) - نفسه ١ / ٢٠٧ - ٢٠٨ .

- (٢٦٥) - البرهان للزركشي ٢ / ٢٥٩ .
- (٢٦٦) - نفسه .
- (٢٦٧) - البرهان للزركشي ٢ / ٢٦٢ .
- (٢٦٨) - نفسه ٢ / ٢٦٣ .
- (٢٦٩) - نفسه ٢ / ٢٦٩ .
- (٢٧٠) - فواتح الرحموت ١ / ٢٠٣ .
- (٢٧١) - نفسه .
- (٢٧٢) - التفكير البلاغي عند العرب ٣٩٤ .
- (٢٧٣) - كتاب الحروف ١٤١ .
- (٢٧٤) - أرجع ابن سينا المشترك اللفظي في اللغة إلى أسباب عدة ، فرأى أنها ترجع إلى التشبيهات الاستعارية ، أو التذكر أو التبرك ، وهذه الأسماء المستعارة والمجازية إذا استقرت ففهم منها المعنى صار حكمها حكم المشتركة عند من يفهم معناها ، ومن أسباب وجوده أيضاً العموم والخصوص . الشفاء - المقولات : ١٢ - ١٥ .
- (٢٧٥) - كتاب الحروف ١٤١ .
- (٢٧٦) - نفسه .
- (٢٧٧) - تلخيص ابن رشد لكتاب الشعر ، فن الشعر لأرسطو ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، ص ٢٤٢ .
- (٢٧٨) - النكت في إعجاز القرآن ، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، ص ٨٦ ، والطراز ١ / ٦٤ ، ومفتاح العلوم ١٥٣ ، والمطول للسعد ٣١٩ .
- (٢٧٩) - دلائل الإعجاز ٤٣٠ .
- (٢٨٠) - أسرار البلاغة ٣٠٤ .
- (٢٨١) - أسرار البلاغة ٣٠٣ ، والمجاز في التركيب هو المجاز العقلي .
- (٢٨٢) - نفسه ٣٠٤ .
- (٢٨٣) - نفسه ٤١ .
- (٢٨٤) - أسرار البلاغة ٣٠٤ - ٣٠٥ .

- (٢٨٥) - أسرار البلاغة ٣٠٥
- (٢٨٦) - أسرار البلاغة ٣٤ .
- (٢٨٧) - أسرار البلاغة ٣٥ :
- (٢٨٨) - الإيضاح للحطيب القزويني ٢ / ٤٠٧ .
- (٢٨٩) - الطراز للعوي ١ / ٢٢٩ .
- (٢٩٠) - نفسه .
- (٢٩١) - الإيضاح ٢ / ٤٠٧ .
- (٢٩٢) - أسرار البلاغة ٣٤ .
- (٢٩٣) - أسرار البلاغة ٣٤ .
- (٢٩٤) - أسرار البلاغة ٣٦ .
- (٢٩٥) - الطراز ١ / ٢٣٢ .
- (٢٩٦) - مفهومها أنك تثبت الأمر للمشبه .
- (٢٩٧) - الإيضاح ٢ / ٤٤٤ .
- (٢٩٨) - أسرار البلاغة ٤١
- (٢٩٩) - أسرار البلاغة ٤١ .
- (٣٠٠) - أسرار البلاغة ٤٦ .
- (٣٠١) - أسرار البلاغة ٤٧ .
- (٣٠٢) - الأعراف ١٥٧ .
- (٣٠٣) - أسرار البلاغة ٤٥ .
- (٣٠٤) - النظرية الاستبدالية للاستعارة ، ص ١١ .
- (٣٠٥) - نفسه .
- (٣٠٦) - إعجاز القرآن ، ثلاثة رسائل في إعجاز القرآن ٨٥ .
- (٣٠٧) - نفسه ٨٦ .
- (٣٠٨) - دلائل الإعجاز ٤٣١ .
- (٣٠٩) - نفسه ٤٣٢ .
- (٣١٠) - نفسه .

- (٣١١) - الإيضاح ٢ / ٤٤٤ .
- (٣١٢) - دلائل الإعجاز ٤٣٦ .
- (٣١٣) - نفسه ٤٣٧ .
- (٣١٤) - البيان والتبيين ١ / ١٥٣ .
- (٣١٥) - انظر الخصائص لابن جني ٢ / ٤٤٤ ، وما بعدها .
- (٣١٦) - أسرار البلاغة ٣٠٥ . وأشار ابن جني إلى أننا يمكن أن نعني بكلمة «اليد» القوة ٢٥٢/٣ .
- (٣١٧) - نفسه .
- (٣١٨) - الزمر ٦٧ .
- (٣١٩) - أسرار البلاغة ٣٠٩ .
- (٣٢٠) - أسرار البلاغة ٣٠٩ .
- (٣٢١) - - أسرار البلاغة ٣٠٩ .
- (٣٢٢) - أسرار البلاغة ٣١٠ .
- (٣٢٣) - المثل السائر ١ / ٣٥٦ .
- (٣٢٤) - الطراز ١ / ١٩٧ .
- (٣٢٥) - أسرار البلاغة ٣١٦ .
- (٣٢٦) - أسرار البلاغة ٣١٧ .
- (٣٢٧) - أسرار البلاغة ٣١٦ .
- (٣٢٨) - أسرار البلاغة ٣٢٠ .
- (٣٢٩) - أسرار البلاغة ٣٣٧ .
- (٣٣٠) - أسرار البلاغة ٣٢٢ .
- (٣٣١) - الإيضاح ٢ / ٤١٧ .
- (٣٣٢) - نفسه ٢ / ٤١٧ - ٤١٨ .
- (٣٣٣) - النحل ٩٨ .
- (٣٣٤) - مفتاح العلوم ١٥٦ ، والإيضاح ٢ / ٤٠٢ .
- (٣٣٥) - أسرار البلاغة ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٣٣٦) - أسرار البلاغة ٣٥٠ .

(٣٣٧) - مفتاح العلوم ١٥٤ .

(٣٣٨) - نفسه .



الخاتمة

عاشت اللغة العربية حياة مديدة منذ أن نشأت وإلى يومنا هذا، وما بقاؤها حية يتكلم بها الناس ، ويكتبون بها علومهم وأفكارهم وهواجس أنفسهم وفيض وجدانهم إلا دليل قدرتها على الاستمرار ، وبرهان قوتها على البقاء ، وهي التي تعرضت لما لم تتعرض له لغة أخرى في العالم ، تكلمت بها أقوام عديدة غير عربية، وأزالت عجمتهم بعض صفاتها ، وحاول الحاقدون تشويهها، أو قل : موتها ، ولكنهم لم يفلحوا ، وكانوا أمام صخرة لا تؤثر فيها الأيام ، ولا تغض من عظمتها السنون .

ومن يتتبع رحلتها عبر العصور يروعه ماستطاعته من تكيف مع مستجدات الأحداث ، ويدهشه ما كانت عليه من مرونة لتصبح أداة الأدب ، ولغة القرآن الكريم ، ووسائل التعبير في العلم على اختلاف اتجاهاته وفروعه ، ولسان الفلاسفة عبر الزمن .

ويبدو البحث عن قدرة العربية على البقاء بحثاً في «حيويتها»، ودراسة لحياتها وتطورها وتقريباً لخصائصها المميزة لها عن بقية اللغات ، ولأريب أن دراسة اللغة بكل ما فيها من خصائص أمر يستحيل على فرد ، ويقع في الأوهام لو حاولناه في كتاب .

ولما كان الأمر كذلك كان لابد من أن تدرس اللغة وفق اتجاه يجمع أطراف الموضوع ، ويبين عن أكثر الظواهر تعبيراً عنها ودلاً على خصائصها ، فكل لغة ميزات تظهر تفردها ، والبحث عن ظاهرة تميز العربية ليس بالأمر العسير ، فهي ذات ملامح خاصة ،

ولكن الدراسات المتعددة التي جعلت هذه اللغة موضوعاً لها درست العديد من الظواهر ، وبقيت الظواهر الدلالية في حاجة إلى مزيد من البحث ، ذلك أن العربية تمتلك من المقدرة الدلالية ما يعفي على مقدرة كثير من اللغات .

وليست الدلالة في العربية أمراً معزولاً عن جسد اللغة كله ، فهي لغة «حية» ، وفهمنا لهذه الكلمة يجعلنا نرى في الدلالة سمة تتصل بغيرها ، فلا يصحّ عزلها عن التركيب ، وما فيه من تجلٍ لوظائف المفردات ، وقد تفرّدت العربية بظاهرة المحافظة على الإعراب ، فهو صلب اللغة ، به تتحدد مواقع المفردات في التركيب ، وتظهر وظائفها ، وتنكشف دلالاتها ، ولا يصحّ إفراد المفردات عن بنيتها ، ففهم العربية يؤول إلى معرفة خصائصها الصرفية ، وإدراك دلالة الصيغة الصرفية على المعنى .

وتتحلى بذلك أساليب درس اللغة العربية ، فهي أساليب تقوم على منهج «تكاملي» ، لا يصل دارسها إلى نتائج مرضية من غير أن يقيم بحثه على هذا المنهج ، وإلا ضاعت جهوده هباء ، ولم يحصل غاية .

فإذا ما نظرنا إلى العربية من حيث آراء دارسيها وجدنا في ظاهر الأمر تفرّغاً وتشتيتاً ، فقد تشعبت هذه الدراسات بتشعب الآراء والمذاهب ، وذلك أن العربية ليست لغة كلام وأدب ، وإنما هي لغة دين وحياة .

بيد أن من يتعمّق هذه الآراء ، ويجمع أشقاتها ، ويبني آخرها على أولها ، وسابقها على لاحقها ، يخرج بنتيجة مفادها أن الآراء والمذاهب فروع على شجرة جذرها ممعن في الامتداد ، وليس ثباتها إلا حصيلة استنادها إلى أصول واحدة صدر عنها الدارسون ،

ومتحوا منها آراءهم ، فإذا التفرّع يؤول إلى الأصل ، وإذا التعدّد دليل حياة وغنى ، فقد صدر الجميع عن منهل واحد ، هو القرآن الكريم ، عليه أقاموا مناهجهم ، ومن خلاله تعدّدت أراؤهم ، وكانوا في ذلك مستنيرين بما أصّله نبي الأمة صلى الله عليه وسلم ، وصحابته رضوان الله عليهم ، ومن سار على نهجهم من المفسرين ، كابن عباس .

وكان لوجود النص اللغوي في أعلى مراحل صياغة وقدرة على التعبير أثر فيما أنجز من دراسات ، فلم يكن الدارسون في حاجة إلى افتعال الصياغة المثلى ، أو تمحّل الدلالات ، فقد وجدوا بين أيديهم مادة البحث مهيأة ، وقد دعتهم إلى دراستها ، وحثتهم على معرفة أسرارها وخصائصها ، فجمعوا اللغة لفهم النص القرآني الكريم ، ودوّنوا الشعر في مصنفاتهم ليستدلّوا به على النص ، ومن ثم صارت اللغة ذاتها ، والشعر نفسه موضوع بحثهم إضافة للنص القرآني الكريم .

فبدأ الدارسون من بداية الأمر يعملون منهجهم الخاص الذي يتسق مع طبيعة البحث في النص ، وهو المنهج التحليلي التفسيري ، فكان للإشارات التي وردت عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصحابته عظيم الأثر في انطلاقة هذا المنهج ، ومن ثم تفرّع الدارسون له ، وأقاموا له قواعده ، فكان لديهم منهج المقايسة النصيّة واحداً من المناهج الأكثر قدرة على فهم الدلالات ، وكل ذلك دخل ضمن التفسير الذي تفرّع عنه التأويل من بعد ، فكان منهج التفسير شاملاً ، يظلّل المناهج المتفرّعة عنه ، كما يدلّ بقواعده على طرائق التحليل المختلفة التي نهجت سبلها في تحليل النص القرآني والأدب على حدّ سواء .

وليس لدارس اللغة العربية ، وهي اللغة العريقة ، والموغلة في القدم ، محيد عن النظر إليها وفق نظرة تاريخية تراعي تطورها ، وتصفه في سياقها الزمني ، فتلاحظ تفتح المناهج ، وتكاملها ، وتغير الدلالات وتبدلها عبر مسيرة الزمن . ولذلك كان لا بدّ من اللجوء إلى المنهج التاريخي في الدرس ، لكنه ليس عمدته ، وظاهر أمره ، إنما يشفّ عنه المنهج ، ويؤول إليه ويحتكم حين تدعو الحاجة لإظهار الفروق ، وتبيان الخصائص تبعاً لتغير الزمن .

فكان ذلك كله داعياً إلى تطبيق المنهج التحليلي التفسيري على النصوص ، فلم يكن هنالك محيد عن الأخذ بالنص واستنباط الأحكام منه ، ومقارنتها بأحكام نصوص سابقة ، فحاولت في الدراسة أن يكون ما أتحدث عنه من منهج مطبقاً في البحث نفسه ، وقد أثبت هذا المنهج قدرته على استنباط النصوص ، والدخول إلى بواطنها ، واستكناه أسرارها ودلالاتها ، فزودني بطريقة علمية وقفتني على خصائص للمفردات ، وآراء مبثوثة في الدراسات القديمة ، لم أكن لأستطيع الوصول إليها لو لم أعمل فيها بمنهج التحليل والتفسير ، ولا يعني ذلك أنني كنت أفسر النص بقسره ليدلّ على فكرة مسبقة ، وإنما كنت أحاول أن أتبين دلالاته بطرائق مختلفة ، فإنهم السياق وأتبين غالباً دلالة مصطلحاته ، لأن المصطلح غالباً ما يوحى بالمضامين الفكرية التي اختصرها ، وفهم المصطلح في سياقه الزمني ، وفق ما كان يفهمه أصحابه منه يؤدي إلى معرفة المقصود من النص ، ويسهل استنباط الأفكار منه .

ولم أكتف بذلك ، بل لجأت إلى ربط النصوص بعضها ببعض لأتبين بالمقارنة طرائق العرب في تفكيرهم اللغوي عبر التاريخ ، وتجلت لي نتائج عظيمة الأهمية ، فتبين لي المنهج الواحد الذي يصدر عنهم ، ووضع يديّ على الإضافات التي ألحقت بالمنهج

جيلاً بعد جيل ، وذلك وفق تغيّر العصر ، بما فيه من ثقافة واتساع في الرؤية . والأمر الذي يحصّله قارئ البحث أن الدراسة هدفت إلى دراسة طبيعة التفكير اللغوي عند العرب منذ بدء الدراسات اللغوية إلى القرن السادس الهجري ، وهي الفترة التي أضحت فيها هذه الدراسات عالة على ماسبق .

ومن ناقلة الحديث ، الإشارة إلى أن هذا البحث ، قد وصل في نتائجه إلى مسألة مهمة ، ملخصها أن جهود لغويينا ، وإن تساندت إلى اللغة العربية ، لها امتداد إنساني يصلح لأن يكون قاعدة لدراسة لغات إنسانية أخرى ، فقد أرسى هؤلاء اللغويون قواعد لدراسة الدلالة ، وضعوا معايير مهمة لفهم طبيعة اللغويين واختلافها عن الكلام ، وبيّنوا رأيهم في معضلات لغوية كثيرة بدءاً بنشأة اللغة ، وانتهاء بمشكلات الحقيقة والمجاز ، فقارنت الدراسة بين آرائهم وآراء المعاصرين ، عرباً وغربيين ، ولم يكن ذلك لتحسين صورة الدرس اللغوي العربي بقدر ما كان إضاءة لآراء الغربيين ، وهم في معظمهم أغفلوا الدراسات اللغوية العربية ، وانطلقوا من البدايات ليؤسسوا لأنفسهم علماً لغوياً خاصاً ، وفي دراساتهم العربية حلول لمعضلات لغوية عديدة ، يجدر بهم الإفادة منها ، ولذلك لم أرتض أبدأ أن توجه دراساتي العربية باتجاه آرائهم ، فلم أحفل بما فسّروا به المجاز على أنه انحراف عن التعبير الأصيل ، وإنما وجهت دأبي لاكتشاف نظرية العرب في المجاز ، القائمة على التوسع الدلالي ، وهي النظرة التي لا تلغي الإنسان أو الواقع المحيط به في الدرس اللغوي .

تلك كانت الصورة العامة للبحث من غير تفاصيل ، وقد تكونت هذه الصورة من نتائج عامة ، لها صلة بالنظرة إلى اللغة والمنهج الذي درست به نصوص اللغويين ، بيد أن هناك نتائج

وصلت إليها الدراسات الفرعية ضمن الفصول الخمسة التي اشتمل عليها البحث .

- اللغة والكلام : درج الباحثون المعاصرون على نسبة مسألة القسمة الثنائية في علوم اللغة «اللغة والكلام» إلى دوسوسير، وأقاموا حول ذلك ضجة كبرى ، تمثلت في وجود دراسات حول الفروق بين اللغة والكلام في كل كتاب يبحث في علم اللغة من وجهة معاصرة.

ولم يكن أحد يلتفت إلى ما في تراثنا اللغوي من غنى ، أحله مكانة عالية في الدراسات اللغوية ، فكان لابد من إزالة اللبس ، ونسبة الفضل إلى أهله ، فدرست اللغة من حيث نشأتها ومصطلحها له دلالة خاصة على اللهجة ، وتابعت تطور الدلالة واتساعها لتصل اللغة إلى مفهوم يدل على مانعرفه اليوم من أمر اللغة من أنها مجموعة الأصوات الدالة على معنى معين ، وهي التي يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، وقد بينت تفردها عن الكلام ، وناقشت مسألة الكلام نفسه ، وأظهرت اختلافات القوم فيه وفق اختلافهم في تفسير الآيات الكريمة ، ذلك أن النزعة الدينية في علم اللغة العربي واضحة في كل ماكتبه دارسوه ، وكان اعتمادي في ذلك على مآقرره المفسرون واللغويون والبلاغيون وعلماء أصول الفقه ، لأنهم جميعا تعاوروا الفكرة ، وأضافوا إليها ما يغنيها .

ولم تكن مسألة نشأة اللغة بعيدة عن ذلك كله ، فهي وإن كانت في عرف الدارسين المعاصرين من القضايا الوهمية التي لاتستحق عناء ، تبدو في تاريخ العربية مما يفسر كثيراً من ظواهر اللغة وقضاياها ، ومما يوضح آراء علمائنا فيها ، فتوجيه اللغة إلى تفسير نشأتها بأنها إلهام ووحى أقرب إلى الحجر على اللغة ، وأدعى

لأن يحدّد ذلك من حرية التعبير والإبداع بها ، وتوجيهها إلى مسألة التواضع واستئناف المواضعة أذهب في مسالك التبدل الدلالي ، وأدخل في موضوع الإبداع ، ولم يكن بحث القوم في هذه المسألة من قبيل إلقاء الكلام على عواهنه من غير أن تكون لهم آراء مقنعة ومبادئ يصدرّون عنها ، وإنما كانت لهم براهينهم وأدلتهم ، فانشعبوا في ذلك أقساماً ، وتبدّى في هذا التنوع روح الفكر العربي الأصيل الذي لا ينقض بعضه بعضاً ، وإنما يساوق الضدّ ضدّه ، فلا يلغيه ، ولا يحجر عليه ، بل يحاجّه ، ويدحضه ، وما كان لهذا الحجاج أن يذهب جفاء ، فقد انتهى إلى رأي قرّ على التمييز بين اللغة الأولى ، واللغة المستعملة ، فاستنّ الخلاف في النشأة الأولى ماضياً ، وزال أو كاد في اللغة المستعملة .

الحقيقة اللغوية : أمعنت الدراسات المعاصرة في التحامل على لغويننا وبلاغييننا ، الذين أقرّوا بمسألة الأصل ، والوضع الأول ، سواء أكان ذلك في التركيب أم في المفردة ، ورأوا أنها قسمة مخففة ، وكان أكثر المتحاملين شدة الدكتور رجاء عيّد في كتابه : (البلاغة بين التقنية والتطوّر) وقد سفه فيه آراء علمائنا ، ودلّ كلامه على المسألة أنه اقتصر في النظر على دراساته المتسرّعة للبلاغة العربية ، وما قرّاه في علوم الغربيين . فكان لابدّ من إعادة النظر في هذه المسألة ودراستها وفق اتجاهين ، أحدهما : الاتجاه العربي التراثي ، والآخر : اتجاه النظريات الغربية المعاصرة في الحضارة واللغة والفلسفة ، وما كان ذلك إلا لإضاءة بعض الأفكار ، وتبيان أهمية النظريات التراثية في حلّ معضلات اللغة . وقد تمّ درس هذه الظاهرة من خلال مسألة نشأة اللغة ، وقضية ثنائية اللغة والكلام ، مما جعل تفرّعات النظرية اللغوية العربية تلقى في سبيل واحد ، وكان لابد لفهمها من دراسة

الدلالة، وفهم العرب إياها ، ومن ثم دراسة مسألتي الأصل والمعنى، وقد كان التمهيد بهاتين المسألتين لقضية الحقيقة اللغوية مؤثراً في فهمها ، ذلك بأن دراساتنا اللغوية بكل فروعها قامت في دراسة الحقيقة على هاتين المسألتين ، وقد ربطت في الدراسة بين الواقع واللغة ، وأبنت رأي علمائنا في مسألة تعبير اللغة عن الواقع ، ومسألة تعبيرها عن الواقع الذهني ، أو العكاس الواقع في الذهن . وبينت طريقة علمائنا في فهم دلالة التركيب ، ودلالة المفردات بإرجاعها إلى الأصل ، وهو الصورة الأولى للتعبير ، حيث المفردات رموز لمعان محددة لجد معادها في الواقع ، فيعاد التركيب إلى أصله مجرداً من مرونته بسبب الإعراب ، فتحمل الألفاظ أماكنها في التركيب كما هي في نشأة المعاني في النفس ، وهي المعاني الأولى التي يعبر عنها بالألفاظ ، ووجدت أن دلالة المفردات ترجع إلى أصلها بمعنى إعادتها إلى صورتها الدلالية الأولى قبل أن تتحول بفعل المتكلم إلى دلالات أخرى وفق طريقة الاتساع . وقد وجدت أن فكرة اللغة والواقع ماثلة في ذهنان لغويين وقارة لهما ، ويتم التعبير باللغة من خلال اتصالها بالواقع ، وتداعياته إلى ذهن المتكلم ، فتدرجت دلالات المفردات في الذهن قبل أن يلفظ بها لتصل في النهاية إلى صورتها المجازية ، كذلك يحدث الأمر نفسه في التركيب، فرصدت هذه التحولات الدلالية من الأصل إلى الفرع ، مستأنسا في ذلك بما حلله البلاغيون واللغويون من تراكييب ومفردات ، ولذلك اعتمدت في هذه المسألة على الدراسات النفسية المعاصرة لتبيان طريقة هذه التداعيات ، وأسست بهذا المسألة أكثر تعقيداً هي مسألة الاتساع.

حيوية اللغة: لم أشأ أن أجعل المجاز ظاهرة الخيوية المفردة ، فكان لابد من إيضاح أن قضية المجاز تقع ضمن مظاهر حيوية اللغة العربية غير نائية عنها ، فالعربية لغة الحياة ، وقد سوغ كونها

كذلك ما اتصفت به من خصائص هي أدخل في بنيتها الداخلية ، فقد تساندت العربية إلى أسس ساعدتنا على التطور الدائم من جهة ، وعلى تحول دلالاتها وتبدلها من جهة أخرى ، فعلقت هذه الظاهرة بدراسة لأهم ما تتميز به حيوية العربية كالاشتقاق والتضمين والقدرة على مواكبة العصر وتغير الزمن من تحول في دلالة المفردات ، وكان ذلك محصلة لمسألة الحقيقة اللغوية التي تعني الدلالة الثابتة ، أما الحيوية فتعني الدلالة المتغيرة .

المجاز : وجدت أن المجاز من أبرز مظاهر حيوية اللغة ، لأنه التعبير الفني عن الأفكار ، به تسمو الدلالات بتغير السياق الذي يصطنعه المتكلم ، غير أن مرحلة جديدة مرت بها العربية صار التجول إلى النص فيها ضروريا ، وقد دلت هذه المرحلة على نضج التفكير العربي ، ووصوله إلى معرفة قيمة النص المكتوب ، فدرست أهمية النص ، وتحول الكلام إليه ، وتحويل الدارسين عليه في استنباط الأحكام وتقرير المسائل ، وبيّنت أن الدراسات اللاحقة لاكتشاف قيمة النص تقوم على فهمه وتحليله ، فكانت قواعد المجاز مستنبطة من أمرين ، هما : الكلام والنص ، ووضعت قواعد لدراسة النص العربي استمدتها من علماء أصول الفقه والبلاغيين ، وكانت هذه القواعد قائمة على منهجي التفسير والتأويل ، فبهما حددت الدلالات داخل النص ، وعرفت وظائف الكلمات في سياقها ، وكشفت أصولها ، وميزت حقيقتها من مجازها .

ولما كان النص موضوع بحث متفردا فإن دراسة كتاب يقوم على قواعد تحليل النص العربي أمر بالغ الأهمية ، فدرست محلا كتاب أبي عبيدة «مجاز القرآن» ، وكشفت عن فهم مؤلفه لقواعد التحليل .

وخرجت من ذلك بنتيجة مهمة مؤداها أن دراسة النص كانت وفق نظرية أسلوبية إستنبط علماؤنا معاييرها ، وأطلقوا عليها اسم «الجاز» ، فدرست الجاز على أنه بحث في الأسلوب العربي يقوم على ما قدمته في الفصول السابقة من إدراك لحقيقة اللغة وتميزها عن الكلام ، ووعي لحرية المتكلم في صياغة مفرداته وابتداع أسلوبه وفق قواعد اللغة المتوارثة ، وفهم لطبيعة الدلالة في التركيب والمفردة من حيث دلالة كل منهما. على المعنى الأول أو تغير الدلالة في النسق بفعل المتكلم أو صانع النص .

وميزت الدراسة بهذه الطريقة بين ما أسميته «الجاز الأسلوبية» و «الجاز اللغوي» ، وجعلت الجاز الأسلوبية قاعدة الجاز اللغوي ، منه نشأ ، وظهر بعد أن أصبحت الدراسات الأسلوبية تغني بحريات الأسلوب ، فتحدثها ، وتظهر معاييرها ، وكان من نتيجة ذلك أن بدأ التحول إلى دراسة الجاز اللغوي بالتدرج ، فقد كانت الدراسات النصية الأولى تشير إليه ، وتعبر عن فهمه بالتحليل ، ويُنْت أن هذا أخص صفة تتميز بها الدراسات العربية ، وقد ساعد منهج التحليل على أن تكون للفكر العربي سماته المميزة ، فصار مع منهج «الحد» معيار المعرفة .

وقد أظهرت الدراسة أهمية الجاحظ في تخلص الجاز اللغوي من الجاز الأسلوبية ، وخلصت إلى نظرة جديدة إلى فكر الجاحظ ، وقرأت كتبه قراءة مستحدثة أزعج أنها تبين فكر الجاحظ على حقيقته ، فقد عمدت فيها إلى ربط النصوص بعضها ببعض ، وكشفت عن طبيعة تفكير الجاحظ الذي يؤول إلى وصل اللغة بالواقع ، فتبدى الجاز لديه تعبيراً عن الاتساع البدلالي ، واشتقاقاً

للمعاني وفق اتساع النظرة إلى الواقع ، وفهم ارتباطات أجزائه ، وعلاقاتها بعضها ببعض .

ثم تابعت فكرة وحدة التفكير العربي من خلال ربط التحول من النص إلى المفردة في الدراسات النصية القديمة والدراسات التي اعتمدت عليها على اختلاف اتجاهاتها اللغوية والبلاغية ، وبيّنت أثر أبي عبيدة والجاحظ في اللغويين كابن قتيبة وابن جني وابن فارس ، فكشفت عن صورة المجاز لدى هؤلاء .

وأتبعت هذا الأمر بدراسة للمجاز عند الأصوليين الذين اشتغلوا بقواعد استنباط الأحكام والأدلة ، وقام ببحثهم على «الحذ» لاستنباط الحكم من الدليل ، فكان عملهم إضافة جديدة للاتجاه نحو حدّ المجاز اللغوي وتبيان معايير وتحليصه من المجاز الأسلوبى ، وقد آل ذلك كله إلى البلاغيين والفلاسفة الذين تأثروا ببعضهم ببعضهم الآخر ، فأسسوا مفهوم المجاز اللغوي على أنه مفهوم منفصل بقواعده ، وأقاموا على قاعدة ثنائية الدلالة «الحقيقة والمجاز» .

تلك صورة البحث ، وأهم نتائجه ، ومضامينه ، وقد حاولت فيها أن أظهر الفكرة النازمة لفصله ، وأن أبيّن أسباب اتخاذ الطرائق التي انتهجتها وسيلة للوصول إلى ماتصوّره في ذهني من قراءة مستفيضة لفكرة المجاز ومعايره ومفاهيمها لدى العرب .

مراجع البحث

- ١ - اتفاق المباني وافراق المعاني ، سليمان بن بئين الدقيقي النحوي ، تحقيق يحيى عبد الرؤوف جبر ، دار عمار ، عمان ، الطبعة الأولى ١٤٠٥ م ١٩٨٥ .
- ٢ - الاتفاقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي ، دار الفكر ، لبنان ، طبعة مصورة .
- ٣ - أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي ، أبو عمر بن العلاء ، د. عبد الصبور شاهين ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٧ م .
- ٤ - الأحاجي النحوية ، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، تحقيق مصطفى الحدي ، مطبعة الغزالي ، حماه .
- ٥ - الاحكام في أصول الاحكام ، سيف أبو الحسن علي بن أبي علي محمد الآمدي ، راجعها ودققها جماعة من العلماء باشراف الناشر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٠ .
- ٦ - الأحكام في أصول الاحكام ، أبو محمد علي بن حزم الأندلسي الظاهري ، تقديم وتصحيح محمد أحمد عبد العزيز ، مكتبة عاطف ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ ، ١٩٧٨ م .
- ٧ - ارتقاء القيم (دراسة نفسية) ، د. عبد اللطيف محمد خليفة ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، العدد (١٦٠) ، رمضان ١٤١٢ هـ ، نيسان ١٩٩٢ م .
- ٨ - إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ، محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، دار الفكر ، لبنان ، طبعة مصورة .

- ٩ - أساس البلاغة ، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، عرف به: أمين الخولي ، دار المعرفة ، بيروت ١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م .
- ١٠ - أسرار البلاغة في علم البيان ، عبد القاهر الجرجاني ، صححه الشيخ محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م .
- ١١ - الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة ، د . مصطفى سوييف ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١ .
- ١٢ - الأسلوبية منهجاً نقدياً ، محمد عزام ، وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٨٩ .
- ١٣ - الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع الجاز ، عز الدين بن عبد السلام «أبو محمد عز الدين عبد العزيز» ، طبع المطبعة العامة ، ١٣١٣ هـ .
- ١٤ - الأشباه والنظائر في النحو ، جلال الدين السيوطي ، الجزء الأول ، تحقيق عبد الاله نبهان ، الجزء الثاني ، تحقيق غازي مختار طليمات ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٦ م .
- ١٥ - الاشتقاق والتعريب ، عبد القادر بن مصطفى المغربي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٣٦٦ هـ ، ١٩٤٧ م .
- ١٦ - الأصوات اللغوية - د . ابراهيم أنيس ، مكتبة الانجلو المصرية ، دار وهدان ، القاهرة الطبعة الخامسة ١٩٧٩ م .
- ١٧ - الأصول - (دراسة ايستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي) ، د . تمام حسان ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م .
- ١٨ - أصول الفقه ، محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي ، لقاهرة ١٩٥٨ .
- ١٩ - الأصول في النحو ، أبو بكر محمد بن السراج النحوي البغدادي ، تحقيق د . عبد الحسين الفتلي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م .

- ٢٠ - الافصح في شرح أبيات مشكلة الاعراب ، أبو نصر الحسن بن أسد الفارقي ، حققه وقدم له سعيد الأفغاني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٠ م .
- ٢١ - الافصح في فقه اللغة ، عبد الفتاح الصعيدي ، وحسين يوسف موسى ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٤٨ هـ ، ١٩٢٩ م .
- ٢٢ - الاقتراح في علم أصول النحر ، جلال الدين السيوطي ، مطبعة دار المعارف النظامية ، حيدر آباد الدكن ، ١٣١٠ هـ .
- ٢٣ - الألسنية ، علم اللغة الحديث ، (مبادئها وأعلامها) ، د. ميشال زكريا ، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٨٠ م .
- ٢٤ - الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية ، (الجملة البسيطة) ، د. ميشال زكريا ، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م .
- ٢٥ - الألفاظ المستعملة في المنطق ، أبو نصر الفارابي ، حققه وقدم له وعلق عليه محسن مهدي ، دار المشرق ، بيروت ، الطبعة الثانية .
- ٢٦ - الأمالي ، أبو علي إسماعيل بن القاسم القلي ، منشورات المكتب الاسلامي ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية .
- ٢٧ - أمالي المرتضى ، غرر الفوائد ودرر القلائد ، الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار احياء الكتب العربية ، عيسى البسابي الحلبي وشركاه ، الطبعة الأولى ١٣٧٣ هـ ، ١٩٥٤ م .
- ٢٨ - الأمالي النحوية (أمالي القرآن الكريم) ، ابن الحاجب ، تحقيق هادي حسن حمودي ، عالم الكتب ، مكتبة النهضة العربية ، ١٩٨٥ م .
- ٢٩ - الامتاع والموانسة ، أبو حيان التوحيد ، صححه وضبطه وشرح غريبه : أحمد أمين ، وأحمد الزين ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، طبعة مصورة .

- ٣٠ - الانصاف فيما تضمنه الكشف من الاعتزال ، ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الاسكندري (في حواش الكشف) ، طبع دار المعرفة ، بيروت ، طبعة مصورة .
- ٣١ - الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين ، كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن محمد بن أبي سعيد الأنباري النحوي ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ١٣٨٠ هـ ، ١٩٦١ .
- ٣٢ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، (تفسير البيضاوي) ، عبد الله بن عمر محمد البيضاوي ، طبع مكتبة الجمهورية المصرية ، ١٣٨٠ هـ .
- ٣٣ - أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، جمال الدين بن هشام الأنصاري ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة السادسة ١٩٧٤ .
- ٣٤ - الإيضاح في علل النحو ، أبو القاسم الزجاجي ، تحقيق د. مازن المبارك ، دار النفائس ، بيروت ١٩٨٢ .
- ٣٥ - الإيمان ، شيخ الاسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية الجرائسي ، عني بتصحيحه السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي ، مطبعة السعادة ، مصر ، الطبعة الأولى ١٣٢٥ هـ .
- ٣٦ - الايضاح في علوم البلاغة ، محمد بن عبد الرحمن بن عمر الخطيب القزويني) ، شرح وتعليق وتنقيح د. محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، الطبعة السادسة ١٤٠٥ ، ١٩٨٥ م .
- ٣٧ - ايضاح الموقف والابتداء في كتاب الله ، أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري ، تحقيق د. محي الدين عبد الرحم رمضان ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٩٧١ .
- ٣٨ - البديع ، عبد الله بن المغتر بن المتوكل بن المعتصم ، تحقيق اغناطيوس كراتشفوفسكي ، طبع لندن ١٩٣٥ .
- ٣٩ - البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، مصر ،

- الطبعة الثانية، ١٩٧٢ م.
- ٤٠ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (٥.د).
- ٤١ - البلغة في تاريخ أئمة اللغة، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٣٩٢ هـ، ١٩٧٢ م.
- ٤٢ - بنية العقل العربي، د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت الطبعة الثالثة ١٩٩٠ م.
- ٤٣ - البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجليل، دار الفكر، بيروت.
- ٤٤ - تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، المطبعة الخيرية الجمالية، مصر ١٣٠٦ هـ.
- ٤٥ - تاريخ اللغة وصحاح العربية «الصحاح»، اسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ، ١٩٥٩ م.
- ٤٦ - تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، ترجمة د. عبد الحليم النجار، ود. رمضان عبد التواب، دار المعارف القاهرة.
- ٤٧ - تاريخ النقد الأدبي عند العرب (الشعر)، د. احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٨ م.
- ٤٨ - تاريخ النقد الأدبي عند العرب (من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري)، طه أحمد ابراهيم، دار الحكمة، بيروت.
- ٤٩ - تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة، القاهرة ١٣٨٩ هـ، ١٩٧٠ م.
- ٥٠ - تأويل مشكل القرآن، عبد الله بن مسلم بن قتيبة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠١ هـ، ١٩٨١ م.
- ٥١ - التأويل النحوي في القرآن الكريم، عبد الفتاح أحمد الحوز، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٤ م.
- ٥٢ - التفسير في علم التفسير، جلال الدين السيوطي، دار الكتب

العلمية، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م .

٥٣ - تحرير التنبيه ، محي الدين أبو زكريا بن شرف النووي الدمشقي الشافعي، تحقيق د. فائز الداية - و د. رضوان الداية ، دار الفكر المعاصر ، بيروت .

٥٤ - تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) ، د. محمد مفتاح ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، الطبعة الثانية ١٩٨٦ .
٥٥ - التسهيل ، ابن مالك ، تحقيق محمد مالك بركات ، وزارة الثقافة ، القاهرة ١٩٦٨ م .

٥٦ - التعبير الاصطلاحي ، د. كريم زكي حسام الدين ، مكتبة الانجلو المصرية، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م .

٥٧ - التعريفات ، علي بن محمد بن الشريف الجرجاني ، مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٧٨ م .

٥٨ - تفسير أرجوزة أبي نواس ، أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق محمد بهجة الأثري ، منشورات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، الطبعة الثانية .

٥٩ - تفسير البحر المحيط ، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٣ م .

٦٠ - تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير) ، محمد الرازي فخر الدين بن عمر خطيب الري ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م .

٦١ - تفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار ، الاستاذ الامام محمد عبده، تأليف السيد محمد رشيد رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣ .

٦٢ - تفسير مجاهد ، أبو الحجاج مجاهد بن جبر ، قدّم له وعلق حواشيه عبد الرحمن بن الطاهر بن محمد السورتي ، طبع على نفقة أمير قطر ، الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ ، ١٩٧٦ م .

- ٦٣ - التفكير البلاغي عند العرب ، أسسه وتطوره إلى القرن السادس ،
(مشروع قراءة) ، حمادي صمود ، منشورات الجامعة التونسية ، كلية
الآداب والعلوم الانسانية ، السلسلة السادسة ، الفلسفة والآداب ،
مجلد عدد ٢١ ، ١٩٨١ .
- ٦٤ - التفكير اللساني في الحضارة العربية ، د. عبد السلام المسدي ، الدار
العربية للكتاب ، الطبعة الثانية ١٩٨٦ م.
- ٦٥ - تلخيص في البيان في مجازات القرآن ، السيد الشريف الرضي ، اعداد
مؤسسة نهج البلاغة ، نشر مؤسسة الطبع والنشر ، وزارة الثقافة
والارشاد القومي ، ايران ، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ .
- ٦٦ تلخيص كتاب العبارة ، الفارابي ، حققه د. محمود قاسم ، راجعه
وأكمله وقدم له وعلق عليه د. تشارلس بزوث ، و د. أحمد عبد المجيد
هريدي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨١ .
- ٦٧ - تنزيه القرآن عن المطاعن ، عبد الجبار بن أحمد الهمداني ، دار النهضة
الحديثة ، بيروت ، مصور عن الطبعة المصرية ، المكتبة الأزهرية ، مصر
١٣٢٩ هـ .
- ٦٨ - تنقيح الفصول في اختصار الحصول ، القرافي المالكي ، طبعة حجرية .
- ٦٩ - توطئة لدراسة علم اللغة (التعاريف) ، د. التهامي الراجحي الهاشمي ،
دار النشر المغربية ، الرباط ١٩٧٧ .
- ٧٠ - ثلاث رسائل في اعجاز القرآن (الرماني ، الخطابي ، عبد القاهر
الجرجاني) ، حققها وعلق عليها محمد خلف الله ، د. محمد زغلول
سلام ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الثالثة .
- ٧١ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، (تفسير الطبري) ، أبو جعفر
محمد بن جرير الطبري ، شركة مصطفى الباي الحلبي ، مصر ، الطبعة
الثالثة ١٣٨٨ هـ ، ١٩٦٨ م .

- ٧٢ - الجامع لأحكام القرآن ، (تفسير القرطبي) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القرطبي ، الطبعة الثالثة عن طبعة دار الكتب المصرية ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٣٨٧ هـ ، ١٩٦٧ م .
- ٧٣ - الجمل في النحو ، أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي ، حققه وقدم له د. علي توفيق الحمد ، مؤسسة الرسالة ، دار الأمل ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م .
- ٧٤ - جوهرة اللغة ، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آبار الدكن ١٣٤٥ هـ .
- ٧٥ - حاشية البناني على متن الجوامع لتاج الدين عبد الوهاب بن السبكي ، بهامشها تقرير شيخ الاسلام عبد الرحمن الشربيني ، طبع بمطبعة دار احياء الكتب العربية ، القاهرة .
- ٧٦ - حاشية السيد الشريف علي بن علي السيد زين الدين أبي الحسن الجرجاني ، على الكشف (حواشي الكشف) ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت .
- ٧٧ - حاشية حسن العطار في الاستعارات ، القاهرة ١٢١٢ هـ .
- ٧٨ - الحروف ، أبو النصر محمد الفارابي ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، دار الفكر ، بيروت ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م .
- ٧٩ - الحيوان ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، دار الفكر ، بيروت ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م .
- ٨٠ - الخصائص ، أبو الفتح عثمان بن جني ، حققه محمد علي النجار ، دار الهدى للطباعة والنشر ، بيروت .
- ٨١ - الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين ، د. محمد خير حلواني دار القلم ، حلب ١٩٧٤ .

- ٨٢ - دراسات في فقه اللغة ، د. صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٨ م .
- ٨٣ - دراسات في اللغة ، د. مسعود بوبو ، منشورات جامعة دمشق ، ١٤٠٣ - ١٤٠٤ هـ .
- ١٩٨٤ م - ١٩٨٤ م .
- ٨٤ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، وبهامشه القرآن الشريف مع كتاب تنوير المقباس ، بتفسير عبد الله بن عباس ، نشر محمد أمين دمج ، بيروت ، النسخة مصورة عن طبعة المطبعة الميمنية ١٣١٤ هـ .
- ٨٥ - دروس في الألسنية العامة ، دوسوسير ، تعريب صالح القرماوي ، محمد الشاوش ، محمد عجينة ، الدار العربية للكتاب ١٩٨٥ .
- ٨٦ - دلائل الإعجاز ، علد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر ، مكتبة الخالجي بالقاهرة ١٩٨٤ .
- دلائل الإعجاز ، تحقيق وتقديم د. رضوان الداية ، و د. فايز الداية ، دار قتيبة الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م .
- ٨٧ - دلالة الألفاظ عند الأصوليين ، د. محمود توفيق محمد سعد (دراسة بيانية ناقدة) مطبعة الأمانة ، مصر ، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ م .
- ديوان المتنبي : انظر شرح ديوان المتنبي .
- ٨٨ - الرسالة ، الامام محمد بن ادريس الشافعي ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، دار التراث ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٧٩ م .
- ٨٩ - رسالة الغفران ، أبو العلاء المعري ، تحقيق د. عائشة عبد الرحمن ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة السادسة ١٩٧٧ م .
- ٩٠ - رصف المباني في شرح حروف المعاني ، الامام أحمد بن عبد النور المالقي ، تحقيق أحمد محمد الخراط ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م .
- ٩١ - روح المعاني ، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمد الألوسي

- البغدادى ، ادارة الطباعة المنيرية ، القاهرة ، دار احياء التراث العربى ، بيروت .
- ٩٢ - الزينة في الكلمات الاسلامية العربية ، أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي ، عارضه بأصوله وعلق عليه حسين بن فيض الله الهمداني اليعبري الحرازي ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ١٩٥٨ م .
- ٩٣ - ميكولوجية اللغة والمرض العقلي ، د. جمعة سيد يوسف ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، العدد (١٤٥) ، ١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م .
- ٩٤ - سيويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، عالم الكتب ، بيروت .
- ٩٥ - شرح الأبيات المشككة الاعراب (المسمى ايضاح الشعر) ، أبو علي الفارسي ، حققه د. حسن الهندي ، دار القلم ، بيروت ، وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٨٧ .
- ٩٦ - شرح أشعار الهذليين ، صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري ، حققه عبد الستار أحمد فراج ، راجعه محمود شاكر ، مكتبة دار العروبة ، القاهرة .
- ٩٧ - شرح ديوان المتنبي ، عبد الرحمن البرقوقي ، المكتبة التجارية ، القاهرة .
- ٩٨ - شرح شافية ابن الحاجب ، رضي الدين محمد بن الحسن الاسرأبادي النحوي ، تحقيق محمد نور الحسن ، محمد الزفراف ، محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٣٩٥ هـ ، ١٩٧٥ م .
- ٩٩ - شرح شواهد شافية ابن الحاجب ، عبد القادر البغدادي ، تحقيق محمد نور الحسن ، محمد الزفراف ، محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٣٩٥ هـ ، ١٩٧٥ م .
- ١٠٠ - شرح لامية الأفعال ، بدر الدين محمد بن محمد بن عبد الله بن مالك (ابن الناظم) ، تحقيق وتقديم محمد أديب جبران ، دار قتيبة ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ ، ١٩٩١ م .
- ١٠١ - شرح المفصل ، موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش ، عالم الكتب ،

- بيروت ، مكتبة المتنبي ، القاهرة .
- ١٠٢ - شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٣٨٥ هـ ، ١٩٦٥ م .
- ١٠٣ - شروح التلخيص (القزويني ، التفتازاني ، ابن يعقوب المغربي ، بهاء الدين السبكي ، الدسوقي) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د. ت) .
- ١٠٤ - شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والاسلامي ، د. أحمد كمال زكي ، وزارة الثقافة ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٣٨٩ هـ ، ١٩٦٩ م .
- ١٠٥ - الشفاء (المنطق : المقولات ، العبارة) ، أبو الحسين عبد الله بن سينا
- المقولات : تحقيق مجموعة من الاساتذة باشراف د. ابراهيم مذكور ، القاهرة ١٩٥٩ ،
- العبارة : تصدير ومراجعة د. ابراهيم مذكور ، تحقيق محمود الخضيري ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٧٠ .
- ١٠٦ - الصحابي في فقه اللغة ، وسنن العربية في كلامها ، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق السيد أحمد صقر ، مطبعة عيسى الباسي الحلبي وشركاه ، القاهرة ١٩٧٧ .
- ١٠٧ - صحيح البخاري بشرح الكرمانلي ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ١٩٨١ .
- ١٠٨ - الصورة الأدبية ، د. مصطفى ناصف ، دار الأندلس ، الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م .
- ١٠٩ - ضحى الاسلام ، أحمد أمين ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الخامسة .
- ١١٠ - طبقات النحويين واللغويين ، أبو بكر الزبيدي ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ١٩٧٣ .
- ١١١ - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز ، يحيى بن حمزة العلوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

- ١١٢ - ظاهرة التأويل وصلتها باللغة ، د. السيد أحمد عبد الغفار ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية .
- ١١٣ - ظهر الاسلام ، أحمد أمين ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الخامسة .
- ١١٤ - ظواهر لغوية من المسيرة التاريخية للغة العربية قبل الاسلام ، د. عبد العال سالم مكرم ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٩ هـ ، ١٩٨٨ م .
- ١١٥ - العربية الفصحى المعاصرة ، دراسة في تطورها الدلالي من خلال شعر الأختل الصغير ، د. أحمد قدور ، الدار العربية للكتاب ، تونس ١٩٩١ .
- ١١٦ - العصر الاسلامي ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة ٩ - ، ١٩٨١ .
- ١١٧ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ، حققه وفصله وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجليل ، لبنان ، ط (٥) ، ١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م .
- ١١٨ - علم أصول الفقه ، عبد الوهاب خلاف ، الدار المتحدة ، دمشق ١٩٢٢ م .
- ١١٩ - علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة ، د. محمود فهمي حجازي ، المكتبة الثقافية (٢٤٩) ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠ م .
- ١٢٠ - عوامل التطور اللغوي (دراسة في نمو وتطور الثروة اللغوية) ، د. أحمد عبد الرحمن عباد ، دار الاندلس ، الطبعة الأولى ١٩٨٣ .
- ١٢١ - علوم البلاغة (البيان والمعاني والبديع) ، أحمد مصطفى المراغي ، دار القلم ، بيروت ، الطبعة ١٩٨٠ .
- ١٢٢ = عيار الشعر ، محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي ، تحقيق وتعليق : د. طه الهاجري ، ود. محمد زغبول سلام ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٥٦ .
- ١٢٣ - العين ، الخليل بن أحمد ، تح د. مهدي الخزومي ، و د. ابراهيم

- السامرائي ، بغداد .
- ١٢٤ - غاية الوصول شرح لب الأصول ، أبو يحيى زكريا الأنصاري الشافعي، طبع بمطبعة دار الكتب العربية الكبرى ، مصر .
- ١٢٥ - فتح الباري شرح صحيح البخاري ، شهاب الدين بن حجر العسقلاني، دار المعرفة ، بيروت ، مصورة عن طبعة بولاق ، مصر ١٣٠٠ هـ .
- ١٢٦ - الفروق في اللغة ، أبو هلال العسكري ، تحقيق لجنة التراث في دار الأوقاف الجديدة ، بيروت ، الطبعة الخامسة ١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م .
- ١٢٧ - فصول في فقه العربية ، د. رمضان عبد القواب ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٠ .
- ١٢٨ - فقه اللغة ، د. علي عبد الواحد وافي ، لجنة البيان العربي ، القاهرة ، الطبعة السادسة ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م .
- ١٢٩ - فقه اللغة المقارن ، د. ابراهيم السامرائي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٨ .
- ١٣٠ - فقه اللغة وخصائص العربية ، محمد المبارك ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٦٨ .
- ١٣١ - فقه اللغة وسر العربية ، أبو منصور السماعي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ١٣٢ - الفكر الاسلامي والفلسفة ، مجموعة من المؤلفين ، بإشراف د. علي سامي النشار ، مكتبة المعارف ، الرباط ، المغرب ، الطبعة الأولى ١٩٦٩ .
- ١٣٣ - الفلسفة الاسلامية وملحقاتها ، عمر رضا كحالة ، مطبعة الحجاز بدمشق ، ١٣٩٤ هـ ، ١٩٧٤ م .
- ١٣٤ - فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور ، د. رجاء عبيد ، منشأة دار المعارف ، الاسكندرية .
- ١٣٥ - فلسفة الفن في الفكر المعاصر ، د. زكريا ابراهيم ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .

- ١٣٦ - فلسفة المجاز بين البلاغة والفكر الحديث ، لطفي عبد البديع ، نشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٦ .
- ١٣٧ - في الشعر ، أرسططاليس ، مع الترجمة العربية القديمة ، وشرح الفارابي وابن سينا وابن رشد ، ترجمه عن اليونانية وشرحه وحقق نصوصه عبد الرحمن بدوي ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٣ .
- ١٣٨ - الفهرست ، ابن النديم ، تحقيق رضا تجدد ، طهران ١٩٧١ .
- ١٣٩ - فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت (في حاشية المستصفى من علم الأصول) ، دار صادر ، بيروت ، المطبعة الأميرية ، الطبعة الأولى ١٣٢٢ هـ .
- ١٤٠ - في أصول النحو ، سعيد لأفغاني ، مطبعة جامعة دمشق ، الطبعة الثالثة ١٣٨٣ هـ ، ١٩٦٤ م .
- ١٤١ - في علم اللغة العام ، د. عبد الصبور شاهين ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٠ هـ ، ١٩٨٠ م .
- ١٤٢ - في اللهجات العربية ، د. ابراهيم أنيس ، القاهرة ، الطبعة الثانية . ١٩٦٥ .
- ١٤٣ - القاموس المحيط ، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، تصحيح نصر الهوريبي .
- ١٤٤ - قانون البلاغة في نقد النثر والشعر ، أبو طاهر محمد بن حيدر البغدادي ، تحقيق د. محسن غياض عجيل ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤١٠ هـ ، ١٩٨١ م .
- ١٤٥ - القياس في النحو مع تحقيق باب الشاذ من المسائل العسكرية لأبي علي الفارسي ، د. منى الياس ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م .
- ١٤٦ - الكامل ، أبو العباس المبرد ، تحقيق محمد أحمد المدالي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٦ .
- ١٤٧ - الكافية في النحو ، ابن الحاجب ، شرح رضي الدين الاسترآبادي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

- ١٤٨ - الكشف عن حقائق التنزيل وغيون الأقاويل في وجوه التأويل ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزبحشري ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت .
- ١٤٩ - الكلبيات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) ، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي ، تحقيق ، د. عدنان درويش ، محمد المصري ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ١٩٨١ .
- ١٥٠ - لسان العرب ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري ، دار صادر ، بيروت .
- ١٥١ - اللسان والإنسان ، د. حسن ظاظا ، دار المعارف ، مصر ١٩٧١ .
- ١٥٢ - لطائف الإشارات ، الإمام القشيري ، قدم له وعلق عليه د. إبراهيم بسيوني ، مركز تحقيق التراث ، الهيئة المصرية للكتاب ، الطبعة الثانية ١٩٨١ .
- ١٥٣ - اللغات في القرآن ، رواية ابن حسون بإسناده إلى ابن عباس ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٢ .
- ١٥٤ - اللغة بين البلاغة والأسلوبية ، د. مصطفى ناصف ، كتاب الناصف الأدبي الثقاني بجدة (٥٣) ، ١٩٨٩ .
- ١٥٥ - اللغة بين المعيارية والوصفية ، د. تمام حسان ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب .
- ١٥٦ - اللغة العربية ، معناها ومبناها ، د. تمام حسان - الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ١٩٧٩ .
- ١٥٧ - ما جاء على فعلت وأفعلت بمعنى واحد مؤلف على حروف المعجم ، أبو منصور الجواليقي موهوب بن أحمد بن محمد بن الخطير ، حققه وشرحه وعلق عليه ماجد الذهبي ، دار الفكر ، دمشق ١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م .
- ١٥٨ - مباحث في علم المعاني ، د. محمد طاهر الحمصي ، منشورات جامعة البعث ١٩٩١ ، ١٩٩٢ .

- ١٥٩ - مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة ، د. ميشال زكريا ،
المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولى
١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤ م .
- ١٦٠ - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، أبو الفتح ضياء الدين نصر
الله بن محمد بن عبد الكريم (ابن الأثير) ، تحقيق محمد محي الدين عبد
الحميد ، شركة ومطبعة الباسي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٥٨ هـ ،
١٩٣٩ م .
- ١٦١ - انجاز في اللغة وفي القرآن الكريم بين مجوزيه ومانيه ، (عرض
وتحليل) ، د. عبد العظيم ابراهيم المطعني ، مكتبة وهبة ، القاهرة
١٩٨٥ .
- ١٦٢ - مجاز القرآن ، صنعة أبي عبيدة معمر بن المنشى ، عارض بأصوله
وعلق عليه محمد فؤاد سركين ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٥٤ .
- ١٦٣ - انجاز وأثره في الدرس اللغوي ، د. محمد بدري عبد الجليل ، دار
النهضة العربية بيروت ١٩٨٠ .
- ١٦٤ - محاضرات في علم النفس اللغوي ، د. حنفي بن عيسى ، الشركة
الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، الطبعة الثانية ١٩٨٠ .
- ١٦٥ - مدارس علم النفس ، د. فاخر عاقل ، دار العلم للملايين ، الطبعة
الأولى ، بيروت ١٩٦٨ .
- ١٦٦ - المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث الأدبي ، د. رمضان عبد
التواب ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، دار الرفاعي بالرياض ، الطبعة الأولى
١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٢ م .
- ١٦٧ - المدخل إلى فقه اللغة العربية ، د. أحمد قدور ، منشورات جامعة
حلب ١٤١٢ هـ ، ١٩٩١ م .
- ١٦٨ - مدخل إلى فلسفة الحضارة الانسانية أو مقال في الانسان ، أرنست
كاسيرر ، ترجمة د. احسان عباس ، و د. محمد يوسف لحجم ، دار
الأندلس ، بيروت ١٩٦١ .
- ١٦٩ - مدخل إلى اللسانيات ، رونالد ايلوار ، ترجمة د. بدر الدين القاسم ،

- منشورات وزارة التعليم العالي ، دمشق ١٤٠٠ هـ ، ١٩٨٠ م .
- ١٧٠ - مراتب النحويين ، عبد الواحد بن علي المعروف بأبي الطيب اللغوي ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار نهضة مصر ، الطبعة القانية ١٩٧٤ .
- ١٧١ - المرشد إلى آيات القرآن الكريم وكلماته ، عنى بمجمعه وتنسيقه وتدقيقه محمد فارس بركبات ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ١٣٧٧ هـ ، ١٩٥٧ م .
- ١٧٢ - المزهري في علوم اللغة وأنواعها ، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته وعلق حواشيه محمد أحمد جاد المولى ، علي محمد البحاوي ، محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة .
- ١٧٣ - المستصفى من علم الأصول ، الامام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي ، دار صادر ، بيروت ، المطبعة الأميرية ، مصر ، الطبعة الأولى ١٣٢٢ هـ .
- ١٧٤ - مشكل اعراب القرآن ، مكي بن أبي طالب القيسي ، تحقيق ياسين محمد السواس ، دار المأمون للتراث ، دمشق .
- ١٧٥ - مشكل الحديث وبيانه ، أبو بكر بن فورك ، تحقيق وتعليق موسى محمد علي ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م .
- ١٧٦ - المطول على التلخيص ، السعد التفتازاني ، طبعة مجربة .
- ١٧٧ - معاني القرآن ، سعيد بن مسعدة ، الأخفش ، دراسة وتحقيق د. عبد الأمير محمد أمين الورد ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م .
- ١٧٨ - معاني القرآن ، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء ، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٠ .
- ١٧٩ - المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث ، د. محمد احمد أبو الفرج ، دار النهضة العربية ، الطبعة الأولى ١٩٦٦ .

- ١٨٠ - المعتمد في أصول الفقه (الجزء الأول) ، أبو الحسن محمد بن علي بن الطيب البصري المعتزلي ، قدم له وضبطه الشيخ خليل الميس ، دار الكتب العلمية - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م .
- ١٨١ - المعجم الذهبي (فارسي ، عربي) ، د. محمد التونجي ، دار العلم للملايين ، بيروت .
- ١٨٢ - معجم المصطلحات العلمية العربية (الكندي ، الفارابي ، الخوارزمي ، ابن سينا ، والغزالي) ، صنفه وعلق عليه د. فائز الداية ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٠ .
- ١٨٣ - المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية ، د. جميل صليبا ، دار الكتاب اللبناني ، دار الكتاب المصري ١٩٧٩ .
- ١٨٤ - المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، نشر مجموعة من المستشرقين ، مطبعة بريل في مدينة ليدن ١٩٤٣ .
- ١٨٥ - معجم مقاييس اللغة ، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون ، مركز النشر ، مكتب الاعلام الاسلامي ١٤٠٢ هـ .
- ١٨٦ - المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم ، أبو منصور الجواليقي موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، مطبعة الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٦١ هـ .
- ١٨٧ - المعنى الشعري في التراث النقدي ، د. حسن طبل ، مكتبة الزهراء ، القاهرة .
- ١٨٨ - المغني في أبواب التوحيد والعدل ، املاء القاضي عبد الجبار الأسد آبادي ، الجزء (٥) ، (الفرق عبر الاسلامية) ، تحقيق محمود محمد الحضري ، مراجعة ، د. ابراهيم مذكور ، وطه حسين ، الجزء (١١) ، اعجاز القرآن ، تحقيق أمين الخولي ، المؤسسة المصرية لتعاملة للتأليف والأبناء والنشر ، القاهرة ١٩٦٥ .
- ١٨٩ - مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، جمال الدين بن هشام الأنصاري ،

- حققه وعلق عليه د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ، راجعه سعيد الأفغاني ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٩٦٨ .
- ١٩٥ - مفاتيح العلوم للخوارزمي ، نشر G . Van veoten
- ١٩١ - مفتاح العلوم ، أبو يعقوب السكاكي ، مطبعة مصطفى الباسي الحلبي ، الطبعة الأولى ، مصر ١٣٥٦ هـ ، ١٩٣٧ م .
- ١٩٢ - مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ ، د. ميشال عاصي ، مؤسسة نوفل ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨١ .
- ١٩٣ - المفصل في تاريخ النحو العربي (قبل سيبويه) ، د. محمد خير حلواني ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ ، ١٩٧٩ م .
- ١٩٤ - المقتضب ، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ، عالم الكتب ، بيروت ١٩٦٣ .
- ١٩٥ - مقتطفات من زجر النابج ، أبو العلاء المعري ، تحقيق د. أحمد الطرابلسي ، مطبوعات مجمع اللغة العربي ، دمشق ، الطبعة الثانية ١٩٨٢ .
- ١٩٦ - مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون ، دار القلم ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٧٨ .
- ١٩٧ - من تاريخ النحو ، سعيد الأفغاني ، دار الفكر ، الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ ، ١٩٧٨ م .
- ١٩٨ - مناهج البحث عند مفكري الاسلام ، د. علي سامي النشار ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٥ .
- ١٩٩ - منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجني ، تحقيق محمد الحبيب الخوجة ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، ١٩٦٦ .
- ٢٠٠ - منهاج الوصول إلى علم الأصول ، عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي ، تحقيق سليم شعبانية ، دار دائية للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ١٩٨٩ .

- ٢٠١ - منهج السالك إلى الفية ابن مالك ، (شرح الأشتوني) ، علي نور الدين بن محمد بن محمد بن عيسى الأشتوني ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ١٩٧٠ .
- ٢٠٢ - الموازنة بين الطائنين (الجزء الثالث ، القسم الأول) ، أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي ، دراسة وتحقيق د. عبد الله حمد محارب ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م .
- ٢٠٣ - الموافقات في أصول الشريعة ، أبو اسحاق الشاطبي ، دار المعرفة ، لبنان ١٩٧٥ .
- ٢٠٤ - الموسوعة الفلسفية العربية ، معهد الانماء العربي ، المجلد الأول ، الاصطلاحات والمعاجم ، رئيس التحرير د. معن زيادة .
- ٢٠٥ - الموشح (مأخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع عن صناعة الشعر) ، محمد بن موسى المرزباني ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٦٥ .
- ٢٠٦ - المولد في العربية (دراسة في نحو اللغة العربية وتطورها بعد الاسلام) ، د. حلمي بطل ، دار النهضة العربية ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ .
- ٢٠٧ - نظام الجملة عند اللغويين العرب في القرنين الثاني والثالث للهجرة ، د. مصطفى جطل ، منشورات جامعة حلب ١٩٧٩ ، ١٩٨٠ .
- ٢٠٨ - نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب في اللغة والأدب ، د. أجمد الطرابلسي ، مكتبة دار الفتح ، دمشق ، الطبعة السادسة ١٩٧٦ .
- ٢٠٩ - نظريات التعلم (دراسة مقارنة) ، تحرير جورج م ، غازوا ، وريمون جي كورسيني ، ترجمة علي حسين حجاج ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، العدد (٧١) ، ١٩٨٣ .
- ٢١٠ - النظريات اللسانية والبلاغية عند العرب ، (النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين) د. محمد

- الصغير بناتي ، دار الحدائث ، الطبعة الأولى ١٩٨٠ .
- ٢١١ - نظرية الأدب ، أوسن وارين ، ورينيه ويليك ، ترجمة محي الدين صبحي وحسام الخطيب . المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، دمشق ، الطبعة الثالثة ١٩٧٣ .
- ٢١٢ - نظرية اللغة في النقد العربي ، د. عبد الحكيم راضي ، مكتبة الخالجي بمصر ١٩٨٠ .
- ٢١٣ - نظرية المعنى في النقد العربي ، د. مصطفى ناصيف ، دار الأندلس ، الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ ، ١٩٨٢ م .
- ٢١٤ - النقد الأدبي الحديث ، د. محمد غنيمي هلال ، دار الثقافة ، دار العودة ، بيروت ١٩٧٣ .
- ٢١٥ - نقد الشعر ، قدامه بن جعفر . تحقيق كمال مصطفى ، مكتبة الخالجي ، القاهرة ط ٣ ١٩٦٢ .
- ٢١٦ - نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، الامام فخر الدين الرازي ، تحقيق ودراسة د. بكري شيخ أمين دار العلم للملايين ، بيروت ، دار مكتبة سومر ، حلب ، الطبعة الأولى ١٩٨٥ .
- ٢١٧ - النهاية في غريب الحديث والأثر ، الامام مجد الدين المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير ، تحقيق محمود محمد الطناحي ، وطاهر أحمد الزواوي ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٩ هـ ، ١٩٧٩ م .
- ٢١٨ - الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ابو الحسن علي بن عبد العزيز الشهير بالقاضي الجرجاني ، عني بطبعه وتصحيحه وشرحه أحمد عارفي الزين ، مطبعة العرفان ، صيدا ١٣٣١ هـ .
- الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، علي محمد البجاوي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٩٦٦ .



((الدوريات))

- جامعة البعث ، العدد التاسع ، أيلول ، ١٤١٢ هـ ، ١٩٩١ م .
- جامعة البعث ، حمص ،
- أعضاء لقضية النص ، سمير أحمد معلوف .
- حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، الحولية الحادية عشرة ، الرسالة السادسة والستون ، ١٤١٠ - ١٤١١ هـ ، ١٩٨٩ - ١٩٩٠ م .
- النظرية الاستبدالية للاستعارة ، د. محمد مسلم أبو القدوس .
- دراسات ، العدد (٥) ، خريف - شتاء ١٩٩١ ، كلية الآداب ، فاس ،
- المقام الخطابي والقمام الشعري في الدرس البلاغي ، د. محمد العمري .
- دراسات تاريخية ، الأعداد ٣٣ و ٣٤ أيلول و كانون الأول ١٩٨٩ م .
- ٣٧ و ٣٨ أيلول و كانون الأول ١٩٩٠ م .
- جامعة دمشق ، من تاريخ اللغة العربية ، د. مسعود بوبو .
- عالم الفكر ، الكويت ، المجلد العشرون ، العدد الثالث ، ١٩٨٩ م ،
- الدراسة الاحصائية للأسلوب ، بحث في المفهوم والإجراء ، سعد مصلوح
- العرب والفكر العالمي ، مركز الإنشاء العربي ، بيروت ، العدد العاشر ، ربيع ١٩٩٠ م ،
- لذة النص ، رولان بارت ، ترجمة محمد الرفراي ، ومحمد خير البقاعي .
- العرفان ، بيروت ، العدد الثاني ، المجلد السادس والسبعون ، ١٤١٢ هـ ، ١٩٩٢ م ،
- من الرواسب الأعرابية في لغة مصر ، د. عمر فروخ .
- نصول ، مجلد النقد الأدبي ، المجلد السابع ، العددان الثالث والرابع ،

- ابريل ، سبتمبر ١٩٨٧ م ،
- المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة ، د. تمام حسان .
 - اللسان العربي ، الرباط ، المجلد ^(١٦) ، الجزء الأول .
 - مجلة مجمع اللغة العربية ، دمشق ، المجلد ^(٥) ، ج ١ ، ١٩٨٠ م ،
 - المجلد ^(٦٣) ، ج ١ ، ١٩٨٨ م .
 - نهج الإسلام ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، دمشق ، العدد ^(١) ،
 - رمضان ، ١٤٠٣ هـ ، آذار ، ١٩٩٢ م ، السنة الثانية عشرة .
 - أثر لهجة هذيل في القرآن والقراءات ، سمير أحمد معلوف .



المراجع الأجنبية

_ Adictionary of Literary Tirms .

I . A . Guddon

_ Aristotle , Horace , Longinus classical literary Criticism

Pinguin Classics .

_ An Lntroduction to Linguistics .

Loreto Todd

Longman , york Press

_ Oxford Advanced . Learner . s Dictionary of Current
English , New Edition .

A.. S . H ornby .

_ Linguistics .

David Crystal , Penguin book , Reprinted , ١٩٧٧ .

_ Metaphor .

Terence Hawkes , Methuen& Co . Ltd .

_ New Horisons in Linguistics .

Edited by Thon Lyons , Apelican original Penguin books .

_ Generative syntax , P . ١١٥ .

Thon Lyon .

__ Longuag struture and Languag Function , P ١٤٠ . M . A
. K . Ltalliday .

_ Semantics . P ١٦٦ .

Manfred Bierwisch .

__ Generative Grammar and stylistic Analysis , P ١٨٥ .

I . P Thorne .

_ AL M awrid

قاموس المورد (المجلد الثاني عربي)

تأليف منير البعلبكي

دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٩ ، ١٩٧٥

المحتوي

٥	* مقدمة
١٣	* الفصل الأول : اللغة
١٥	دلالة اللغة وحدّها
٢٨	اللغة والكلام
٤٤	نشأة اللغة « مشكلة الوضع والمواضعة »
٤٦	أهمية دراسة نشأة اللغة للبحث اللغوي
٥٤	هوامش الفصل الأول
٦٧	* الفصل الثاني : الحقيقة اللغوية
٧١	فكرة الأصل في اللغة
٧٢	مفهوم الأصل
٨١	مفهوم الحقيقة اللغوية

٩٥	الحقيقة اللغوية والعلاقة بين الدال والمدلول
١٠٧	الحقيقة اللغوية في الألفاظ
١٢٦	الحقيقة اللغوية في التراكيب
١٤٨	هوامش الفصل الثاني
١٦١	* الفصل الثالث : حيوية اللغة ومظاهرها
١٦٣	من مظاهر حيوية اللغة
١٦٧	« النحت »
١٨١	التغير اللغوي والعوامل الاجتماعية والفكرية
٢٢٤	هوامش الفصل الثالث
٢٣٥	* الفصل الرابع : المجاز الأسلوبي
٢٣٧	فهم الكلام والنص
٢٤٨	طرائق فهم الكلام والنص
٢٦٨	الأسلوب والمجاز
٢٧٢	مفهوم المجاز الأسلوبي
٢٨٢	أصول المجاز الأسلوبي وجمالياته
٢٩١	الاتساع
٣٠١	التضمين

٣٠٥	التقديم والتأخير
٣١١	الحمل على المعنى
٣١٧	عناصر المجاز الأسلوبي وقيمه
٣٢٤	هوامش الفصل الرابع
٣٤٥	* الفصل الخامس : المجاز اللغوي
٣٤٧	من المجاز الأسلوبي إلى المجاز اللغوي
٣٩٩	المجاز اللغوي لدى المفسرين اللغويين
٣٩٨	المجاز اللغوي بعد الجاحظ
٤٢٢	مفهوم المجاز لدى الأصوليين
٤٣١	قواعد المجاز
٤٣٨	النقل والاستعارة
٤٤٣	المجاز العقلي
٤٤٤	القرينة والعلاقات
٤٤٧	هوامش الفصل الخامس



أحمد معلوف ، د. سمير ، حيوية اللغة بين الحقيقة والمجاز ،
دراسة ،

الطبعة الأولى ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ،

٥١٣ ص ، قياس ١٧×٢٥ سم

*

مطبعة اتحاد الكتاب العرب

١٩٩٦/٩/٢٠٠٠



هذا الكتاب

يبدو الباحث ، المؤلف في هذا الكتاب ، واعياً
بأن نظرية المجاز كانت عامة لدى العرب ، غير
مقصورة على النحويين والبلاغيين والأدباء لأن علماء
أصول الفقه والفلسفة قدموا نظرات سديدة فيها
تكمل نظرية المجاز ، وتقودها إلى التكامل ..
إن هذا الكتاب جديد في بابه ، ومهم ، ومفيد
للنقد والأدب للعاملين في المقل اللغوي على حد
سواء .

ثمن النسخة ٢٥ ل.س في القطر
٣٥ ل.س في أقطار الوطن العربي

مطبعة اتحاد الكتاب العرب
دمشق